

الصلوة أبو بكر

لو كنت متخذاً من العبادِ خليلاً
لأخذتُ أبا بكرٍ خليلاً.
حديث

محمد بن عبد الله

الطبعة الحادية عشرة



دارالمحارف

الصَّالِقَاتُ
أَبُو بَكْرٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ . إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ
نَسْتَعِينُ . اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ
. صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ
غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ .

سجل المراجع

المراجع العربية

- الجامع لأحكام القرآن : لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي .
جامع البيان في تفسير القرآن : لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري .
تاريخ الرسل والملوك : لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري .
تاريخ اليعقوبي : لأحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح الكاتب العباسي .
سيره سيدنا محمد رسول الله : لأبي محمد بن عبد الملك بن هشام .
الطبقات الكبير : لمحمد بن سعد كاتب الواقدي .
تاريخ ابن خلدون : لعبد الرحمن بن محمد بن خلدون .
الكامل في التاريخ : لعز الدين أبي الحسين علي محمد بن أبي الكرم الشيباني المعروف بابن الأثير .
وقيات الأعيان : لابن خلكان ، شمس الدين أبي العباس أحمد بن إبراهيم بن علي بن أبي بكر الشافعي .
فتوح البلدان : لأحمد بن يحيى بن جابر البلاذري .
فتوح الشام : لمحمد بن عمر الواقدي .
فتوح الشام : لأبي إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي البصري .
الفتوحات الإسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية : للسيد أحمد بن السيد زيني دحلان .
الأغاني : لأبي الفرج الأصفهاني ، علي بن الحسين القرشي الأموي .
الإمامة والسياسة
عيون الأخبار
المعارف
الإعلام بأعلام بيت الله الحرام : لقطب الدين محمد بن أحمد المكي الحنفي المعروف بالنهراني .
مروج الذهب ومعادن الجوهر : لأبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي .
الإتقان في علوم القرآن : لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي .
كتاب المصاحف : لأبي داود الحافظ أبي بكر عبد الله بن أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني .
تاريخ القرآن : لأبي عبد الله الزنجاني .
أشهر مشاهير الإسلام : للسيد رفيق العظم .
بيت الصديق : للسيد محمد توفيق البكري .
فجر الإسلام : للأستاذ أحمد أمين .
خلفاء محمد : للأستاذ عمر أبي النصر .
عمرو بن العاص : للأستاذ حسن إبراهيم حسن .
دائرة المعارف الإسلامية
دائرة معارف القرن العشرين : للأستاذ محمد فريد وجدي .

المراجع الأجنبية

Annals of the Early Caliphate	<i>By Sir William Muir</i>
Successors of Mahomet	<i>By Washington Irving</i>
The Early Caliphate	<i>By Maulana Mohammed Ali</i>
Mohammedanism	<i>By C. Snouk Hurgronje</i>
History of the Arabians	<i>By Abbé de Marigny</i>
The Arab Conquest of Egypt	<i>By Alfred J. Butler</i>
The Early Development of Mohammedanism	<i>By D.S. 'Margoliouth</i>
Essai sur l'Histoire des Arabes	<i>Par Caussin de Perceval</i>
Le Monde Musluman et Byzantin	<i>Par Gaudfruy-Demombynes</i>
Historians History of the World.	
Encyclopedia Britannica.	
Dictionnaire Larousse.	

تقديم

يؤرخ العالم الإسلامى كله بهجرة النبي العربى من مكة إلى المدينة .
والسر فى اختيار هذا الحادث العظيم مبدئاً للتاريخ الإسلامى أنه مبدأ نصر الله
رسوله على الذين حاربوا دعوته فى البلد الحرام ثم مكروا به ليقتلوه . وكان
المصدق أبو بكر هو وحده صاحب رسول الله فى هذه الهجرة . ولما مرض
رسول الله مرضه الأخير ، فلم يقو على الصلاة بالمسلمين : أمر أبا بكر أن يقوم
فى الصلاة بهم مقامه ، ولم يرض أن يقوم عمر بن الخطاب هذا المقام .

ولما اختار النبي أبا بكر ليصاحبه فى الهجرة . وليصلى بالمسلمين مكانته ،
لأن أبا بكر كان أول المسلمين إيماناً بالله ورسوله ، وأكثرهم فى سبيل إيمانه
تضحية . ولأنه حرص منذ أسلم على معاونة النبي فى الدعوة لدين الله وفى الدفاع
عن المسلمين ، ولأنه كان يؤثر النبي على نفسه ، ويقف إلى جانبه فى كل
موقف ؛ ثم إنه كان ، إلى قوة إيمانه ، من أدنى الناس إلى كمال الخلق ، ومن
أحب الناس إلى الناس وأكثرهم لفتاً لهم ومودة .

لا عجب ، وذلك بعض شأنه ، أن يبايعه المسلمون خليفة لرسول الله .
ولا عجب ، وتلك مواقفه ، أن ينصر الإسلام وينشر ظل الله فى الأرض ،
فيكون التاريخ له مبدأ التاريخ للإمبراطورية الإسلامية التى امتدت من بعد
فى الشرق وفى الغرب ، إلى الهند والصين فى آسيا ، وإلى مراكش والأندلس
فى أفريقية وأوربا ، وإلى وجهت الحضارة الإنسانية وجهة لا يزال العالم متأثراً
بها إلى اليوم .

ولقد جال بخاطرى ، منذ فرغت من كتابى « حياة محمد » و « فى منزل
الوحى » ، أن أقوم بدراسات فى تاريخ هذه الإمبراطورية الإسلامية ، وفى
أسباب عظمتها وانحلالها . ولما أغرانى بالتفكير فى هذا الأمر أن الإمبراطورية
الإسلامية كانت أثراً لتعاليم النبي العربى وسنته . أما وقد درست حياته صلى الله

ما أغرانى
بالتفكير فى
دراسة
الإمبراطورية

عليه وسلم ، ورأيت نتائج هذه الدراسة جديدة بأن تهدي الإنسانية طريقها إلى الحضارة التي تشهدها ، فإن في دراسة هذه الإمبراطورية وأطوارها ما يزيدنا قدراً للتأسي بالرسول وتعاليمه ، وما ييسر لنا حظاً جديداً من العلم بهذه الحياة الباهرة الجلال يزيد العلماء اقتناعاً بما دعوت إليه من إمعان البحث فيما تنطوي عليه من حقائق نفسية ، وأخرى روحية ، ما يزال العلم يقف بوسائله حائراً دونها ، لا يستطيع أن يثبتها بأدلتها ، ولا يستطيع مع ذلك أن ينفيها ، وهي من بعد قيام سعادة الإنسان في الحياة ومقوم سلوكه فيها .

وأغرائي بهذا التفكير كذلك ما أعتقد من أن معرفة الماضي هي وحدها التي تطوع لنا تصوير المستقبل وتوجيه جهودنا أثناءه إلى الغاية الجديدة بالإنسانية . فالماضي والحاضر والمستقبل وحدة لا سبيل إلى انفصامها . ومعرفة الماضي هي وسيلتنا لتشخيص الحاضر ، ولتنظيم المستقبل ؛ كما أن معرفة الطبيب ماضى مريضه خير وسائل التشخيص والعلاج .

والحاضر الذي تمخضت عنه الإمبراطورية الإسلامية يتناول بنوع خاص كل الشعوب التي تتكلم العربية ، وتؤمن لذلك بأنها تمتّ لأهل شبه الجزيرة بصلة ونسب . ومصر مركز الدائرة من هذه الشعوب : تمتد حوطاً فلسطين وسوريا والعراق إلى الشرق ، وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش إلى الغرب . ويتناول هذا الحاضر بنوع عام جميع الشعوب التي تدين بالإسلام في آسيا وأفريقيا وأوروبا . لا جرم وماضى الإمبراطورية الإسلامية يربط على الزمان هذه الأمم والشعوب كافة أن تكون دراسته موضع عنايتها جميعاً ، وأن يرى كل منها صورته إلى أربعمائة وألف سنة خلت ماثلة في هذه الدراسة ، وأن يتعرف من طريقها الأسباب التي أدت إلى ما أصاب هذه الصورة من شوه أو فساد ، وأن يلتمس الوسيلة من طريق هذا التعرف لرد الصورة إلى جلالها الأول وبهائها المضيء .

وإني لأفكر في هذه الأمور وفيما يتصل بها إذ رغب إلى جماعة ممن أبدوا الرضا عن « حياة محمد » أن أتناول حياة خلفائه الأولين بالبحث ، وأن أفرد لطائفة من أبطال المسلمين في العهد الأول تراجم مستفيضة ، أسجل في كل

واحدة منها سيرة واحد من هؤلاء الأبطال . ولئن أَرْضَى مطلب هؤلاء الأصحاب نفسى وتملق رضائى عنها لقد أشفقت عليها مما طلبوا ؛ فهو أمر يقصر دون إتمامه الجهد ، وتنوء بإحسانه جماعة متضافرة .

ما جعلنى أبدأ
بسيرة الصديق

وكانت الترجمة لعمر بن الخطاب ، مما أكثر الحديث فيه قوم رأوا سيرة الفاروق غرة فى جبين التاريخ الإسلامى . قلت عند ذلك فى نفسى : ومالى لا أبدأ بسيرة الصديق فأدرُسها وأعرضها على النحو الذى عرضت به « حياة محمد » ! لقد كان أبو بكر صفيّ محمد وتحليله ، وكان أكثر أصحابه اتصالاً به ، وكان لذلك أكثرهم تتبعاً لتعاليمه وامثالاً إياها . وهو بعد رجل رقيق الخلق ، رضى النفس ، وإليه ينتسب عشرات الألوف ومئاتها من المسلمين المنتشرين فى أنحاء الأرض . ثم إنه ، إلى رفقته ورقته ، هو الخليفة الأول ، وهو الذى أقر الإسلام حين حاول المرتدون من العرب أن يقوّضوا ركنه أو يثلموا مثنه ، كما أنه هو الذى مهّد للفتح والإمبراطورية . فلعلنى ، إذا وفقت لتدوين سيرته على النحو الذى أرجو ، أكون قد عبّدت الطريق لكتابة تاريخ هذه الإمبراطورية كله أو بعضه ، فأبلغ بذلك ما يريد الله أن أبلغه من هذا الغرض العظيم ، وأمهّد السبيل لمن شاء أن يتمه أو يأخذ فيه من جديد على نحو أدنى إلى الكمال .

ولو أتى قرّ بى الجهد عند سيرة أبى بكر لكفانى ذلك ولا غتبطت به . وحسبك أن تتلو ما حدث فى عهد الخليفة الأول لتسكن إليه وتستقر عنده . إن فيما رواه المؤرخون من وقائع هذا العهد لما ينطوى على عظمة نفسية تثير الدهشة ، بل الإعجاب ، بل الإكبار والإجلال ، وأخشى أن أقول إنها تدعو إلى التقديس . أنت لا ترى هذه المعانى مصوّرة فى أى من الكتب الأولى ؛ لكن روايتها للحوادث تبرّزها وإن لم تنطق بها ، وتجلوها بينة واضحة وإن لم تذكرها ولم تحدّث عنها .

فهذا الرجل الوديع السمع الأسيف السريع إلى التأثر وإلى مشاركة البائس فى بؤسه ، والضعيف فى ضعفه ، تنطوى نفسه على قوة هائلة لا تعرف التردد ولا الإحجام ، وعلى قدرة ممتازة فى بناء الرجال ، وفى إبراز ملكاتهم

ومواهبهم - وفي دفعهم إلى ميادين الخير العام ينفقون فيها كل ما آتاهم الله من قوة ومقدرة .

أين كانت هذه العبقورية التي انطوت عليها نفس أبي بكر أثناء حياة الرسول ؟

عدت بالذاكرة إلى سيرة أبي بكر قبل خلافته ، واستحضرت مواقفه من رسول الله ، فبدت لي في ثوب جديد من الجلال تحيط بها هالة من عظمة تواضعت إلى جانب عظمة الرسول وجلاله ؛ لكنها برزت أمامي بكل بهائها وجلالها حين قرنت صاحبها إلى سائر أصحاب رسول الله ومن اتبعه من المسلمين . فأين مواقفهم ، على جلالها وعظمتها . من مواقفه أول الرسالة ، وحين كانت قریش تنال رسول الله بالإساءة والأذى ، وحين كان حديث الإسراء - وأول الهجرة ، وفي مكافحة دسائس اليهود بيثرب ؟ ! ! إن كل موقف من هذه المواقف لكفيل وحده بأن يؤرخ لرجل وأن يثبت اسمه في كتاب الخلود . وعظمة أبي بكر مع ذلك هي العظمة الصامته التي تأتي أن تتحدث عن نفسها ، لأنها عظمة الروح وعظمة الإيمان الحق بالله وبما أوحى إلى رسوله صلى الله عليه وسلم .

ثم ماذا ! ! ثم إن رواية الحوادث في عهد أبي بكر تشهد له بحسن الرأي وبعد النظر . فهو حين يفكر في غزو الفرس وفي غزو الروم لأول ما اطمأن إلى موقف المسلمين من حروب الردة في بلاد العرب ، قد رأى في مبدأ المساواة الذي جاء الإسلام به قوة جديدة لا تستطيع فارس ولا تستطيع بزنطية أن تواجهها . فهذا المبدأ جذير بأن تهوى إليه نفوس الناس جميعاً في هاتين الإمبراطوريتين اللتين قامتتا على حكم الفرد وعلى نظام الطوائف وعلى التفاوت بين الناس . ليكون لكل من الإمبراطوريتين ما تشاء من عدد وعدة ؛ فإن فكرة المساواة والعدل أقوى من كل قوة . والحكم القائم على أساس هذه الفكرة جذير بأن يكسب الناس إليه ما كان الإنصاف أساسه . لذلك لم يصد أباً بكر عن غزو العراق وغزو الشام ما كان من اختلاف طائفة من كبار الصحابة معه في الرأي ، بل أمر بهذا الغزو مطمئناً إلى أن الله معينه وناصره . ولذلك نصح

حسن رأيه
وبعد نظره

إلى من بعثهم على رأس هذا الغزو أن يتمسكوا بالمساواة وبالإنصاف والعدل لا يحيدون عنها قيد أنملة .

تتجلى هذه المعاني واضحة كل الوضوح من خلال الحوادث التي رواها المؤرخون الأولون عن هذا العهد القصير العظيم الذي تولى الصديق فيه أمر المسلمين ، ويزيد ما كتبه المستشرقون بعض هذه المعاني وضوحاً بما أوردته كتبهم من ملاحظات ، وما حاولت أن تفسر به بعض الحوادث .

وهذه المعاني هي التي تجعل هذا العهد القصير خليقاً أن يفرد له سفر مستقل يصور ذاتيته الخاصة وتكوينه التام .

وأنا أقصد ما أقول حين أذكر أن عهد الصديق له ذاتيته الخاصة وتكوينه التام فهو ، على اتصاله بعهد الرسول قبله وبعهد عمر بعده ، يمتاز بطابع يشخصه . فعهد الرسول كان عهد وحى من عند الله ، أكمل الله به للناس دينهم ، وأتم عليهم نعمته ، ورضى لهم الإسلام ديناً . وعهد عمر كان عهد تنظيم للحكم الذي استقرت قواعده ، وللإمبراطورية التي تفتحت أبوابها . أما عهد أبي بكر فكان فترة الانتقال العصبية الدقيقة التي تربط بين هذين العهدين ، وتتميز مع ذلك عن كل منهما ، بل تتميز عن كل عهد عرفه الناس في تاريخ الحكم واستقراره ، وفي تاريخ الأديان وانتشارها .

في هذه الفترة الدقيقة صادفت أبا بكر صعاباً بلغت من الشدة أن أثارت مخاوف المسلمين جميعاً في أول عهده . فلما تغلب بفضل إيمانه عليها ، وأمدّه الله بالتوفيق والنصر فيما تلاها ، تولى عمر بن الخطاب سياسة المسلمين ، فدبر أمورهم ، وأقام بينهم عدلاً وطناً وقواعد ملكهم ، وجعل دول العالم تدين طاعة لسلطانهم .

أثارت الصعاب التي صادفت أبا بكر مخاوف المسلمين . ذلك لأن الوحدة العربية التي تمت في عهد الرسول لم تلبث أن اضطربت حين وفاته . بل لقد بدأت تُذر هذا الاضطراب قبل أن يختار الله رسوله إليه . تنبأ مسيلمة بن حبيب باليمامة وبعث رسله إلى النبي بالمدينة يقولون له إن مسيلمة نبي مثله ، « وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض ، ولكن قريشاً قوم لا يعدلون » .

تغلب على ما صادفه من صعاب

وتنبأ الأسود العنسي باليمن وادعى السحر ، وجعل يدعو الناس إليه خفية ، حتى إذا عظم أمره سار من الجنوب وطرده عمال محمد ، وتقدم إلى نجران ونشر في تلك الأصقاع سلطانه ؛ وبعث محمد إلى عماله باليمن كي يحيطوا بالأسود أو يقتلوه . هذا إلى أن العرب الذين آمنوا بالتوحيد ونبدوا عبادة الأوثان لم يدر بخاطر أحدهم أن تعقب وحدتهم الدينية وحدة سياسية ؛ بل إن كثيراً منهم راجعهم الحنين إلى عقائدهم الأولى ، فلم يلبسوا حين علموا بوفاة رسول الله أن ارتدوا عن دين الله ، وأن أعلن أكثر القبائل عدم الإذعان لسلطان المدينة ، وعدوا الزكاة إتاوة مفروضة فامتنعوا من أدائها .

استطارت هذه الثورة عقب وفاة الرسول في بلاد العرب جميعاً بسرعة مروعة كما تستطير النار في الهشيم . وبلغت أنباؤها أهل المدينة ممن حول أبي بكر بعد أن بايعوه ، فتولاهم الدهش واختلفوا ما يصنعون . وكان رأى قوم ، بينهم عمر بن الخطاب ، ألا يقاتلوا الذين منعوا الزكاة ما داموا يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . ولعلمهم أرادوا بذلك ألا يزيدوا عدد عدوهم فيتغلب عليهم ، ولم يعدهم الله ما وعد رسوله من النصر ، وليس ينزل الوحي على أحد منهم بعد أن اختار الله إليه خاتم الأنبياء والمرسلين . لكن أبا بكر أصر على قتال من منعوا الزكاة كما أصر على قتال من ارتدوا ، فكانت حروب الردة التي استطالت عاماً وبعث عام .

الثورة في بلاد
العرب وحروب
الردة

ولم تكن حروب الردة غزوات اشتبك فيها بضع مئين من جيش الخليفة وبضع مئين من خصومه ، بل كانت بعضها طاحنة اشترك فيها عشرات الألوف من كل جانب ، وقتل فيها المئات بل الألوف من هؤلاء ومن أولئك ، ثم كان لها في تاريخ الإسلام أثر حاسم . ولو أن أبا بكر نزل على رأى من لم يريدوا هذه الحروب لساد الاضطراب بلاد العرب ، ولما قامت الإمبراطورية الإسلامية . ولو أن جيوش أبي بكر لم تنتصر في هذه الحروب لكانت العاقبة أدهى وأمر ، ولتغير في الحالين مجرى التاريخ في العالم كله . لذلك لا يكون غالياً من يقول إن أبا بكر ، بموقفه من ردة العرب ، وبانتصاره فيها ، قد وجه تاريخ العالم ، وكان يد الله في بعث الحضارة الإنسانية خلقاً جديداً .

آثار انتصاره
في حروب الردة

فلولا انتصار أبي بكر في حروب الردة لما بدأ غزو العراق وغزو الشام ،
ولما سارت جيوش المسلمين مظفّرة تفتح الإمبراطوريتين الرومية والفارسية لتقيم
الإمبراطورية الإسلامية على أنقاضهما ، ولتُحِلَّ الحضارة الإسلامية محل
حضارتيهما . ولولا حروب الردة ، واستشهاد من استشهد من الصحابة لإحراز
النصر فيها ، لخيف ألا يسارع عمر فيشير على أبي بكر بجمع القرآن . وهذا
الجمع هو الذي أدى إلى توحيد القراءة بلغة مُصَرَّ في عهد عثمان ، فظل كتاب
الله الكريم أساساً ثابتاً لكلمة الحق ، ودعامة متينة للحضارة الإسلامية .
ولولا نصر الله المسلمين في حروب الردة لخيف ألا يقر أبو بكر بنظام الحكم في
المدينة ليقويه عمر من بعده على أساس من الشورى ، سداً للعدل والرحمة ،
ولُحِمت البر والتقوى .

هذه أحداث جليلة تمت في فترة قصيرة لم تعد سبعة وعشرين شهراً .
ولعل قصر هذه الفترة هو الذي دعا بعضهم إلى أن يتخطاها إلى عهد عمر ،
ظناً منهم أن أشهراً معدودات لا تتسع لعظائم تغير وجه العالم . ولو أن هؤلاء
ذكروا أن الثورات التي نقلت الإنسانية أطواراً تمت كلها في مثل هذه الفترة ،
وأن العالم جعل يمثل مبادئ هذه الثورات بعد ذلك شيئاً فشيئاً ويفيد منها
لرقى الإنسانية في توجهها إلى الكمال ، لما سارعوا إلى الانتقال من عهد الثورة
الروحية التي أعلنها رسول الله في العالم كله إلى الإمبراطورية المترامية الأطراف
التي دانت لهذه الثورة ، دون أن يقفوا ملياً عند هذه الفترة التي حاول العرب
فيها أن يقوموا برد الفعل في وجه ما جاء محمد به ، شأنهم في ذلك شأن الناس
في كل زمان ومكان ، إذ يحاربون المبادئ الجديدة ، يحاولون إطفاء نورها .
وبأبي الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون .

اتصال عظمته
في الخلافة
بعظمته في
الصحبة

كيف استطاع أبو بكر أن يواجه الصعاب التي استفتحت عهده ، وأن
يثبت لها ويتغلب عليها ، وأن يبدأ التمهيد للفتح وللإمبراطورية وهذه الصعاب
قائمة ؟ لقد كان لصفاته الذاتية أثر كبير في ذلك لا ريب . لكن هذه الصفات
وحدها ما كانت لتبلغ به ما بلغ لولا صحبته الرسول عشرين سنة كاملة . ولذا
يُجمع المؤرخون على أن عظمة الصديق في خلافته تتصل بعظمته في صحبة

الرسول أوثق اتصال . فهو قد أُشرب أثناء هذه الصحبة روح الدين الذي جاء به محمد ، وأدرك مقاصده وأغراضه كاملة إدراك إلهام لا يتطرق إليه الخطأ ولا الريب . وما أُشربه وأدركه بإلهامه أن الإيمان قوة لا يغلبها غالب ما تنزه المؤمن عن كل غرض إلا ابتغاء الحق لوجه الحق وحده . هذه حقيقة روحية أدركها كثيرون في عصور شتى . لكنهم أدركوها بعقولهم . أما أبو بكر فأدركها بقلبه ، ورآها بعينه ماثلة في رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي عمله .

أثر التأسي فيه
وما استلهمه

وهذا الإيمان الصادق بالحق هو الذي دفعه ليخالف أصحابه في أمر المرتدّين ، ويُصرّ على قتالهم وإن خرج إليهم وحده . وما له لا يفعل وقد رأى النبي يقف وحيداً يدعو إلى الله بمكة فيخالفه أهل مكة جميعاً ، ثم يغرونه بالمال والملك وعظمة الجاه ، ثم يحاربونه يبتغون بذلك أن يصدوه عن الحق الذي يدعو إليه . فلا يفتر عن أن يقول : « والله لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري ، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ، ما تركته ! » . وما له لا يفعل وقد رأى النبي في أعقاب أُحُد ، وبعد أن انتصرت قريش على جيوش المسلمين فيها ، يرتدّ لغذه فيمن بقي من المسلمين ممن شهد أُحُد ، ويتعقب قريشاً ، وينزل حمراء الأسد ويقم بها ثلاثة أيام . يوقد النار طول ليله ، حتى تزعزعت همة قريش وانصرفت إلى مكة ، وقد استرد المسلمون من مكانتهم ما زعزعتهم أُحُد !

ثم ماله لا يفعل وقد رأى النبي يقف صبحُ حنين في عدد قليل من أصحابه ينادي في جيش المسلمين إذ يولون الأدبار : « أين أيها الناس ، أين ! » ، وهذه الألوف المؤلفة تفرّ تولّاها الفرع . فلما عرف الناس موقف النبي وسمعوا نداء العباس : « يا معشر الأنصار الذين آوّا ونصروا ، يا معشر المهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة ، إن محمداً حيٌّ فهلموا » . تصايحوا من كل جانب : « لبليك ، لبليك » ، وارتدوا إلى المعركة مستبسلين !

أى تأسٍ كهذا التأسي يُلهم المرء أن الإيمان قوة لا يغلبها غالب ما تنزه المؤمن عن كل غرض إلا ابتغاء الحق لوجه الحق وحده ! ! وأى رجل له من الإيمان ما لأبي بكر لا يضاعف تأسيه بالرسول قوة نفسه فيجعله من عناصر الوجود الحاسمة القاهرة . هذه هي القوة الروحية التي لا سلطان لشيء في الحياة عليها ،

والتي لا تعرف الضعف ولا التردد ، ولا يغلبها لذلك غالب !

وهذه الأسوة الروحية التي التمسها أبو بكر في رسول الله . والتي جعلت للمسلمين الغائب على المرتدين من سائر العرب . قد دفعت إلى نفوس المسلمين جميعاً حمية سمت بهم إلى الإيمان بأنهم لا غالب لهم من دون الله . وحببت إليهم الاستشهاد في سبيل الحق ، وجعلتهم يرون هذا الاستشهاد نصراً دوله كل نصر . وأنت ستقرأ في هذا الكتاب من آيات ذلك ما قلّ في التاريخ نظيره . لقد كان المسلمون في عهد رسول الله مطمئنين إلى النصر ؛ لأن الله وعد به رسوله . فكان يمدّه بالملائكة . وكان يوحى إليه ما يحقق وعده جل ثناؤه . أما في عهد أبي بكر ، وقد انتهى الوحي باختيار الله لإليه رسوله ، فقد أصبح الإيمان وحده ، وأصبح التأسى برسول الله وبخليفته في السمو بهذا الإيمان إلى ما فوق كل اعتبار في هذه الحياة الدنيا ، وأصبح الاستشهاد في سبيل هذا الإيمان . سرّ القوة ، وسر النصر ، وسر الرقي بما تنطوى عليه نفوسنا من معان إنسانية رفيعة إلى غاية الكمال الإنساني .

هذه حقيقة روحية استلهمها الصديق من تأسيه بالنبي ، فجعلتها لنا أعمال المسلمين في خلافته وبتوجيهه على نحو من الوضوح يجعلنا نلمسها وكأنها أمر مادي تقع عليه الحواس بمقدار ما تمثله الروح ونحن نلمس هذه الحقيقة الروحية في حروب الردّة كما نلمسها في فتح العراق وفي فتح الشام . فلولا هذا الإيمان ما استطاع المسلمون ، على قلتهم ، أن يُتموا في عهد الخليفة الأول ما تم من جلائل الأعمال ، وما مهّد للإمبراطورية الإسلامية العظيمة .

وقد استلهم أبو بكر من تأسيه بالرسول ، إلى جانب هذه الحقيقة الروحية ، حقيقة اجتماعية بعيدة الأثر في حياة الأمم . فكل أمة تعتزّ بنفسها ، وتطمئن إلى قوتها ، وتشعر بأن عليها رسالة واجبة الأداء للعالم ، وبأن العالم يجب أن يسمع لهذه الرسالة — مثل هذه الأمة لا يقف في سبيلها سلطان وإن عظم ، ولا تصدها عن أداء رسالتها قوة من القوى .

وتضافر هاتين الحقيقتين ، الروحية والاجتماعية ، قد كان في كل العصور

القوة الروحية
للإيمان

الحقيقة الاجتماعية
بعد الحقيقة
الروحية

والأهم أساساً لفوز الشعوب التي تندفع متأثرة بسلطانها ولنجاح الرسالة التي تدعو هذه الشعوب لها .

والأمر كذلك بخاصة إذا قامت هذه الرسالة على أساس من الدعوة إلى نيل الظلم ، والحرص على عدل قوامه المساواة الصحيحة بين الناس . ولطالما قامت إمبراطوريات على هذا الأساس في مختلف حقب التاريخ ، ولطالما تداعت إمبراطوريات بعد قيامها لأنها حادت عن هذه الطريق ، فاتخذت خصوصها انحرافها عنها وسيلة لناواتها ومقاومتها .

والمساواة سدى الإسلام ، وهو لذلك إمبراطورية اللّحمية . هذه حقيقة ندركها اليوم بعقولنا كما أدركها كثير من سبقونا بعقولهم ، ثم لم يستطيعوا ولم نستطع أن نحفظ بالإمبراطورية الإسلامية في العالم لظروف خاصة بنا أو خارجة عن إرادتنا . أما أبو بكر فأدركها بإلهامه وآمن بها عن يقين ، فدفع المسلمين لتنفيذها ، فأقروها في العالم فاستقرت أجيالاً وقرونًا .

أدرك وآمن أن
الإسلام دين
المساواة

أدرك أبو بكر بإلهامه أن الإسلام في صفاء جوهره دين مساواة بين الناس جميعاً . فالدعوة به لم توجه إلى قوم بعينهم ، وإنما وجهت إلى الناس كافة . وقد اصطفى رسول الله في حياته موالى رفعهم إلى أعز مكانة وأسماءها ، كما أقر جماعة من العجم على حكم العرب . فسلمان الفارسي كان من خاصته المقربين . وزيد بن حارثة ، مولاه الذي اشترته خديجة ثم وهبته له فأعتقه وتبناه ، كان القائد في غزوة مؤتة كما كان على رأس أعمال كثيرة قبلها . وأسامة ابنه هو الذي عقد له رسول قبيل مرضه الأخير لواء جيش يضم جيلة المهاجرين والأنصار ، ومن بينهم أبو بكر وعمر ؛ وقد أقر صلى الله عليه وسلم بازان الفارسي على حكم اليمن . ولم يكن الناس يتفاوتون عند رسول الله لعروبته ولا لمكانة قبائلهم ، وإنما كانوا يتفاوتون بأعمالهم . وكان من أصحاب مشورة رسول الله ومن أولى الرأي بين المسلمين شبان أبرزهم إلى الصف الأول حسن إيمانهم وجميل بلائهم في سبيل الله . وكانت سيرة رسول الله هذه بعض ما أمر الله به في كتابه ، إذ فاضل بين الناس بالتقوى ، وإذا جعل جزاءهم رهنًا بعملهم ، وإذا رفع بعضهم فوق بعض درجات بهذا العمل وهذه التقوى . لا جبرم ، وتلك سنة

رسول الله، أن يخفف العرب من غُلُوء نُعْرَتِهِم الجنسية، وإن أقاموا على اعتزازهم بها ، وإن جعلوا اصطفاء الله نبيه من بينهم حجتهم على سمو مكانتها ولا جَرَمَ أن يتخذ أبو بكر من هذه المساواة الإسلامية بين الناس وبين الأجناس سنَّته ، فتكون القوة التي تنهزم أمامها جيوش الفرس وجيوش الروم .

وأن الإسلام
إمبراطوري في
جوهره

وأدرك أبو بكر بإلهامه أن الإسلام إمبراطوري في جوهره ؛ فالدعوة إليه لم تنحصر في العرب ، بل هي دعوة إلى الحق موجهة إلى الناس كافة في مشارق الأرض ومغاربها . أما وذلك مداها ، وقد وجه النبي رسله إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى دين الله ، فحق على كل من آمن بهذا الدين أن يدعو إليه ، وأن ينشر كلمته هدى للناس ورحمة . ولكل مسلم في رسول الله أسوة حسنة . لقد أذاع رسول الله الدعوة في الناس على اختلاف أجناسهم . فليُنشر خلفاؤه هذه الدعوة في أنحاء الأرض جميعاً ، وليجاهدوا في سبيل حريتها ، لا يستكرونها أحداً ولا يقبلون من أحد أن يصدِّم عن الحق الذي اهتموا إليه . وليجعلوا العالم كله ميدان دعوتهم إلى هذا الحق وإن أصابهم في سبيل الله ما أصابهم ؛ فإن استشهدوا فلهم عند الله جزاء الشهداء .

هذه المبادئ الجهورية التي قامت دعوة النبي العربي على أساسها ، والتي أدركها أبو بكر أدق الإدراك بإلهامه لِمَا كان من صحبته رسول الله وتشبيعه بتعاليمه ، هي التي طوَّعت للصدِّيق أن يذل ما استفتح عهده من صعاب وأن يتغلب عليها ، وهي التي أسرعت بالإمبراطورية الإسلامية إلى أنحاء العالم وأظلت أمماً كثيرة منه بلوائها . ولقد ظلت هذه الأمم أجيالاً متعاقبة ناهضة بعبء الحضارة في العالم ، ثم أدركها الهرم الذي يدرك الأمم والإمبراطوريات ؛ ثم تولتها السنَّة الطويلة التي تقابل موت الأفراد .

إلام يرجع
ما أصاب
الإمبراطورية
الإسلامية من
انحلال ؟

أف يرجع هذا الهرم ثم هذه السنَّة الطويلة إلى أن المبادئ الجهورية تبين فسادها ، أم يرجعان إلى أن الأمم التي انحلت عن الإمبراطورية الإسلامية جمحدت هذه المبادئ وأخذت بنقيضها فأصابها الهرم والاضمحلال بصنيعها ؟! ذلك كل تاريخ الإمبراطورية الإسلامية في قيامها وعظمتها وتدهورها . وهو

تاريخ جدير بأن يدون على طريقة من البحث العلمى الوثيق الذى لا يعرف التعصب ولا يرضاه ، والذى يرمى إلى تحليل الحوادث وردّها إلى أسبابها تحليلًا يقره العقل ويتفق لذلك وما ركب فى الطبيعة الإنسانية من نزوع روحى إلى الكمال ، ومن تشبث مع ذلك بأهداب هذه الحياة الدنيا تدعوننا إليه أهواؤنا وشهواتنا ، فتحول بيننا وبين إدراك الغاية التى نبغى من هذا الكمال .

لا أراى فى حاجة إلى أن أقول إن هذا الهرم وهذه السنّة يرجعان إلى جمحود الأمم التى انحلت عن الإمبراطورية الإسلامية للمبادئ الجوهرية التى قامت هذه الإمبراطورية على أساسها ، مبادئ الإسلام فى صفاء جوهره . ذلك أمر يلمسه المحقق المنصف لتاريخ هذه الإمبراطورية ويراه فى أطواره المتصاة منذ بدأ الخلاف بين المسلمين من أهل شبه الجزيرة إلى أن جسّمت الفُرقة بين العرب والعجم شقة هذا الخلاف وفتحت به الأبواب واسعة للتدهور والانحلال .

ليس يتسع هذا التقديم لتفصيل هذا الأمر ولا لإجماله . فحسبى هذه الإشارة إليه . ولأقف هنا فى حدود العهد القصير العظيم ، عهد الصديق أبى بكر . ولأسجل ما كنت أشعر به من فيض المسرة حين تأريخى له . وأكبر رجائى أن أكون فيما كتبت عنه قد أرضيت فى نفسى حب الحق ، وبلغت بعض ما أردت من رسم الصورة التى حاولتها دقيقة ، فيها من الحياة ما يبعث الماضى مجلواً على صفحة الحاضر . وأقول بعض ما أردت ، لأننى كنت أحس دائماً أن هذه الصورة ينقصها شيء غير قليل من الكمال لم يتسن لى أن أصل إليه لأسباب مختلفة .

غبطى بتأريخى
للصديق

وإننى لتُضاعف غبطى لو أن كتابى هذا نقل إلى نفس قارئه صورة واضحة من عهد الصديق خليل النبى العربى وصفية . قد يشوب مطعمى هذا بعض الغلو . فلعهد الصديق ، كما قدمت ، صورة خاصة تامة التكوين يستشفها الإنسان من خلال ما كتب عنه ويتصورها فى كمال بهائها . لكن البلوغ بصورة ما حدّ الكمال محتاج إلى جهد متصل يتعاقب على الأجيال ، ويتناوله التمحيص من نواحيه المختلفة . ولم يبدل من الجهد فى أمر الصديق وعهده ما يدنى من هذا الكمال ؛ فهو لا يزال مفتقراً إلى جهود جديدة يتضافر فيها

حاجة عهده
إلى الجهود
لاضطراب
المراجع فيه

البحث والتمحيص مع الموازنة بالعصر الذى عاش الصديق فيه . وبجياة الأمم صاحبة الأثر فى هذا العصر . ولست فى ريب من أن هذه الجهود ستبذل عما قريب ، وستعاون على تمام الصورة التى تظهر هذا العهد واضحاً ، مجلوة بيئة تفاصيله .

وعهد الصديق أحوج إلى هذا الجهد من غيره من العهود . فالمراجع العربية القديمة التى تتحدث عنه يشوبها اضطراب يجعل تتبع الحوادث المروية فيها عسيراً بعض الأحيان كل العسر . ثم لأنها كثيراً ما تثبت روايات هى أدنى إلى الخرافة منها إلى التاريخ . وقد يجد الإنسان فى موازنة بعض هذه المراجع ببعض ما يعينه على تمحيص الحوادث ، لكنها تتواتر روايتها أحياناً لحوادث يقف الإنسان منها موقف الحيرة . فلا يسعه إلا أن يثبتها مع الإشارة إلى ما يخالجه من الريبة فيها .

عذر المؤرخين
عمائى رواياتهم
من اضطراب

ولإنى لأجد للمؤرخين الأولين أبلغ العذر عما شاب رواياتهم من اضطراب كان له أثره فى جهود من بعدهم إلى عصرنا الحاضر . فهذه الفترة التى تولى الصديق فيها أمر المسلمين كانت فترة جهاد أى جهاد ، حمل فيها كل من آمن بالله ورسوله عبثاً عظيماً لتأييد الدعوة إلى دين الله وما جاء به رسوله من عنده . اندفع هؤلاء جميعاً إلى ميادين النضال ، يجاهدون فى سبيل الله ، يَمُوتُونَ وَيُقْتَلُونَ ، مستهينين بالحياة ونعماتها ، مؤثرين بالبأساء ، صابرين على الضراء ، واهبين أنفسهم لله ، لا يبتغون عن جهادهم أجراً إلا مثوبته جل شأنه . لم يكن يوم من أيامهم ينقضى فى طمأنينة أو أمن . ولم يكن أحد منهم يفكر فى أمسه لأن غده يطالبه بأكثر مما عمل فى ذلك الأمس . لذلك لم يفرغ أحد لتدوين ما حوته هذه الفترة من جسام الحوادث تدويناً منظماً ، وإنما تناقل الناس من بعد أنباءها يرويها بعضهم لبعض ، ويتناقلها بعضهم عن بعض ، ثم لا يروونها ويتناقلونها بمثل ما يروون به ما حدث فى عهد الرسول من تقديس وإجلال . وكيف يفعلون وقد كانوا فى شغل متصل بالفتح وتنظيم الإمبراطورية التى تزداد كل يوم فسحة وسعة !! لذلك كان لابد لمؤرخ هذا العهد من تقليب الروايات وموازنتها واقتناص الحقيقة من خلالها . وهذا جهد شاق

حاوله الأقدمون على طريقتهم . ومع تقديرنا لجهدهم ولا كبارنا لشأنهم ، فإنهم لم يُبرزوا عهد الصديق وحكمه في صورة يجلو وضوحها ما انطوى عليه من قوة تقف النظر وتبهر اللب وتثير في النفس غاية الإعجاب .

وحسبك أن ترجع إلى سجل المراجع التي أخذنا عنها هذا الكتاب ، وأن تتلو فصوله لتقدر مبلغ الدقة فيما نقوله عن المتقدم منها . فبعض هذه المراجع لا يتعرض ، إلا لما ، لأمر جليلة الخطر ترويه المراجع الأخرى مفصلة أدق التفصيل . فالطبري وابن الأثير والبلاذري لا يكادون يتعرضون لجمع القرآن ؛ وجمع القرآن من جلائل الأعمال التي ازدان بها عهد الصديق ، إن لم يكن أجلاً . وما يتعرض له هؤلاء المؤرخون من رواية الحوادث عن حروب الردة وعن فتح العراق ثم فتح الشام يقع عليه الخلاف بينهم ، بل ترد الروايات المختلفة في أمره في الكتاب الواحد من كتبهم ، حتى ليحار الإنسان أي الروايات يأخذ وأنها يدع . والخلاف على الزمن الذي حدثت فيه الوقائع لا يقل عن الخلاف في تصوير الوقائع جساماً . وكثيراً ما يكون تحديد التاريخ لبعض هذه الوقائع مغامرة لا تستند إلى أساس يمكن الاعتماد عليه في شيء من الدقة . ونسبة بعض الحوادث إلى بعض محير كذلك . فالطبري يروي أن حروب الردة وقعت في السنة الحادية عشرة للهجرة ، وأن فتح العراق تم في السنة الثانية عشرة ، وأن فتح الشام تم في السنة الثالثة عشرة . وأنت تكاد تظن إذ تقرأ هذا التعاقب الزمني أن فتح العراق لم يبدأ إلا بعد الفراغ من حروب الردة ، وأن فتح الشام لم يبدأ إلا بعد أن استقر الأمر في العراق . لكن شيئاً من التدقيق في مراجعة الحوادث وقوعها لا يلبث أن يحملك على الريبة في هذا التعاقب . فإذا زدت في التدقيق تبين أن فتح العراق بدأ وحروب الردة لا تزال قائمة ، وأن فتح الشام بدأ في أعقاب حروب الردة وجيوش خالد بن الوليد لا تزال تعالج إقرار السكينة في العراق وتتوقع غزوات فيه جديدة .

من أمثلة
الاضطراب في
المراجع

تعدر تتبع
الحوادث في
تسلسلها
التاريخي

ولا يقف مثار الحيرة عند هذا ، فكثيراً ما يتعدر تتبع الحوادث في تسلسلها الجغرافي . بل إن بعض الروايات ليتنافى مع هذا التسلسل . دع عنك تغير أسماء الأماكن وما في تشابه بعضها من مثار جديد للحيرة . ولقد طبع بعض المستشرقين

وفي تسلسلها
الجغرافي

خرائط الإدريسي القديمة كما رسمها ، وشفعوها بخرائط رسموها على النحو المؤلف لنا ، فسهّل ذلك علينا معرفة الأماكن ومواقع بعضها من بعض . ولئن يسّر ذلك لنا أن نحقق ما كان عسيراً تحقيقه فيما مضى ، لقد أثار الريب في بعض الروايات حتى ليتعذر تصديقها . لذلك وقف بعض المؤرخين لعهد أبي بكر مترددين لا يتكادون يصدقون ما يقرءون . وكأنما صرف ذلك كله غير واحد ممن أرادوا التأريخ للإسلام عن التصدي لهذه الأمور ، فاكتفوا من عهد أبي بكر بإلمامات لا تصوره صورة كاملة تبرز كل ما لهذا العهد من جلال ، وما له في تاريخ الإسلام وفي قيام الإمبراطورية الإسلامية من أثر حاسم .

أضف إلى هذا الاضطراب في المراجع أنها لا تتحدث عن الصديق أيام خلافته ما تتحدث عن خالد بن الوليد وعن القواد الذين دخلوا الشام وأقاموا به حتى جاءهم خالد من العراق ففتح وإياهم دمشق وهدم بعقريته الحربية كل قوة معنوية للروم . وأنت إذ تقرّ هذه المراجع يكاد يخيل إليك أن أبا بكر قد أقام بالمدينة لا يشغله أمر عن العبادة . وهذا خطأ فاحش . فكل ما تم في عهد الصديق كان الصديق روجه ومصدره . أشرنا إلى ما كان بينه وبين عمر وظائفه من المسلمين من خلاف على قتال المرتدين ومن منعوا الزكاة ، وإلى أنه تشبث بقتالهم ولو خرج إلى هذا القتال وحده . وسرى حين تتلو فصول هذا الكتاب أنه هو الذي دفع خالد بن الوليد ليسير إلى العراق يعزز قوات المُشَنَّى بن حارثة الشيباني ، وأنه هو الذي دعا العرب في أنحاء شبه الجزيرة إلى فتح الشام . فلما أبطأ أبو عبيدة ومن معه من القواد عن التقدم فيه أمدهم هو بخالد بن الوليد . وفي أثناء ذلك كان هو الذي ينظم بيت المال ، ويقسم النىء بين المسلمين ، ويول العمال ويهيمن على أعمالهم . وقد بلغ به هذا التفرغ لشئون الدولة أن انقطع عن التفكير في كل شيء سواها من أموره الخاصة ومن أمور أهله وعياله . وهذا التفرغ التام لشئون الدولة ، دقيقتها وجليلها ، هو الذى طوّع له أن يتم في فترة وجيزة ما لا يتمه غيره في سنوات ، بل ما قل أن يتمه غيره .

ولعل سبباً آخر كان ذا أثر فيما قدمنا عن موقف الرواة والمؤرخين من أبي بكر وعهده ؛ فهم قد حسبوا أن صحبته الرسول عشرين سنة كاملة ،

قلة ما يرد في
المراجع عن
الصديق مع أنه
روح عصره

واصطفاه صلى الله عليه وسلم لإياه حتى ليقول : « لو كنت متخذاً من العباد خليلاً لا اتخذت أباً بكر خليلاً » - حسبوا أن هذا وذاك أجلّ من كل ماتم في خلافته . ولا مِريّة في أن مكانة الصديق من رسول الله لها في تقديرنا جميعاً أجلُّ أثر وأعظم مقام . لكن خلافة الصديق كانت حادثة أتمت هذا الأثر الجليل وتوجته .

لم يكن عمل الصديق في خلافته أقلّ جلالاً من صحبته رسول الله . بل إنه كان في عهد الرسول ثانی اثنين : أولهما صقّ الله لنبوته ومن خصّه الله برسالته وأوحى إليه كتابه بينات من الهدى والفرقان . فالعبء الذي حمّله أبو بكر أيام الرسالة كان عبء التابع المؤمن الذي لم تتلجج قوة إيمانه بالله ورسوله . أما العبء الذي حمّله بعد أن اختار الله رسوله إليه فحمّله على أنه أول رجل في المسلمين وخليفة رسول الله بينهم . لم يكن فيه تابعاً يدلى بالمشورة ، بل كان متبوعاً يشير أصحابه عليه كما كان يشير هو ومن معه على رسول الله . وقد حمل هذا العبء بإيمان وأمانة وصدق ، جزاه الله وجزى المسلمين عنه أحسن الجزاء . فإذا كان صدق أبي بكر في صحبة رسول الله من أسمى مظاهر العظمة الإنسانية القائمة على دعامة متينة من الإيمان السليم ، فتجرّد أبي بكر في خلافته للدفاع عن دين الله وللدعوة إليه ولإقامة الإمبراطورية الإسلامية لا يقل في جلال سموه عن صحبته الرسول وإيمانه الصادق به وبكل ما أوحاه الله إليه . وتاريخ خلافته جدير لذلك بأن يفصل أدق التفصيل .

ليس عمله في
الخليفة بأقل من
الصحبة

هذا الاضطراب في المراجع ، وهذا التأثير في تصوير عهد الخليفة الأول بعوامل لا يقرّ النقد التاريخي الكثير منها ، قد كان له ما رأيت من أثر في كتب المتقدمين ، ثم كان له أثره فيما تلا ذلك من جهود من أخذوا عنهم وحاولوا أن يستنبطوا صورة الحقيقة كاملة من كتبهم .

أثر اضطراب
المراجع في
المؤرخين

ولقد بلغ هذا التأثير ببعض المتأخرين أن جعلهم لا يقفون عند عهد أبي بكر لإماماً ثم يتخطونه إلى عهد عمر فيطيلون الوقوف عنده . بل لقد يبلغ الأمر ببعضهم أن يوازن بين عهد أبي بكر وعهد عمر ليفاضل بينهما . وهذه مفاضلة لا موضع لها بين رجلين بلغ كل منهما من مراتب العظمة ما قل أن يبلغه سياسي

أو حاكم لأمة في تاريخ العالم كله . ولقد كان عهد عمر من أعظم عهود الإسلام لا ريب . فيه استقرت قواعد الإمبراطورية ، واستتب نظام الحكم ، ورفّ لواء الإسلام على مصر وغير مصر من البلاد التي اعتزّ بها الروم واعتزّ بها الفُرس . لكن هذا العهد الفاروق العظيم مدين لعهد الصديق ومتمّ له كدّين خلافة الصديق لعهد الرسول وإتمامها له .

على أن الدراسات التي تمّت والكتب التي وضعت عن أبي بكر وعهده جهود المستشرقين ومؤرخي المسلمين في العصور الأخيرة كانت أدنى إلى الدقة والإنصاف . ومن الحق على أن أشيد بما كان للمستشرقين من فضل السبق إلى هذه الدقة وإلى هذا الإنصاف ، على تحيز بعضهم تحيزاً دفعته إليه العاطفة الدينية . فقد صنّف « الأب ماريني » كتابه عن « خلفاء محمد » في القرن الثامن عشر ؛ وصنّف « كوسان برسفال » مؤلفه « رسالة في تاريخ العرب » في أوائل القرن التاسع عشر ؛ وكتاب « السير ولیم میور » عن « الخلافة الأولى » يرجع إلى سنة ١٨٨٣ . وفي أثناء ذلك ، وإلى وقتنا الحاضر ، لم يبرح المستشرقون في ألمانيا وإنجلترا وإيطاليا وفرنسا وغيرها من الدول يمحسون العهود الإسلامية المختلفة تمحيصهم غيرها من عصور التاريخ في مختلف أنحاء العالم .

أما وقد ذكرت جهود المستشرقين ، فمن الحق على أن أذكر جهود المؤرخين المسلمين والعرب ، وما كان من إنصافهم عهد الصديق ومحاولتهم الدقة في أمره .

أرّخ السيد رفيق العظم لهذا العهد منذ بضع عشرات من السنين في الجزء الأول من كتابه « أشهر مشاهير الإسلام » ؛ وكان متأثراً بطريقة الأقدمين في كثير من مواقفه . وتحدّث المرحوم الشيخ محمد الحضري فقال في ختام محاضرة له : « إنا نقول في ذلك قولاً صريحاً : لولا أبو بكر وعزيمته القوية . بعد معونة الله وتأييده ، ما كان تاريخ المسلمين يسير سيره الذي عرف . حصل ذلك في وقت استولى فيه الذهول على أفئدة المسلمين كافة حتى أقوامهم شكيمة وأشدّهم قلباً » .

وأفرد الأستاذ عمر أبو النصر الجزء الأول من كتابه « خلفاء محمد »

للصديق وعهده . كذلك تحدث المرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار وغسبه
من المؤرخين عن هذا العهد حديثاً جديراً بالتقدير .

اسل

والآن ، وقد وفقني الله لوضع هذا الكتاب ، فهل تتيح لي الأقدار أن
أردفه بآخر عن عهد عمر ، وبثالث وبرايع حتى أتم ما دار بخاطري أن أقوم
به من دراسات في تاريخ الإمبرطورية الإسلامية ؟ ذلك أمر علمه عند
ربي . لقد استقرّ مني العزم أن أدون لعهد عمر . لكن بين العزم والتنفيذ
مدى أرجو الله أن ييسره لي ، مع صدق يقيني بقوله تعالى :

«وَلَا تَقُولَنَّ لِيْ شَيْءٌ اِنِّىْ فَاعِلٌ ذٰلِكَ غَدًا اِلَّا اَنْ يَّشَاءَ اللّٰهُ ، وَاذْكُرْ رَبَّكَ
اِذَا نَسِيتَ ، وَقُلْ عَسَىْ اَنْ يَّهْدِيَنِيْ رَبِّيْ لَاقْرَبَ مِنْ هٰذَا رَشَدًا » .

وأختم هذا التقديم بالضراعة إلى الله أن يوفق العلماء والباحثين لمتابعة البحث
في حياة الصديق وفي عهد خلافته ، حتى تم ببحوثهم الصورة التي حاولت
أن أجعلوها في هذا الكتاب . وأحمد الله لما صادفني من التوفيق فيها حاولت . من
الله الهدى ، وبه التوفيق ، وإليه يرجع الأمر كله .

محمد بن عبد الله

الفصل الأول

أبو بكر في حياة النبي

ليس فيما انحدر إلينا من الروايات عن نشأة أبي بكر الأولى ما يعاون على تعرّف شخصيته في هذا الطّور من حياته . فما يروى عن طفولته وعن صباه لا غناء فيه . وما يروى عن أبيه وعن أمه لا يعدو ذكر اسميهما ، وذكر ما كان من أبيه بعد أن أصبح أبو بكر رجلاً من كبار المسلمين له في حياة أبيه أثر ، ولا أثر لأبيه في حياته . وإنما يعنى المؤرخون من أمره بذكر قبيلته ومكانتها من قريش ، شأنهم في ذلك كشأنهم في غيره مما يتصل بتاريخ العرب ؛ إذ يرون في نسبتهم إلى قبيلة من القبائل ما يفسّر بعض طباعهم وأخلاقيهم . وقد يكون ذلك حسناً ، وقد يراه المؤمنون بمبدأ الوراثية صالحاً لتحقيق مذهبهم ، وإن رأى غيرهم من المبالغة في تقديره ما يصرفهم عن الدقة في تمحيصه .

وأبو بكر من قبيلة تَيْم بن مُرّة بن كعب ؛ فهو يلتقي في نسبه بالنبي ويرتفع إلى عدنان . وكان لكل من القبائل المقيمة بمكة اختصاص بأمر يتصل أو لا يتصل بمناصب الكعبة . فكان لبني عبد مناف السّقاية والرّفادة ، ولبنو عبد الدار اللّواء والحِجَابَة والنّسَاوة ، وذلك قبل أن يولد هاشم جدُّ النبي . أما قيادة الحيوش فكانت لبني مخزوم أجداد خالد بن الوليد ، وكانت الديات والمغارم لتيم بن مرة . وقد آل أمر الديات في الجاهلية إلى أبي بكر حين اشتد ساعده فتولى الزعامة في قبيلته ؛ لذلك كان إذا احتمل شيئاً منها فسأل قريشاً صدّقه وأمضوا حمالة من نهض معه ، وإن احتملها غيره خذلوه .

وقد رُوِيَ في الإشادة بذكر تيم ومكانتها من قبائل العرب روايات تقصها كتب المتأخرين . ذكروا أن المنذر بن ماء السماء طلب امرأ القيس بن حُجر الكندي فأجاره المُعَلَّى التيمي ؛ فقال امرؤ القيس في ذلك :

أقرّ حَسّاً امرئ القيس بن حُجْرٍ بنو تيمٍ ، مصابيحُ الظلام

ولهذا البيت سمى بنو تيم « مصابيح الظلام » .

على أن ما تنسبه الروايات المختلفة لبنى تيم من الصفات لا يختلف عما ينسب لغيرها من القبائل ، ولا يميزها لذلك بطابع خاص يفيد المؤرخ أو يدل على صفة بذاتها فيمن ينسب إليها . فهذه الروايات تنسب إلى تيم من صفات الشجاعة والكرم والمروءة والنجدة وحماية الجار وما إليها ما تشترك القبائل العربية التي تعيش تحت سماء الجزيرة في التمدح به والانتساب إليه .

اسمه ولقبه
وكنيته

لهذا لم يقف مؤرخو أبي بكر عند قبيلته أكثر مما ذكرت ؛ وإنما بدءوا روايتهم بذكره وذكر أبويه ، ثم تخطوا طفولته وصباه إلى شبابه وإلى ما كان يزاوله فيه من عمل . ذكروا أن اسمه عبد الله بن أبي قحافة ، وأن أبا قحافة أبوه واسمه عثمان بن عامر ، وأن أم الخير أمه واسمها سلمى بنت صخر بن عامر . ورؤى أنه كان يدعى قبل الإسلام عبد الكعبة ، فلما أسلم دعاه رسول الله عبد الله . وقيل إنه كان يسمى عتيقاً ؛ لأنه لم يكن يعيش لأمه ولد ، فندرت أمه إن ولدها ولد أن تسميه عبد الكعبة ، وتتصدق به عليها . فلما عاش أبو بكر وشب سمي عتيقاً ، كأنه أعتق من الموت . على أن الرواة يذهبون إلى أن عتيقاً لم يكن اسمه وإنما كان لقباً غلب عليه لبياض لونه . وتذهب رواية أخرى إلى أن عائشة ابنته سئلت : لم سمي أبو بكر عتيقاً ؟ فقالت : نظر إليه رسول الله فقال : هذا عتيق الله من النار . أولأن أبا بكر أقبل يوماً ومعه طائفة من أصحابه فقال رسول الله : « من سره أن ينظر إلى عتيق من النار فلينظر إلى هذا » . أما كنية أبي بكر التي لزمته حياته فلم تذكر الروايات سببها ، وإن ذكر بعض المتأخرين استنباطاً أنه كُنيَ بها لأنه بكر بالإسلام قبل غيره .

صباه وشبابه

وقد عاش أبو بكر في طفولته وصباه عيش أمثاله بمكة . فلما تخطى الصبا إلى الشباب عمل في التجارة بزازاً يبيع الثياب ، فوفق كل التوفيق . وقد تزوج صدر شبابه من قتييلة بنت عبد العزى ، فولدت له عبد الله وأسماء . وأسماء هي التي لقبت من بعد ذات النطاقين . وتزوج بعد قتييلة أم رومان بنت عامر بن عويمر ، فاستولدها عبد الرحمن وعائشة . ثم تزوج بالمدينة من حبيبة بنت خازجة ، ثم من أسماء بنت عميس فولدت له محمداً . وكانت تجارته أثناء ذلك تزداد سعة وتزیده ربحاً وثراء .

ولعل شخصه و... من اسباب نجاحه في هذه التجارة ، فقد كان أبيض اللون . نحيفاً ، خفيف العارضين ، معروق الوجه ، غائر العينين ، نائياً للجهة ، عارى الأشاجع . كذلك وصفته ابنته عائشة أم المؤمنين . وكان رجلاً رضى الخلق . رقيق الطبع ، رزينا ، لا يغلبه الهوى ولا تملكه الشهوة . وكان لرزاقته وحسن رأيه ورجاحة عقله ، لا يشارك قومه في كثير من عقائدهم وعاداتهم . ذكرت عائشة أنه لم يشرب خمرأ في جاهلية ولا إسلام ، هذا على ما كان من حب أهل مكة الخمر وإدمانهم لها . وكان نسابة . حسن الحديث ، لطيف المعاشرة . وصفه ابن هشام صاحب السيرة فقال : « كان أبو بكر رجلاً مألفاً لقومه ، محبباً سهلاً » . وكان أنسب قريش لقريش ، وأعلم قريش بها وبما كان فيها من خير وشر . وكان رجلاً تاجراً ذا خلق ومعروف . وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر : لعلمه ، وتجارته ، وحسن مجالسته » .

حبة بمكة
واقصاله بمحمد

وكان يعيش بمكة في الحى الذى تعيش فيه خديجة بنت خويلد ، ويعيش فيه التجار النابهون الذين تذهب تجارتهم في رحلتى الشتاء والصيف إلى الشام وإلى اليمن . ومقامه بهذا الحى هو الذى ربط بينه وبين محمد بروابط الألفة بعد أن تزوج محمد من خديجة وانتقل إلى دارها . وكان أبو بكر يصغرُ محمداً بستين وأشهر . وأكبر الظن أن التقارب في السن والاشتراك في العمل والاتفاق في سكة النفس ورضا الخلق ، وفي الرغبة عما تزاول قريش من عادات وعقائد — أكبر الظن أن هذا كُله كان ذا أثر في مودة محمد وأبي بكر مودة يختلف الرواة إلى أى حد توثقت عراها قبل أن يبعث محمد رسولا . فقد ذكر بعضهم أنها كانت وثيقة العرى قبل البعث ، وأن توثق عراها كان ذا أثر في سبق أبي بكر إلى الإسلام . أما غير هؤلاء فيذكرون أن صلة الرجلين لم تتوثق إلا من بعد . وأن مودتهما الأولى كانت مودة جوار وتوافق في الميول ليس غير . ولعل أصحاب هذا الرأي يؤيدونه بما عُرِف من حب محمد العزلة والانقطاع عن الناس سنوات طويلة قبل بعثه . فلما بعثه الله واختاره لرسالته ذكر أبا بكر ورجاحة عقله ، فتحدث إليه ودعاه إلى الواحد الأحمد ؛ ولم يتردد أبو بكر أن أجاب داعي الله . ومن يومئذ توثقت الصلة بين الرجلين ، ثم زادها صدق أبي بكر

في الإيمان بمحمد ورسالته متانة وقوة . كانت عائشة تقول : « ما عَقَلْتُ أَبَوَيَّ إِلَّا وهما يدينان الدين . وما مر علينا يوم قطُّ إِلَّا ورسول الله يأتينا فيه بُكْرَةً وَعَشِيَّةً » .

ومنذ اليوم الأول شارك أبو بكر محمدًا في الدعوة لدين الله . وكان إلفُ قومه إياه وجبهُم الجلوس إليه والاستماع لحديثه ، ذا أثر في استجابة المسلمين الأولين لهذه الدعوة . فقد تابع أبا بكر على الإسلام عثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعد بن أبي وقاص ، والزبير ابن العوام . كما أسلم من بعدهم ، بدعوة أبي بكر ، أبو عبيدة بن الجراح وكثيرون غيره من أهل مكة .

عدم تردده في قبول الدعوة ، وسببه

وقد يعجب الإنسان كيف لا يتردد أبو بكر في قبول الدعوة إلى الإسلام أول ما وجهها محمد إليه ، وكيف يبلغ من عدم تردده أن يقول عنه رسول الله من بعد : « ما دعوت أحداً إلى الإسلام إِلَّا كانت عنده فيه كربة ، ونظر وتردد ، إِلَّا ما كان من أبي بكر بن أبي قحافة ، ما عكس^(١) حين ذكرته له وما تردد فيه » . وليس كل العجب أن محمدًا ذكر له التوحيد ودعاه إليه فاستجاب له . بل أكبر العجب أن محمدًا قص عليه حديث حِراء والوحي الذي نزل عليه ، فلم يتردد في تصديقه . وإنما يزيل عجبنا ، أو يخفف منه ، أن أبا بكر كان من حكماء مكة الذين يرون عبادة الأصنام حقاً ومسيئاً ، وأنه كان يعرف من أمر محمد وأمانته وصدقه ورُجحان عقله ما لم يدع في نفسه موضعاً للريبة فيما قص عليه مما رأى وسمع ، وبخاصة لأنه رأى في هذا الذي قصه الرسول عليه ما يتفق وموجب الحكمة وما لا يتردد العقل في تصديقه والأخذ به . على أن ما يزول من عجبنا لا يغير من تقديرنا جرأة أبي بكر في إقدامه ومجاورته المعروف للناس في موقف دعا غيره ممن وجهت الدعوة إليهم للنظر والتردد والتماس الأناة والروية . وجرأة أبي بكر وإقدامه أجدر بالتقدير لأنه كان تاجراً تقتضيه تجارته الحساب لصلاته بالناس وعدم مواجهتهم بما يخالف مألوف آرائهم وعقائدهم خشية ما يجره ذلك على معاملاته من سيئ الأثر . فما أكثر الذين لا يؤمنون بالكثير من آراء الناس ويرونها ميئاً باطلا وحديث خرافة ، ثم يكتمون

جرأته في قبول الإسلام وفي الدعوة إليه

ذلك أويتظاهرون بتقيضه التماساً للعافية ، وجرّاً للمنفعة ، وحرصاً على ما بينهم وبين الناس من تجارة . وأنت لا تجد هذا التفاف في سواد الناس وعامتهم ما تجده في الخاصة والمثقفين منهم ، بل إنك لتجده فيمن نصبوا أنفسهم لزعامه الناس والإبانة لهم عن وجه الحق في الحياة . لا جرم ، وقد كان موقف أبي بكر منذ اللحظة الأولى ما ذكره رسول الله ، أن يكون موضع التقدير غاية التقدير ، والإعجاب غاية الإعجاب .

وقيام أبي بكر بالدعوة إلى الإسلام أدعى إلى العجب . فلعل تاجراً مثله يقتنع بصدق محمد قد كان يقنع بتصديقه سرّاً ولا يظهر الناس على شيء من أمره حتى تظل تجارته متصلة . ولعل محمداً كان يقنع منه بذلك ويحمده له . فأما أن يظهر أبو بكر إسلامه ، وأن يدعو إلى الله ورسوله وأن يصل من دعوته إلى إقناع المسلمين الأولين بتصديق محمد ومتابعته على دينه ، فذلك ما لا عهد للناس به إلا فيمن سمّت أنفسهم إلى حيث تقدّر الحق لذاته ، وترفع به فوق منافع الحياة ، وترى في تأييده والدعوة إليه ما يُصغر من شأن الدنيا وعرضها وإن عظم . ولقد كان ذلك شأن أبي بكر في صحبته محمداً منذ أسلم إلى أن اختار الله محمداً ، وإلى أن توفي أبو بكر من بعده .

وإني لأذكر ما كان لإسلام حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب من أثر في توطيد كلمة الإسلام ، وكيف أيد الله بهما دين الحق ، لما عُرِف عنهما من قوة بأس ، ومضاء عزم ، وصلابة تخيف من يناوئهما ، ثم أذكر الصديق وإسلامه فلا أتردد في القول بأنه أول من أيد الله به دينه . فهذا الرجل الرضى النفس ، الوديع الخلق ، الرقيق الطبع ، حتى لتسرع الدمعة إلى عينه لمراى الألم يصيب غيره ، قد بلغت قوة إيمانه بالدين الجديد ، وبالرسول الذي جاء به من عند الله مبلغاً لا تدانيه قوة ولا يتغلب عليه سلطان . وهل كقوة الإيمان في الحياة شيء ! وهل كسلطانه في الحياة سلطان ! والذين يحسبون أن قوة البطش وسلطان البأس هما في الحياة الأثر البالغ يتورطون في أفحش الخطأ . فالنفس الراضية المطمئنة إلى إيمانها بالحق ، الداعية إليه بالحكمة والموعظة الحسنة ، المتخذة من وداعة الخلق ، ورقة الطبع ، ومشاركة الضعيف والبائس في ألم البؤس والضعف وسائل دعوتها ، هذه النفس أجدر أن تبلغ من غايتها ما تريد ،

الصديق أول من
أيد الله به دينه

لأنها تندمج في غيرها من النفوس فتطبعها بطابعها وتصوغها على غرارها. ولقد كان ذلك أثره - رضى الله عنه - في السنوات الأولى من الدعوة المحمدية ، وبقي ذلك أثره إلى أن تولى الخلافة وإلى أن مات .

فهو لم يقف من تأييد الدعوة عند التحدث إلى أصحابه وإقناعهم بها . ولم يكفه أن يبذل للضعفاء والبائسين من رضا نفسه وداعة خلقه ما يعزيهم عما كان خصوم الدعوة يُرهقونهم به من أذى وتعذيب ، بل كان ينفق من ماله ، وكان يصطفي بهذه النفقة أولئك الضعفاء والبائسين ممن هداهم الله إلى الحق فأذاقهم أعداء الحق الضر وابتلوهم بألوان البأساء . وحسبك أن تعلم أنه كان له يوم أسلم أربعون ألف درهم مدخرة من ربح تجارته ، وأنه أقام بعد إسلامه يتاجر فيجنى وافر الربح ، فلما هاجر إلى المدينة بعد عشر سنوات لم يكن له من ذلك كله غير خمسة آلاف درهم . أما سائر ما كان عنده وما ادخره من بعد ، فقد ذهب في سبيل الدعوة إلى الله والدعوة لدينه ولرسوله . وأيسر ذلك ما افتدى به الضعفاء والأرقاء الذين أسلموا ، فعذبهم سادتهم بإسلامهم ، وأذاقوهم الهون ألوانا .

إنفاقه من ماله
لحماية الضعفاء

رأى أبو بكر يوماً بلالاً الحبشى قد ألقاه سيده على الرمل في لظى الشمس ، ووضع حجراً على صدره وتركه ليموت لأنه أسلم . ولم يزد بلال وهو في هذه الحال على أن يكرر : «أحدٌ أحدٌ» . عند ذلك اشتراه أبو بكر وأعتقه . وعذّب عامر بن فهيرة . فاصطفاه أبو بكر راعياً لأغنامه . واشترى كثيراً كذلك من الموالى الذين يعدّون ، رجالاً ونساءً وأعتقهم .

على أن أبا بكر لم يسلم من أذى قريش ، كما لم يسلم محمد من هذا الأذى على رغم مكانته من قومه ومنع بنى هاشم له . ولم ير أبو بكر قريشاً تؤذى محمداً إلا وقف دونه وعرض حياته للدود عنه . روى ابن هشام أن شراً ما نالت قريش من رسول الله قد كان بعد أن غاب دينهم وسب آلهتهم . فقد اجتمعوا في الحِجر يوماً فقال بعضهم لبعض : ذكرتم ما بلغ منكم . وما بلغكم عنه ، حتى إذا باداكم بما تكرهون تركتموه . فبينما هم في ذلك طلع عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوثبوا إليه وثبة رجل واحد وأحاطوا به يقولون : أنت الذى تقول

مواقفه في
مناصرة النبي

كذا وكذا ؟ لما كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم ، فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم أنا الذى أقول ذلك . فلقد رأيت رجلاً منهم أخذ بجميع رذائله ، فقام أبو بكر رضى الله عنه دونه وهو يبكى ويقول : أقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ! ثم انصرفوا عنه . فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشاً نالوا منه قط . »

وليس هذا الموقف شيئاً إلى جانب غيره من المواقف التى تجلّى فيها إيمان أبى بكر بمحمد وبرسالته إيماناً لا يابن ولا يتزعزع . وهذا الإيمان هو الذى جعل غير واحد من المستشرقين يتراجع دون اتهام النبى بما يتّهمه به غلاتهم . فما كان أبو بكر فى رزاقته ورجاحة عقله ليصل إلى هذا الإيمان لو لم يتنزه كل عمل من أعمال الرسول عن كل شبهة ، وبخاصة فى ذلك الوقت الذى كان الرسول فيه موضع الاضطهاد من قومه . وهذا الإيمان الذى امتلأت به نفس أبى بكر هو الذى وقى الإسلام أن ينصرف الناس عنه عندما حدثهم رسول الله بحديث الإسراء .

فقد تحدث محمد إلى أهل مكة بأن الله أسرى به ليلاً من المسجد الحرام مرقفه من حديث الإسراء إلى المسجد الأقصى ، وأنه صلّى هناك ، وسخّر المشركون من هذا الحديث ، وساور الرب فيه طائفة ممن أسلموا ، وقال يومئذ غير واحد : هذا والله الأمر البين ! والله إن العير لتطرد شهراً من مكة إلى الشام مدبرة وشهراً مقبلة ، أيذهب محمد ذلك فى ليلة واحدة ويرجع إلى مكة ! ! وارتد كثير ممن أسلموا وتردد كثيرون وذهبوا إلى أبى بكر لما يعلمونه من إيمانه وصحبته محمداً ، فذكروا له ما يقوله عن الإسراء . قال أبو بكر وقد تولاه الدهش لما سمع : « إنكم تكذبون عليه » . قالوا : « بلى ، ها هو ذاك فى المسجد يحدث الناس » . قال أبو بكر : « والله لئن كان قد قاله لقد صدق ! إنه ليخبرنى أن الخبر ليأتيه من الله من السماء إلى الأرض فى ساعة من ليل أو نهار فأصدقه ، فهذا أبعد مما تعجبون منه » . وجاء أبو بكر إلى المسجد واستمع إلى النبى يصف بيت المقدس ، وكان أبو بكر قد جاءه ، فلما أتم النبى صفة المسجد الأقصى قال أبو بكر : « صدقت يا رسول الله » . ومن يومئذ دعا محمد أبا بكر بالصدّيق .

الصدّيق أبو بكر

أفخطر ببالك يوماً أن تسأل : ترى لو أن أبا بكر ارتاب كما ارتاب غيره في حديث الرسول عن الإسراء ، فما عسى أن يحدث من أثر هذه الريبة في حياة الدين الناشئ ؟ وهل قدّرت ماقد يؤدي ذلك إليه من تضاعف عدد المرتدين ، ومن بلبلة العقيدة في نفس غيرهم من المسلمين ؟ وهل ذكرت كيف ثبتت إجابة أبي بكر عقائد الكثيرين ، وكيف حفظت للإسلام يومئذ مكانته ؟ إن كنت قد سألت وقدّرت وذكرت فلا ريب أنك لم ترد من بعد في الحكم بأن الإيمان الصادق أقوى سلطاناً في الحياة من قوى البطش والبأس جميعاً ، وأن كلمة أبي بكر هذه كانت بعض عناية الله بدينه الحق ، وأنها نصرته وأيدته أكثر مما أيدته قوة حمزة وعمر من قبل ، وهي لذلك حقيقة بأن تجعل لأبي بكر في تاريخ الإسلام المكان الذي جعله الرسول له حين قال : « لو كنت متخذاً من العباد خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ولكن صحبة وإخاء وإيمان حتى يجمع الله بيننا عنده » .

وكلمة أبي بكر في الإسراء تدلُّ على إدراك تام للوحي والرسالة لا يؤثاه كثيرون ، وترليك حكمة الله في أن يختاره الرسول صفية يوم اصطفى الله رسوله ليبلغ الناس رسالته . وهي كذلك الحجة البالغة على أن الكلمة الطيبة كالشجرة الطيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، يخلد أثرها على الزمان بفضل الله ، فلا سلطان للزمان عليه ولا يأتي عليه النسيان .

أقام أبو بكر من بعد حديث الإسراء يرعى تجارته في حدود ما تحتاج إليه من جهد العارف بمدخلها ومخرجها ، وينفق جل وقته في صحبة الرسول ، وفي حماية الضعفاء الذين أسلموا ، وفي دفع أذى قريش عنهم ، وفي دعوة من تلبين قلوبهم للإسلام . هذا وقريش تشتد في أذى النبي وفي أذى أبي بكر وسائر المسلمين ، ولم يدر بخاطر الضدّيق أن يهاجر مع المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة فراراً إلى الله بدينهم^(١) ، بل ظل مع محمد بمكة يجاهد معه في سبيل

ما كان يقوم به بعد الإسراء

(١) تجرى رواية بأنه خرج مع المهاجرين إلى الحبشة فلقه ابن الدغنة فقال له : « ويليک لا تهاجر . إنک تصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتكسب المعلوم ، وتعين على نوائب الدهر » . وأجابه ، وأجازت قريش جواره . وأقام أبو بكر بمكة وأقام بفناء داره مسجداً يصل فيه ويتلو القرآن . فخافت قريش أن يفتن نساءها وصبياتها فشكوه إلى ابن الدغنة فرد أبو بكر جواره وظل بمكة معرضاً للأذى .

الدعوة إلى دين الله ويتلقى عنه ما يوحى الله إليه ليذيعه في الناس ، ويبذل من رضا نفسه ومن طيبة خلقه ومن حرّ ماله كل ما يستطيع بذله ، لخير من أسلم ، ولهذاية من لم يسلم .

وما كان أحوج المسلمين بمكة يومئذ إلى هذا الجهد وإلى هذه الرعاية من أبي بكر ! فقد كان محمد يتلقى وحى ربه . وكان قد يش من استجابة أهل مكة لدعوته ، فوجّه همّه إلى القبائل يعرض نفسه عليها ويدعوها إلى الله ، وقد ذهب إلى الطائف يستنصر أهلها فردّوه ردّاً غير جميل . وكان في اتصاله بربه دائم التفكير في رسالته والدعوة إليها وفي الوسيلة لنجاح هذه الدعوة . هذا إلى أن قریشاً لم تسكت قط عنه ولم تنقطع عن مناوئته . إزاء ذلك كله أخذ أبو بكر نفسه بالتفكير في أمر المسلمين المقيمين بمكة ، وفي تنظيم الوسائل للسهر على طمأنينتهم .

اتصاله بالمسلمين
وبغير المسلمين
للدفع أذى قریش

ولئن لم تذكر كتب السيرة ولم يذكر من أرتخوا لأبي بكر من عمله في ذلك ما فيه غناء ، إننى مع هذا لترسم في نفسى صورة واضحة من عنايته ومن اتصاله الدائم بحمزة وبعمرو وبعمان وبكل ذى رأى في المسلمين أو سلطان ادفع أذى قریش عن الضعفاء الذين أسلموا ، بل إننى لأتصور ما كان من اتصاله بغير المسلمين ممن أقاموا على دينهم ثم كانوا لا يرون أنه من الحق لقریش أن تناوئ من لا يقرها على عقيدتها في الأصنام وعبادتها . ولقد رأينا في سيرة الرسول كثيرين من هؤلاء قاموا يدفعون عن المسلمين أذى قریش ؛ ورأينا الذين قاموا في نقض الصحيفة إذ تعاهدت قریش على مقاطعة محمد وأصحابه وعلى محاصرتهم حتى احتسوا ثلاث سنوات تبعاً في شعب من شعاب الجبل بظاهر مكة ، لا يتصلون بالناس ولا يتحدثون إليهم إلا في الأشهر الحرم . ويقىنى أن أبا بكر قد كان له في تحريك هؤلاء الذين لم يتابعوا محمداً على دينه ، والذين غضبوا مع ذلك لما يصيبه من أذى قریش ، أثر بالغ أدركه برفقه وحسن حديثه وجميل عشرته .

وما قام به أبو بكر من حماية المسلمين إبان نشأة الدين هو الذى زاده من محمد قرباً ، وهو الذى ربط بين الرجلين برابطة إخاء في الإيمان جعلت

محمدًا يصطفيه خليلًا . فلما أذن الله لدينه أن ينتصر بقوة أهل يثرب بعد بيعتي العقبة ، أذن محمد لأصحابه في أن يهاجروا إليها ، كما أذن لهم من قبل في أن يهاجروا إلى الحبشة . ولم تعرف قريش أيهاجر محمد مع أصحابه إلى يثرب ، أم يظل بمكة كما ظل بها حين هجرة المسلمين إلى الحبشة . أعرف أبو بكر من مقصد محمد ما لم تعرف قريش ؟ كل ما يروى عن ذلك أن أبا بكر استأذن محمدًا في الهجرة فقال له : « لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحبًا » ولم يزد على ذلك .

إعداده للهجرة
ثم الهجرة

ها هنا تبدأ صفحة أخرى من صحف الإيمان القوى الراسخ بالله ورسوله . فقد كان أبو بكر يعلم أن قريشًا قامت ، منذ عرفت بهجرة المسلمين إلى يثرب ، ترد كل من استطاعت رده منهم إلى مكة ، لتفتنه عن دينه ، وتعذبه وتنكّل به . ثم إنه علم أن المشركين اجتمعوا بدار الندوة يأتمرون بمحمد ليقتلوه . فإن هو صاحب محمدًا في هجرته فأقدمت قريش على قتل الرسول قتلت أبا بكر لا محالة معه . مع ذلك لم يتردد حين استمهله محمد ، بل شاعت الغبطة في أنحاء نفسه وأيقن أنه إن يهاجر مع الرسول يجعل الله له بذلك من الفضل والفخر ما لا يعد له فضل ولا فخر ، وإن يُقتل معه فإنما هو الاستشهاد الذي يُجزى صاحبه جنة الخلد .

ومن يومئذ أعدّ أبو بكر راحلتين وأقام ينتظر مصيره ومصير صاحبه . وإنه لى بيته ذات مساء إذ أقبل محمد كدأ به كل مساء ، وأخبره أن الله أذن له في الهجرة إلى يثرب . ورغب الصديق إلى رسول الله أن يكون رفيقه في الهجرة ، فأجابه إلى ما طلب . وعاد محمد إلى بيته وفتيان قريش يحاصرونه مخافة أن يفر . وأسرّ محمد إلى عليّ بن أبي طالب أن يتسجّى برده الحضرمي الأخضر وأن ينام في فراشه ، ففعل ، فلما كان الثلث الأخير من الليل خرج في غفلة من فتية قريش إلى دار أبي بكر ، فإذا هو يقظ ينتظره . وخرج الرجلان من نخوة في ظهر الدار وانطلقا جنوبًا إلى غار ثور فاخبتا فيه .

أطلقت قريش فتيانها في كل واد وفي كل جبل ، يبحثون عن محمد ليقتلوه

فلما بلغوا ثوراً تسلقه أحدهم إلى الغار ، لعله أن يعثر به . وتصيب أبو بكر عرقاً حين سمع تناديههم ، وأمسك أنفاسه وبق لا حراك به وسلم لله أمره . أما محمد فظل فيما كان فيه من ذكر الله والصلاة له ، واقترب أبو بكر من صاحبه وألصق به نفسه ، فهمس محمد في أذنه : « لا تحزن ، إن الله معنا » .

وأدار الفتى القرشيُّ بصره فيما حول الغار فرأى العنكبوت نسجت على فسوَّهته ، فانصرف يقول لأصحابه الذين سألوه ماله لم يذهب إليه : « إن عليه العنكبوت من قبل أن يولد محمد » . وانصرف الفتية قافلين يعضون البنان ندماً . فلما بعدوا نادى محمد : « الحمد لله ، الله أكبر » وازداد أبو بكر بما رأى إيماناً وتبتيّاً .

إلام يرجع فزع
الصديق حين
كانا في الغار ؟

أفكان فزع أبي بكر حتى ليتصعب منه العرق ويمسك أنفاسه ويلتصق برسول الله بعض ما دعا إليه حب الحياة والحرص عليها ، فهو يخشى على نفسه أن يصيبه المكروه ؟ أم أنه لم يفكر في نفسه ما فكر في رسول الله ، وأنه كان يودّ لو يفتدى رسول الله بنفسه إن استطاع ؟ روى ابن هشام عن الحسن ابن أبي الحسن البصري قال : « انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر إلى الغار ليلاً ، فدخل أبو بكر رضى الله عنه قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم فلمس الغار لينظر فيه سبع أو حيّّة ، يقي رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه » وذلك كان شأنه في تلك اللحظة الدقيقة من حياته حين كان يسمع إلى فتیان قریش ، فيهمس في أذن النبي : « لو بصر أحدهم تحت قدميه لأبصرنا » . لم يكن يفكر فيما قد يصيبه ، وإنما يفكر في رسول الله وفي مصير الدين الذي يدعوه إليه بأمر ربه لو أن هؤلاء الفتیان ظفروا به فقتلوه . بل لعله لم يفكر في شيء بذاته تلك اللحظة ، وإنما كان شأنه شأن الأم تخشى الخطر على ابنها ، فهي ترتجف وتفزع ويتولاها الملح ثم لا يساعفها عقلاها برأى أو تفكير ، فإذا دنا الخطر منها ألقت بنفسها في وجهه تريد أن تصدّه أو تموت دونه . أم أن أبا بكر كان أشد من هذه الأم هلعاً وأكثر منها استهانة بالخطر إذا أقبل ، لأن إيمانه بالله ورسوله كان أقوى من حب الحياة ومن فطرة الأمومة ومن كل

ما تحسه نفوسنا أو يدور بخواطرنا . وما بالك بإيمان تجسم أمامه في رسول الله فتجسمت معه كل المعاني المقدسة في أعظم صورها قدسية وأسمائها روحانية ! أتصور الساعة أبا بكر في مجلسه ورسول الله إلى جانبه ، وأصور الخطر محدقاً عليهما فلا يسعفى خيالي بمثال يبرز كل ما في هذه الصورة الفذة من حياة لا نظير لها في كل صور الحياة .

قص التاريخ نبأ أشخاص وهبوا أنفسهم فداء زعيم من الزعماء أو ملك من الملوك . وفي عصرنا اليوم زعماء يقدهم الناس ، فهم أحب إليهم من أنفسهم . لكن موقف أبي بكر بالغار يختلف عن ذلك كل الاختلاف ، وهو لذلك جدير بالتحليل يقوم به أشد علماء النفس دقة ، وأكثرهم في التصوير براعة . فأين إيمان الناس بالزعماء أو بالملوك من إيمان الصديق بالرسول الذي اصطفاه الله فأوحى إليه دينه الحق ! ! وأين لذلك افتداء الناس ملوكهم وزعماءهم مما جال بخاطر الصديق في هذه اللحظة التي خشي فيها الخطر على حياة الرسول ثم كان أشد خشية ألا يدفع الخطر دافع ؟ ! ! هذا مقام من السمو لا سبيل للرقى إلى تصويره ؛ ولذا أمسك كتّاب السيرة عن الحديث فيه أو كادوا .

أين افتداء الملوك
والزعماء من
افتداء رسول الله

وسكن الناس عن الرجلين وتولاهم اليأس من العثور عليهما ، فخرجنا من مخبئهما وارتحلا ، يواجهان ما في الطريق من أخطار لا تقل عما تعرضا له بالغار . وحمل أبو بكر ما بقي له من ربح تجارته خمسة آلاف درهم . فلما بلغا المدينة وتلقى الناس رسول الله ببشر دونه كل بشر ، بدأ أبو بكر حياته فيها كأى رجل من المهاجرين ، وإن ظلمت له مكانته من رسول الله ، مكانة الخليل والصديق والوزير المشير .

ونزل أبو بكر بالسُّنْح من ضواحي المدينة على خارجة بن زيد من بني الحارث من الخزرج . فلما آخى النبي بين المهاجرين والأنصار كان أبو بكر وخارجة أخوين . وأدرك أبا بكر أهله وأبناءؤه الذين كانوا بمكة ، فاستعان بهم على الحياة . فقد عملت أسرته — كما عملت أسرة عمر بن الخطاب وعلى بن أبي طالب — في الزراعة في أراضي الأنصار مزارعة مع ملاكها . ولعل خارجة ابن زيد كان من هؤلاء الملاك ؛ فقد توثقت الصلة بينه وبين أبي بكر من بعد ، فتزوج ابنته حبيبة وجاءت منه بأم كلثوم ، وكانت حبيبة حاملاً بها حين وفاته .

أبو بكر بالمدينة

ولم تقم أسرة أبي بكر معه بدار خارجة بن زيد بالسُّنْح ، بل أقامت أم رومان وابنتها عائشة وسائر أبناء أبي بكر بالمدينة ، بدار تجاور دار أبي أيوب الأنصاري حيث نزل النبي . وكان هو يتردد عليهم ، جاعلا معظم إقامته بالسُّنْح مع زوجه الجديدة .

وبعد قليل من مقامه بالمدينة أصابته الحمى التي أصابت أكثر الذين هاجروا إليها من أهل مكة ، بسبب ما بين موطنهم ومهجرهم من تفاوت في الهواء ؛ فهواء مكة صحراوي جاف ، وهواء المدينة رطب لكثرة ما فيها من مياه وزروع . يروى عن عائشة أن أباهما أصابه من هذه الحمى رهقاً حتى لكان يهذى لشدة ما نزل به منها .

فلما اطمأن إلى موطنه الجديد ، وإلى كدح أهله كدحاً أغناه عن الأنصار وجهه كل همه إلى معاونته الرسول في تثبيت دعوته وتوطيد مركز المسلمين ، لا يألو في ذلك جهداً ولا يرضى بتضحية .

ولقد كان الغضب لا يعرف إلى هذا الرجل الوادع سبيلاً إلا حين يرى خصوم الدعوة من اليهود والمنافقين يسخرون منها و يكيّدون لها . كان رسول الله قد عقد بين اليهود والمسلمين عهداً أن يكون لكل حرية الدعوة إلى دينه ، وأن يباشر من شعائره ما يشاء . وكانت اليهود قد حسبت أول الأمر أنها قادرة على أن تكسب المسلمين من أهل مكة ليكونوا عوناً لهم على الأوس والخزرج . فلما سقط في أيديهم وعجزوا عن التفرقة بين المهاجرين والأنصار ، بدعوا يكيّدون للمسلمين ويسخرون من دينهم . اجتمع رهط من يهود على رجل منهم يقال له فنحاص ، وكان من علمائهم وأخبارهم ، ودخل عليهم أبو بكر فرآهم كذلك ، فقال لفنحاص : « ويحك يا فنحاص ! اتقى الله وأسلم ! فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله ، قد جاءكم بالحق من عنده ، تجدلونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل » . قال فنحاص وعلى شفثيه ابتسامة السخر والتهكم : « والله ، يا أبا بكر ، ما بنا إلى الله من فقر ، وإنه إلينا لفقر ، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا . وإننا عنه لأغنياء ، وما هو عنا بغنى . ولو كان عنا غنياً ما استقرضنا أموالنا ، كما يزعم صاحبكم . ينهاكم عن الربا ويعطيناه

غضبته الصديق
على فنحاص

ولو كان غنياً عنّا ما أعطانا» . وإنما يشير فنحاص بعبارته هذه إلى قوله تعالى :
 « مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً » .
 فلما رأى أبو بكر أن الرجل يستهزئ بقول الله وحيه إلى نبيه ، لم يملك
 نفسه أن ضرب وجهه فنحاص ضرباً شديداً وقال : « والذى نفسى بيده لولا
 العهد الذى بيننا وبينكم لضربت رأسك أى عدو الله ! » .

أليس عجباً أن تكون فى أبى بكر هذه الحدة وهو من هو لين طبع ورقة
 خلُصّ ووداعة نفس ، وأن تكون فيه وقد جاوز الخمسين

وهذه الغضبة على فنحاص تذكرنا بغضبة مثلها ، كانت له قبلها بأكثر من
 عشر سنين . ذلك حين غلبت الفرس الروم ؛ والفرس مجوس ، والروم أهل
 كتاب . فقد حزن المسلمون لتهكم المشركين بهم وزعمهم أن الروم غلبت لأنهم
 أهل كتاب مثلهم . وتحدث مشرك فى الأمر أمام أبى بكر وألح فى الحديث ،
 فاغتاض أبو بكر وراهنه عشرة جبال على أن تغلب الروم المجوس قبل عام .
 ذلك يدلك على أنه لم يكن شئ فى الحياة يثير ثائرة أبى بكر أو يهيج غضبه
 إلا ما اتصل بعقيدته وبإيمانه الصادق بالله ورسوله . كان هذا دأبه وهو فى
 الأربعين وظل هذا دأبه حين جاوز الخمسين ، وحين تولى الخلافة من بعد ودبر
 أمر المسلمين .

وهذا الإيمان الصادق قد ملك على أبى بكر كل مشاعره فى كل أطوار
 حياته منذ اتّبع الرسول . وأنت تستطيع أن تفسر كل أحواله النفسية وكل
 أعماله وتصرفاته إذا نظرت إليها من هذه الناحية المعنوية . أما ما خلاها فقد
 كان ضعيف الأثر عنده ؛ فلا تجارته ، ولا أسرته ، ولا أهواؤه ، ولا شئ
 مما يتأثر به الناس فى الحياة وبما كان يتأثر به كثير من المسلمين فى ذلك العهد ،
 قد كان ذا سلطان عليه . بل كان قابه ، وكان عقاه ، وكانت روحه ، خالصة
 كلها لله ورسوله ، وكانت كلها الإيمان الذى بلغ من مراتب الإيمان عليها ،
 مراتب الصديقين ، وحسن ذلك مقاماً !

انظر إليه بعد ذلك فى غزوة بدر : عدل المكيون صفوفهم ، وعدل النبي
 صفوف المسلمين للقتال ، وبني المسلمون عريشاً للنبي فى المؤخرة ، بإشارة

سلطان الإيمان
 على أبى بكر

موقف الرسول
 فى غزوة بدر

سعد بن معاذ ، حتى إذا لم يكن النصر في جانبهم لحق رسول الله بالمدينة ، وأقام أبو بكر مع النبي في العريش يرقب معه سير المعركة . فلما ابتدأت ، ورأى محمد كثرة عدوه وقلة رجاله ، استقبل القبلة واتجه بكل نفسه إلى ربه ، وجعل يَسْئله ما وعده ، ويهتف به أن يتم له النصر ويقول : « اللهم هذه قريش قد أتت بخيلائها تحاول أن تكذب رسولك ! اللهم فنصرك الذي وعدتني ! اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تُعبد » وما زال يهتف بربه ماداً يديه مستقبلاً القبلة حتى سقط رداؤه ؛ ولم يطمئن حتى خفق خفقة من نَعاس رأى خلالها نصر الله ، وانتبه من بعدها مستبشراً ، وخرج إلى الناس يحرضهم ويقول لهم : « والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً ، مقبلاً غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة » .

موقف الصديق
في بدر

كان هذا موقف الرسول : لم يطمئن إلى انتصار رجاله القليلين على أعدائه الكثيرين ، حتى اتصلت روحه بسرّ من ربه أراه النصر ، وكشف أمامه حجب هذا اليوم الحاسم في حياة الإسلام . أما أبو بكر فظل إلى جانب الرسول متمكناً إيماناً بأن الله لا ريب ناصراً دينه ، متمكناً مع إيمانه بالنصر إعجاباً بالرسول في مناجاة ربه ، وإشفاقاً على الرسول لشدة خوفه من مصير ذلك اليوم . وهذا ما دعاه ، والرسول يهتف وينادى ويناشد ويستنجز ربّه ما وعده ، ويكرر ذلك ويعيده حتى سقط رداؤه ، أن يُهيب به وهو يردّ الرءاء على منكبيه : يا نبي الله بعض مناشدتك ربك ، فإن الله منجز لك ما وعدك ! » .

حب الرحمة
والحق مجتمعين
في قلبه

ألف الناس في كثير من المؤمنين بعقيدة لا يمارون فيها ولا يداجون ، أن يبلغ منهم التعصب لعقيدتهم مبلغاً يجعلهم أشدّاء لا يهنون ، غلاظاً لا يلينون . بل إن منهم لكثيرين لا يطبقون النظر إلى وجوه من يخالفونهم في هذه العقيدة . هؤلاء يرون أن الإيمان الحق يقتضيهم هذا التعصب وهذه الشدة والغلظة . أما الصديق فكان ، على جلال إيمانه وعظم تعصبه لهذا الإيمان وشدة فيه شدة لا تهن ولا تتردد ، بعيداً عن الغلظة ، قريباً إلى اللين ، عفواً عند القدرة ، محسناً متى تم لإيمانه النصر ، بذلك جمع في قلبه بين مبدأين من أسمى

المبادئ الإنسانية ؛ حب الحق ، والرحمة . ففي سبيل الحق كان يستهين بكل شيء ، وبالحياة قبل كل شيء . فإذا علّمت كلمة الحق ، غلب فيه جانب الرحمة ، وانقلب مؤمناً بها إيمانه من قبلُ بالحق ، ضعيفاً لها حتى لتندرف عينه الدمع ترسله مدراراً .

تم النصر للمسلمين في بدر فرجعوا إلى المدينة ومعهم أسرى قريش . وكان هؤلاء يطمعون في الحياة ، وفي العود إلى مكة ، وإن أغلوا الفداء . لكنهم كانوا يخشون شدة محمد وبطشه بهم بعد الذي أذاقوه وأصحابه سنواتٍ مُقامه بينهم . قال بعضهم لبعض : « لو بعثنا إلى أبي بكر فإنه أوصل قريش لأرحامنا ، وأكثرهم رحمة وعطفاً ، ولا نعلم أحداً آثرَ عند محمد منه » . وبعثوا إلى أبي بكر فقالوا له : « يا أبا بكر إن فينا الآباء ، والإخوان ، والعمومة ، وبنى العمومة ، وأبعدنا قريب . كلم صاحبك بمنّ علينا أو يفادنا » . فوعدهم خيراً . وخافوا أن يفسد ابن الخطاب عليهم أمرهم ، فتحدثوا إليه بمنزل حديثهم لأبي بكر ، فنظر إليهم شزراً ولم يجب . وأقام أبو بكر نفسه شفيح هؤلاء القرشيين المشركين عند رسول الله ، فجعل يستعطفه عليهم ويُلين قلبه لهم ، ويدفع حجج عمر في الشدة بهم ، ويذكر ما بينهم وبين النبي من قرابة . وهو إنما صنع ما صنع من ذلك لما فطر عليه من طيبة القلب والإيمان بالرحمة كإيمانه بالحق والعدل . ولعله كان يرى بعين بصيرته أن لسلطان الرحمة الغلب آخر الأمر ، وأن الناس ينزلون على حكم صاحبها وعلى عقيدته ما رأوا رحمة إنسانية سامية ، مبرأة من الضعف ، منزّهة عن الهوى ، لا تحركها في النفس إلا القوة والقدرة ، وإلا سلطان الإنسان على نفسه سلطاناً يكبح من بطش القوة ويُلين من عسف القدرة .

موقفه من
أسرى بدر

كانت غزوة بدر مبدأ حياة جديدة للمسلمين ، وكانت كذلك مبدأ اتجاه جديد في حياة أبي بكر . بدأ المسلمون ينظّمون سياستهم إزاء قريش وإزاء من ناوهم من القبائل المحيطة بهم ، وبدأ أبو بكر يشغل مع النبي بهذا التنظيم أضعاف شغله بحماية المسلمين أيام مُقامه بمكة . فقد كان المسلمون جميعاً يعلمون أن قريشاً لن يهدأ لها بال حتى تأخذ بثأرها من بدر ، وكانوا يعلمون

اتجاه حياة
بعد بدر

أنهم في حاجة إلى حماية دعوتهم الناشئة ، وإلى دفع كل معند عليهم . فلا بد من التقدير لذلك كله ، وتبدير الأمر له . وما كان لأبي بكر ، وموقفه من رسول الله ما رأيت ، أن يشغل نفسه من بعد بغير هذا التقدير والتبدير ، حتى لا تكون فتنة داخلية في المدينة بتحريض اليهود والمنافقين ، وحتى لا يغزو المدينة غاز من الخارج .

كان هو وعمر
وزيري الرسول

والحق أن نصر المسلمين بلدر قد أعزّ كآمتهم ، فحرك في نفوس منافسيهم حقداً عليهم أيّ حقد . حرك في نفوس اليهود حفاظ كانت ساكنة ، وحرك في قلوب القبائل المجاورة للمدينة مخاوف كانت مطمئنة . ولم يكن بدّ ، لاتقاء ما ينجم عن هذا وذاك ، من سياسة حكيمة ، وتقدير دقيق ، ومشاورة متصلة بين النبي وأصحابه . وقد اتخذ النبي من أبي بكر وعمر وزيرين يحص على ضوء ما بينهم من تباين في الطبع مع صدق في إخلاص المشورة ، ما ينظم به سياسته الناشئة . هذا مع مشاورته غيرهما من سائر المسلمين ، مشاورة كان لها أثرها الكبير في جمع الكلمة ، وفي توزيع التبعة على الجميع ، توزيعاً يُشعر كل واحد بأن عليه منها قسطاً ونصيباً .

وكان من أثر ما تحرك من حفاظ اليهود أن حاصر المسلمون منهم بني قيسنق وأجلاهم عن المدينة . وكان من أثر ما تحرك من مخاوف القبائل أن جعل المحيطون بالمدينة منهم يجتمعون للاعتداء عليها ، فإذا سمعوا بخروج محمد إليهم ولّوا فراراً وملئت قلوبهم رعباً .

موقفه في غزوة
أحد

وكانت هذه الأنباء تصل مكة ، فلا تصد قريشاً عن التفكير في الثأر لبلدر . ولقد ذهبت تلتبس هذا الثأر ، فالتقت بالمسلمين عند أحد ، فدارت الدائرة وجه النهار عليها ؛ لكن مصير اليوم تغير حين خالف رماة المسلمين أمر النبي ، وتركوا مواقعهم وانطلقوا يغنمون مع الغانمين . فقد اهتبل خالد بن الوليد الفرصة فأوقعت قريش بالمسلمين فاضطربوا ؛ وأصيب النبي بجراحة كان المشركون يقذفونها ، فوقع لشقّه وأصيب في وجهه ، وتنادت قريش أنه مات . ولولا أن أحاط به من أبطال المسلمين من افتدّوه بأنفسهم وأرواحهم ، لكان لله في خلقه من يومئذ شأن غير هذا الشأن . ومن يومئذ صار أبو بكر أكثر

ملازمة للنبي في غزواته وحين مقامه بالمدينة .

وأنت تذكر أن حياة المسلمين ، إلى أن استقر لهم الأمر بعد فتح مكة وإسلام ثقيف بالطائف ، قد كانت حياة غزو ، ودفعاً للغزو ، أو استعلاءً لدفعه . دع عنك الغزوات الصغرى التي كانت أدنى إلى المناوشات . فقد كان اليهود ، وعلى رأسهم حِيسَى بن أخطب ، لا يفتأون يؤلبون على المسلمين . وكانت قريش تبدل جهد الطاقة لإضعافهم والقضاء على سلطانهم . فكانت غزوات بنى النضير والخندق وبنى قُرَيْظَةَ وما تخللها من الغزوات ، أثر سياسة اليهود ، وحقد قريش .

صار أبو بكر أكثر ملازمة للنبي في هذه المواقف والمواقع جميعاً ، وهو أشد ما يكون برسالته إيماناً وتصديقاً . فلما اطمأن رسول الله إلى منعة المدينة وأن له أن يوجه خطته توجيهاً جديداً يمهّد الله به لإكمال دينه ، كان لأبي بكر مواقف زادت المسلمين اقتناعاً بأنه الرجل الذي يلي رسول الله مكانة من نفوسهم ، وسموا في تقلديهم .

بعد ست سنوات من هجرة المسلمين إلى المدينة أذن محمد في الناس بالحج إلى البيت العتيق . وبلغ قريشاً مسيرة القوم ، فأقسموا لا يدخل محمد مكة عليهم عنوة . وأقام محمد وأصحابه بالحُدَيْبِيَّةِ بظاهر مكة ، وهو مستمسك بالسلام ، رافض كل دعوة إلى منازلة قريش ، معلناً أنه جاء حاجاً ولم يجئ غازياً . وتبادل مع قريش الرسل ، وانتهى الأمر بينه وبينهم إلى عهد رضى به أن يرجع عنهم عامته ، وأن يعود إليهم العام الذي يليه .

موقفه في
الحديبية

غضب كثير من المسلمين ، بينهم عمر بن الخطاب ، لتراجعهم ورجوعهم ، ورأوا في هذا العهد إعطاءً للدينة في دينهم . أما أبو بكر فأمن وصدق بحكمة رسول الله . فلما نزلت سورة الفتح آمن الناس جميعاً بأن عهد الحديبية كان فتحاً مبيناً ، وبأن أبا بكر كان الصديق في هذه ، كما كان في غيرها من مواقفه .

كانت الدعوة الإسلامية تزداد على الأيام كمالاً ؛ وكان المسلمون بالمدينة يزادون بذلك بأساً وقوة . وكان من مظاهر قوتهم أن حاصروا اليهود في خيبر وفدك وتيماء ، وأخضعوهم لسلطانهم ، تمهيداً لإجلالهم عن بلاد

ازدياد قوة
المسلمين وإقبال
الوفود

العرب ، ثم كان من مظاهر قوتهم وكمال الدعوة أن أرسل محمد إلى الملوك والأُمراء بفارس ، وُبَرْزَطِيَّة ، ومصر ، والحيرة ، واليمن ، وما جاور بلاد العرب أو دخل فيها من الإمارات ، يدعوهم إلى الإسلام . فأما المظهر الأسنى لهذا الكمال وهذه القوة ، فذلك فتح مكة ، وحصار الطائف . بهذا كله تألَّق نور الدين الحديدي في شبه الجزيرة ، وجاوزها إلى الإمبراطوريتين العظيمتين اللتين كانتا قابضتين على ناصية العالم في ذلك العصر : الروم ، وفارس ، وبذلك اطمأن الرسول والمسلمون إلى نصر الله ، وإن استمسكوا بخُطَّة الحذر ، حتى لا يدهمهم من أية ناحية من يحاول أن يُغشِّي هذا النور أو أن يضعف سلطانه .

وحين رأت العرب هذه القوة جاءت وفودهم تترى من أنحاء شبه الجزيرة ، تألَّق نور الإسلام تعلن إيمانها بالدين الجديد . أليس هذا الداعي إليه قد كان وحيداً فريداً ، وما هو ذا قد انتصر على اليهود ، وعلى النصراني ، وعلى المجوس ، وعلى المشركين !! وهل ينتصر إلا الحق ! وهل آية أدل على أن دعوته هي الحق الخالص من انتصاره على هؤلاء جميعاً ، وهو لا يتغى عليهم سلطاناً ، ولا يطلب إليهم إلا أن يؤمنوا بالله ، وأن يعملوا الصالحات !! هذا منطق إنساني أقره الناس في كل زمن وآمنوا به أينما وجدوا . وهو منطق يقره العقل ما أثبتت السنون قوة حجته فلم يغلبه غالب .

وأذن الله أن يتم المسلمون فروض دينه . والحج تمام هذه الفروض . لكن تتابع الوفود لم يتح لرسول الله أن يغادر المدينة إلى بيت الله الحرام . لذلك أمر أبا بكر أن يحج بالناس ، فخرج في ثلاثمائة من المسلمين ، حجَّوا وطافوا وسعَّوْا . وفي هذا الحج أعلن على بن أبي طالب إلى الناس - أو أعلن أبو بكر في رواية أخرى - أن لا يحج بعد ذلك العام مشرك . ثم أجَّل الناس أربعة أشهر ، ليرجع كل قوم إلى مأمَنهم وبلادهم . ومن يومئذ إلى اليوم ، وإلى ما يشاء الله ، لم يحج إلى البيت الحرام مشرك ، ولن يحج إليه مشرك .

وفي السنة العاشرة من الهجرة ، حج رسول الله حَجَّة الوداع ، وحج أبو بكر معه . وسار صلى الله عليه وسلم ، وصحبه نساؤه جميعاً ، وتبعه من

حجة الوداع
ثم بعث أسامة

العرب مائة ألف أو يزيدون . ولم يطل مقام النبي بالمدينة بعد عودته من الحج ، حتى أمر بتجهيز جيش لسحب إلى الشام ، جعل فيه المهاجرين الأولين ، ومنهم أبو بكر وعمر . وعسكر هذا الجيش بالحرف ، ثم تراءى إليه أن رسول الله مرض ، فلم يتحرك إلى غرضه ؛ لأن المرض اشتد بالنبي شدة أثارت مخاوف الناس عليه .

ولما ثقل عليه المرض أمر أن يصلي أبو بكر بالناس . روى عن عائشة أنها قالت : « لما ثقل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جاء بلال يؤذنه بالصلاة فقال : مروا أبا بكر فليصل بالناس . قلت يا رسول الله : إن أبا بكر رجل أسيء وإنه متى يقوم مقامك لا يسمع الناس ، فلو أمرت عمر ! قال : مروا أبا بكر يصلي بالناس . فقلت لحفصة : قولي له إن أبا بكر رجل أسيء ، وإنه متى يقوم مقامك لا يسمع الناس ، فلو أمرت عمر ! فقالت له حفصة ، فقال : إنكن لأنتن صواحب يوسف . مروا أبا بكر فليصل بالناس ! فقالت حفصة لعائشة : ما كنت لأصيب منك خيراً » .

النبي يأمر أن
يصلي أبو بكر
بالناس

وصلى أبو بكر بالناس كأمر النبي . وإنه لغائب يوماً إذ دعا بلال إلى الصلاة ونادى عمر أن يصلي بالناس . وكان عمر جهوري الصوت ، فلما كبر في المسجد سمعه محمد من بيت عائشة ، فقال : « فأين أبو بكر ؟ يأبى الله ذلك والمسلمون » . ولقد ظن بعضهم أن النبي استخلف أبا بكر من بعده بما أنه قد أمره بالصلاة مكانه ؛ فالصلاة بالناس أول مظهر للقيام مقام رسول الله .

وفي أثناء هذا المرض خرج محمد إلى المسلمين يوماً بالمسجد ، وقال فيما قاله لهم : « إن عبداً من عباد الله خيرته الله بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند الله » ، ثم أمسك . وقد أدرك أبو بكر أن النبي إنما يعنى نفسه ، فأجهش بالبكاء وقال : « نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا » ، وأمر محمد أن تقفل أبواب المسجد إلا باب أبي بكر ، ثم قال مشيراً إلى الصديق : « إني لا أعلم أحداً كان أفضل في الصحبة عندي يداً منه . وإني لو كنت متخذاً من

خليل رسول الله

العباد خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ولكن صحبة وإخاء وإيمان حتى يجمع الله بيننا عنده » .

وفى اليوم الذى قبض فيه النبي خرج ساعة الصبح إلى المسجد ، معتمداً على عليّ بن أبي طالب والفضل بن العباس ، وكان أبو بكر يصلّي ساعتئذ بالناس . فلما رأى الناس النبي فرحوا وتفرّجوا ، فأشار إليهم أن اثبتوا على صلاتكم . وأحسّ أبو بكر أنهم لم يصنعوا ذلك إلا لرسول الله ، فتأخر عن مكانه ، فأومأ إليه النبي : أن كما أنت ، وجلس رسول الله عن يسار أبي بكر فصلّي قاعداً .

وعاد النبي بعد هذه الصلاة إلى دار عائشة . لكنه ما لبث أن عاودته الحمى ، فدعا بإناء فيه ماء بارد جعل يضع يده فيه ويمسح بمائه وجهه . وبعد سوية من ذلك اختار الرفيق الأعلى ، واختار ما عند الله .

وترك رسول الله هذه الحياة الدنيا ، وقد أكمل الله للناس دينهم ، وأتم عليهم نعمته . فماذا يصنع العرب من بعده ؟ إنه لم يستخلف خليفة ؛ ولم يضع للحكم نظاماً مفصلاً . فليجتهدوا ، ولكل مجتهد نصيب .

الفصل الثاني

بيعة أبي بكر

ذهول المسلمين
بعد وفاة النبي

اختار الله رسوله إلى جواره في الثاني عشر من ربيع الأول عام ١١ للهجرة (الثالث من شهر يونيو سنة ٦٣٢ للميلاد) . وكان صلى الله عليه وسلم صبح ذلك اليوم قد شعر بشيء من العافية من مرضه ، فخرج من بيت عائشة إلى المسجد ، وتحدث إلى المسلمين ، ودعا لأسامة بن زيد بالخير ، وأمره أن يسير لغزو الروم . فلما تطاير إلى الناس أن رسول الله قد مات بعد سويعات من جلوسه بينهم وحديثه إليهم تولاهم الذهول ، وقام عمر بن الخطاب فيهم خطيباً ينفي الخبر ، ويذكر أن رسول الله ما مات ، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران ؛ فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات . وانطلق عمر يهدّد القائلين بوفاة الرسول ويذكر أنه صلى الله عليه وسلم سيرجع إليهم فيقطع أيديهم وأرجلهم .

موقف أبي بكر
من وفاة النبي

وكان أبو بكر قد ذهب إلى داره بالسُّنْح من ضواحي المدينة بعد أن عاد النبي عليه السلام من المسجد إلى دار عائشة . فلما نما في الناس نبأ وفاته ذهب في أثر الصديق من أبلغه إياه فكرّ راجعاً ، فبصر بالمسلمين ويعمر يخطبهم ، فلم يقف بل قصد إلى بيت عائشة حيث ألقى النبي صلى الله عليه وسلم مسجى في ناحية من البيت ، فكشف عن وجهه وجعل يقبّله ويقول : « ما أطيبك حياً وما أطيبك ميتاً ! » ، وخرج إلى الناس فقام فيهم فقال : « أيها الناس ، من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات . ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت » . ثم تلا قوله تعالى : « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ . أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ » . فلما سمع عمر هذه الآية خر إلى الأرض ما تحمله رجلاه ، وأيقن أن رسول الله قد مات . ووجم الناس لما سمعوا ولما رأوا ، وأقاموا في ذهولهم لا يدرون ما يصنعون .

تصوير ناحية
من نفسيته

تقف هنيهة ها هنا لنصور ناحية من نفسية أبي بكر يدل عليها موقفه هذا أبلغ الدلالة . فلو أن رجلاً من المسلمين جاز أن يبلغ منه الجزع لوفاة الرسول ما بلغ من عمر ، لكان ذلك الرجل أباً بكر ، فهو صفيُّ النبي وخليله ، ومن أثره في كل موقف على نفسه . وهو الذي أجهش بالبكاء لقول رسول الله : « إن عبداً من عباد الله خيرَ الله بين الدنيا وبين ما عنده ، فاختار ما عند الله » . وهو الذي قال حين سمع هذه الكلمة والعبرة تخنقه : « نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا » . لكن جزعه لوفاة الرسول لم يُذهله ما أذهل عمر . وهو لم يلبث حين أيقن أن الله اختار رسوله إليه ، أن خرج إلى الناس وخطبهم بما قرأت .

قوته النفسية
وبعد نظره
إلى المستقبل

وهذه الكلمات التي ألقاها عليهم ، وهذه الآية التي تلاها من القرآن لإقناعهم ، تدل على قوة في مواجهة الحقائق تنأى بصاحبها عن أن يذهله نبأ فاجع كمرت رسول الله . وقد اقترنت هذه القوة النفسية بصفة أخرى زادت بها جلالاً ومهابة ، هي بُعدُ النظر إلى المستقبل . وهاتان الصفتان تثيران العجب من رجل كله الرفق والركة ، وكاهه التقديس لمحمد والمحبة له أكثر من حبه الحياة وما فيها .

وهذه القوة النفسية البالغة التي كانت سند أبي بكر في هذه الساعة العصيبة الرهيبة ، ساعة فجعية المسلمين لفقد نبي الله ورسوله ، هي التي كانت سنده في . الساعات الكثيرة العصيبة التي مرّت من بعده وبالمسلمين ، وهي التي وقّت المسلمين ووقت الإسلام فتنة لولاهما لتعرضوا لحن لا يعلم إلا الله ما كان يصيبهم ويصيب النشأة الجديدة من جرائها .

لم يكن عمر والمسلمون الذين أحاطوا به واستراحوا إلى قوله إن النبي لم يمّت ، إلا الذين أذهلهم النبأ عن التفكير فيما وراءه . أما الذين أيقنوا بحقيقة هذا النبأ أول ما عرفوا به ، فلم يشنّهم الحزن عن هذا التفكير . فقد آل أمر المدينة إلى الرسول بعد أن استقر بها ، وبعد أن تمّ لدينه السلطان فيها . فلمن عسى أن ينتقل هذا الأمر من بعده ، وقد امتد سلطان الرسول على سائر العرب بعد أن دانوا بالإسلام ، وبعد أن ارتضى الكتابيون الذين أقاموا على دينهم أن يدفعوا الجزية ؟ ترى أیظل للمدينة هذا السلطان ؟ وإن ظل لها فلمن من أهلها يؤول ؟ .

لمن عسى أن
ينتقل الأمر من
بعد الرسول

موجدة الأنصار
على المهاجرين

الأنصار وعطاء
المؤلفة قلوبهم

لقد كان الأنصار من أهل المدينة يجدون على المهاجرين أنهم آوهم ونصروهم أول ما جاءوا إليهم ضيوفاً مع الرسول ، فلما اطمأنوا أرادوا أن يستأثروا بالأمر دونهم . كانت هذه روحهم في عهد النبي ، فكان من الطبيعي أن تظهر واضحة حين وفاته ؛ بل لقد ظهرت في حياة الرسول بعد فتح مكة وغزاة حنين والباطث . فقد أجزل محمد العطاء من فيء هذه الغزاة إلى المؤلفة قلوبهم من أهل مكة . فلما رأى الأنصار ذلك تحدث فيه بعضهم إلى بعض وقال قائل منهم : لقي والله رسول الله قومه . فلما بلغت هذه المقالة النبي طلب إلى سعد بن عبيدة سيد الخزرج أن يجمعهم إليه ، فلما اجتمعوا قال لهم : « يا معشر الأنصار ، ما قاله بلغتنى عنكم ، وجيدة وجدتموها في أنفسكم ! ألم أتكم ضلّالاً فهذاكم الله ، وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألّف الله بين قلوبكم ؟ » . وأطرق الأنصار لما سمعوا ، وكان كل جوابهم : « بلى ! الله ورسوله أمنُّ وأفضل » . وسألهم النبي : « ألا تجيبوني يا معشر الأنصار ! » . فظلوا مطرّقين ولم يزيدوا على أن قالوا : « بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ الله ورسوله المنُّ والفضل » .

هنالك تولى محمد الجواب عنهم فقال : « أما والله لو شتم لقلتم فلصنّد قتم ولصنّد قتم : أتيتنا مكذباً فصدّقناك ، ونخذولاً فنصرناك وطريداً فأويناك ، وعائلاً فأسيناك » قال هذه العبارة والتأثر باد عليه ، ثم أردف : « أوجدتم ، يا معشر الأنصار في لُعاة من الدنيا تألفت بها قوماً لمُسلموا ووُكّلتكم إلى إسلامكم ! ! ألا ترضون يا معشر الأنصار ، أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعون برسول الله إلى رجالكم ! ! فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار . ولو سلك الناس شعباً وسلك الأنصار شعباً لسلك شعب الأنصار . اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار » . ولقد بلغ من تأثر الأنصار بهذه العبارة التي صدرت من أعماق قلب النبي ، فقالها وكله العطف والمحبة لأولئك الذين بايعوه ونصروه وأعزّوه أن بكوا وقالوا : « رضينا برسول الله قِسْماً وحظاً » .

الأنصار حين
فتح مكة

ولم يكن فيء حُسين وعطاء المؤلفة قلوبهم أول ما أثار المخاوف في نفوس الأنصار ، بل ثارت مخاوفهم قبل ذلك وعلى أثر فتح مكة ، حين رأوا النبي

يقوم على الصفا ويدعو ، وحين رآوه يحطم الأصنام ويتم في يوم واخذ ما دعا إليه منذ عشرين سنة. فقد خيل إليهم أنه تارك المدينة فعائد إلى وطنه الأول. وقال بعضهم لبعض : «أترون رسول الله إذ فتح الله عليه أرضه وبأهله لمقيم بها ؟» . فلما اتصل بمحمد نبأ مخافتهم قال : «معاذ الله. الحيا حياكم ، والممات مماتكم» . طبعي^١ وذلك كان شعور الأنصار أن يسرعوا إلى التفكير في أمر مدينتهم أول ما عرفوا أن النبي مات . تُرى أیظل أمر هذه المدينة وأمر العرب إلى المهاجرين الذين أقاموا ضعافاً بمكة لا مأوى لهم ولا نصير حتى أعزتهم المدينة ، أم يكون الأمر لأهل هذه المدينة الذين قال فيهم الرسول إنه أئامهم مكذباً فصدقوه ، ومخذولاً فنصروه ، وطريداً فأروه ، وعائلاً فأسوه ؟ تحدث بعضهم الأنصار إلى بعض في هذا ، وتداعوا إلى سقيفة بني ساعدة . وكان سعد بن عبادة مريضاً في داره فأخرجوه إليهم ليكون صاحب الرأي فيهم . وأصغى سعد إلى حديثهم ، ثم قال لابنه أو لبعض بني عمه : «إني لا أقدر لشكواي أن أسمع القوم كلهم كلامي ، ولكن تلق مني قولي فأسمعهم» ، ثم جعل يتكلم فينقل الرجل إلى الحاضرين كلامه . قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : «يا معشر الأنصار ، إن لكم لسابقة في الدين ، وفضيلة في الإسلام ليست لقبيلة من العرب . إن محمداً عليه السلام لبث بضع عشرة سنة في قومه يدعوهم إلى عبادة الرحمن ، وخلع الأنداد والأوثان ، فما آمن به من قومه إلا رجال قليل ؛ وما كانوا يقدرون على أن يمنعوا رسول الله ولا أن يُعزوا دينه ، ولا أن يدفعوا عن أنفسهم ضيماً عُموا به . فلما أراد لكم ربكم الفضيلة ساق إليكم الكرامة وخصكم بالنعمة ، فزقكم الله الإيمان به وبرسوله ، والمنع له ولأصحابه ، والإعزاز له ولدينه ، والجهاد لأعدائه ، فكنتم أشد الناس على عدوه منكم ، وأثقله على عدوه من غيركم ، حتى استقامت العرب لأمر الله طوعاً وكرهاً ، وأعطى البعيد المقادة صاغراً داخراً ، وحتى أثخن الله عز وجل لرسوله بكم الأرض ، وذانت بأسيا فكم له العرب ، وتوفاه الله وهو عنكم راض ، وبكم قير عين ؛ فاستبدوا بهذا الأمر دون الناس ، فإنه لكم دون الناس» .

الأنصار في
سقيفة بني
ساعدة

خطبة سعد بن
عبادة في الأنصار

سمع الحاضرون مقالة سعد ثم أجابوه بأجمعهم : «وفقت في الرأي ، وأصبت في القول ، ولن نعدوما رأيت . نوليك هذا الأمر ؛ فإنك فينا متقن ، ولصالح المؤمنين رضا» .

أفكان هذا الإجماع صريحاً قوياً صادراً عن عزيمة لا تهين ولا تكتبو ؟
لو أنه كان كذلك لأسرع القوم إلى بيعة سعد بن عباد ، ولدعوا الناس إلى متابعتهم على بيعته . ولكن القوم ما لبثوا أن تراءوا الكلام بينهم قبل أن يُقبل أحد على بيعة سعد : قال قائل منهم : « فإن أبت مُهاجرة قريش فقلوا : نحن المهاجرون ، وصحابة رسول الله الأولون ، ونحن عشيرته وأولياؤه ، فعلام تُنازعونا هذا الأمر بعده ؟ » . وأنصت الحاضرون إلى هذا القول ، ورأوا فيه من الحق ما حسبه بعضهم لا يدفع . هنالك قالت طائفة منهم : « فإننا نقول إذن منا أميرٌ ومنكم أمير . ولن نرضى بدون هذا الأمر أبداً » .

ولم يخف على ابن عباد ما تنطوى عليه هذه المقالة من تردد يقعد بصاحبه دون غايته ؛ لذلك قال حين سمعها : « هذا أول الوهن » . ولعله إنما رآها أول الوهن أن رأى الدين يقولونها من بنى الأوس . فما كان بنو الخزرج ليقولوا مثلاً وهو رئيسهم الذى يرشحونه لولاية الأمر من بعد الرسول . والأوس والخزرج كانوا دائماً على خلاف بينهم ، منذ نزل أجدهم الأولون المدينة قادمين من اليمن حين هجرة الأزدي إلى الشمال . فقد ألقى هؤلاء الأجداد اليهود بالمدينة فخصعوا لسلطانهم زمناً ، ثم ثاروا بهم وأنزلوهم عن مكان السلطان منهم . ومن يومئذ نشبت بين القبيلتين خصومة طالما ردت السلطان لليهود . ورأى الفريقان ما يحجره ذلك عليهم من ضعف ، فهموا أن يولوا عليهم أحدهم عبد الله بن محمد من الخزرج ، بعد أن أفنت وقعة بُعث الكثيرين منهم ، وأعات كلمة لإسرائيل بينهم . وإنهم لذلك إذ قدِم منهم جماعة مكة حاجين ، فتعرض لهم النبي يدعوهم إلى الله ، وقال بعضهم لبعض : « والله إنه للنبي الذى تواعدكم به يهود ، فلا يَسْبِقُكُمْ إليه » . ثم أجابوا دعوته ، وأسلموا وقالوا له : « إنا تركنا قومنا — أى الأوس والخزرج — ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فعسى أن يجمعك الله بهم ؛ وإن يجمعهم عليك فلا رجل أعز منك » وعاد هؤلاء إلى المدينة ، فأنبأوا قومهم بما رأوا ، فكان ذلك مقدمة بيعة العقبة الكبرى ، ومقدمة هجرة الرسول إلى المدينة ، وبدء انتشار الإسلام فيها .

جمع الدين الجديد كلمة المؤمنين به ، ثم زادهم التفاهم حول النبي لإخاء

ومردة . بذلك ضعف سلطان اليهود ضعفاً مهبطاً لخلائهم من بعد عن المدينة وعن بلاد العرب جميعاً . على أنه بقيت مع ذلك في نفوس الأوس والخزرج آثار من خصومتهم الأولى ، كانت تبدو كلما حركها من اليهود أو المنافقين من ادعى الإسلام باطلاً ليفرق بين أهله . وذلك ما يدعو إلى الظن بأن سعد بن عبيدة لم يقل حين نظر إلى القوم في السقيفة يستمعون إلى من يقول : منا أمير ومن قريش أمير : « هذا أول الوهن » إلا لأن أصحاب هذه المقالة كانوا من بني الأوس .

بينما كان الأنصار في سقيفة بني ساعدة يتداولون أمرهم بينهم يريدون أن ينفردوا بالسلطان على العرب ، كان عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح وطائفة من كبار المسلمين ومن سوادهم يتحدثون بالمسجد عن وفاة الرسول ، وكان أبو بكر وعلي بن أبي طالب وأهل بيت النبي يحيطون بجثمانه ويعدون العدة لتجهيزه ودفنه . وبدأ ابن الخطاب مذيقن بوفاة النبي يفكر فيما عسى أن يكون الأمر من بعده . ولم يدرك بخلده أن الأنصار سبقوه إلى هذا التفكير ، أو أنهم يريدون أن يستبدوا بالأمر دون الناس . قال ابن سعد في الطبقات : « أتى عمرُ أبا عبيدة بن الجراح ، فقال : ابسط يدك فلأباعدك ، فأنت أمين هذه الأمة على لسان رسول الله . فقال أبو عبيدة لعمر : ما رأيت لك فمَهْمَةً (١) قبلها منذ أسلمت . أتبايعني وفيكم الصديق وثاني اثنين » وإنهم لفي هذا الحديث إذ جاءهم نبأ الأنصار واجتماعهم في سقيفة بني ساعدة . فأرسل عمر إلى أبي بكر في بيت عائشة أن اخرج إلينا ، فأجاب أبو بكر الرسول : « إني مشغول » . فرد عمر رسوله يقول لأبي بكر : « إنه قد حدث أمر لا بد لك من حضوره » .

حديث عمر
ابن الخطاب
وأبي عبيدة
ابن الجراح عن
الخلافة

وخرج أبو بكر إلى عمر وقد تولاه العجب ، أي أمر يمكن أن يدعى إليه فيصرفه عن جهاز رسول الله ! قال عمر : « أمّا علمت أن الأنصار قد اجتمعت في سقيفة بني ساعدة يريدون أن يولوا هذا الأمر سعد بن عباد ، وأحسنهم مقالة من يقول منا أمير ومن قريش أمير ! ! » ولم يتردد أبو بكر حين سمع ذلك

أبو بكر وعمر
وأبو عبيدة
يذهبون إلى
سقيفة بني ساعدة

أن مضى مع عمر مسرعين إلى السقيفة ومعهما أبو عبيدة بن الجراح . وكيف يتردد والأمر أمر المسلمين ومصيرهم ، بل أمر هذا الدين الذى أوحى إلى محمد ومصيره ! إن حول جثمان الرسول أهله يقومون بما يجب لجهازه ودفنه ، فلينتقل مع صاحبيه إلى السقيفة ، فذلك واجب عليه لله ورسوله لا يستطيع غيره أن ينهض به . وهو لم يتدخل يوماً عن أداء الواجب والنهوض بأجسام التَّبِيعَات وإن اقتضاه ذلك بذل ماله ونفسه .

مضى ثلاثة الرجال لم يثنهم أن لقيهم عاصم بن عدى وعويم بن ساعدة فقال لهم : ارجعوا فإنه لا يكون ما تريدون . فلما قالوا : « يا معشر المهاجرين ، لا تأتوهم واقضوا أمركم » قال عمر : « والله لنأتينهم » .

اجتماع السقيفة
وعظيم خطره

وبلغ الثلاثة السقيفة والأنصار لا يزالون فى حوارهم لم يبايعوا سعداً ولم يقطعوا فى ولاية الأمر برأى . ودهش الأنصار حين رأوهم فأمسكوا عن القول ، وكأنما سَقَطَ فى أيديهم . وسأل عمر بن الخطاب عن رجل مزمل بين ظهرائتيهم من هو ، فأجابوا : هذا سعد بن عباد به وجع . وجلس أبو بكر وصاحبا بين القوم وكل تتمشى فى نفسه هواجس يسأل نفسه عمّ يسفر هذا الاجتماع ؟

والحق أنه كان اجتماعاً جليل الخطر فى حياة الإسلام الناشئ . ولولا ما أبدى أبو بكر فى هذا الاجتماع من قوة الحزم وصلابة الإرادة لأوشك هذا الدين الجديد أن يثور الخلاف عليه فى موطنه كما ثار فى مواطن أخرى من بلاد العرب ، وأن يثور وجثمان صاحب الرسالة ما يزال فى بيته لم يثو فى قبره .

أرأيت لو أن الأنصار أصرروا على أن يستبدوا بالأمر دون الناس استجابة لدعاء سعد بن عباد ولم ترض قريش أن يكون لغيرها الأمر ، فأى مسرح للثورة كانت تصبح مدينة الرسول ! ولأية ثورة جائحة مسلحة وجيش أسامة فى أحشائها فيه المهاجرون وفيه الأنصار وكلهم مدجج بسلحه قد لبس درعه واتخذ للقتال عدته !! ولو أن المهاجرين الذين ذهبوا إلى السقيفة كانوا غير أبى بكر وعمر وأبى عبيدة ممن ليس لهم فى نفوس المسلمين جميعاً ما لوزيرى

رسول الله ولأمين الأمة من مكانة ، لشجر الخلاف بينهم وبين الأنصار ،
ونخيف على جماعة المسلمين من الاختلاف وما يجر إليه ، ولكان لذلك أثره الذي
لا يفكر اليوم فيه مؤرخ ، ولما وقف الأكثرون من اجتماع السقيفة عند رواية
الحوادث وذكر الخطب التي تبودلت وما تم على أثرها من بيعة أبي بكر . أما
الذين يقدرّون الحوادث قدرها ، فيرون لهذا الاجتماع التاريخي من الأثر في
حياة الإسلام ما كان لبيعة العقبة الكبرى ، وما كان لهجرة الرسول من مكة إلى
المدينة ، ويرون فيما كان من أبي بكر وحسن تصرفه في الموقف عمل الرجل
السياسي ، بل رجل الدولة البعيد مرمى النظر ، والذي يقدر النتائج ويرتب
للاحتمالات ، ويوجه كل جهده إلى الغرض الذي يريد أن يحقق به أعظم الخير
ويبقى به كل ضرر أو أذى .

ألفنا في حياتنا الحاضرة عبارات يصوّر بها الساسة أحوالاً أو أعمالاً يحسبونها
بدعاً لم يسبقهم إليه في التاريخ أحد . ومن مألوف ما نسمع في هذا الزمن
عبارة « الهجوم السلمي » . وهذا الهجوم السلمي لم يكن مجهولاً في العصور
الماضية . بل هذا الهجوم هو ما لجأ إليه أبو بكر وأتبعه أصحابه في ذلك الاجتماع
التاريخي بالخليل الخطر .

أبو بكر يبدأ
الهجوم السلمي

لما اطمأن بالمهاجرين الثلاثة المجلس خرج الأنصار من صمتهم وزايلتهم
دهشتهم ، ولم يُخفِ أشدهم حماسة حرصهم على أن يكون الأمر من بعد
الرسول لهم . قال عمر : « وكنت قد زويت^(١) كلاماً أردت أن أقوم به فيهم ،
فلما أن دفعت إليهم ذهبت لأبتدئ المنطق ، فقال لي أبو بكر : رويداً
حتى أتكلم ثم انطق بعد بما أحببت » . إنما خشى أبو بكر شدة عمر في
القول وليس الموقف موقف شدة أو عنف بل موقف سياسة وحسن مدخل .
نهض أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه وذكر رسول الله وما جاء به من رسالة
التوحيد ثم قال :

« . . . عظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم ، فخص الله المهاجرين
الأولين من قومه بتصديقه ، والإيمان به ، والمؤاساة له ، والصبر معه ، على شدة

خطبته الأولى
في الأنصار

(١) زويت : جمعت . ويروى « زورت » .

أذى قومهم لهم ، وتكذيبهم إياهم ، وكلّ الناس مخالف لهم زار عليهم ، فلم يستوحشوا لقلة عددهم ، وشَسَفَ^(١) الناس لهم ، وإجماع قومهم عليهم . فهم أول من عبد الله في الأرض ، وآمن بالله وبالرسول ، وهم أولياؤه وعشيرته ، وأحق الناس بهذا الأمر من بعده ، ولا ينافيهم ذلك إلا ظالم .

« وأنتم يا معشر الأنصار ، من لا يُنكر فضلهم في الدين ، ولا سابقتهم العظيمة في الإسلام ، رضيكم الله أنصاراً لدينه ورسوله ، وجعل إليكم هجرته ، وفيكم جلة أزواجه وأصحابه . فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا بمنزلتكم . فنحن الأمراء وأنتم الوزراء ، لا تُفتاتون بمشورة ، ولا تُقضى دونكم الأمور » .

نحن الأمراء وأنتم الوزراء ، لا تفتاتون بمشورة ، ولا تقضى دونكم الأمور . ما أقرب هذا القول من رأى الأنصار الذين قالوا : منا أمير ومن المهاجرين أمير . وهذا القول أدخل في باب النظام وأدنى إلى أن تسير الأمور سيرة صلاح وإصلاح . هذا حق . ولعل أبا بكر قصد إليه فكان قصده حسن السياسة وبعد النظر . ولعل الأوس الذين كانوا ينفسون على الخزرج قد استراحوا إليه . ولعل كثيرين من بني الخزرج أنفسهم لم ينفروا منه . فهذا أبو بكر لم يرد للمهاجرين أن يستبدوا بالأمر دون الناس كما فعل سعد بن عباد . بل جعل الأنصار ووزراء فأشركهم في الأمر ولم يشرك غيرهم ، وإن كان من غيرهم في بعض أنحاء شبه الجزيرة من هم أكثر قوة وأعز نفراً . وهو إنما أشركهم على الأساس الذي جعل به الإمامة للمهاجرين : مقامهم في السبق إلى نصر الرسول وتأييده .

لا جرم إذن أن يستريح الجميع إلى هذا القول ، فهو عدل كل العدل ، وأساسه الحق كل الحق .

رد الأنصار على
أبي بكر

ورأى الذين أخذت منهم الحماسة للأنصار مأخذها ما ترك كلام أبي بكر في نفوس أهل السقيفة ، وخشوا أن ينفصّ إجماعهم الأول وأن يغصبهم المهاجرون الأمر ويستأثروا بالسلطان دونهم ، هنالك قام أحدهم فقال : « أما بعد ، فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام . وأنتم يا معشر المهاجرين رهط

منا وقد دَفَّتْ دافَّةً من قومكم وإذا هم يريدون أن يختزلونا^(١) من أصلنا ويغصبونا الأمر « ولم يرض أبو بكر أن يذر مقامه بعد هذا الذي سمع ، فتوجه كره أخرى للأَنْصار فقال : « أيها الناس ؟ نحن المهاجرون أول الناس إسلاماً ، وأكرمهم أحساباً ، وأوسطهم داراً ، وأحسنهم وجوهاً ، وأكثرهم ولادة في العرب ، وأمسهم رحماً برسول الله . أسلمنا قبلكم ، وقدّمنا في القرآن عليكم ، فقال تبارك وتعالى : (وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ) ، فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار إخواننا في الدين ، وشركاؤنا في النِّبَاءِ ، وأنصارنا على العدو . أما ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل ، وأنتم أجدر بالثناء من أهل الأرض جميعاً ؛ فأما العرب فلن تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحى من قريش ، فمننا الأمراء ومنكم الوزراء » .

لن تعرف العرب
هذا الأمر إلا
لهذا الحى من
قريش

كرر أبو بكر هذه الكلمة الأخيرة التي تركت من الأثر في النفوس أول ما قيلت ما توجَّس غلاة الأنصار معه خيفة ، فقام الحباب بن المنذر ابن الجموح فقال :

« يا معشر الأنصار ! املكوا عليكم أمركم ، فإن الناس في فيثكم ، ولن يجترئ مجترئ على خلافكم ، ولن يصدر الناس إلا عن رأيكم . أنتم أهل العز والثروة ، وأولو العدد والمنعة والتجربة ، وذوو البأس والنجدة ، وإنما ينظر الناس إلى ما تصنعون . فلا تختلفوا فيفسد عليكم رأيكم ، وينتقض عليكم أمركم . أبى هؤلاء إلا ما سمعتم . فمنا أمير ومنكم أمير » .

تخرج الموقف
بين المهاجرين
والأنصار

لم يكده الحباب يفرغ من حديثه حتى نهض عمر بن الخطاب ، وكان قد أمسك قبل ذلك عن الكلام طوعاً لأبى بكر ، فقال : « هيهات لا يجتمع اثنان في قسَرَن . والله لا ترضى العرب أن يؤمروكم ونسيها من غيركم ، ولكن العرب لا تمتنع أن تُتولى أمرها من كانت النبوّة فيهم وولى أمورهم منهم ، ولنا بذلك على من أبى من العرب الحجة الظاهرة والسلطان المبين . من ذا ينازعنا سلطان محمد وإمارته ونحن أولياؤه وعشيرته ، إلا مُدُلٌّ بباطل ، أو متجانف لإثم ، أو متورط في هلكة ! » .

(١) أن يختزلونا : أن يقطعونا ويذهبوا بنا منفردين .

وأجاب الحباب عمر : « يا معشر الأنصار ! املكوا على أيديكم ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر . فإن أبسوا عليكم ما سألتموه فأجلوهم عن هذه البلاد ، وتولّوا عليهم هذه الأمور . فأنتم والله أحق بهذا الأمر منهم ، فإنه بأسيا فكم دان لهذا الدين من دان ممن لم يكن يدين . أنا جئنا يلهما المحكك وعُدَّ يثقا المُرَجَّب ! أما والله إن شتمت لنعيدنها جندة ! » .

قال عمر وقد سمع لهذا النذير : « إذن يقتلك الله » وأجاب الحباب : « بل إياك يقتل » .

هاتان العبارتان الأخيرتان نذير شر . ولو أن الحباب كانت في جانبه كثرة الأنصار لكان أيسر ما ينشأ عنها أن يضيعوا وأن يسرعوا إلى نصرته بالإقبال على مبايعة سعد بن عباد ، ليفعل المهاجرون بعد ذلك ما يشاؤون . ولعل طائفة منهم قد تغامزت بذلك أو بشيء يشبهه يكون جواباً لهذا الحوار العنيف بين عمر والحباب . بل لقد ذكر الطبري أن الحباب انتضى سيفه وهو يتكلم ، ^{تدخل أبي عبيدة تسكين الحدة} فضرب عمر يده فسقط السيف ، فأخذه عمر ثم وثب على سعد بن عباد . على أن أبا عبيدة بن الجراح تدخل في الأمر وكان قد لزم الصمت إلى تلك اللحظة ، فقال موجهًا حديثه إلى أهل المدينة : « يا معشر الأنصار ! كنتم أول من نصر وآزر ، فلا تكونوا أول من بدّل وغير » .

وانتهز بشير بن سعد أبو النعمان بن بشير من زعماء الخزرج هذه الكأمة ^{مقالة بشير بن النعمان الخزرجي} الحكيمة من أبي عبيدة فقام بين قومه وقال :

« إنا والله وإن كنا أولى فضيلة في جهاد المشركين وسابقة في هذا الدين ، ما أردنا به إلا رضا ربنا ، وطاعة نبينا ، والكدح لأنفسنا . فما ينبغي لنا أن نستطيل على الناس بذلك ولا نبتغي من الدنيا عَرَضًا ؛ فإن الله وليّ النعمة علينا بذلك . ألا إن محمداً صلى الله عليه وسلم من قریش وقومه أحق به وأولى . وإيم الله لا يراني الله أنازعهم في هذا الأمر أبداً . فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم » .

وأجال أبو بكر بصره في الأنصار ليرى ما تركت مقالة بشير من الأثر

فيهم ، فألقى الأوس وكأنما يهمس بعضهم في أذن بعض وألنى بني الخزرج يبدو على الكثير منهم أن قول بشير أقنعهم ، فأيقن أن الأمر قد استوى وأن اللحظة لحظة الفصل فلا ينبغي أن تترك . وإذ كان جالساً بين عمر وأبي عبيدة فقد أخذ بيد كل منهما ، وقال يدعو الأنصار إلى الجماعة ويحذرهم الفرقة ثم أردف : « هذا عمر وهذا أبو عبيدة ، فأيهما شئتم فبايعوا » .
 هنالك كثر اللغط وخيف الاختلاف . أيبايعون عمر وهو على ما هو عليه من شدة ، وهو مع ذلك وزير النبي وأبو حفصة أم المؤمنين ! أم يبايعون أبا عبيدة ولم يكن له إلى يومئذ في المسلمين ما كان لعمر من كلمة ومقام ! لكن عمر لم يدع لهذا الخلاف أن تثبت شجرته ؛ فقد نادى بصوته الجهوري : « ابسط يدك يا أبا بكر » . وبسط أبو بكر يده فبايعه عمر وهو يقول : « ألم يأمر النبي بأن تصلي أنت يا أبا بكر بالمسلمين ! فأنت خليفة الله . فنحن نبايعك لنبايع خير من أحب رسول الله منا جميعاً » .

عمر وأبو عبيدة
 يبايعان أبا بكر

وبايع أبو عبيدة وهو يقول : « إنك أفضل المهاجرين ، وثاني اثنين إذ هما في الغار ، وخليفة رسول الله على الصلاة أفضل دين المسلمين . فمن ذا ينبغي له أن يتقدمك أو يتولى هذا الأمر عليك ! » وإن عمر وأبا عبيدة يبايعان أبا بكر إذ أسرع بشير بن سعد فبايعه .

بشير بن سعد
 يبايع أبا بكر

عند ذلك ناداه الحُبَيْبُ بن المنذر : يا بشير بن سعد ، عقلت . ما أحوجك إلى ما صنعت ! أنفست الإمارة على ابن عمك ! (يقصد ابن عبادة) .

قال بشير : لا والله ! ولكني كرهت أن أنازع قومًا حقًا جعله الله لهم .
 والتفت أسيد بن حُضَيْير زعيم الأوس إلى قومه وهم ينظرون إلى ما صنع بشير بن سعد وقال لهم : « والله لئن وليتها الخزرج عليكم مرة لا زالت لهم عليكم بذلك الفضيلة ولا جعلوا لكم معهم فيها نصيباً أبداً . قوموا فبايعوا أبا بكر » . وقام الأوس فبايعوا أبا بكر . ثم قام من الخزرج من اطمأنوا إلى كلام بشير يبايعون مسرعين ، حتى ضاق بهم المكان من السقيفة . وكاد الناس في تكاثرهم على البيعة يطئون سعد بن عبادة . فقال ناس من أصحابه :

الأوس والخزرج
 يبايعون بيعة
 السقيفة

سعد بن عباد
يأبى أن يبايع

اتقوا سعداً لا تطئوه . قال عمر : اقتلوه قتله الله ! ووجه إلى سعد كلاماً عنيفاً . فقال له أبو بكر : « مهلاً يا عمر ! الرفق ها هنا أبلغ » . وحمل سعداً أصحابه فأدخلوه داره حيث بقى أياماً ثم قيل له : « أقبل فبايع فقد بايع الناس وبايع قومك » . وأبى سعد أن يبايع وقال : « أما والله حتى أرميكم بما فى كنانتي من نَسَبٍ ، وأخضب سنان رعى ، وأضر بكم بسيفي ما ماكته يدي ، وأقاتلكم بأهل بيتي ومن أطاعني من قومي ، فلا أفعل » . فلما اتصل هذا الحديث بأبى بكر قال له عمر : « لا تدعه حتى يبايع » . وخالف بشير رأى عمر فقال : « إنه قد لجَّ وأبى ، وليس بمبايعكم حتى يقتل ، وليس بمقتول حتى يقتل ولده وأهل بيته وطائفة من عشيرته ، فاتركوه ؛ فليس تركه بضاركم ، إنما هو رجل واحد » .

وسمع أبو بكر إلى رأى بشير وأجازه، وتركوا سعداً، فكان لا يصلئى بصلاتهم، ويحج ولا يفيض بإفاضتهم . وأقام على ذلك حتى مات أبو بكر .

تمت بيعة أبى بكر بالسقيفة وجثمان النبی لا يزال فى بيته من حوله أهله : على بن أبى طالب والعباس بن عبد المطلب ومن اشترك معهم فى جهازه ، وعلى مقربة منهم فى المسجد طائفة من المهاجرين . وتمت هذه البيعة كما رأيت فى أحوال جملة بعض الرواة ينسب إلى عمر بن الخطاب أنه قال : إنها كانت غلطة . فأما غير هؤلاء الرواة فيرى أن أباً بكر وعمر وأبا عبيدة ذهبوا على اتفاق بينهم أن يكون الأمر لأبى بكر . وأما هاتين الروايتين فالذى لا مزية فيه أن ما تم فى السقيفة قد وفى الإسلام الناشئ فتنة ليس يعلم إلا الله ما كان يحدث فيها ، وقد مهّد للقضاء على كل خلاف بين المسلمين ، كما مهّد للسياسة التى رسمها الرسول أن تنجح النجاح الذى مهّد للإمبراطورية الإسلامية من بعد ، والذى أذاع دين الله بفضل منه جل شأنه فى مشارق الأرض ومغاربها .

ومن يوم السقيفة لم يبق للأنصار فى ولاية أمر المسلمين مطمع أو مأرب . فقد كانت بيعة عمر بن الخطاب ، ثم بيعة عثمان بن عفان ، ثم كان الخلاف بين على ومعاوية ، ولم يكن للأنصار من ذلك كله إلا نصيب سائر العرب .

وكأنما آمنوا بما قال أبو بكر من أن العرب لن تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحى من قريش . بل كفاهم من بعد ذلك أن عاشوا فى كنف المهاجرين مطمئنين إلى وصية رسول الله فى مرضه الأخير حين قال : « يا معشر المهاجرين استوصوا بالأنصار خيراً ، فإن الناس يزيدون والأنصار على هيئتها لا تزيد ، وإنهم كانوا عيتى التى أويت إليها ، فأحسنوا إلى محسنهم ، وتجاوزوا عن سيئهم » .

* * *

لم يلبث أبو بكر وسائر من كانوا بالسقيفة حين تمت البيعة أن عادوا إلى المسجد والوقت مساء والمسلمون مع ذلك يتلقفون الأنباء من بيت عائشة عن جهاز الرسول . وفى الغد من بعد ذلك اليوم جلس أبو بكر فى المسجد ، فقام عمر يعتذر عما تحدث به إلى المسلمين بالأمس من أن النبى لم يمت فقال : « إني قلت لكم بالأمس مقالة ما كانت مما وجدت فى كتاب الله ، ولا كانت عهداً عهدته إلى رسول الله ، ولكنى قد كنت أرى أن رسول الله سيدبر أمرنا ويبقى ليكون آخرنا . وإن الله قد أبى فيكم كتابه الذى هدى به رسوله . فإن اعتصمتم به هداكم الله كما هداه به . وإن الله قد جمع أمركم على خيركم صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وثانى اثنين إذ هما فى الغار ، فقوموا فبايعوا » . فبايع الناس جميعاً بيعة العامة بعد بيعة الخاصة بالسقيفة .

بيعة العامة

وقام أبو بكر بعد أن تمت البيعة وألقى فى الناس خطاباً كان أول حديث له فى خلافته ، ثم كان آية من آيات الحكمة وفصل الخطاب . قال رضى الله عنه بعد أن حمد الله وأثنى عليه : « أما بعد ، أيها الناس ! إني قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقومونى . الصدق أمانة ، والكذب خيانة . والضعيف فيكم قوى عندى حتى أريح عليه حقه إن شاء الله . والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله . لا يدع قوم الجهاد فى سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل ، ولا تشيع الفاحشة فى قوم إلا عمتهم الله بالبلاء . أطيعونى ما أطعت الله ورسوله . فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم . قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله » .

أول خطاب
للخليفة الأول

هل تخلف عن
بيعة أبي بكر أحد
من المهاجرين؟

أفكانتبيعة العامة هذهبيعة إجماع من المسلمين لم يتخلف عنها أحد ما تخلف سعد بن عبادة عنبيعة الخاصة بالسقيفة؟ المشهور أن طائفة من كبار المهاجرين تخلّفوا عنها، وأن عليّ بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب من بني هاشم كانا من المتخلفين. ذكر اليعقوبي أنه قد «تخلف عنبيعة أبي بكر قوم من المهاجرين والأنصار ومالوا مع عليّ بن أبي طالب، منهم العباس بن عبد المطلب، والفضل بن العباس، والزيبر بن العوام بن العاص، ونخالد بن سعيد، والمقداد بن عمرو، وسلمان الفارسي، وأبو ذرّ الغفاري، وعمار بن ياسر، والبراء بن عازب، وأبيّ بن كعب» وأن أبا بكر شاور عمر بن الخطاب وأبا عبيدة بن الجراح والمغيرة بن شعبة في أمرهم، فأشاروا عليه أن ياتى العباس بن عبد المطلب وأن يجعل له في الأمر نصيباً يكون له ولعقبه من بعده، فيقع الخلاف بذلك بينه وبين ابن أخيه عليّ بن أبي طالب، فيكون ذلك حجة لأبي بكر وأصححاه عليّ بن عليّ. وقد فعل أبو بكر ما أشاروا به، وقال للعباس في حديث طويل: «ولقد جئناك ونحن نريد أن يكون لك في هذا الأمر نصيب يكون لك ويكون لمن بعدك من عقبك إذ كنت عم رسول الله». ورد العباس هذا العرض بعد حديث أورده اليعقوبي كذلك: «إن كان هذا الأمر لنا فلا نرضى ببعضه دون بعض».

المتخلفون في
رواية اليعقوبي

رواية الخواريين
أبي بكر والعباس
ابن عبد المطلب

وفي رواية ذكرها اليعقوبي، وذكرها غيره من المؤرخين، ولا يزال لها الشهرة، أن جماعة من المهاجرين والأنصار اجتمعوا مع عليّ بن أبي طالب في دار فاطمة بنت رسول الله يدعون إلى مبايعته، وبينهم نخالد بن سعيد يقول: «فوالله ما في الناس أحد أولى بمقام محمد منك». وبلغ أبا بكر وعمر اجتماعهم بدار فاطمة، فأتيا في جماعة حتى هجموا الدار. وخرج عليّ ومعه السيف، فلقية عمر فصارعه فصصره وكسر سيفه ودخلوا الدار. فخرجت فاطمة وقالت: «والله لتخرجنّ أو لأكشفنّ شعري ولأعجنّ إلى الله»، فخرجوا وخرج من كان في الدار، وأقام القوم أياماً ثم جعل الواحد بعد الواحد يبايع، ولم يبايع عليّ إلا بعد وفاة فاطمة، أي بعد ستة أشهر، وقيل في رواية إنه بايع بعد أربعين يوماً. ويروي أن عمر بن الخطاب جمع الخطب حول دار فاطمة وأراد

رواية الاجتماع
في دار فاطمة
بنت الرسول

أن يُحرقها أو يبايع على أبا بكر .

وأشهر الروايات في تخلف عليّ وبنى هاشم وأكثرها ذبوعاً ما أورده ابن قتيبة في «الإمامة والسياسة» وما شاكله من روايات من عاصره أو تأخر عنه ، وهي تجرى بأن عمر بن الخطاب ذهب في عصابة إلى بنى هاشم بعد أن تمت البيعة لأبي بكر ، وطلب إليهم أن يخرجوا فيبايعوا كما بايع الناس ، وكان بنو هاشم في بيت عليّ . وقد أبوا وأبى من كان معهم أن يجيبوا دعوة عمر ، بل خرج الزبير بن العوام إلى عمر وأصحابه بالسيف . فقال عمر لأصحابه : عايكم بالرجل فخذوه ، فأخذوا السيف من يده ، فانطلق فبايع . وقيل لعليّ بن أبي طالب : بايع أبا بكر ، فقال : « لا أبايعكم وأنا أحق بهذا الأمر منكم وأنتم أولى بالبيعة لى . أخذتم هذا الأمر من الأنصار واحتججتم عليه بالقرابة من النبي صلى الله عليه وسلم ، وتأخذونه منا أهل البيت غصباً . أستم زعمتم للأنصار أنكم أولى بهذا الأمر منهم لسمّا كان محمد منكم ، فأعطوكم المقادة وسامحوا إليكم الإمارة ! فإذا أحتج عليكم بمثل ما احتججتم على الأنصار . نحن أولى برسول الله حيّاً وميتاً ، فأنصفونا إن كنتم تؤمنون ، وإلا فبوعوا بالظلم وأنتم تعلمون » .

أشهر الروايات
في تخلف علي
وبنى هاشم في
البيعة

قال عمر : « إنك لست متروكاً حتى تبايع ! »

وأجاب عليّ في حرارة وقوة : « احلب حبساً لك شطرك ، وشدّ له اليوم يردده عليك غداً . والله يا عمر لا أقبل قولك ولا أبايعه » .

ونحنى أبو بكر أن يبلغ الحوار بهما إلى العنف ، فتدخل بين الرجلين وقال : « فإن لم تبايع فلا أكرهك » .

وتوجه أبو عبيدة بن الجراح إلى عليّ متلطفاً فقال : « يا ابن عم ، إنك حديث السن ، وهؤلاء مشيخة قومك ، ليس لك مثل تجربتهم ومعرفتهم بالأمور . ولا أرى أبا بكر إلا أقوى على هذا الأمر منك وأشدّ احتمالاً واستطلاعاً ، فسلم لأبي بكر هذا الأمر ؛ فإنك إن تعش ويطل بك بقاء فأنت لهذا الأمر خليف وحقيق في فضلك ودينك وعلمك وفهمك وسابقتك ونسبك وصهرك » .

هنا ثار ثائر على وقال : « الله الله يا معشر المهاجرين ! لا تُخرجوا سلطان محمد في العرب من داره وقعر بيته إلى دوركم وقور بيوتكم ، وتدفعوا أهله عن مقامه في الناس وحقه . فوالله : يا معشر المهاجرين ، لنحن أحق الناس به لأننا أهل البيت . ونحن أحق بهذا الأمر منكم ما كان فينا القارئ لكتاب الله ، الفقيه في دين الله ، العالم بسنن رسول الله ، المضطلع بأمر الرعية ، الدافع عنهم الأمور السيئة ، القاسم بينهم بالسوية . والله إنه لفينا ، فلا تتبعوا الهوى فتضلوا عن سبيل الله فتزدادوا من الحق بعدا » .

وكان بشير بن سعد حاضراً هذا القول فيما يروى رواه ، فلما سمعه قال : « لو كان هذا الكلام سمعته الأنصار منك يا علي قبل بيعتها لأبى بكر ما اختلفت عليك » .

خرج عليّ مسحّنتاً غاضباً ، فذهب إلى فاطمة فخرج بها من دارها فحملها على دابة ليلاً فأخذ يطوف بها مجالس الأنصار تسألهم النصرة ، فكانوا يقولون : « يا بنت رسول الله ، قد مضت بيعتنا لهذا الرجل . ولو أن زوجك وابن عمك سبقا إلينا قبل أبي بكر ما عدلنا به » .

ويحييهم عليّ وقد زاده هذا الجواب غضباً :

« أفكنت أدع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته لم أدفنه وأخرج أنازع الناس سلطانه ! » . وتردف فاطمة : « ما صنع أبو الحسن إلا ما كان ينبغي له . ولقد صنعوا ما الله حسبيهم عليه وطالبهم » .

إنكار هذه
الرواية والقول
بأن أبا بكر
بويح بإجماع

هذا هو المشهور عن موقف عليّ بن أبي طالب وأصحابه من بيعة أبي بكر . وينكر بعض المؤرخين هذا المشهور من تخلف بني هاشم أو غيرهم من المهاجرين إنكاراً صريحاً ! ويدكرون أن أبا بكر بويح بعد السقيفة بإجماع لم يتوقعه أحد . روى الطبري حديثاً بإسناده أن سعيد بن زيد سئل : أشهدت وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم . قيل : فتي بويح أبو بكر ؟ قال : يوم مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كرهوا أن يبقوا بعض يوم وليسوا في جماعة . قيل : أخالف عليه أحد ؟ قال : لا ، إلا مرتدّ وأمن قد كاد أن يرتد لولا أن الله عز وجل تنقّدهم من الأنصار . قيل : فهل قعد أحدهم المهاجرين ؟ قال : لا ، تتابع المهاجرون على بيعته من غير أن يدعوهم .

الصدّيق أبو بكر

وفي رواية أن عليّ بن أبي طالب كان في بيته إذ جاءه من أنبأه أن أبا بكر قد جلس للبيعة ، فخرج في قميص له ما عليه إزار ولا رداء عَجِلًا كراهية أن يبطئ عنها حتى بايعه ، ثم جلس إليه وبعث إلى ثوبه فأثاه فتجمله ولزم مجلسه .

رواية وسط بين
الروایتين

وتجری بعض الروایات فی أمر علیّ وبيعته مجرى وسطًا بين ما قدّمنا . من ذلك ما قيل من أن أبا بكر صعد المنبر عقب البيعة فنظر في وجوه القوم فلم ير الزبير ، فدعا به فجاء فقال له : ابن عمّة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحواريّه ، أردت أن تشق عصا المسلمين ! فقال : لا تريب يا خليفة رسول الله فقام فبايعه . ثم نظر في وجوه القوم فلم ير عليًّا ، فدعا به فجاء فقال له : ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وختنه على ابنته ، أردت أن تشق عصا المسلمين فقال : لا تريب يا خليفة رسول الله فقام فبايعه .

ما يقال عن
موقف بنى أمية

وتذهب طائفة من الروایات إلى أن بنى أمية هم الذين أرادوا أن يثيروا الثائرة بين بنى هاشم وأبى بكر . قيل لما اجتمع الناس علىبيعة أبى بكر أقبل أبو سفيان وهو يقول : والله إنى لأرى عجاجة لا يطفئها إلّادم . يا آل عبد مناف فيم أبو بكر من أموركم ؟ ! أين المستضعفان ! أين الأذلانّ علىّ والعباس ! وأنشد يتمثل :

ولا يقيم على ضميم يراد به إلا الأذلانّ عيسر الحى والوتيد
هذا على الخسف محبوب برمته وذا يسّج فلا يبكي له أحد

على أن الروایات التى ذكرت هذا الحديث لأبى سفيان تكاد تجمع على أن عليًّا أبى أن يتابعه ، وأنه قال له : « إنك والله ما أردت بهذا إلا الفتنة . وإنك والله طالما بغيت الإسلام شرًّا » ، أو قال له : « يا أبا سفيان ، طالما عاديت الإسلام وأهله فلم تضره بذلك شيئًا . إنى وجدت أبا بكر لها أهلا » .

* * *

والذين ينفون تخلف عليّ عن البيعة يذهبون إلى أن روايات تخلفه قد وضعت من بعد ، ويرجحون أنها وضعت في عهد العباسيين لغايات سياسية ، ويقولون إنها استندت إلى واقعة متفق على صحتها ، ولكنها لا تتصل بالبيعة في

مطالبة العباس
وفاطمة بميراثهما
من النبى

قليل ولا كثير . هذه الواقعة أن فاطمة ابنة النبي والعباس عمه أتيا أبا بكر بعد استخلافه يطلبان ميراثهما من رسول الله في أرض فسدك وفي سهوه من خسيب . فقال لهما أبو بكر : « أما إنني سمعت رسول الله يقول : نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة . إنما يأكل أهل محمد في هذا المال . وإنني والله لا أدع أمراً رأيته رسول الله يصنعه إلا صنعته » . فغضبت فاطمة لذلك وهجرت أبا بكر فلم تكلمه في ذلك حتى ماتت ، فدفنها على ليلا ولم يؤذن بها أبا بكر . وقد مكثت فاطمة ستة أشهر بعد وفاة أبيها . وكان على يغضب أبا بكر غضباً لها . فاما ماتت مال إلى مصالحته وصالحه .

هذا حديث فاطمة وعلي ومقاطعتهم أبا بكر بعد بيعته . أما ما يضاف إلى هذا الحديث من أن علياً امتنع من البيعة إلى أن ماتت فاطمة ، وأن أبا بكر ذهب بعد ذلك إليه في منزله فألقاه في بيت بني هاشم ، وأن علياً قام حينذاك وقال : إنه لم يمنعنا من أن نبايعك إلا أنا كنا نرى لنا في هذا الأمر حقاً فاستبددتم به علينا ، وأن أبا بكر ذكر في جوابه : « والله ما ألوت في هذه الأموال التي كانت بيني وبينكم غير الخير » -- أما ما يضاف من ذلك كله فيردّه من ينفون تخلف علي عن البيعة بأن الحديث لم يتخط هذه الأموال ، وأن فاطمة والعباس ما كانا يطالبا أبا بكر بها قبل أن يبايعه المسلمون جميعاً بالخلافة ، لأنه لم يكن له قبل ذلك في أمرها رأى .

يرجح أكثر الذين ينفون التخلف عن البيعة أن روايات هذا التخلف وضعت في عهد العباسيين لغايات سياسية ؛ أما سائرهم فيرجحون أنها وضعت قبل ذلك ، ومنذ اختلف بنو هاشم وبنو أمية على الأمر إبان حروب علي ومعاوية .

وهؤلاء يقولون إن امتداد الفتح إلى العراق وفارس أدّى بجماعة من الفرس لا بتداع هذه الأقاويل . وقد استجمعت هذه الجماعة من الفرس بعد انتصار الأمويين وأقامت في استجمامها تنحين الفرص حتى تهيأت لأبي مسلم الخراساني ، فكان من أمره وأمر الباسيين ما كان .

فأما الذين يقولون بتخلف علي وبني هاشم عن البيعة أربعين يوماً أو ستة

حجة القائلين أشهر ، وقولهم هو المشهور كما قدّمنا ، فيستندون إلى ما سبق من الروايات ، بتخلف عليّ ومن معه عن البيعة . ولما أن عليّاً والذين تخلفوا معه لم يشتركوا في جيش أسامة ، مع ما كان لعليّ من شجاعة وبأس في القتال اشتهر بهما في غزوات النبي واشتهر بهما من بعد في جميع أدوار حياته . وهم يردّون قول الذين ينفون التخلف عن البيعة بأن حجة المهاجرين على الأنصار في ولاية الأمر كانت أنهم أدنى صلة بالنبي ، وأن العرب لا تعرف إلا قريشاً لأنهم سدة الكعبة والذين شخّص إليهم أبصار الناس جميعاً من أهل شبه الجزيرة . وهذه الحجة هي بذاتها سند بني هاشم في التقدم على غيرهم لخلافة رسول الله ، فلا غرو أن يستمسكوا بها وأن يؤدّي ذلك إلى تخلفهم عن بيعة أبي بكر . وذلك ما فعل عليّ ، وتلك كانت حجته وحجّة أصحابه . فإذا هم رضوا البيعة من بعد فإنما فعلوا حتى لا تكون فتنة تفسد إجماع المسلمين ، وبخاصة بعد أن ظهرت في العرب الردة ، وبعد أن انتقض العرب على سلطان المدينة انتفاضاً أو شك أن يهاد انتشار الدين الذي جاء به محمد من عند الله .

لم يثر أحد بخلافة أبي بكر على رغم هذا الخلاف بين الرواة في أمر البيعة واشتراك بني هاشم وسائر المهاجرين فيها أو تخلف جماعة منهم عنها ، فالاتفاق تام على أن أبا بكر ولي الأمر بعد الرسول غير منازع منذ اليوم الأول . ولم يذكر أحد من القائلين بالتخلف عن بيعته أن واحداً من بني هاشم أو غيرهم حاول أن يثير ثائرة مسلّحة ، أو همّ بمناهضة الخليفة الأول . . . أفكان ذلك لمكانة أبي بكر من رسول الله ، حتى قال : لو كنت متخذاً من العباد خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ، أم كان لصحبته رسول الله في الهجرة ولما تحلّى به من فضائل وما كان له في نصر الرسول من مواقف ، أم كان لأن رسول الله أنابه عنه في الصلاة أثناء مرضه الأخير ؟

أيّاً كان السبب الذي دعا المسلمين لبيعة أبي بكر بالخلافة يوم وفاة النبي ، فالثابت أنه لم يناهضه أحد ولم ينضم إلى من تخلف عن بيعته أحد . وذلك ينهض دليلاً على أن المسلمين الأوّلين تصبّروا بالخلافة بغير ما تصورها خليفاتهم من بعد منذ الدولة الأموية ، وأنهم كانوا أدنى في تصورها إلى معاني الحياة العربية البحتة القريبة منهم ، والتي كانت معروفة في أنحاء شبه الجزيرة قبل مبعث

النبي عليه السلام . فلما اتسعت رقعة الفتح الإسلامي واختلط العرب بغيرهم من أهل الأمم التي فتحوا ، تغير تصور المسلمين لفكرة الخلافة تبعاً لهذا الاختلاط ولهذا السعة في المملكة الإسلامية .

الخليفة في
المصور العربي

تصور المسلمون الخلافة تصوراً عربياً بحتاً . فالمتفق عليه أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يُوص بالخلافة لأحد . وما حدث يوم الوفاة من تنازع الأنصار والمهاجرين في سقيفة بني ساعدة ، وما لعله حدث من خلاف بين بني هاشم وسائر المهاجرين بعدبيعة العامة ، لا يندر محلاً للشبهة في أن أهل المدينة اجتهدوا في أمر الخلافة عند اختيار الخليفة الأول ، وأنه لم يكن لذلك سند في كتاب ولا سنة ؛ فاختر المقيمون بالمدينة من رأوه أصلح المسلمين لتولى أمورهم . ولو أن الأمر امتد إلى ما وراء المدينة من قبائل العرب لكان الشأن غير ما كان ، ولما كاذت بيعة أبي بكر فلتة موفقة ، على حد تعبير عمر بن الخطاب .

ولم تكن السنة التي اتبعت في اختيار أبي بكر هي التي اتبعت في اختيار الخليفين من بعده : عمر وعثمان . فقد أوصى أبو بكر قبل وفاته باختيار عمر ابن الخطاب ، ثم جعل عمر الخلافة من بعده في ستة ذكركم بأسمائهم وترك لهم أمر اختيار أحدهم . فلما كان مقتل عثمان وما حدث على أثره من خلاف بين علي ومعاوية ، استتب الأمر للأُمويين يتوارثه الأبناء عن الآباء . أما وتلك رواية الحوادث فلا محل للقول بأن لولاية الأمر في الإسلام نظاماً مقررّاً ، وإنما هو اجتهد أملته الأحداث في أحوال الجماعة الإسلامية المتغيرة وأملته على صور مختلفة تلائم تغير هذه الأحوال .

نظام الحكم
في الإسلام

وكان النظام الذي سار عليه أبو بكر عربياً بحتاً كذلك . وكان لاتصاله الزماني الوثيق بعهد النبي ، ولاتصال الصديق نفسه بالرسول وتأثره به على النحو الذي سبق تصويره ، أثر فيه لم يلبث أن تغير من بعد بحكم الأحوال وبحكم امتداد الفتح الإسلامي . وقد ظل هذا التغير في نظام الحكم يجاري البيئة التي يقوم فيها ، حتى لم يكن ثمة وجه للشبه بين العهد العباسي في أوج مجده ، وعهد الخليفة الأول أبي بكر ولا بينه وبين عهود عمر وعثمان وعلي .

وعهد أبي بكر يكاد يكون فريداً في نوعه ؛ فهو الاتصال الطبيعي لعهد

الرسول في السياسة الدينية ، وفي السياسة الزمنية . صحيح أن الدين كان قد كمل ، ولم يبق لأحد أن يغير فيه أو ينسخ منه . لكن العرب ما لبثت حين مات النبي أن فكّرت في الردة ، وأن ارتد الكثير من قبائلها ؛ فلم يكن لأبي بكر بدٌّ من أن يضع لتلافي هذا الأمر الخطير خطةً ينفذها . وكان النبي قد بدأ مع الدول التي تجاوره سياسة تتصل بدعوته ؛ فلم يكن لأبي بكر مفرٌّ من متابعتها .

كيف فعل في هذه وفي تلك ؟ ذلك ما سنفصله من بعدُ .

الفصل الثالث

العرب حين وفاة النبي

بينما يختلف أهل المدينة ثم يتفقون علىبيعة أبي بكر إذا النعاة يسرعون إلى القبائل يحملون إليها النبأ ب وفاة النبي . والواقع أنه لم يسر نبأ في بلاد العرب بسرعة البرق ما سار النبأ ب وفاة رسول الله . ولم يلبث العرب حين ذاع النبأ فيهم أن اشرأبت أعناقهم من كل صوب يريدون أن يلقوا عن عواتقهم سلطان المدينة ، وأن يعودوا إلى ما كانوا عليه قبل مبعث محمد إليهم وانتشار أمره فيهم . لذلك ارتد العرب في كل قبيلة ، ونجم النفاق ، وشرأبت اليهودية والنصرانية ، وكثر أعداء المسلمين ؛ فأصبح هؤلاء لفقد نبيهم كالغنى في الليلة المطيرة الشاتية .

لقد رأيت ما نجم بالمدينة بين المهاجرين والأنصار من نزاع على خلافة الرسول . ولولا حكمة أبي بكر وعمر وما أراه الله لدينه من النصر لما انحسم النزاع كما انحسم ، ولما انتهى إلى النتيجة الموقفة التي انتهى إليها .

ولم يكن ما حدث بالمدينة بالشئ المذكور إذا قيس بما حدث بغيرها ؛ فقدمهم أهل مكة أنفسهم بالردة عن الإسلام حتى خافهم عتآب بن أسيد عامل رسول الله على أم القرى فتواري منهم . ولولا أن قام فيهم سهيل بن عمرو فقال لهم بعد أن ذكر وفاة النبي : « إن ذلك لم يزد الإسلام إلا قوة ، فن رابنا ضربنا عنقه » لترددوا في موقفهم . على أن سهيلا أضاف إلى هذا الإرهاب ترغيباً كان له أثره . أضاف : « والله ليتمن الله عليكم هذا الأمر كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم » . ولعل هذه الكلمة كانت أقوى أثراً في نفوسهم من التهديد ، وكانت لذلك سبب رجوعهم عن ردتهم . فقد رأوا الأمر بالمدينة آت إلى أبي بكر وإلى أبناء مكة من قريش ، فاطمأنوا إلى ما ذكره سهيل من حديث رسول الله ، واستمسكوا بالإسلام وأقاموا عليه .

وهـمـت ثقيف بالطائف أن ترد ، فقام عثمان بن أبي العاص عامل النبي

عليهم فقال : « يا أبناء ثقيف . كنتم آخر من أسلم ، فلا تكونوا أول من ارتد » .
 وذكرت ثقيف موقف النبي منها بعد حُنَيْنٍ ، وذكرت ما بينها وبين مكة
 من أواصر النسب والقرى ، فاستمسكت بالإسلام . ولعل قيام أبي بكر بالخلافة
 ونهوض أهل مكة إلى جانبه في أمرها . قد كان له من الأثر في ثقيف مثل
 ما كان له في أمّ القرى .

موقف ثقيف
 بالطائف

كذلك ثبتت القبائل المقيمة بين مكة والمدينة والطائف على إسلامها .
 ثبتت عليه مَزِينَةُ وَغِفَارُ وَجُهَيْنَةُ وَبَكْلٌ وَأَشْجَعُ وَأَسْلَمُ وَخُرَازَةُ . أما سائر
 العرب فاضطرب أمرهم ، فارتد منهم من كان عهدهم بالإسلام قريباً ، ومن لم
 تكن نفوسهم قد أُشْرِيتْ تعاليمه ، وتبلبلت عقائد سائرهم ، ثم كان خيرهم من
 بقى على الإسلام ولم يرض مع ذلك عن بقاء السلطان لأهل المدينة مهاجريهم
 والأنصار . وهؤلاء رأوا في أداء الزكاة جزيةً تفرضها المدينة عليهم ، وتأبأها
 نفوسهم التي ألفت الاستقلال عن كل سلطان . وهم إنما أدّوها منذ أسلموا إلى
 الرسول الذي يوحى إليه ، والذي اصطفاه الله من بين عباده نبيّاً . أمّا وقد
 اختار النبي جوار ربه ، فأهل المدينة جميعاً لا يفضلونهم في شيء ، وليس لهم
 ما كان للنبي من حق في المطالبة بها .

موقف سائر
 العرب

كانت القبائل التي أبت إيتاء الزكاة هي القبائل القرية من المدينة من
 عَبَسَ وذبيان ومن انضم إليهم من بني كنانة ومن غَطَفَانِ وفَزَارَةٍ . أما الذين
 قَصَصَتْ ديارهم عن المدينة فكانوا أكثر إلحاحاً في ردّتهم ، وكان أكثرهم
 يتابعون رجالاً منهم ادّعَوْا النبوة ، كطُلَيْحَةَ في بني أسد ، وسَجَاحَ في بني
 تميم ، ومُسَيْلَمَةَ في اليمامة ، وذو الناج لقيط بن مالك في عُمَسان . هذا إلى
 ما كان من اتباع طائفة كبيرة من أهل اليمن للأسود العنسيّ ، ومتابعتهم
 إياه إلى حين مقتله ، ثم إيمانهم بعد ذلك في الفتنة والانتفاض إلى آخر
 حروب الردّة .

وليست ترجع هذه الصورة في انتفاض الحواضر والبوادي على سلطان قریش
 وفي ردّها عن الإسلام إلى موقعها الجغرافي من المدينة وكُنَى ، بل ترجع كذلك

الموامل التي
 أدت إلى
 الانتفاض والردة

إلى عوامل عربية وأخرى أجنبية ، بدت آثارها وبرزت في الفترة الأخيرة من حياة الرسول .

فالإسلام لم ينتشر ولم يستقر في الأصقاع النائية عن مكة والمدينة من شبه الجزيرة إلا بعد فتح مكة وغزاة حنين وحصار الطائف . أما إلى ذلك العهد فقد ظل نشاط رسول الله محصوراً في المنطقة المحيطة بالمدينتين المقدستين . لم يخرج الإسلام عن حدود مكة إلا قبيل الهجرة إلى يثرب . ومن بعد الهجرة ظلت جهود النبي سنوات متعاقبة موجهة إلى كفالة الحرية للدعوة الإسلامية في موطنها الجديد . فلما قضى المسلمون على سلطان اليهود بيثرب ، ثم لما فتحوا مكة ، بدأ العرب يدينون بدين الحق ، وأقبلت الوفود ترى من أنحاء شبه الجزيرة تعلن إسلامها ، وجعل النبي يبعث إليهم عمالاً يفقهونهم في الدين ويجبون منهم الصدقات .

طبيعيّ ألا يتأصل الدين في نفوس هذه القبائل ما تأصل في نفوس أهل مكة والمدينة ، وفي نفوس العرب القرييين منهما . لقد اقتضى استقرار الإسلام في مئبته عشرين سنة كاملة ، جاهده خصومه أثناءها أشد الجهاد ، وناصبوه عداوة اتصت على السنين ، ثم كان من أثرها أن انتصر على خصومه ، وأن ثبتت تعاليمه في نفوس العرب الذين اتصلوا برسول الله وبأصحابه من أهل مكة والطائف والمدينة وما جاورها من البلاد والقبائل . أمّا من نأى عن هذه البقعة التي شهدت نشاط محمد سنوات تباعاً ، داعياً إلى الله وإلى دين الله ، فلم يتأثر بتعاليم هذا الدين الجديد ما تأثرت ؛ ولذلك انتقض على الدين وعلى أهله ، وحاول الرجوع إلى استقلاله السياسي وإلى استقلاله الديني .

ولم تكن العوامل الأجنبية أقل أثراً في هذا الانتقال من العامل الجغرافي . العوامل الأجنبية لقد كانت مكة والمدينة وما جاورهما من القبائل بعيدة عن الإذعان لنير الفرس والروم المتحكمين يومذاك في شؤون العالم . أمّا شمال شبه الجزيرة المتصل بالشام ، وجنوب شبه الجزيرة المتصل بالفرس والقريب من الحبشة ، فكانا متأثرين بسلطان هاتين الإمبراطوريتين ، بل كانت فيهما مناطق نفوذ لهما ، وإمارات تابعة لحكهما . فلا عجب إذن أن يحاول أصحاب هذا النفوذ وهذا

الحكم مناوأة الدين الجديده بشتى الأساليب : بالدعاية السياسية للاستقلال الذاتى ، وبالدعاية الدينية للمسيحية تارة ، ولليهودية ثانية ، وللوثنية العربية تارة ثالثة .

كان نشاط هذه العوامل كلها واضح الأثر لأول ما انتشر الخبر بوفاة النبي ؛ وكان هذا النشاط باديًا فى شىء من الحذر قبل وفاته . وسترى من أثر ذلك فى غضون هذا الكتاب ما لا يدع لديك مجالاً للشك فيه . وقد أقامت هذه العوامل الجغرافية والأجنبية لنفسها منطقاً يغرى بالتصديق بها والانضواء تحت لوائها ، وهذا المنطق الذى أذاعه الدعاة بين مختلف القبائل هو الذى دعاهم للانتفاض والفتنة .

قال الدين أبوا أداء الزكاة فيما بينهم : إذا كان المهاجرون والأنصار قد اختلفوا فى ولاية الأمر ، وكان رسول الله قد قبض ولم يوص بمن يخلفه ، فخليق بنا أن نحتفظ باستقلالنا احتفاظاً بالإسلام ديننا ، وأن يكون لنا ما جعله المهاجرون والأنصار لأنفسهم من حق فى اختيار من يقوم مقام رسول الله فينا . أمّا أن ندعن لأبى بكر أو لغير أبى بكر فليس ذلك من الدين ولا من كتاب الله فى شىء ، وإنما تجب الطاعة علينا لمن نؤليه نحن أمورنا .

منطق المرتدين
والدين أبوا
أداء الزكاة

ولعل الذين حدثتهم أنفسهم بمثل ذلك أن يكون لهم من العذر عنه أن رسول الله أقر لمدن العرب ولقبائلها حفظاً من الاستقلال الذاتى طوع لأهلها أن يفكروا فى استرداد هذا الاستقلال كاملاً بعد وفاته . فهو قد أبى بدهان عامل الفرس على أرض اليمن فى ملكه حين أعلن بدهان إسلامه وألقى كبر المجوس . وهو قد ترك لسائر الأمراء ، فى البحرين وفى حضرموت وفى غيرهما ، ما كان لهم من سلطان بعد أن آمنوا بالله ورسوله . وكان أمره أن توزع الزكاة التى تجبى من بعض هذه الأنحاء على الفقراء من أهلها . ولم يفرض الإسلام الجزية إلا على أهل الكتاب . والعرب مسلمون كأهل المدينة ، فما لهم يؤدّون الزكاة لصاحب السلطان فى المدينة !! وما لهم لا تبقى صلتهم بالمدينة صلة وحدة فى الدين لا شأن لها بسياسة الحكم !! وإذا كان لأهل المدينة من السابقة فى الإسلام ما يجعلهم أدرى بفروضه وتعاليمه ، فحسبهم أن يبعثوا إلى سائر

البلاد والقبائل من يفقههم في الدين على ما كان يصنع رسول الله، وأن يكونوا وليا هم أشبه شيء بعصبة أمم إسلامية . لا تبغى إحداها على الأخرى، ولا تلتمس الوسيلة للاعتداء على استقلالها .

دار هذا التفكير بخواطر بعض القبائل القريبة من المدينة ومكة والطائف . أما أهل اليمن وما حاذها من جنوب شبه الجزيرة ، وأما سائر الأصقاع البعيدة عن منزل الإسلام ، فإنما أسلم الكثير من أهلها إكباراً لسلطان محمد الذي امتد في سنوات قليلة حتى جاور الروم والفرس في ملكيهما ، فكان امتداده السريع معجزة بهرت الأنظار ، وأخذت بالألباب ، وجعلت الوفود من كل القبائل تُقبل إلى المدينة ترى معلنة إلى النبي إسلامها وإسلام القبائل التي تنتمي إليها . أمّا وقد ذاع فيها النبأ بوفاة النبي فلا عجب أن يتزلزل إيمانها وأن ترتد عن دين طراً عليها ، بل لا عجب أن تنفجر بهذا الدين وأن تتابع الذين يذكرون فيها نار الفتنة باسم العصبيّة والنصرة العربية .

وقد خُذع هؤلاء أوّل ما قام فيهم من يدعى النبوة منهم ويزعم أنه يوحى قيام مدعى النبوة إليه كما يوحى إلى محمد . خُذعوا عن الإسلام بعد قليل من إقبالهم عليه ، بل خُذع بعضهم عنه والنبي ما يزال بين أظهر العرب لم يختر جوار ربه . سمع كثير من بني أسد لطسيسة حين ادّعى النبوة ، وأيّد زعمه بالتنبؤ بموقع الماء في يوم كان قومه فيه يسرون ويكاد الظمأ يقتلهم . وسمع كثير من بني حنيفة لمسيمة حين بعث اثنين من رجاله إلى محمد يبلغانه أن مسيامة نبي مثله ، وأن له نصف الأرض ولقريش نصف الأرض ولكن قريشاً قوم لا يعدلون . وسمع أهل اليمن للأسود العنسيّ ذى الخمار حين تولّى أمر اليمن وطردها عمّال النبيّ . على أن رسول الله لم يُعير هؤلاء المدعين كثيراً من عنايته ، ثقة منه بأن قوة الحق في دين الله كفيلة بإظهار كذبهم ، وبأن إيمان المؤمنين بالله كفيل بالقضاء عليهم .

الأسود العنسيّ
وتنبؤ

وكان هؤلاء المدعون للنبوة يشعرون بموقفهم ذاك من رسول الله ، فلم يثر به أحد منهم ثورة الأسود العنسيّ ذى الخمار . فقد قيل إنه تنبأ وظاهر أمره وقتل في عهد الرسول . على أن جماعة من المؤرّخين يذكرون أنه سلك مسلك زميليه فصبر حتى قبض النبي ، ثم قام بالثورة على الإسلام . يقول اليعقوبيّ

في تاريخه : « أما الأسود بن عنزة العنسيّ فقد كان تنبأ على عهد رسول الله . فلما بويج أبو بكر ظهر أمره واتّبعه على ذلك قوم ، فقتله قيس بن مكشوح المرّاديّ وفيروز الديلميّ ، دخلا عليه منزله وهو سكران فقتلاه » . ويقول الطبري في إحدى الروايات : « فأولّ حرب كانت في الردّة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم كانت حرب العنسيّ . وكانت حرب العنسي باليمن » .

لم تكن شبه الجزيرة إذاً هادئة مطمئنة في العهد الأخير من حياة الرسول ، ولم تكن كلها قد سكنت واستقرت تحت لواء واحد ودين واحد . بل كانت أسباب الفتنة تضطرم تحت ثراها ، ونُدُرُ الثورة تتبدّى في جوها ؛ وكانت بوادر الانتفاض في الشمال الشرقي وفي الجنوب كله تتأجج ناراً لا يسكّن من انتشارها إلا القوة الروحية التي أمدّ الله بها رسوله ، وإلا النصر الذي كان يلزم أعلامه . بل إن هذا النصر لم يُسكت مسيلمة ولا أسكت الأسود العنسيّ عن القيام في قومهما يزعمان النبوة ، ليكون لبني حنيفة ولليمن ولغيرهم من العرب أن يدعوا لأنفسهم ما تدّعيه قريش لنفسها . ولولا حكمة رسول الله وحسن رأيه وبعد نظره وفضل الله عليه وعلى الإسلام لخيف أن تتغلّط الفتنة وأن يصلّي العرب جميعاً نارها في حياته .

حال اليمن قبيل
فتنة العنسي

وأغلب الظن أن فتنة العنسيّ قامت في آخر عهد الرسول ، وسواء أصبح ذلك أم صبح أنها قامت في عهد أبي بكر ، فإن لقصة هذه الثورة على ما يرويها المؤرخون طرافة تستوقف النظر وتكشف عن جوانب من النفس الإنسانية تدعو إلى التفكير . فقد بعث رسول الله بين رسله إلى الملوك رسولا إلى كسرى عاهل الفرس يدعوه إلى الإسلام ، فلما تُرجم له كتاب النبيّ استشاط غيظاً وأرسل إلى بازان^(١) عامله على اليمن يأمره بأن يبعث إليه برأس هذا الرجل الذي بالحجاز . وكانت الروم في ذلك الوقت قد غابت كسرى ووهنت من أمره . فلما تناول بازان رسالة سيده بعث بها إلى محمد ، فردّ محمد عليه ينبيه بأن شيرويه خليف أباه كسرى ، ويدعوه إلى الإسلام وأن يسبقني عاملا له على اليمن . وكانت أنباء الفتنة في فارس واعتلاء شيرويه عرشها وانتصار الروم عليها قد

(١) بازان أو بدعان على اختلاف في رواية الاسم .

اتصلت ببازان ؛ لذلك أسرع إلى تلبية دعوة محمد ، وأقام هذا الفارسيّ عاملاً للنبي العربي على أهل اليمن ، بعد أن كان عامل الفرس عليها .

ومات بازان ، فقسّم رسول الله سلطانه بين أشخاص عدّة ، منهم شهّر ابن بازان الذي تولّى أمر صنعاء وما جاورها ، ومنهم أشخاص من أهل اليمن ، وآخرون من رجاله صلى الله عليه وسلم بالمدينة . وأن هؤلاء الولاة لينظّم كل منهم أمر ولايته إذ جاءتهم كتب من الأسود العنسيّ يُنذّره فيها أن يردّوا ما بأيديهم فهو أولى به . وكانت تلك أوّل ظاهرة لفتنته .

بدء فتنة العنسي

وكان الأسود كاهنًا يقيم بجنوب اليمن ، وكان مشعبداً يصطنع فنوناً من الحيل ويستهوئ الجماهير بعباراته . واقصد تنبأ ولقّب نفسه رحّمان اليمن ، أى الذى ينطق باسم الرحمان ، كما لقّب مسيلمة نفسه رحّمان اليمامة^(١) . وكان يزعم أن له شيطاناً يظهره على كل شيء ، ويظهره على حطّط أعدائه . وكان يقيم بكهف خبّان من بلاد مَذْحِج . وقد هوت إليه جماعة كبيرة من العوام سُحِرَتْ بحديثه ، وفُتِنَتْ بما يزعم من حديث شيطانه .

نهض الأسود على رأس هذه الجماعة . بعد أن أعلن الفتنة ، وسار إلى نَجْران فأجلى عنها خالد بن سعيد وعمر بن حزم أميرى المسلمين عليها . وانضم من أهل نجران إلى الأسود مَنُ بهرهم انتصاره ، وساروا معه إلى صنعاء حيث لقي شهر بن بازان فقتله وهزم جنده . عند ذلك فرّ المسلمون المقيمون بصنعاء وفي مقدمتهم مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ ؛ ولحق خالد بن سعيد وعمر بن حزم بالمدينة . وتمّ للأشود الغلب ، وصار إليه ملك اليمن ، وأسلم الناس لأمره ورأيه ، ودانت له البوادي والخواصر ما بين مفازة حضرموت إلى الطائف إلى البحرين والأحساء إلى عدن .

(١) فى لسان العرب أن الرحمن على فعالن لأن معناه الكثرة . وهو اسم الله لا يكون صفة لغيره كالرحيم . وفى اللسان أيضاً أن الرحمن عبراني والرحيم عربى . ويدكر بعض المستشرقين أن الرحمن اسم الإله فى الجنوب من شبه جزيرة العرب قبل الإسلام وجد فى نصوصهم ، وأنه لم يكن معروفاً عند أهل الحجاز .

ولقد تعجب إذ تعلم أن الأسود لقي شهراً بن بازان بصنعاء وليس معه إلا سبعمائة فارس ، منهم من خرج معه من مدحج ومنهم من انضم إليه من نجران . وبهذا العدد القليل انتصر هذا الكاهن المشعبد على أهل هذه الأصقاع واستطار أمره بينهم كالخريق ، ولم تجد قوة منهم إلى مقاومته سبيلاً . ولعلك إن تلمس لذلك تأويلاً تجده في أن هذه البلاد كانت خاضعة لفارس ، ثم خضعت من بعدهم للمسلمين من أهل الحجاز . وأنت تعرف ما كان بين اليمن والحجاز من خصومة ترجع إلى أقدم الحقب . فلما قام هذا العنسي يسترد اليمن لأهل اليمن لم يجد من يقاومه ، ولم يجد الفرس أنصار شهر وأبيه ، ولا وجد المسلمون أبناء الحجاز نصيراً من أهل البلاد يدفع عنهم كيد الأسود وشعبته . ولعلك واجد هذا التأويل كذلك في أن هذه البلاد كانت مسرحاً لأديان مختلفة ، كانت فيها اليهودية ، والنصرانية ، والمجوسية ؛ وكانت هذه الأديان تجاور فيها أصنام العرب وعبادتها ، ثم كان الإسلام الحديث بين هؤلاء اليمنيين لما تسوّ في نفوسهم أصوله . فلما قام ذلك المتنبي فيهم يدعوهم إليه ويهيب بقوميتهم ويزعم أنه يطرد الأجانب من بلادهم ، أسرعوا إليه ملين دعوته ؛ فلم يكن أمام المسلمين إلا الفرار ، ولم يكن أمام البقية الباقية من الفرس إلا الإذعان أو الموت .

العوامل التي أدت
إلى فتنة العنسي

باغت هذه الأنباء محمداً بالمدينة وهو يعدّ العدة لغزو الروم ، وللانتقام من مؤتة ، تعزيزاً لهذا الجانب المحفوف بالخطر من جوانب شبه جزيرة العرب ؛ وكان لذلك يجهّز جيش أسامة . أفيسر في هذا الجيش إلى اليمن يسكن ثائرتها ، ويردّ على المسلمين هيبته ؟ ! أم يستعين على هذا الأسود بمن كان باليمن من المسلمين ، فإن قدروا عليه فذاك ، وإلا كان انتصار جيوش المسلمين على الروم ، والروم قد غلبوا الفرس من زمن غير بعيد ، جديراً بأن يعيد الأمر في شبه الجزيرة إلى نصابه ؛ فإن لم يعد وجه محمد جيشه ليقمع الأسود وغير الأسود من الخارجين عليه ؟ ! هذا الرأي الأخير هو ما اطمأن محمد إليه . لذلك بعث رسوله وبر بن يحنس بكتاب إلى زعماء المسلمين في اليمن يأمرهم فيه بالقيام على دينهم والنهوض في الحرب ، والقضاء على الأسود إمّا غيلة وإمّا مصادمة ، وأن

مواقف رسول الله
من فتنة العنسي

يستعينوا على ذلك بمن يرون عنده نجدةً ودينًا . واكتفى محمد من أمر اليمن بهذا وجعل كل همه لتنظيم جيش أسامة والتغلب على الروم .

ومرض رسول الله من بعد ذلك مرضاً وقف بسببه جيش أسامة عن المسير . أما الأسود العنسي فأخذ يستمتع بنصره وينظم ملكه ، يقيم القوادر على الجيوش والعمال على الإمارات ؛ بذلك ثبت ملكه ، واستغلظ أمره ، ودانت له سواحل اليمن إلى عدن ، كما دانت له الجبال والبوادي من صنعاء إلى الطائف .

واستعمل الأسود على جنده قيس بن عبد يغوث ، وجعل وزيره فيروز وداذويه الفارسيين . ثم إنه تزوجَ آراد امرأة شهر بن بازان ، وكانت ابنة عم فيروز . بهذا وبذلك انضم العرب والفرس إلى لوائه . فلما رأى من تعاطف شأنه ما رأى خيّل إليه أنه دانت له الأرض ، فلم يبق له إلا أن يأمر فيطاع .

على أن الدوامل التي أدّت إلى انتصاره قد تضافرت من بعد على الائتمار به . وذلك أنه لما استغلظ أمره وأثخن في الأرض استخف بقيس وبفيروز وداذويه ، وجعل يرى في الأخيرين وفي سائر الفرس من تنطوى أضالعهم على المكر به .

وعرفت امرأته الفارسية ذلك منه ، فثار في عروقها دم قومها ، وتحركت في نفسها عوامل الحقد على الكاهن القبيح ، قاتل زوجها الشاب الفارسي الذي كانت تحبه من أعماق قلبها . ولقد استطاعت بسجيستها النسوية أن تعنى ذلك عنه ، وأن تسخو في البذل له من أنوثتها سخاءً يجعله يركن إليها ويطمع في وفائها له . لكنه شعر بأن الرجال الذين حوله ، ووزيريه وقائده جيشه ، لا يضمرون له من الولاء ما يراه حقاً عليهم لولي نعمتهم . ولذا كان الجيش أشد ما يحدثُ ويخاف فقد دعا إليه قيس بن عبد يغوث وأنبأه أن شيطانه أوحى إليه يقول : « عمدت إلى قيس فأكرمته حتى إذا دخل منك كل مدخل ، وصار في العز مثلك ، مال ميل عدوك ، وحاول ملكك ، وأضمر على الغدر » . وأجاب قيس : « كذب وذى الخمار ، لأنت أعظم في نفسي وأجلّ عندى من أن أحدث بك نفسى » . وأجال الأسود في قيس نظره من مفرق رأسه إلى أخمصه ، وقال له :

وزير الأسود
وزوجه وقائده

بدء الانتفاض
على الأسود

« ما أجفالك ! أتكذب الملك ! قد صدق الملك وعرفت الآن أنك تائب مما اطلع عليه منك » .

وخرج قيس من عنده وكله الريبة فيما يُصدر له : ولى فيروز ودادويه فذكر لهما ما جرى بينه وبين الأسود وسألهما رأيهما فقالا : نحن فى حذر . وإنهم لنى ذلك إذ أرسل الأسود إليهما يحذرهما مما يأتمران مع أصحابهما به . وخرجوا من عنده ولقيا قيساً وهم جميعاً فى ارتياب وعلى خطر عظيم .

المؤامرة للقضاء
على العنسى

واتصل نبأ ما يجرى ببلاط ذى الخمار بمن بقى من المسلمين باليمن أو على مقربة منها ، وذكروا رسالة النبى لهم ، فأرسلوا إلى قيس وأصحابه أنهم وإيائهم على رأى واحد فى أمر الأسود . وعرف المسلمون الذين أقاموا بنجران وبغيرها من تلك الأنحاء سرّاً من هذه الأنباء ، فكتبوا إلى زملائهم القريبيين من الأسود أنهم ورجالهم طوع أمرهم فى قتاله . واستمهلهم زملاؤهم وطلبوا إليهم أن يلزموا أماكنهم ، وألا يقوموا بأمر يدعو لريبة فيهم أو ينه أصحاب الأسود لهم .

وإنما كان ذلك رأى المقيمين على مقربة من الأسود لأنهم رأوا أخذه غيابة أدنى إلى النجاح من محاربته . فقد دخلت آزاد زوجته فى مؤامرتهم وإن تظاهرت له بالحب أعظم الحب . وطوّع لها اتصالها بفيروز ودادويه وقيس أن تدبر وإياهم أمر اغتياله . دلّتهم على حجرة نومه ، وأظهرتهم على أن القصر الذى تقيم به معه حوله الحرس من كل ناحية إلا من خلف هذه الحجرة ؛ فلدنقوها إذا كان الليل ، وليدخلوا من النقب ، وليقتلوا غريمهم ؛ فإن يفعلوا فقد تخلّصوا وخلّصوها منه .

اشترك زوجته
فى المؤامرة

وقد فعلوا . فلما كان الفجر تنادوا بشعارهم الذى اتفقوا مع أصحابهم عليه ، ثم نادوا بأذان الإسلام وقالوا : نشهد أن محمداً رسول الله . وأن عبهلة — وهو اسم الأسود العنسى — كذاب ، وألقوا إليهم رأسه . وأحاط بهم حرس القصر ، وتنادى الناس فى المدينة فخرجوا فى عماية الصبح ، واضطرب الأمر ، ثم استقر على أن يتولاه قيس وفيروز ودادويه . وكان لأزاد فى استقراره كما كان لها فى اضطرابه من قبل أكبر الأثر .

مقتل الأسود
العنسى

أُفُتِل العنسى قبل موت الرسول أم بعده ؟ ذلك ما اختلف فيه . وقد ذكرنا رواية اليعقوبى من قبل . أما الطبرى وابن الأثير فيذكران أنه مات قبل أن اختار رسول الله الرفيق الأعلى ، وأنه صلى الله عليه وسلم أوحى ذلك إليه ليلة حدوثه فقال : « قُتِل العنسى » ، قتله رجل مبارك من أهل بيت مباركين . قيل من قتله ؟ قال : « قتله فيروز » .

والرواية الأخرى تذهب إلى أن موت العنسى لم يصل النبأ به إلى المدينة إلا بعد أن قبض رسول الله ، وأنه كان أول بشارة أتت أبا بكر وهو بالمدينة . وتجري الرواية بأن فيروز قال : « لستما قتانا الأسود عاد أمرنا كما كان ، إلى معاذ بن جبل فصلى بنا ونحن راجون مؤملون لم يبق شيء نكرهه إلا تلك الخيول من أصحاب الأسود . ثم جاء موت النبي فانتقضت الأمور واضطربت الأرض » .

كيف اضطربت ، ولماذا اضطربت ؟ تفصيل ذلك لا يدخل في نطاق هذا الفصل ، وحسبنا ما أجملنا عنه في أوله . وسنتناول حوادثه في موضعها من جهاد أبى بكر أهل الردة .

ولنألفظنا في حديث عبهلة وثورته بالمسلمين في اليمن لتواتر الروايات بأنه قام بهذه الثورة في عهد الرسول . فأما ما كان من أمر اليمن على عهد أبى بكر فبخطى العنسى وثورته ومقتله ، ويتناول ما تم بعد ذلك من أحداث تفصلها في موضعها .

كانت ثورة اليمن هذه أعنف مظاهر الانتفاض على الدين الجديد في بلاد العرب حين وفاة النبي . لكن اليمامة وما حاذى الخليج الفارسى من القبائل قد كان يتلظى بنذر الثورة في هذا العهد كذلك ، فكان المسلمون فيه على حذر يلجئون إلى المصانعة حيناً وإلى البطش حيناً آخر ، ليظل سلطانهم قائماً وكلمتهم مسبوحة . ولا عجب أن يكون ذلك أمر حواضر وبوادٍ تبعد عن منزل الوحي بمكة والمدينة ، وتتصل بالفرس وتباد لهم التجارة وتقر لهم بتفوق الحضارة بل لا عجب أن تكون للفرس يد خفية في تحريك هذه الحواضر والبوادي لتنتفض على الدين الجديد والسايطان الناشئ .

أتلظى الجنوب كله بنذر الثورة

تنبؤ مسيعة
ابن حبيب بالجماعة

أشرفنا إلى بعث مسيعة بن حبيب من بني حنيفة رسولين إلى محمد بالمدينة يحملان رسالة جاء فيها : « من مسيعة رسول الله إلى محمد رسول الله . سلام عليكم ، أما بعد فأني قد أشركت في الأمر معك ، وإن لنا لنصف الأرض ولقريش نصف الأرض ، ولكن قریشاً قوم لا يعدلون » . وسأل النبي الرسولين حين سمع الكتاب : فما تقولان ؟ قالا : نقول كما قال . فنظر إليهما مغضباً وقال : أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما . ثم كتب إلى مسيعة : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى مسيعة الكذاب . أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده المتقين » .

لم يغفل رسول الله عما تنطوى عليه رسالة مسيعة من نذير . لذلك بعث من المسلمين نهاراً الرحّال ، وكان قد فقه الدين ، ليشغب على مسيعة ، وليفقه المسلمين من أهل اليمامة في الإسلام . وسرى من بعد كيف انضم نهار إلى مسيعة ، وكيف شهد بأنه شريك محمد في الرسالة . بذلك ازداد مسيعة نفوذاً وازداد ادعائه انتشاراً . وتجاوبت باليمامة أصداء انتصار العنسي باليمن فقوى تجاوبها ساعد مسيعة وفيت في أعضاء المسلمين . لكن رسول الله لم يتعجه بسياسته إلى قمع هذه الفتنة قبل استفحالها ، موقناً أن الله ناصره على الروم في الشمال ، وأن انتصاره عليهم سيكون له الأثر الحاسم في القضاء على أسباب الانتفاض والثورة الداخلية في أنحاء بلاد العرب .

سياسة رسول
الله إزاء الفتنة

فقد كانت سياسته صلى الله عليه وسلم متجهة إلى حماية التخوم العربية في الشمال من عدوان هيرقل ورجاله عليها . فهيرقل هو الذي دحر الإمبراطورية الفارسية ، وهو الذي رد الصليب الأعظم إلى بيت المقدس ، وهو الملك الذي تخشى صولته . وقد ارتد جيش المسلمين في مؤتة فلم يقوَ على قتال الروم وإن لم ينهزم أمامهم . وكانت تبوك غزوة موفقة ، لكنها لم تبعد المخاوف من انحذار الروم إلى بلاد العرب . فإذا استطاعت قوات المسلمين أن تظهر على الروم في غزاة حاسمة قوى ذلك من عزم المنتشرين منهم في قبائل العرب ، فلا يلبث كل منتقض عليهم أن يرجع عن انتفاضه ، وأن يسلم المقادة إليهم طائعين أو كارهين . وكيف لا يفعل وقد تغلغل المسلمون في أنحاء شبه الجزيرة من

الشمال إلى الجنوب ، وصاروا قوة يحسب حسابها ؛ فلم يقوَ مسيلمة في
اليهامة ، ولا لقيط في عُمَـانَ ، ولا طُـسَلَيْحَة في بَنى أَسَدَ ، أن يناصروها العداوة
في جهر وإعلان .

تربص المتنبيين
بالمسلمين

لكن لقيطاً وطُـسَلَيْحَة كانا كمسيلمة يتربَّصان لإعلان عصيانهما أن
تدور الدوائر على المسلمين . وأقام هؤلاء الثلاثة كلٌّ في ناحيته ينشر دعوته
في غير ضجة أو جلبة ، ودون أن يطعن على النبي الهاشمي أو ينتقص من
رسالته . وإنما كانت دعواهم أنه نبي ، وأنهم أنبياء مثله ، بعث في قومه وبعث
كلٌّ منهم في قومه ، وأنهم يريدون لأقوامهم الهدى كما يريد هو لقومه الهدى .
وبوسائل تنقصها جرأة الأسود العنسي وإن لم ينقصها دهاؤه هيَّئوا حول المسلمين
المقيمين بين أظهرهم جوَّ قلق وتربُّص ، تنلظى نيران الفتنة تحت رماده ريّشاً
تتقد فيه .

ولم يكد النبأ بوفاة الرسول ينتشر في بلاد العرب حتى بدأت تُنذَرُ هذه الفتنة
تتحرك في كل أنحاء شبه الجزيرة . وقد تحركت في صور مختلفة وألوان متباينة
تباين العوامل التي أثارها . وسنفصل ذلك من بعد في وضوح وجلاء . لكننا نقف
من حديث هؤلاء المتنبيين وتربصهم بالإسلام عند أمور لها بالعرب حين وفاة
النبي أوثق اتصال :

العرب وفتنة
المتنبيين

أول هذه الأمور أن رسول الله قُبِضَ وبوادر الفتنة تجرى نُذُرُها
في جو شبه الجزيرة ، بل يوشك قسم كبير منها أن يضطرب أشد اضطراب .
فقد رأيت كيف استغلظ أمر الأسود وامتد ملكه من أقصى الجنوب عند
حضر موت إلى مكة والطائف ، ثم رأيت كيف تربص مسيلمة وطُـسَلَيْحَة
بالمسلمين . وهذه الربوع التي أعلنت العصيان على دين محمد وسلطانته كانت
أكثر بلاد شبه الجزيرة حضارة وأضخمها ثروة ، كما كانت أكثرها ببلاد الفرس
اتصالاً .

فلا عجب وذلك شأنها أن يلفت انتفاضها نظر الخليفة الأول ، وأن
يطيل تفكيره في تدبير سياستها ، ليعيدها إلى حظيرة الإسلام ، وليقر فيها
الآمن والسلام .

والأمر الثاني الذى تدل عليه فتنة الأسود وتربص مسيحية وطليحة أن
 الاضطراب الدينى بالغ بين القوم فى ذلك العصر أن سهّل تحريك النفوس
 باسمه ، ولم يكن ذلك يرجع إلى تعصب الناس لدين من الأديان ، بل كان يرجع
 على العكس إلى عدم استقرار العقيدة فى النفوس استقرار طمأنينة وسكينة .
 فالنصرانية واليهودية والخرسية والأصنام كانت كلها تتجاوز ، وكان لكل منها
 أنصار ظاهرون أو مستترون ، لكنها كانت جميعاً موضع الجدل : أيها
 الحق ، وأيها أدنى إلى تحقيق الخير والسعادة للناس ، وهذا هو ما سهّل على
 الذين ادّعوا النبوة أن يطالعوا الناس بمزاعمهم ، وأن يخدعهم بألوان من
 المظاهر يتخذونها آيات صدقهم . وبهذه الوسيلة استطاع المتنبيون أن يجمعوا
 حولهم من الأتباع ما جمعوا ، وأن يُحرزوا أول أمرهم من النجاح
 ما أحرزوا .

تحريك
 الاضطراب باسم
 الدين ، وسببه

ولم يكن ادّعاء النبوة وتصديق الناس هذا الادّعاء هو العنصر الجوهري
 فى نجاح هؤلاء المدّعين . فقد رأيت أن الأسود اعتمد على عوامل أخرى ،
 فى مقدمتها برّهم أهل اليمن بالفرس كتبريهم بأهل الحجاز . وسترى من ذلك
 فى أمر مسيلمة وطليحة ما يؤيد قولنا كل التأيد . ولو أن الإسلام كان قد استقر
 فى النفوس وبلغ منها مبلغ العقيدة والإيمان لما قامت لواحد من هؤلاء المدّعين
 قائمة . فللعقيدة المتأصلة سلطان على النفوس قلّ أن يغلبه سلطان . لكن أهل
 هذه الأصقاع لم يكونوا قد آمنوا وإن كانوا قد أسلموا ، فاجأ أتيح لهم أن يخلعوا
 إسلامهم باسم القومية أو باسم غيرها لم يصدّهم عن ذلك إيمان حق ، فاندفعوا
 وراء الأسود وغير الأسود من المتنبيين .

العامل الوطنى
 من أسباب
 الاضطراب

ويزيد رأينا هذا تأييداً ما كان من بقاء مكة والطائف على الإسلام .
 صحيح أن أهل اليمن بدأ فيهم الإسلام واطمأن إلى السلطان الحاكم منذ دان
 بازان بدين الحق ، وكان ذلك قبل أن يطمئن الإسلام إلى سلطان الحاكم بمكة
 والطائف . لكن قيام رسول الله بمكة سنوات الدعوة الأولى ، وهى تزيد على
 عشر ، واتصاله بالطائف وأهلها أثناء ذلك ، ترك من الأثر الدينى فى نفوس
 المكيين والتمقيين ما لم يتركه لإسلام بازان والفرس المحيطين به فى اليمن . وتعاليم

رسول الله كانت أبقى أثراً في مكة والطائف ، حتى مع ثورتها عليه ، من تعاليم مُعاذ بن جبل باليمن وإن تمتع من حماية بازان بما تمتع به .

الأمر الثالث الذى نستخلصه ، أن فتنة اليمن شجعت اليمامة وشجعت بنى أسد على القيام بفتنتهم إثر وفاة النبي ؛ فقد كان طُائفة ومسيامة يخشيان قوة المسلمين ويريان أن لا يقبل لهما بمقاومتها ، ولذلك لم يثورا بها ولم يخرجها عليها . فلما اجترأ الأسود على رفع لواء العصيان ولقى من النجاح ما لقي وأثار مخاوف المسلمين ، امتدت عدوى الجراءة منه إلى طُليحة وإلى مسيامة ، ثم زادهما جرأة أن اختار النبي الرفيق الأعلى . ولو أن الأسود لم يقم قومه ولم يعلن فتنته لبقى الآخرون على استحياء فى إعلان فتنتهما ، ولما جرؤ واحد منهما على مواجهة سلطان المسلمين .

ولم يقض موت الأسود على أسباب الفتنة التى كانت تلتظى يومئذ فى أنحاء شبه الجزيرة ، بل بقيت أسباب هذه الفتنة تضطرم ويزداد اضطرابها حتى اندلعت بوفاة الرسول .

ويعمل بعض المستشرقين . هذه الظاهرة فى بلاد العرب لذلك العهد بما كان بين أهلها من تباين فى نوع الحياة قل أن يجد الإنسان له فى غير هذه البلاد نظيراً ، وبما أدى هذا التباين إليه على حقب التاريخ من خصومات لم تهدأ . فحياة الحضر وحياة البدو تتجاوران فى هذا المحيط تجاوراً عجيباً . وبين البداوة والحضارة من التباين ما يجعل الوحدة القومية لبلاد ذلك شأنها أمراً غير ميسور . ثم إن حياة البداوة تجعل الإذعان لحاكم على النحو الذى يفهمه أهل الحضر مستحيلاً أو يشبه المستحيل . فالبدو لا يعدل باستقلاله الفردى شيئاً ، والقبيلة البادية ترى فى استقلالها حياتها ، وترى كل تحيف من هذا الاستقلال عدواناً عليها لا بد من دفعه . وقد كان هذا وما يتصل به سبب الخصومة التى تأصلت على الزمان بين اليمن وأهل الشمال .

والمستشرقون الذين يبدون هذا الرأى يذهبون إلى أن هذا التباين فى طباع أهل البادية وأهل الحضر ، وما جرّ إليه من خصومة بين الشمال والجنوب . كان له أثر بالغ فى اضطراب العرب قبيل وفاة النبي وفى السنة الأولى من خلافة أبى بكر .

أثر فتنة العشى
فى البلاد المحيطة
باليمن

رأى المستشرقين
فى الفتنة ، وسببها

فالإسلام دين توحيد في العقيدة ، وبذلك قضى على عبادة الأصنام ، فامتد الإيمان بالله الواحد الأحد إلى أنحاء بلاد العرب جميعاً . أو لا يخشى العرب أن يمتد الأمر من وحدة الإيمان بالله إلى وحدة سياسية تجنى على استقلال أهل البادية وتثير الخصومات القديمة ؟ ! ذلك ما دار بخواطهم فيما يرى هؤلاء المستشرقون ، وذلك ما أدى إلى انتفاض اليمن وغير اليمن في ذلك العهد .

أثر العامل
الأجنبي في إيقاظ
الفتنة

وسواء أصبح هذا التعليل أم لم يصبح ، فلسنا نستطيع أن نتجاهل العامل الأجنبي في تحريك البواعث التي أدت إلى انتفاض العرب وردّتهم . لقد رأى عاهل الفرس وإمبراطور الروم في رسالة محمد إليهما وإلى غيرهما من الملوك والأمراء ليدينوا بالإسلام ما جعلهما يعملان على إيقاظ نار الفتنة في بلاد ليس بها من أسباب الوحدة غير الدين الجديد يجمع كلمتها ويضاعف قوتها . ولا شيء كالفتننة يضعضع العزائم ويفت في أعضاء الأمم .

انتفاض العرب
على النبي

وأياً كانت الأسباب التي أدت إلى فتنة العنسي ، ثم إلى فتنة طليحة وفتنة مسيلمة ، وإلى انتفاض العرب على سلطان المسلمين حتى فيما جاور المدينة ، فإن الأمر الثابت أن وفاة النبي بعثت كل أسباب الفتنة من مرقدها .

كيف دبّر أبو بكر لمواجهة هذه الفتنة والقضاء عليها ؟ وكيف استطاع أن يتغلّب على عوامل الفتنة وأن يجمع كلمة العرب ؟ وكيف مهّد للإمبراطورية الإسلامية كي يقيمها خلفاؤه على أقوى دعامة وأمن أساس ؟

ذلك كل عهده ، وفي هذا الكتاب حديثه

الفصل الرابع

بعث أسامة

لم تكن نذر الانتفاض في بلاد العرب لتخفى على أبى بكر وأصحابه من المهاجرين والأنصار بالمدينة . وكيف تخفى عليهم وقد كان ما شجر بينهم في سقيفة بنى ساعدة جديراً بأن ينبههم إلى خطرها ؟ أفياق خليفة رسول الله كل باله إليها ، ويعدل عن سياسة رسول الله في شأنها ؟ أم تراه يجرى على خُطة الرسول في تأمين التخوم بين العرب والروم ، تاركاً أمر هذه الفتنة الداخلية إلى تطور الحوادث ؟ .

أول أمر أصدره
الخليفة الأول

لقد كان أول أمر أصدره بعد أن تمت له البيعة بالخلافة أن قال :
« لَيْسَ شَيْءٌ بِمَعْتُ أُسَامَةَ » .

وأسامة هو قائد الجيش الذى أمر النبي بتجهيزه من جليّة المسلمين مهاجريهم والأنصار لغزو الروم ، بعد الذى كان بينهم وبين المسلمين في مؤتة وفي تبوك . ذلك أنه ، عليه السلام ، كان يخشى دائماً أن يدهم الروم المسلمين ، متأثرين بما بين الدين الناشئ ودينهم المسيحى من خلاف ، متأثرين أكثر من ذلك بتحريض اليهود الذين نزحوا إلى فاسطين بعد أن أجلاهم النبي عن المدينة ، وعن تيماء ، وفدك ، وعن أكثر المواطن التى كانوا يقيمون بها . ولعل ما حدث بمؤتة وتبوك جعله يضاعف العناية بحماية التخوم العربية الرومية . فقد سار جيش المسلمين إلى مؤتة فاستشهد من قواده زيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب وعبد الله بن رواحة ، ثم داود بن الوليد بالجيش حتى عاد به إلى المدينة سليماً وإن لم ينتصر . وقد سار عليه السلام على رأس المسلمين إلى تبوك ، فكانت مسيرته نذيراً حمل خصومه على التراجع إلى ما وراء حدودهم دون قتال . لا عجب وقد أثارت هاتان الفزوتان الثارات بين المسلمين والروم أن يجهز النبي جيش أسامة بن زيد بن حارثة ، وأن يكون تجهيز

هذا الجيش بعض سياسته في تأمين تخوم شبه الجزيرة من الروم ذوى البأس في ذلك العهد .

وكان أسامة حداثاً لمّا يبلغ العشرين . وإنما ولّاه رسول الله على الجيش ليجعل له من فخر النصر ما يحزى به استشهاد أبيه بمؤنة ، وما يعود الشباب الاضطلاع بحسام التبعات . ولقد أمره أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والدّاروم من أرض فلسطين ، وأن ينزل على أعداء الله وأعدائه في عماية الصبح ، وأن يسمع فيهم قتلاً ، وأن يحرقهم بالنار ، وأن يتم ذلك ذراكاً حتى لا تسبق إلى أعدائه أنباؤه . فإذا تم له النصر فليسر بالعودة غانماً مظفراً .

وصية رسول الله
إلى أسامة بن زيد

تذمّر كثيرون منذ اليوم الأول من تعيين حداث كأسامة على رأس جيش يضم جليّة المهاجرين والأنصار وتحدثوا في ذلك . صحيح أن أسامة كان موضع عطف النبي منذ طفولته ، وأنه لُقّب لذلك « حبيب النبي وابن حبه » . ولقد بلغ من إعزاز النبي إياه أن أردفه وراءه عند ذهابه إلى مكة في العام الثامن للهجرة وأدخله معه الكعبة . وصحيح أن أسامة كان الشجاعة والإقدام منذ نشأته ، حتى لقد انضم إلى جيش المسلمين في طريقهم إلى أحد ، وإنما أعيد إلى المدينة قبل الموقعة لصغر سنه . ثم إنه أبلى من بعد في حنين أحسن البلاء وثبت فيها ثبات الأبطال الصناديد . لكن المتذمّرين كانوا يرون ذلك شيئاً ، وتولّى إمارة جيش فيه أبو بكر وعمر وكبار المسلمين شيئاً آخر . ولقد بلغ تذمّرهم النبي وهو في مرضه الأخير وجيش أسامة مقيم بالجرف يتأهب للمسير ، فأمر نساءه فأراقوا عليه سبع قرّب من ماء حتى تنزل عنه الحمى ، ثم خرج إلى المسجد وقال بعد أن حمّد الله وصلّى على أصحاب أحد : « أيها الناس ، أنفذوا بسعث أسامة . فلعمري لئن قُلت في إمارته لقد قُلت في إمارة أبيه من قبله ، وإنه لخليق بالإمارة وإن كان أبوه لخليقاً لها . »

حب النبي لأسامة
ابن زيد

تذمّر كثيرون
لتوليّه إمارة
الجيش

ولما اشتد المرض بالرسول لم يتحرك جيش أسامة من الجرف . روى عن أسامة أنه قال : « لما ثقل رسول الله صلى الله عليه وسلم هبطت وهبط الناس معي إلى المدينة ، فدخلت على رسول الله وقد أصممت فلا يتكلم ، فجعل يرفع يده إلى السماء ثم يضعها على ، فأعرف أنه يدعو لي . » وفي

ساعة الصبحو الذى سبق وفاة الرسول صبح يوم الوفاة استأذنه أسامة فى السير بالجيش فأذن له . لكن حدوث الوفاة بعد سويّعات ردّ أسامة والجيش إلى المدينة كرتة أخرى ، ثم كان أسامة مع أهل البيت الذين تولوا جهاز الدفن ، فكان هو وشُقْران مولى النّبي يصبان الماء على جثمانه وعلى يغسله وعليه قميصه .

تصميم أبى بكر
على بعث أسامة

فأما أمر أبو بكر بإلّفاء بعث أسامة بعد أن تمّت بيعته عاد المسلمون إلى تدمّرهم وأخذوا يلتمسون الوسيلة للخلاص من موقف لم يرضوا عنه ، ورأى بعضهم ما كان من خلاف بين المهاجرين والأنصار على الخلافة ، وما تراءى إلى المدينة من أنباء العرب واليهود والنصارى وتحفّزهم بعد موت النّبي للوثبة بالمسلمين وبدينهم ، فقالوا يوجهون الكلام إلى أبى بكر : « إن هؤلاء جملّ المسلمين ، والعرب على ما ترى قد انتقضت بك ، فليس ينبغي أن تفرق عنك جماعة المسلمين » . قال أبو بكر : « والذى نفس أبى بكر بيده ، لو ظننت أن السباع تخطّفتنى لأنفذت بعث أسامة كما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو لم يبق فى القرى غيرى لأنفذته » .

وقيل إن أسامة لمّا رأى ما عليه الناس طلب إلى عمر بن الخطاب أن يرجع إلى أبى بكر فيستأذنه فى أن يعود بالجيش ليكون عوناً على المشركين فلا يتخطّفون المسلمين . وقالت الأنصار لعمر : « فإن أبى إلا أن نمضى ، فأبلغه عنّا واطلب إليه أن يولّى أمرنا رجلاً أقدم سنّاً من أسامة » . وأبلغ ابن الخطاب أباً بكر رسالة أسامة ، فلم يلبث حين سمعها أن ثار ثائرة وقال : « لو خَطِفتنى الكلاب والذئاب لم أردّ قضاء قضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم » . أمّا رسالة الأنصار أن يولى عليهم رجلاً أقدم سنّاً من أسامة فقد وثب لها أبو بكر وكان جالساً فأخذ بلحية عمر وقال مغضباً : « تَكِلْتِكَ أَمْك وعدمتك يابن الخطاب ! . استعماه رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمرنى أن أنزع ! » . ورجع عمر إلى الناس فسألوه عما صنع فقال : « امضوا ، ثكلتكم أمهاتكم ما لقيت فى سبيلكم من خليفة رسول الله » .

هذا الحديث فى رواياته المختلفة يصرّ لنا سياسة أبى بكر أول ما تولى

« لا أدع أمراً
يصنعه رسول الله
إلا صنعته »

الخليفة. وهذه السياسة تتلخص في قوله لفاطمة ابنة رسول الله حين طالبتة بميراثها عن أبيها : « إني والله ما أدع أمراً رأيت رسول الله يصنعه إلا صنعته » . وهو قد أعلنها إلى الناس ساعة قال لهم : « لَيْسْتُمْ بِبَعْثِ أُسَامَةَ . أَلَا لَا يَبْتَدِعُونَ » بالمدينة أحدٌ من جند أسامة إلا خرج إلى عسكره بالجُرف » . فقد وقف بينهم خطيباً بعد أن ردّ المعارضين منهم وقال : « يا أيها الناس ، إنما أنا مثلكم ، وإني لا أدري لعلكم ستكلفوني ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُطبق . إن الله اصطفى محمداً على العالمين وعصمه من الآفات . وإنما أنا مُتَّبِعٌ ولستُ بمبتدع . فإن استقمّت فتابعوني ، وإن زُغتُ فقوموني . وإن رسول الله قبض وليس أحدٌ من هذه الأمة يطلبه بمظالمته ضربة سوط فما دونها . ألا وإن لي شيطاناً يعتريني ، فإذا أنا فاجتنبوني . . . » ثم حثهم على العمل الصالح قبل أن يمجيء أجلهم ، وأن يعتبروا بالآباء والإخوان ، وألا يغبطوا الأحياء إلا بما يغبطون به الأموات .

إنما أنا مُتَّبِعٌ ولستُ بمبتدع ، ولئن أدع أمراً رأيت رسول الله يصنعه إلا صنعته ؛ هذه سياسة الخليفة الأول . ولأبي بكر أكثر من كل إنسان أن يتخذها سياسته . فهو قد صاحب رسول الله على ما رأيت منذ بعث إلى أن اختاره الله إليه . ثم إنه كان يؤمن بالله ورسوله إيماناً لا يکبو ولا يتزعزع ، وكان لاتصاله القلبي والروحي برسول الله يعرف من أمره مالا يعرفه غيره . وهو وحده الذي قال فيه قبل يومين اثنين من وفاته : « إني لا أعلم أحداً كان أفضل في الصحبة عندي بدءاً منه . وإني لو كنت متخذاً من العباد خايلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً . ولكن صحبة وإخاء وإيمان حتى يجمع الله بيننا عنده » . وأنت قد رأيت من صحبته وإخائه وإيمانه في حياة النبي ما لم يباغحه عمر ولا علي ولا أحد غيرهما من أمسّ المسلمين به صلى الله عليه وسلم صلةً وقرى . فلا جرم كان أتباعه النبي اتباعاً صحيحاً صادراً عن إيمان وبينة ؛ إيمان يجعله مطمئناً إلى أنه لن يُخطئ ما اتبع الرسول ، وبينة تجعله يسلك الطريق التي يرى أن الرسول كان لا ريب يسلكها .

أبو بكر يسع
جيش أسامة

سمع الناس مقالة عمر بعد عوده إليهم بالجُرف يباغتهم رسالة أبي بكر ،

فلم يكن لهم إلا الإذعان لأمر الخليفة طوعاً أو كرهاً . وخرج أبو بكر بعد ذلك حتى جاء العسكر ، فأشخصهم وشيّعهم وهو ماش وأسامه راكب ليزيدهم لإمارة أسامة إذعاناً وتسليماً . وكأنما غلب أسامة الحياء أن يرى هذا الشيخ الوقور صاحب رسول الله وخليفته على المسلمين يسير إلى جانبه ، ودابته من ورائه يقودها عبد الرحمن بن عوف ، فقال : « يا خليفة رسول الله ، والله لتركبن أو لأنزلن » ، قال أبو بكر : « والله لا تنزل والله لا أركب وما على أن أغبر قدي في سبيل الله ساعة ! » . فلما آن له أن يودع الجيش قال لأسامة : « إن رأيت أن تعينني بعمر فافعل » فأذن أسامة لعمر أن يدع الجيش وأن يرجع مع أبي بكر .

لعمر ك ما عسى أن يقول المتدسرون بعد هذا الصنيع وقد بايعوا أبا بكر بالأمس ليسيلى أمر المسلمين بجلياه ودقيقه ! . والذين أذعنوا من قبل كرهاً لم يسعهم بعد هذا التصرف الحكيم إلا أن يرضوا أو يتعرضوا للقاله ويُسْهِمُوا بالأسرة . وكثيراً ما كان للخوف من رأى الغير فينا وحكمه علينا سلطاناً على تصرفاتنا وأعمالنا يعدل سلطان اقتناعنا الذاتي ، وإن اختلفت البواعث وتباينت النيات .

وصية الصديق
لجيش أسامة

وآن لأبي بكر أن يودع الجيش ، فوقف في رجاله خطيباً وقال : « أيها الناس ، قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عني : لا تخونوا ، ولا تغشوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تلجؤا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة . وسوف تمرّون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له . وسوف تقدّمون على قوم يأتونكم بأنية فيها ألوان الطام ، فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء فاذكروا اسم الله عليه ، وتلقّون أقواماً قد فحشوا أوساط رءوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفّوهم بالسيف خفّةً . اندفعوا باسم الله ، أقناكم الله بالطعن والطاعون » .

وقال لأسامة وهو يوشك أن يتحرك بالجيش : « اصنع ما أمرك به نبي الله صلى الله عليه وسلم . ابدأ ببلاد قضاة ، ثم ائت آبل ، ولا تقصّر في شيء »

من أمر رسول الله ، ولا تعجلنَّ ليما خلتفتَ عن عهده .

وسار الجيش وعاد أبو بكر وعمر بن الخطاب إلى المدينة . سار هذا الجيش وقائده الشاب على رأسه يقطع السيد ويتخطى المفاوز في هذه الأيام الشديدة القيظ من شهر يونية . وبعد عشرين يوماً من مسيرته بلغ البقاء حيث تقع مؤتة ، وحيث استشهد زيد بن حارثة وصاحبه جعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة . هناك نزل أسامة بعسكره فأغار على آبل ، وبث خيوله في قبائل قضاعة ، وقضى على كل من وقف في وجهه من أعداء الله وأعداء رسوله قضاءً لا يعرف هوادة ولا رحمة . وكان شعار المسلمين وصيحتهم في الحرب ذلك اليوم : « يا منصور أمت » .

مسيرة الجيش
إلى البقاء

قتل المسلمون أثناء هذه الغزاة ، وأسروا ، وأحرقوا القرى التي قاومتهم ، وغنموا ما شاء الله أن يغنموا . بذلك انتقم أسامة لأبيه وللمسلمين في مؤتة ، وبذلك نفذ أمر رسول الله أن يوطئ الخيل تخوم البقاء والداروم من أرض فلسطين ، وأن ينزل على أعداء الله وأعدائه في عماية الصبح ، وأن يُمنع فيهم قتلاً ، وأن يُحرقهم بالنار ، وقد أتم ذلك ذاك فأم تسبق إلى أعدائه أنباؤه . فلما أتمه عاد بالجيش مظفراً إلى المدينة ممتطياً الجواد الذي مات أبوه عليه .

قضاء أسامة
على أعداء الله
ورسوله

عاد بالجيش الظافر إلى المدينة ، لم يُغره النصر باقتفاء أثر أعدائه أو باقتحام تخوم الروم والتوغل في ديارهم . وعاد وقد زادت حدائته سنة في جلال انتصاره ، وجعلت المهاجرين والأنصار الذين تدمروا من قبل لإمارته يحدثون مفاخرين بحسن بلائه وعظيم إقدامه ، ويرددون مؤمنين قوله صلى الله عليه وسلم : « إنه لخليق للإمارة ، وإن كان أبوه لخليقاً لها » .

عود أسامة ظافراً
إلى المدينة

ولم يكدُر بخاطر أحد من أمراء الجيش الظافر أن يدفع أسامة لاقتفاء أثر عدوه . ذلك أن السياسة التي جرى عليها رسول الله والتي كانت ماثلة في نفوس المسلمين جميعاً ، كانت تقف عند تأمين التخوم بين العرب والروم ، فلا يحدث الروم أنفسهم بغزو العرب انتقاماً لليهود أو غير اليهود ممن كانوا يأترون بالمسلمين .

وكان ذلك طبيعياً ، إذ كان الروم لا يزال اسمهم يزلزل الشعوب بسعة

لإمبراطوريتهم ونفوذ سلطانهم ؛ لم يغير من ذلك ما كان بينهم وبين العرب من نزاع كانوا فيه أصحاب الكلمة العليا إلى السنوات الأخيرة من حياة النبي . ألم يذهب دحية الكلبي بكتاب رسول الله إلى هيرقل ، وهرقل في أوج نصره ، في السنة السابعة من الهجرة ، أي قبل وفاة النبي بسنوات ثلاث ، فرأى من قوة الروم وبأسهم ما رأى ! أو لم يذهب اليهود في هذه السنة السابعة إلى فلسطين بعد هزيمتهم في خيبر وفي فداء وتيماء ، وقلوبهم كلها الحفيظة على محمد وعلى من اتبعه ، يأتمرون لتأليب الروم عليهم كيما يقتلوه ويظفروا بهم كما قاتلوا الفرس وظفروا بها . لا جرم إذن أن يقف المسلمون من سياستهم عند حماية تخومهم من اعتداء الروم ، وأن يكرّ أسامة ، بعد أن تم له النصر على أعدائه ، راجعاً إلى المدينة ليوقف إلى جانب أبي بكر والمسلمون معه ، دون أن يدور غزو الروم بخاطره أو خواطرهم ، ودون أن يتوقع أحد منهم أن هذا الغزو سيبدأ بعد سنتين اثنتين ، يَبْدُوهُ أبو بكر بحكم الحوادث ثم يُتِمَّهُ خلفاؤه ، فيكون فيه القضاء على هذه الإمبراطورية الرومية التي ظلت قرونًا مرهوبة الجانب، تعنو لكامتها الجباه وتتصدع من هول بأسها العروش .

أبو بكر يلق
أسامة بظاهر
المدينة

عاد أسامة إذن بالجيش الظافر ، وبلغ ظاهر المدينة ، فتلقاه أبو بكر ، وكان قد خرج في جماعة من كبار المهاجرين والأنصار للقاءه وكلهم فرح وتهلل ؛ وتلقاه أهل المدينة الذين خفوا في أثر أبي بكر وأصحابه بصيحات السرور والإعجاب والتقدير لبسالته وبساله جيشه . ودخل أسامة المدينة تحيط به هالة من فخار النصر ، فقصده من فوره إلى المسجد حيث صلى شكرًا لله على ما أنعم عليه وعلى المسلمين . وكانت عودة الجيش إلى المدينة بعد أربعين ، وقيل سبعين ، يومًا من مغادرته إياها .

يحاول بعض المستشرقين أن يهوتوا من أمر هذه الغزوة وأن يصغروا من شأنها ، مع ما كان من اغتباط المسلمين بها ولا كبارهم للذين تم لهم النصر فيها . يقول المستشرق « فسكّا » محرر فصل أسامة في دائرة المعارف الإسلامية : « وقد بعث انتصار أسامة البشّش في نفوس أهل المدينة بعد أن أحزنهم حروب الردّة ، وأصبح لانتصاره من الخطر ما لا يتفق مع قيمته الحقّة ، بل عدّ

فما بعد فاتحة للحملة التي وجهت لغزو الشام . وصحيح أن هذه الغزوة ليست جسيمة بالقياس إلى ما نعرف من غزوات اليوم ، وليست جسيمة بالقياس إلى بعض الغزوات التي تمت في ذلك الحين . فقد اكتفى أسامة منها بأن دهم القبائل التي فجأها وأن غنم منها دون أن يلقى جيش الروم . لكن الأمر الذي لا ريب فيه أنها كانت بعيدة الأثر في حياة المسلمين ، وفي حياة العرب الذين فكروا في الثورة بهم ، وفي حياة الروم الذين تمتد بلادهم على حدودهم . قال أعداؤهم من العرب الذين تسامعوا بهذه الغزوة « لو لم يكن للقوم قوة ما أرسلوا جيوشهم تُغير على من ساعد عنهم من القبائل القوية » . وانزعج هيرقل حين بلغته أنباء هذه الغزوة فبعث جيشاً قوياً عسكرياً بالبقاء . وتلك الحجة البالغة على أن الروم والعرب جميعاً حسبوا حساب المسلمين بعد هذه الغزاة التي جعلت عرب الشمال ، فيما خلا دومة الجندل ، لا يلحون في التحرش بالمدينة والانتقاض عليها .

أثر هذا الغزو
في العرب وفي
الروم

على أن الأمر لم يكن كذلك فيما سوى الشمال من أنحاء شبه الجزيرة . رأيت من قبل أن قبائل في سائر أنحاء نزعوا إلى العصيان في السنوات الأخيرة من حياة النبي ، ورأيت أن جماعة من أهل هذه القبائل ادّعوا النبوة . ولولا الفرع الذي كان يتولى هذه القبائل ويتولى المتنبيين فيها بسبب ما كان النبي يأخذهم به من حزم وما كان المسلمون يبدونه من بأس وقوة لإيمان ، لاذن لسرت روح الانتقاض في أنحاء كثيرة . فلما اختار محمد جوارر به ارتدت العرب إماماً عاماً ، وإما خاصة في كل قبيلة ، ونجم النفاق ، واشرببت اليهود والنصارى ، واضطرب المسلمون لفقدهم ولقتلتهم وكثرة عدوهم . فلم يكن بد من سياسة حكيمة حازمة ترد الأمر إلى نصابه ، وتنصر دين الله في إبان نشأته .

ردة العرب إما
عامة وإما خاصة

وهذا ما صنع أبو بكر حين جرد أبطال المسلمين لحروب الردة ، وللقضاء على الثائرين بدين الله وبخليفة رسوله .

الفصل الخامس

قتال من منعوا الزكاة

بينما كان أسامة في طريقه إلى تخوم الروم ، كان النبأ بوفاة النبي يدفع العرب إلى الثورة بسلطان المدينة. زادت ثورة اليمن ضراماً على الرغم من قتل العنسي ، وبدأ مسيلمة في بني حنيفة وطليحة في بني أسد يدعوان الناس إلى التصديق بنبوتيهما ويسلقيان من النجاح ما جعل عيسى بن حصن يقول عن طليحة : « نبي من الخلفين - يعني أسداً وغطفان - أحب إلينا من نبي من قريش . وقد مات محمد وطليحة حي » .

بوادر أنباء الردة

جاءت الرسل بهذه الأنباء وبما هو شر منها لأبي بكر أول ما استخلف . فلما بسطوا أمامه الأمر قال لهم : « لا تبرحوا حتى تجيء رسل أمرائكم وغيرهم بأدهى مما وصفتم وأمر من انتقاض الأمور » . ولم يلبثوا أن قدموا كتب أمراء النبي في الأنحاء المختلفة من شبه الجزيرة بانتقاض عام أو بانتقاض خاص . ولم تخف هذه الكتب ما كان من اعتداء المنتقضين على من بقي على إسلامه بين أظهرهم . وكذلك تضرمت الأرض حول أبي بكر ناراً ؛ فكان لا بد من معالجة هذه الحال التي لم ير المسلمون مثلها منذ فُتحت مكة وأسلمت ثقيف .

وكان هذا الاضطراب الذي أصاب العرب قد انتهى بقوم إلى أن يرتدوا عن الإسلام ، في حين بقي آخرون على إسلامهم ثم أبوا أداء الزكاة لأبي بكر . وسواء أكان إياهم أداءها راجعاً إلى حرص الناس على المال وتحايلهم على التحلل من بذله كتحايلهم على اقتناصه وإمساكه ، وذهابهم في هذا وفي ذاك إلى حد التضحية بالحياة في سبيله ، أم كان راجعاً إلى عدهم إياها لإتاوة لم يبق بعد وفاة رسول الله ما يسوغ دفعها لمن اختاره أهل المدينة أميراً عليهم ، فإنهم أضربوا عن أدائها وأعلنوا أنهم لن ينزلوا على حكم أبي بكر في أمرها .

القبائل التي أبوت
أداء الزكاة

كان ذلك شأن القرينيين من المدينة من قبائل عيس وذبيان بنوع خاص .

فإذا عسى أن يصنع المسلمون معهم ؟ ليس من اليسير مقاتلتهم بعد أن أنفذ أبو بكر بعث أسامة فلم يبق بالمدينة جيش يدفع عنها . أيرضون منهم أن يمنعوا الزكاة ، وبذلك يستميلونهم إليهم لعلهم يجدون منهم عوناً على الذين نكثوا أيمانهم وارتدوا عن إسلامهم ؟ أم يحاربونهم فيزيدون بذلك عدد عدوهم ، وقد لا يكون لهم في غيبة الجيش بحربهم قبيل ؟ .

جمع أبو بكر كبار الصحابة يستشيرهم في قتال الذين منعوا الزكاة . وكان رأى عمر بن الخطاب وطائفة معه يشيرون بعدم قتالهم بالله ورسوله ، وأن يستعينوا بهم على عدوهم . ولعل أصحاب هذا الرأى كانوا كثرة الحاضرين في حين كان الذين أشاروا بالقتال هم القلة . وأغلب الظن أن المجادلة بين القوم في هذا الأمر البالغ الخطر طالت واحتدمت أيما احتدام . فقد اضطّر أبو بكر أن يتدخل بنفسه فيها يؤيد القلة ، ولقد اشتد في تأييد رأيه في ذلك المقام ، يدل على ذلك قوله : « والله لو منعوني عقلاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعه » . ولم يثن هذا المقال عمر عن أن يرى ما في القتال من تعريض المسلمين لخطر تخشى مغيبته ، فقال في شيء من الحدة : « كيف نقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فمن قالها عصم مني ماله ودمه إلا بحقها وحسابهم على الله » .

عمر بن الخطاب
وطائفة معه
يشيرون بعدم
قتالهم

لم يترث أبو بكر ولم يتردد في إجابة عمر فقال : « والله لأقتلن من فرق بين الصلاة والزكاة . فإن الزكاة حق المال ، وقد قال : « إلا بحقها » . ويتم الرواة هذا الحديث بأن عمر قال من بعد : « فوالله ما هو إلا أن رأيت الله شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق » .

يذكرنا هذا الحديث بما دار بين رسول الله ووفد ثقيف حين أقبلوا من الطائف يملنون استعدادهم للإسلام ويطلبون إليه أن يعفيهم من الصلاة ؛ فقد أبى محمد يومئذ أن يجيبهم إلى ما طلبوا من ذلك وقال : « إنه لا خير في دين لا صلاة فيه » . ولعل أبا بكر قصد إلى مثل ذلك حين قال : « والله لأقتلن من فرق بين الصلاة والزكاة » .

جميع من منعوا
الزكاة وفدهم
إلى المدينة

بعثت عبيس وذُبيان ومن انضم إليهم من بني كنانة ومن غَطَطَان وفَزَارَة جميعاً منهم أقامت على مقربة من المدينة . ثم إن هذه الجموع انشطرت فرقتين : أقامت إحداهما بالأبرق من الرَبَذَة ، وسارت الأخرى إلى ذى القَصَّة أقرب مَحَلَّة من المدينة على طريق نجد . وأرسل رؤساء هذه الجموع وفوداً منهم إلى المدينة نزلوا على وجوه الناس وتحملوا بهم على أبي بكر على أن يقيموا الصلاة وألا يؤثروا الزكاة ، فكان جواب أبي بكر ما رأيت : « والله لو منعوني عيلاً بلجاهدتهم عليه » .

أوامر أبي بكر
لأهل المدينة

ورجعت هذه الوفود إلى من بعثوهم بعد ما اطلعوا على عورة المدينة وعرفوا أنها مكشوفة ليس بها من يدفع عنها . وأدرك أبو بكر منهم ذلك ، فجمع الناس وقال لهم : « إن الأرض كافرة ، وقد رأى وفدهم منكم قاة ، وإنكم لا تدرون أليلاً تُفُوتُونَ أو نهاراً ، وأدناهم منكم على بريد . وقد كان القوم يأملون أن نقبل منهم ونوادعهم ، وقد أبينا عليهم ونبلنا عهدهم . فاستعدوا وأعدوا » ثم إنه دعا إليه علياً والزبير وطليحة وعبد الله بن مسعود وجعلهم على مداخل المدينة ، وأمر سائر الناس أن يكونوا بالمسجد في عُدَّة القتال .

أول معركة في
عهد أبي بكر

ولم يخطئ أبا بكر حَسَدُ سُهُ ؛ فلم يلبث أهل المدينة إلا ثلاثاً ، حتى زحف عليهم مانعو الزكاة يريدون أن يضعضعوا من عزمتهم للقتال ، فيتجاوز الخليفة عن هذا الفرض من فروض الإسلام . وأحسن العَسَس المقيعون على مداخل المدينة مأنى القوم ، فنبهوا علياً والزبير وطليحة وابن مسعود ومن معهم من الرجال . وأرسل هؤلاء إلى أبي بكر بالخبر ، فأجابهم أن الزموا أما كنكم ، وخرج في أهل المسجد على الإبل حتى بلغهم ، ثم خرجوا جميعاً يواجهون هؤلاء الذين يريدون أن يلبسوا الليل للغدر بهم . ولم يكن يدور بخواطر أهل هذه القبائل أن سيقوا معهم أحد بعد الذي عرفوا من أمر المدينة وأهلها . فلما فاجأهم أبو بكر ومن معه أخذوا فولَّوا الأدبار ، فاتَّبعهم المسلمون حتى ذى حساً ، وكانت القبائل قد تركت في هذه المحلة مدداً من الرجال لعلهم يحتاجون إليهم . وشعر هذا المدد بمجيء القوم منهزمين وباتباع المسلمين لإياهم ، فوقف دون هؤلاء وأولئك ، ودار بين الفريقين في غسق الليل قتال لم يتكشف لأحد الصديق أبو بكر .

منهم أثره . وكان الذين أقاموا بذى حُسًا من أهل القبائل قد جاءوا بأنحاء^(١) ونفخوها وربطوها بالحبال وضربوها بأرجلهم في وجوه الإبل التي امتطأها رجال المدينة . ولم تكن هذه الإبل لإبل حرب ألفت مكاييد القتال ؛ ولذلك نفرت براكبيها مرتلة حتى دخلت بهم المدينة .

فرحت عبس وذبيان ومن ناصرهم بفرار المسلمين وظنوا بهم الوهن ، وتبعوا إلى من بذى القصة ينتهونهم بما حدث . وأقبل أهل ذى القصة عليهم وتبادلوا وإياهم الرأي ألا يلدروا المدينة حتى يوادعهم أبو بكر على ما أرادوا . أما أبو بكر والمسلمون معه فلم يغمض لهم تلك الليلة جفن ، بل بات يتهيأ ويعبثهم . فلما كان الثلث الأخير من الليل خرج يمشي على رأسهم ، وقد جعل لهم ميمنة وميسرة وساقة . وأغذوا جميعاً السير ، فما طلع الفجر حتى كانوا مع العدو في صعيد واحد دون أن يسمع العدو لهم همساً ولا حساً . وكيف يسمع وقد اطمأن إلى انتصاره وبات ناعم الجفن بنوم هائئ . ووضع المسلمون السيوف في القوم ، فهبوا فزعين يقاتلون . ولكن هيهات ! لقد أمعن رجال أبي بكر فيهم قتلاً وهم في عماية الصبح يضطرب حابلهم بنابلهم . وذُرَّ قرن الشمس وهم يولون الأدبار منهزمين لا يلوون على شيء . واتبعهم أبو بكر حتى نزل بذى القصة وهم يفرون أمامه فرار النعام . عند ذلك تركهم ونزل بعسكره في منازلهم من هذه المحلة ، ثم جعل بها النعمان بن مقرن صاحب ميمنته وجعل معه عدداً يدفع به الدين أرادوا على الصديق نصراً فخذلوا ، وعزاً فذلوا .

تراجع المسلمين إلى المدينة

انتصارهم الخامس صبح اليوم نفسه

هنا يقف الإنسان خاشعاً مملوكه الإعجاب بأبي بكر وبإيمانه وثباته وحزمه . فذلك موقف يذكرنا بمواقف الرسول عليه السلام . وإن لهذه الغزوة الأولى من غزوات أبي بكر بلحلالاً ما أشبهه بلحلال غزوة بدر . ووقف المسلمون يوم بدر ومحمد على رأسهم وعددهم لا يزيد على ثلاثمائة يقاتلون المشركين من أهل مكة وعددهم يزيد على ألف . وهنا وقف أهل المدينة ، ومنهم المقاتل ومنهم غير المقاتل ، وأبو بكر على رأسهم ، وهم قلة أمام هذه الجموع الغفيرة من عبس وذبيان وغطفان وغيرهم من القبائل . ويومئذ تحصن محمد بإيمانه وإيمان

(١) الأنحاء : جمع نحي : وهي أوعية من جلود .

أصحابه وينصر الله إياهم على المشركين . وهنا تحصن أبو بكر بإيمانه وإيمان أصحابه فانتصر كما انتصر الرسول ، ثم كان لنصره الأثر البالغ في حياة المسلمين .

على أن ما يملك الإنسان من الإعجاب بأبي بكر في هذا الموقف لا يشوبه من العجب شيء . فقد آلى الصديق على نفسه منذ اللحظة الأولى ألا يدع شيئاً كان يصنعه رسول الله إلا صنعه . أمّا وذلك عزمه الذي لا يحيد عنه ، فلا عجب أن يأبى المساومة في أمر يتصل بما فرض الله في كتابه ، وأن يذكر كلما طلب إليه أحد أن ينزل عن شيء لم يكن رسول الله ليرضى أن ينزل عنه ، هذه الكرامة الخالدة على الزمن من كلمات رسول الله : « والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته » . هذا ما صنع أبو بكر حين تحدث إليه أصحابه في العدول عن بعث أسامة . وهذا كان موقفه حين تحدثوا إليه فيما يطالب العرب من منع الزكاة . وذلك هو الإيمان الصادق الذي لا يغلبه في الحياة غالب ؛ لأنه يستهين بالموت ويسمو لذلك على كل ما في الحياة .

وهذا الإيمان الصادق الذي لا يغلبه الموت ولا يغلبه زخرف هذه الحياة الدنيا هو الذي حفظ الإسلام في صفائه وكماله في ذلك الوقت الدقيق الذي كان يومئذ يتخطاه .

ولذلك لفي حل أن تسأل نفسك : ترى ما كان عسى أن يقول إليه أمر المسلمين لو أن أبا بكر قبل مشورة عمر وأصحابه في شأن الدين طلبوا منع الزكاة ووادع هؤلاء الطالبيين على ذلك ؟ ولا إخالني في حاجة إلى أن أدلك على الجواب فأنت تعرفه كما أعرفه . كانت قبائل كثيرة من العرب إلى ذلك الوقت ما تزال قريبة عهد بالجاهلية وبالوثنية . فلو أن أبا بكر رضى النزول عن فرض من فروض الدين لاتصلت المساومات ، ولوجد طليحة ومسيحة وغيرهما من المتنبيين الوسيلة للتشكيك فيما جاء محمد به من عند ربه ، ثم لوجدوا من هذه القبائل القريبة العهد بالجاهلية مصدقاً لهم ومطيعاً ، بل مؤمناً بهم يموت في سبيلهم وينصرهم على دين الحق .

أثر هذا النصر
في المسلمين من
مختلف القبائل

وأنت تستطيع أن تقدر ما كان لحزم أبي بكر ثم لانتصاره بذى القَصَّة من أثر حين تعلم أن المشركين من بنى ذبيان وعبس وثبوا على من فيهم من المسلمين فقتلهم كل قتلة . هذه الظاهرة التي دفع إليها الغضب والشعور بالذلة والانتقام الوضيع قد زادت انتصار المسلمين جلالاً وزادت المسلمين ثباتاً على دينهم في كل قبيلة ، وجعلتهم يهرعون بالزكاة يؤدونها إلى خليفة رسول الله . لقد رأوا أبا بكر يغلب هؤلاء المرتدين بقوة إيمانه ، في حين كان جيشه مع أسامة على تخوم الروم فأيقنوا أن الغلب لدين الحق والإيمان به ، وأن الانتقام الوضيع الذي لجأت القبائل إليه لن يحو عنها عار هزيمتها ، وأنها ستدفع ثمن هذا الانتقام غالياً .

وكيف لهم أن يرتابوا وقد حلف أبو بكر ليقتلن في كل قبيلة من المشركين بمن قتلوا من المسلمين وزيادة . وهو لا محالة فاعل متى عاد أسامة وآن لجيش المسلمين أن يأخذ هؤلاء الآثمين بذنوبهم .

هرع المسلمون من كل قبيلة يؤدون الزكاة إلى خليفة رسول الله على أثر انتصاره بذى القَصَّة . وكان أول الذين أقبلوا يؤدون الزكاة صَفْوَانُ وَالزَّبْرِقَانُ من رؤساء بني تميم ، وعديّ بن حاتم الطائي عن قومه من طي . واستقبل الناس هؤلاء السفراء عن عشائرهم في بَشْرٍ أَيْ بَشْر . وكان الناس يقول بعضهم لبعض إذا طلع أحدهم : هذا نذير ، فيقول أبو بكر : « بل هو بشير ، وهو حامٍ ليس بوانٍ » . ويحيب الناس أبا بكر يقولون : « طالما بشرت بالخير » ١١ .

أهل القبائل
يؤدون الزكاة
لأبي بكر

لم يكن أبو بكر غالياً إذ دعا هؤلاء حُمَسَاءَ وَمُبَشِّرِينَ بالخير . فقد كان المسلمون بالمدينة وفيما جاورها في حاجة يومئذ إلى سند يشد أزركم بعد الذي رأوا من خطر يوشك أن يهدد كيانه . روى عن عبد الله بن مسعود أنه قال : « لقد قمنا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاماً كدنا نهلك فيه لولا أن الله منّ علينا بأبي بكر . أجمعنا على ألا نقاتل على ابنة مَخْصَصٍ وابنة لَسْبُون ، وأن نعبد الله حتى يأتينا اليقين ، فعزم الله لأبي بكر على قتالهم . فوالله ما رضى منهم إلا بالخُطَّةِ المخزية أو الحرب المجالية . فأما الخُطَّةُ المخزية فأن يُقِرُّوا بأن

من قُتِلَ منهم في النار ومن قُتِلَ منا في الجنة ، وأن يَدُوا قتلانا ، وأن نغنيهم ما أخذنا منهم ، وأن ما أخذوا منا مردود علينا . وأما الحرب المجلية فأن يخرجوا من ديارهم » .

وإن الناس لفي طمأنينتهم بالمدينة إلى نصر الله أبا بكر ، وقد جاء إليهم المسلمون من مختلف القبائل بالزكاة ، إذ أقبل أسامة عائداً من أرض الروم غانماً مظفراً يسوق أمامه غنائه ويلحق به جيشه ، ويستقبلهم أبو بكر وكبار الصحابة بالجُرف ، ويحفّ الناس بهم في أثر الصديق وأصحابه . ينشدون من حولهم أغاني العزة والنصر . وذهب أسامة من فوره إلى المسجد ، فركز اللواء الذي عقده له رسول الله ، وصلّى شكرًا لله على ما نصره وأعزّ بجيش المسلمين كلمة الحق ودين الهدى .

ما هذا كله ؟ ! أليست هي المعجزة أراد الله أن يتم بها النصر لدينه ! وهل تنصافر الأقدار بمحض المصادفة هذا التنصافر الذي دوى في أنحاء شبه الجزيرة ، فشد من عزائم المسلمين في كل قبيلة ، ورفع من رعوسهم في وجه عدوهم فما يدرى مرتدًا ما يقول لهم ! . .

ورأى أبو بكر في حصافته ودقة تقديره الأمور ألا يُريح أعداءه وأن يضاعف ذلتهم ، فقال لأسامة وجنده : استريحوا وأريحوا ظهوركم . ثم استخلف أسامة على المدينة ، ونادى في رجاله الأولين بالخروج معه إلى ذى القصة . وناشده المسلمون قائلين : « نشدك الله يا خليفة رسول الله أن تعرض نفسك ، فإنك إن نصبت لم يكن للناس نظام ، ومقامك أشد على العدو ، فابعث رجلا ، فإن أصيب أمّرت آخر » . لكن أبا بكر كان إذا اعتزم أمراً لم يرجع عنه ؛ لذلك قال لهم : « لا ! والله لا أفعل ، ولأواسينكم بنفسى » . وخرج ومن حوله الميمنة والميسرة والساقة ، كما خرج من قبل ، حتى نزل على أهل الربذة بالأبرق فيها وراء ذى القصة . هناك قاتل عبساً وبني ذبيان وبني بكر فغلبهم وأجلاهم عن مواقعهم . وكانت الأبرق في ملك بني ذبيان . فلما جلتوا عنها أعلن أبو بكر أنها أصبحت في ملكه وملك أصحابه . وقال : « حرام على بني ذبيان أن يملكوا هذه البلاد وقد غنمناها الله » .

أبو بكر يخرج
كرة أخرى لقتال
من منوا الزكاة

وبقيت هذه الأماكن من بعدُ يحتلها المسلمون ، فلم يرض أبو بكر أن يردّها إلى بنى ثعلبة حين جاءوا إليه بعد أن استقرت الأمور يريدون العود فيها إلى منازلهم .

تمت هزيمة الثائرين الذين أرادوا أن يمنعوا الزكاة . وتمت هذه المرة والمدينة في منعة أى منعة يجيش أسامة ، وفي رخاء بما جاء به من الغنائم ، وبما حُصلَ إليها من زكاة المسلمين الذين آتوا الزكاة منذ انتصر خليفة رسول الله .

أما آن لبني ذبيان وعبس وغطفان وبني بكر وغيرهم من القبائل القريبة من المدينة أن ترجع عن انتمائها ، وأن تدعن لأبي بكر وتعلن الإسلام لأمر الله وخليفة رسول الله ؟ لقد تحطمت الثورة التي قام بها العنسي في اليمن . ولقد انتصر المسلمون على تخوم الروم . ولقد بدا أبو بكر في ثوب من قوة الإيمان لا غالب له . وهذه القبائل كانت إلى أن اختار الله إليه رسوله مُسلمة صادقة في دينها ، فخير لها أن تعود إلى حظيرة الإسلام وأن تمد يدها إلى الصديق بالطاعة . وأن تكون معه على عدوّ الله وعدوه . ذلك ما يوجب العقل وما يقضى به منطق الحوادث . فأولئك المسلمون من المهاجرين والأنصار هم الذين تغلبوا على أهل شبه الجزيرة جميعاً بقوة إيمانهم ؛ وهم اليوم في قوة لم تكن لهم أيام بدر والغزوات الأولى في عهد الرسول . فكة معهم ، والطائف معهم ، وسلطانهم معترف به في مختلف البقاع . ثم إن من أهل هذه القبائل الثائرة بأبي بكر مسلمين إن استطاعت القبائل أن تقتن بعضهم فلا سلطان لها على الأعيرة منهم ، مخافة الثارات والفتن التي تنجم عن تعصب البطون والأفخاذ لذوى المكانة فيها . أفأذعنن لحكم العقل وسمعت لحجة المنطق ؟ .

كلا ! بل أخذتها العزة بالإثم ، وغرها بالله الغرور ، وصدق عليها المثل :
العناد يورث الكفر . لذلك جلت عن مواطنها وانحازت إلى طليحة بن خويّلد المنتبئ في بني أسد وكفرت بنعمة الله عليها بالإسلام . ولم يستطع المؤمنون الذين أقاموا على دين الله بينها أن يقاوموا عنادها وكفرها ، ففرح منهم من نزع معها كارهاً برماً لا يملك من أمر نفسه شيئاً . وقوى انحيازها طليحة ومُسلمة

انحياز المهزبين
إلى طليحة في
بني أسد

وقوى روح التمرد في اليمن . لذلك بقى أبو بكر في موقفه الأول من العزم على مقاتلتهم حتى يتم أمر ربك . ولو أن هذه القبائل أذعنت لحكم العقل وأصاحت لإملاء المنطق لضعضع أمرها من عزم طليحة وأشباهه ، ولأسرعت شبه الجزيرة إلى حمى الإسلام والسلام .

موقف القبائل
من أبي بكر
وموقفه منها

ولست تجد تعليلا لهذا العناد ولهذا الانقلاب عن الإسلام إلا ما قد منا من تعصب القبائل وحرصها البدوي على سلطانها ، ومن المغالاة في ذلك إلى حد لا يكبح من جماحه غير البأس . فإذا كانت قد رُدَّتْ على أعقابها حين حاولت مهاجمة المدينة ، أو كانت قد أجليت عن بعض منازلها من بعد ، فطبيعتها البدوية تدعوها إلى الثأر لنفسها . ولتأثر لنفسها انضمت إلى بنى أسد وإلى طليحة ، لعلها تجد في عونها ما يرفع عنها عار الدلة ، وما يرد إليها شيئا من الكرامة .

فأما أبو بكر فكان قد سما فوق الاعتبار القبلية وما يتصل بها ، وتوجه بكل قلبه ورأيه وعزمته إلى تنفيذ الخُطَّة التي رسمها رسول الله . تلك سياسته التي أعلنها يوم بويج ، والتي سار عليها إلى أن لقي ربه .

الفصل السادس

التهيؤ لحروب الردة

هزم أبو بكر عبساً وذبيان وبنى بكر ومن انضم إليهم وأجلاهم عن مواقعهم بالأبرق ، فأنحازوا إلى طلسيحة بن خويلد الأسدي ببزاحة . وقد أعلن أبو بكر أن الله غنم هذه البلاد فلن يردّها إلى أصحابها ، وأنه جعل الأبرق لحيول المسلمين ، وأرعى سائر بلاد الرّبذة الناس وجعلها صدقات للذين آمنوا . ورجع الصديق إلى المدينة وهو يفكر في الوسيلة التي يقضى بها على الذين ارتدوا عن الإسلام القضاء المبرم . فما كان ليذرهم في شتّى الأنحاء من شبه الجزيرة يشورون به وبدين الله ، وما كان ليصالحهم أو يوادعهم قبل أن يشوبوا إلى الله وأن يرجعوا مسلمين .

توزيع الجند
أولى لقتال
المرتدين

وأقام بالمدينة ، حتى إذا اطمأن إلى أن جيش أسامة بن جهم خرج به إلى ذي القصة فوزع الجند أحد عشر لواءً جعل على كل لواء منها أميراً ، ثم أصدر إلى كل منهم أمره أن يستنفر من يمر به من المسلمين أولى القوة وأن يسير لقتال المرتدين * .

* وزع أبو بكر هذه الألوية توزيعاً يجعلها تتناسب في عددها وفي إمارتها مع قوة القبائل التي وجهها إليها ، وبمبلغ إلحاق هذه القبائل في الردة . لذلك وجه خالد بن الوليد على رأس اللواء الأول لقتال طليحة بن خويلد في بني أسد ، فإذا فرغ منه صار إلى مالك بن نويرة فزعم بنو تميم بالبطحاء . وبنو أسد وبنو تميم كانوا أقرب القبائل المرتدة إلى المدينة ، فكان طبيعياً أن يبدأ المسلمون بهم لتفت هزيمتهم في أعضاد غيرهم . وشالذ أجدر القواد بأن يعقد النصر له لوائه .

وجعل أبو بكر عكرمة بن أبي جهل على اللواء الثاني ووجهه لقتال مسيلمة في بني حنيفة باليمامة . ثم جعل شرحبيل بن حسنة على اللواء الثالث وأمره بمعاونة عكرمة على مسيلمة . فإذا فرغاً منه لحق شرحبيل بقضاعة مدداً لعمر بن العاص . وقد استعصت اليمامة على عكرمة وعلى شرحبيل ثم كان خالد بن الوليد هو الذي قضى على الردة فيها بعد أن قتل مسيلمة في غزوة عقرباء .

وعقد أبو بكر للمهاجر بن أبي أمية المخزومي إمارة اللواء الرابع لقتال جنود العنسي باليمن ولقتال عمرو بن معدى كرب الزبيدي وقيس بن مكشوح المرادي ورجالها ، فإذا فرغ منهم =

احتفظ أبو بكر للمدينة بقوة تحميها كانت دون الأولوية عدداً . ذلك أن المدينة كانت يومذاك بمأمن من غارة المغير ، وكانت في رخاء زاد أهلها اطمئناناً للحياة . وكيف لقبيلة أن تُغير عليها والغارات توجهت منها إلى كل صوب ، وقد تداول سمع الناس من أنباء جندها المظفر وماله من الأيد واليسالة ما جعل دفع هذا الجند غاية ما يطمع فيه الثائرون بها ! .

ومن يومئذ أقام أبو بكر بالمدينة لم يبرحها . ولم يكن ذلك رغبة منه عن مشاركة المسلمين في مواقعهم ، بل لأن المدينة أصبحت مكان القيادة العامة للجند كله ، والمرجع الذي تصدر منه الأوامر بالتحرك من مكان إلى آخر . فقد كان مما أمر به أبو بكر قواده ألا ينتقل أحدهم من حرب جماعة تغلب عليها إلى مواجهة أخرى لمقاتلتها حتى يستأذنه ؛ وذلك إيماناً منه بأن وحدة القيادة في الحرب بعض ما تقضى به السياسة الحكيمة ، وما يكفل الغلب والفوز .

أبو بكر بالمدينة
مركز القيادة
العامة

وقد لاحظ جماعة من الأنصار أن أبا بكر جعل الأولوية للمهاجرين ولم يجعل لهم منها نصيباً . وهو إنما فعل هذا ليبقى أهل المدينة على قوات الدفاع عنها ؛ فهم أعلم بأمرها ، وأحرص من غيرهم على الذود عن حياضها . أما ما ظنه بعضهم من أنه استبقاهم حذراً منهم بعد الذي أبدوه في سقيفة بني ساعدة فلا مسوغ له . فهذه الأولوية إنما عقدت لقتال المرتدين . ولم يكن الأنصار دون المهاجرين إيماناً بالله ورسوله ، فالحذر من ناحيتهم في هذا القتال

اختياره أمراء
الألوية من
المهاجرين

= قصد إلى كندة وحضرموت يقاتل الأشعث بن قيس والمرتدين معه . أما اللواء الخامس فوجهه إلى تهامة اليمن وجعل عليه سويد بن مقرن الأوسى .

وعقد إمارة اللواء السادس للعلاء بن الحضرمي لقتال الحطيم بن ضبيعة أخى بني قيس بن ثعلبة والمرتدين معه بالبحرين . ووجه حذيفة بن محسن الغلفاني من حمير على رأس اللواء السابع لقتال ذى التاج لقيط بن مالك الأزدي المتنبئ في عمان . وكانت وجهة اللواء الثامن وعليه عرقبة بن هرثمة إلى مهرة . كان طبعياً أن توجه هذه الأولوية إلى الجنوب لبأس أهله وإلحاحهم في الردة . أما الشال من شبه الجزيرة فتوجهت إليه ألوية ثلاثة ، على أحدها عمرو بن العاص لقتال قضاة ، وعلى الثاني معن ابن حاجر السلمي لقتال بني سليم ومن معهم من هوازن ، وعلى الثالث خالد بن سعيد بن العاص لاستبراء مشارف الشام . .

لا مسوّغ له . ولو أن مثل هذا التأويل ساغ في شأن الأنصار لساغ كذلك في شأن كبار المهاجرين أمثال عليّ ، وطلحة ، والزبير ، ممن أقاموا كما أقام عمر بن الخطاب بالمدينة ليشيروا على أبي بكر ، فيكون مركز القيادة العامة قوياً بهم وبما يضعون من خُطَط ويدبّرون من أمور .

أبو بكر فوق
الشبهات

ومّم كان أبو بكر يحذّر أو يخشى ؟ إنه لم يتول الخلافة رغبة منه فيها ، بل لأن أولى الرأى بالمدينة رأوه أصلحهم لها . ولقد أبدى منذ تولّاها من التقدير لأعبائها ما يشهد بأنه قبلها مضمحياً في سبيل الله . كان مما قاله وهو يخطب الناس بعد قليل من تمام بيعته : « أما بعد ، فإنّي وليتُ هذا الأمر وأنا له كاره . والله لوددت أن بعضكم كفانيه ! » . وخطب مرة فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : « إن أشقى الناس في الدنيا والآخرة المملوك » . فرفع الناس زعوسهم دهشاً فقال : « مالكم أيها الناس ! إنكم لطمعانون عجّلون . إن من المملوك من إذا ملك زهّده الله فيما بيده ، ورغبه فيما بيد غيره . . . فهو كالسراب الخادع ، جسدٍ الظاهر ، حزين الباطن » وكان منزل أبي بكر بالسُّنَح عند زوجته حميدة بنت خارجة منزلاً بدوياً صغيراً لم يغيّر منه ولا غير من منزله بالمدينة بعد ما بويج ، بل أقام به ستة أشهر يغدو على رجله من السُّنَح إلى المدينة ، وربما ركب فرساً له . وكان يتّجّر في الثياب فلما رأى أعباء الدولة أشق من أن تتفق والتجارة قال : « لا والله ما يصلح أمر الناس والتجارة ! وما يصلح لهم إلا التفرغ والنظر في شأنهم . ولا بد لعيالي ما يصلحهم » . وترك التجارة ووظّف له من بيت مال المسلمين ما يصلحه ويصلح عياله . فلما حضرته الوفاة قال : « رُدّوا ما عندنا من مال المسلمين فإنّي لا أصيب من هذا المال شيئاً ، وإنّ أرضي بمكان كذا للمسلمين بما أصيب من أموالهم » . قال عمر بن الخطاب وهو يستولى على هذه الأرض بعد ما استخلف : « لقد أتعب أبو بكر منّ بعده » .

رجل ذلك شأنه مِمّ يحذّر ! وما كان عسى أن يحذر يوم عقد الألوية الأحد عشر وكانت مكانته قد توطدت بين المسلمين ، بل بين العرب جميعاً ، بما أبدى من حزم وحسن رأى وضدق إيمان وحرص على التضحية كانت كلها بعض صفاته في جميع أدوار حياته ، ثم بلغت أوج قوتها وصفائها في هذه

الآونة التي جلّ الشيب فيها رأسه بعد أن تخطى الستين وتولى خلافة رسول الله . لذلك لم يخامر أحداً الرب في مقاصده ، ولم يتردد أحد في تنفيذه ما أمر به .

ولقد كان اللواء الذي عقده لخالد بن الوليد أمتع الألوية الأحد عشر وأقواها ، وكان به خيرة المقاتلة من المهاجرين والأنصار . ولعل خالداً هو الذي اختارهم . وسرى من بعد أنهم أبلّسوا في حروب الردّة خير بلاء ، ثم كان لهم في حروب العراق والشام بلاء لا تُبليه الأيام ، ولا يجنى عليه النسيان .

لواء خالد بن الوليد

ولا عجب أن يكون ذلك شأن لواء على رأسه خالد بن الوليد . فقد كان خالدٌ عبقريةً في الحرب لا يغلب . آتاه الله موهبتها ، كما آتى هذه الموهبة الإسكندر الأكبر ، وجنكيزخان ، ويوليوس قيصر ، وهانيبال ، وزابليون . كان بطلاً مقداماً وفارساً مغامراً ، ثم كان له من سلامة الحكم وسرعته ما يجنبه كل خطر للمغامرة أو الإقدام . وكان مداوراً في الحرب أطم سرها ، وتجلّى له ما جل ودق من أمرها . وكان الناس جميعاً يشهدون له بهذا ، وقد سمّاه رسول الله « سيف الله » حين تولى أمر الجيش « بمؤتة » بعد مقتل زيد بن حارثة ، وجعفر ابن أبي طالب وعبد الله بن رواحة ، فداور به في وجه الروم ثم ارتد به سالماً لم ينتصر ولم يلحقه عار الهزيمة . وبقي خالد سيف الله في كل وقائعه إلى أن مات .

خالد بن الوليد
عبقرى الحرب
وسيف الله

وكان خالد قبل إسلامه بطل قريش المغوار وفارسها المعبّات . لذلك كان في وقائع بدرٍ وأحُدٍ والحنديق على جيش المشركين . وكان له من صفات الجندي خشونة في الطبع ، وميل إلى الشدة والبطش ، وتسرع لولا سلامة حكمه لأضر به . من ثمّ كان لا يهاب الأقران ولا يخشى أحداً . لما ذهب رسول الله إلى مكة في عمرة القضاء بعد عهد الحُدَيْبِيَّةِ ثم عاد إلى المدينة ، وقف خالد ابن الوليد في جمع من قريش يقول : « لقد استبان لكل ذى عقل أن محمداً ليس بساحر ولا شاعر ، وأن كلامه من كلام رب العالمين . فحق على كل ذى لب أن يتبعه » . ودار لذلك بينه وبين عِكْرِمَةَ بن أبي جهل حوارٌ لم يبلغ العنف

فيه مبلغاً تخشى مغبته . ولم يكن أبو سفيان حاضراً هذا الاجتماع . فلما بلغه إسلام خالد بعث في طلبه وسأله : أحق ما بلغه عنه ؟ أجابه خالد أنه حق ، وأنه أسلم ، وشهد برسالة محمد ؛ فغضب أبو سفيان وقال : « واللأت والعزى لو أعلم أن الذى تقول حقٌ لبدأت بك قبل محمد » . وكان جواب خالد في حدة المعتز بنفسه : « فوالله إنه لحقٌ على رَغْمٍ من رَغْمٍ » .

والتحق خالد بالمدينة ، فلم يلبث أن سميت مكانته بين المسلمين بوصفه محارباً . فلما كانت مؤتة كان سيف الله فيها ، ثم كان سيف الله من بعد ؛ فتح الله به العراق والشام ، وأذل به فارس والروم الإمبراطوريتين العظيمتين صاحبتى الأمر والنهى فى شئون العالم يومئذ . فلا عجب أن يختاره أبو بكر أميراً على لوائه الأمان . ولا عجب أن يكون لخالد فى حروب الردة وما تلاها ما ستقص عليك نبأه من بعد .

المهجوم السلى
الذى سبق
حروب الردة

هل سير أبو بكر هذه الألوية الأحد عشر للقتال أول ما تم تجهيزها ؟ وهل سيرها كلها دفعة واحدة ؟ ذلك ما يذكره بعض الرواة وإن دللت الوقائع على خلافه . لكنه على كل حال لم يسير أولها حتى بدأ بهجوم سلمى مهتد به لها خير تمهيد . فقد أذاع فى الناس من أهل شبه الجزيرة جميعاً كتاباً تحدث فيه إلى من بلغه هذا الكتاب من عامة أو خاصة ، أقام على الإسلام أو رجع عنه . وقد بدأ هذا الكتاب بحمد الله والثناء عليه ، وذكر بعثه محمداً بالحق من عنده بشيراً ونذيراً ، ثم أشار إلى وفاة رسول الله بعد أن بلغ ما أمره الله أن يبلغه للناس ، وأن الله قد بين ذلك لأهل الإسلام فقال : « إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ » . وقال : « وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَئِنَّ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ » . وقال : للمؤمنين : « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَئِنَّ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزَى اللَّهُ الشَّاكِرِينَ » .

ولما أراد الصديق بذكر هذه الآيات أن يدفع بها ما ثار من الفتنة بقول

الذين قالوا : لو أن محمداً كان رسولا حقاً مامات . وبعد أن فرغ من ذلك
 كتاب الصديق
 إلى المرتدين
 ومن الإيصاء بتقوى الله والاعتصام بدينه قال : « وقد بلغني رجوعُ مَنْ رجع منكم
 عن دينه بعد أن أقرّ بالإسلام وعمل به ، اغتراراً بالله عز وجل ، وجهالة لأمره ، وإجابة
 للشيطان . . وإنني قد أنفذت إليكم فلاناً في جيش من المهاجرين والأنصار
 والتابعين بإحسان ، وأمرته ألا يقاتل أحداً ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية الله .
 فمن استجاب وأقرّ وكفّ وعمل صالحاً قبل منه وأعانه عليه ، ومن أبى ، أن يقاتله
 على ذلك ، ولا يُبقي على أحد منهم قنـدَ ر عليه ، وأن يُسحقهم بالنيران ويقتلهم
 كل قتلة ، ويسبي النساء والذراري ، ولا يقبل من أحد إلا الإسلام . فمن آمن
 فهو خير له ، ومن تركه فلن يُعجز الله . وقد أمرت رسولاً أن يقرأ كتابي في
 كل مجمع لكم . والداعية الأذان » . لذلك كان المسلمون إذا أذنوا فأذن
 الناس كفوا عنهم ، وإن لم يؤذنوا سألوهم ما هم عليه ، فإن أبوا
 عاجلوهم .

أذاع أبو بكر هذه الرسالة في مختلف الأنحاء من شبه الجزيرة . وإنما ابتغى
 بها أن يدع للمتردين فرصة للتفكير ؛ فإنه قد انساق كثيرون وراء الدعاة
 مخافة ما يصيبهم إذا أقاموا على إسلامهم . فإذا رأوا أنفسهم بين قوتين مالت
 نفوسهم إلى إسلامها ، أو أمسكوا على الأقل عن نصره زعماء الردة . بذلك
 تُحقّق دماء ، وبه يتضعع عزم كثيرين فلا يقاومون . ولسترى أن هذا
 الأثر الذي قصد إليه أبو بكر من هجومه السلمي قد تحقّق منه حظ
 عظيم .

جد الصديق في
 هجومه السلمي
 على أن أبا بكر لم يقصد من هجومه ذلك مداورة يقف عندها ، فإن
 أنتجت أثرها فذاك ، وإن لم تنتج التمس وسيلة غيرها لهجوم سلمي آخر .
 كلا ! بل لقد كان جاداً أكل الجذ في كل كلمة من كلمات كتابه ، وفي كل
 صورة من صور التهديد التي ذكرها فيه . فهو لم يابث حين أتم هذا الكتاب
 يُعذّر فيه للمتردين ويُنذرهم أن كتب إلى أمراء الألوية عهداً لقتال مَنْ رجع
 عن الإسلام أن يحاهدوهم بعد أن يُعذّروا إليهم فيدعوهم بدعاية الإسلام .
 فإن أجابوا الأمير على جند المسلمين أسك عنهم ، وإن لم يجيبوه شن غارته عليهم

حتى يقرّوا له ، ثم ينبتهم بالذى عليهم والذى لهم ، فيأخذ ما عليهم ، ويعطيهم ما لهم ، ولا يُنظرهم . ومن يجب الدعوة لم يكن لأحد عليه سبيل ، وكان الله حسيبه بعدُ فيما استسرّ به . أما من لم يجب داعي الله فليُقْتَلْ وليُقْتَلْ حيث كان ، ولا يقبل منه إلا الإسلام ، وليقتل بالسلاح والنيران .

سياسته ، وتأويل
حزم أبي بكر في
تنفيذها

بهذين الكتابين وبالألوية التي عقدها أبو بكر تمّ التجهيز لحروب الردّة . وأنت ترى في هذا كله صورة صحيحة للسياسة الحازمة التي اتبعها أبو بكر في خلافته . وقد يحسبها البعض عجباً من أبي بكر مع ما عرف عنه من لين الطبع ودماثة الخلق والحرص على تأليف القلوب بالحسنى . لكنها ليست عجيبة ألبتة وإيمان الصديق بالله ورسوله لم يعرف التردد يوماً إليه سبيلاً . والطباع الرفيقة تأبى العنف ولا تميل إلى الشدة في مألوف ما بين الناس من تجارة الحياة . فأما إن اتصل الأمر بشيء يؤمن أصحاب هذه الطباع به ، فلن تقاس بشدتهم شدة ولا بقوتهم قوة . وكأننا رُكِّب في الفطرة الإنسانية مقداراً من الشدة واللين يتقارب قدره في كل فرد من الناس جميعاً ، ثم يتفاوتون في تقدير الأوقات والمناسبات التي تجب فيها الشدة أو يجب فيها اللين . فمنهم من تغلب الشدة طبعه أكثر الوقت ، فإذا رأيته حسبته لا يابن أبداً . ومنهم من تغلب الرقة طبعه أكثر الوقت ، فإذا رأيته حسبته لا يشتد أبداً . والواقع أنك ترى من تغلب الشدة طبعه يابن أحياناً ، فإذا به يبلغ في رفته وفي لينه حدّاً لا يجده الإنسان فيمن ألف منهم لين الجانب ورقة الطمع . والذين تغلبهم الرقة معظم الوقت وتبلغ حدّ التألم للغير والبكاء لشقائه ، يصلون من البأس واليبطش أحياناً إلى حد لا يجده الإنسان فيمن كانت الشدة بعض طبعهم .

أفكان يظن أحدٌ أن يقف أبو بكر من بعث أسامة ذلك الموقف الحاسم مخالفاً كبار المسلمين ، مهاجريهم والأنصار ؛ أو أن يشتد في أمر الذين منعوا الزكاة لا يصدّه عن قتالهم غياب جيش المسلمين عن المدينة ؟ ! وسرى له من بعد مواقف كهذه تأثير عجبك وإعجابك لبأس رجل كله الرقة والرفق ولين الجانب .

وقد بيّنا تأويل ذلك من قبل حين تحدثنا عن إيمان الصديق بالله ورسوله .

كان هذا الإيمان عنده هو الحق لا حق غيره ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وكان حقاً كله ، فصّله الله في كتابه الذى أوحاه إلى محمد عبده ورسوله . فإذا جاز أن يساوم الناس بعضهم بعضاً على أمر في الحياة ، فلن تتناول المساومة هذا الحق المتصل بالله جل شأنه ، والذى لا يملك أحد من أمره إلا التسليم به والإذعان له . فن حدثته نفسه بالخروج عليه فلا شأن لأبى بكر معه إلا أن يقاتله حتى يردّه إلى الحق أو يقتله . وهو يقاتله ولو كان الصديق وحده ، ولو لم يبق في القرى غيره . كذلك كان في أمر من منعوا الزكاة . فأحضر به أن يكونه في أمر من تمت ردتهم أو حدثتهم أنفسهم أن يؤمنوا برسول غير محمد رسول الله .

آن لأبى بكر بعد أن تم التهيؤ لقتال المرتدين أن يبدأ هذه الحرب الحاسمة في حياة الإسلام . فقد كانت حرباً حاسمة لا ريب . ولئن لم ينتصر المسلمون فيها ليكون ذلك النذير بعود العرب إلى جاهليتهم الأولى . لكن الله جل ثناؤه قدّر أن يُظهر دينه على الدين كله ، وجعل أبا بكر آية له تطالع الناس بما أراد وقدّر . لذلك لم يعرف تاريخ الإسلام ولن يعرف حروب ردة كالتى واجهها أبو بكر فتغلّب بإيمانه عليها ، ثم كانت طليعة انتشار الإسلام في الخافقين .

حروب الردة
حاسمة في حياة
الإسلام

الفصل السابع

طليحة وغزوة البزاحة

باعث عبس وذبيان وبنو بكر ومن آزرهم في مهاجمة المدينة بعار الهزيمة ، فانحازت إلى طليحة بن خويلد الأسدي . وانضم إلى هؤلاء قبائل طيء وغطفان وسُلَيم وما جاورها من أهل البادية الواقعة شرق المدينة وإلى شهابا الشرق . وكانوا جميعاً يقرلون ما يقوله عبيسة بن حصن ومن معه من بني فزارة : « نبي من الخلفين - يعنون أسداً وغطفان - أحب إلينا من نبي من قريش . وقد مات محمد وطليحة حي » .

ولم يكن هؤلاء في ريب من أن أبا بكر سيتجهز لهم ويحاربهم . لكنهم أصروا على مناهضته ، وعلى متابعة طليحة ، تمرداً على سلطان المدينة ، وحرصاً على استقلالهم ، واستكباراً أن يؤثروا الزكاة ، إذ هم يرونها إتاوة يؤديها التابع للمتبوع . وكان طليحة يقيم بسميراء ، ثم انتقل منها إلى بزاحة يحسبها أمنع موقعاً وخيراً في الحرب مكاناً .

تنبؤ طليحة بن
خويلد الأسدي

وطليحة لم يتنبأ بعد موت رسول الله ، بل تنبأ في العهد الأخير من حياته ، شأنه في ذلك شأن الأسود العنسي ومسيلمة . وهو لم يدعُ العرب إلى العودة لعبادة الأصنام ، كما لم يدعهم غيره من المنتهين إلى العودة لعبادتها . لقد قضى محمد على هذه الوثنية في بلاد العرب قضاءً مبرماً ، فامتدت دعوة التوحيد إلى أنحاء شبه الجزيرة جميعاً ، واستقرت في النفوس استقراراً جعل التفكير في الأصنام ضرباً من الهذيان يستحي منه كل إنسان . وإنما زعم أولئك المنتهون أنهم يوحى إليهم كما يوحى إلى محمد ، وأن الملك يأتيهم من السماء كما يأتي محمداً . وقد حاول بعضهم محاكاة القرآن فيما أوهم أنه يوحى إليه ، وحفظت الروايات لنا صوراً لما زعموا من ذلك يصعب القطع بصحة نسبتها . فهي من السخف بحيث يتعذر على أي إنسان أن يتصور كيف يرضى متنبئاً إذاعتها باسمه في الناس ، وكيف يُقبل الناس عليه أو يتبعونه حين يرونها ينسب هذا الهلتر إلى

الوحي ويدعى أنه من كلام رب العالمين . وحسبُك أن تتلو ما قيل أن طليحة زعم أنه أوحى إليه لترتاب في أن يدّعيه رجل تجتمع العرب حوله ، ثم يكون له من بعدُ في الإسلام مواقف لا يزال يحفظها التاريخ عن وقائع الفتح في إبان عهد عمر بن الخطاب . وبما تذكر الروايات عما زعم طليحة أنه أوحى إليه قوله : « والحمام واليمام ، والصُردُ الصوام ، قد صُمن قبلكم بأعوام ، ليلبغن ملكنا العراق والشام » .

ما يزعم طليحة أنه يوحى إليه

لقد طالما قرأنا عن سجع الكُهَّان في الجاهلية . وكلنا نذكر أن قريشاً حاربت محمداً بأنه كاهن ، وبأن ما يوحى إليه هو بعض هذا السجع . ولقد استبان لمن عاصروا النبي أن هذه الدعاية هراء حين توجّه إلى القرآن ، ثم استبان للعرب وللناس جميعاً أن القرآن معجزة محمد ، لن يستطيع الإنس والجن أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً . ولقد كان طليحة كاهناً ، كما كان العنسي كاهناً . أفهذا السجع الذي ادّعَوْه وحياً كان من سجع الكهان ؟ ! لنْ صحح ذلك لقد كان هؤلاء الكهان طرازاً من المشعبدن أعجب طراز ، ولقد كان ما ينسب إليهم من الحكمة مما يزرى بالحكمة .

وسواء أصبحت نسبة هذه الأقوال إلى طليحة أم لم تصبح فإنه قام يدعو إلى آراء لم يحفظ لنا التاريخ منها شيئاً يذكر . وكل ما يحدثنا به أنه أنكر الركوع والسجود في الصلاة ، وقال إن الله لم يأمر أن تمرغوا وجوهكم في التراب ، أو أن تقوسوا ظهوركم في الصلاة . فإن يكن ما نسب إليه من ذلك صحيحاً فلعله نقله عن الصلاة عند المسيحيين . وإنما ترجع قلّة ما بقى لنا من آثار طليحية ومُسيّلة وأضرابهما إلى مثل السبب الذي ترجع إليه قلة ما لدينا عن الأصنام ؛ فقد عفى المسلمون الأولون على ذلك كله ، ولم يفكر أحد منهم في تدوينه أو روايته ، ولم يدوّن من بعدُ إلا ما عدّ تدوينه تأييداً للدين القيم . وأنت تعرف أن المسلمين لم يدوّنوا في الصدر الأول شيئاً إلا ما كان من جمع أبي بكر كتاب الله . فأمتاً جمعُ السنة والحديث فقد حدث بعد القرن الأول ، وقد اقتضى العاملين عليه من المشقة ما لم يهوّنهُ إلا عظيم الرجاء في مثوبة الله عنه . فلا عجب وذلك هو الشأن أن تخامرنا الريبة في كثير من الروايات عن طليحة

موقف المسلمين من آثار المتنبيين

وغيره من المنتهين ، وبخاصة إذا لم تتفق هذه الروايات والمعروف من حياة العرب في حضرهم وبدوهم ، ولم تتسق مع ما يتصل بها من الأحداث والشئون .

محمد يأمر بقتال
المرتدين في بني
أسد

تنبأ طليحة في بني أسد ، كما تنبأ الأسود في اليمن ومسيلمة في اليمامة ، في حياة النبي . هناك وجه محمد ضرار بن الأزور إلى عمّاله على بني أسد يأمرهم بالقيام على كل من ارتد . ونزل المسلمون وأردات ، ونزل طليحة ومن معه سَمِيرَاء . وكان عدد المسلمين يزداد ، وعدد المرتدين ينقص : لتواتر الأنباء عن نصر المسلمين في شتّى الميادين ، حتى هم ضرار بالسير إلى طليحة لمقاتلته . ولقد سبقه أحد المسلمين يريد أن يُريح من هذا المنتهى فصره بالسلاح فنبأ عنه ولم يُصبه . وأسرع المحيطون بطليحة فأذاعوا هذا الأمر في الناس وجعلوا يقولون إن السلاح لا يجوز في نبيّهم . وأن المسلمين لينجهزّون لمواجهة هذا الموقف إذ جاءهم النبأ بوفاة رسول الله ، فاضطربوا وتناقص عددهم ، وهرع الكثيرون منهم إلى طليحة يتابعونه ويؤيدونه . فلما انحازت إليه عَمَيْسٌ وذبيان بعد أن هزمهم أبو بكر بذي القصة استغلظ أمره وظنّ أن لن يذهب .

عمينة بن حصن
الفزاري يؤيد
طليحة

اجتمع إلى عبس وذبيان من القبائل ما زاد طليحة قوة . ذلك أن أسداً وغطفان وطيثاً كان بينهما حلف في الجاهلية من قبل أن يُبعث رسول الله ، ثم إن أسداً وغطفان اجتمعتا على طي . فأجلوها عن ديارها ، وانقطع بذلك ما بينهما وبينهما . فلما مات رسول الله قام عَمَيْسَةُ بن حصن الفزاري في غطفان فقال : « ما أعرف حدود غطفان منذ انقطع ما بيننا وبين بني أسد . وأنى لمجدد الحلف الذي كان بيننا في القديم وتتابع طليحة . والله لأن نتبع نبياً من الخلفين أحب إلينا من أن نتبع نبياً من قریش . وقد مات محمد وبقى طليحة » . وتابع عَمَيْسَةُ قومه على رأيه ، فاشتدت بهم شوكة المرتدين حتى فرّ من كان بينهم من المسلمين إلى المدينة .

اجتمعت هذه القبائل في براخة معلنة ردتها وخروجها على سلطان المدينة . ونهيا أبو بكر فعقد الأولوية لقتالهم ، وبعث إليهم ، كما بعث إلى غيرهم من أهل شبه الجزيرة ، بكتابه يهددهم فيه بالقتال والقتل إن لم يعودوا إلى حظيرة الإسلام .

وسكان خالد بن الوليد هو الموكل بطلحَيْحَة وبمالك بن نويرة من بعدُ . فهل أسرع بالسير إليه ليناجزه وليناجز معه كل هذه القبائل ؟ كلا ! بل أذاع أبو بكر أنه خارج بنفسه على رأس جيش إلى خَيْبَر حتى يلاقى خالداً فيُعِينه على جموع المرتدين . ثم إنه طالب إلى عديّ بن حاتم ، وكان قد جاء بالزكاة إلى المدينة كما أسلفنا ، أن يذهب إلى قومه طيٍّ يخوفهم عاقبة أمرهم إذا أصرّوا على ردتهم . ولم يقصد خالد إلى البزاجة من فوره ، بل جنح إلى أجأ وأظهر أنه خارج إلى خيبر لينضم إلى جيش الخليفة ثم ينصبّ الجيشان على البزاجة . وبلغ عديّ قومه وقد ذاعت هذه الأنباء في الناس .

سياسة أبي بكر
للتفريق بين طيٍّ
وجلفائها

وتحدّث عديّ إلى بني طيٍّ يدعوهم ليرجعوا إلى الإسلام ، وليكونوا مع أبي بكر صفّاً قالوا : « لا نتابع أبا الفصيل أبداً » . وأبا الفصيل كنية أراد خصوم الصديق أن يسخروا بها من كنيته أبي بكر . هنالك قال عديّ : « لقد أتاكم قوم لَيْسِيْمِيْحَنَ حَرِيْمِيْكُم ، وكلّتمكننّه بالفحل الأكبر ، فشأنكم به » . وذكر لهم من عدّة المسلمين وعُدّدهم ما روعهم وأفزعهم وأراهم الفصيل فحلا حقّاً . وأنى لهم أن يرتابوا في حديث عديّ وقد هزم أبو بكر عبساً وذبيان ومن ناصرهما حين كانت جيوشه بعيدة عنه على تخوم الروم ! وفيهم يقاتلون أبا بكر وعديّ لا يطلب إليهم إلا أن يقيموا على ما كانوا عليه في عهد الرسول !! وهل تراهم يعرضون أنفسهم وأبنائهم ونساءهم لما عُرِفَ عن خالد من شدة وقسوة لغير شيء إلا أن يستبدلوا طليحة بأبي بكر !! .

تحدث بعضهم إلى بعض في هذا ، فرأوا أن عديّاً على الحق ، وأنه يخلص لهم الرأي ويصدّقهم النصيحة . عند ذلك توجهوا إليه بالقول : « إذن فاستقبل الجيش فسنهنّهنّه عنا حتى نستخرج مَن لِحَقّ بالبزاجة مِنّا ، فإنّا إن خالفنا طليحة وهم في يديه قتلهم وارتهنهم » . وفرح عديّ بما بلغ من إقناعهم ، وكرّر راجعاً إلى السُّنْح فاستقبل خالداً وقال له : « يا خالد ! أمْسِكْ عنيّ ثلاثاً يجتمع لك خمسمائة مقاتل لتضرب بهم عدوك ، وذلك خير لك من أن تعسجستهم إلى النار وتشتاغل بهم » . ولم يكن خالد ليخفّس عليه ، وهو الخبير النابغة في الحرب ، أن انسلاخ طيٍّ عن طليحة يضعفه ويفتّت

في عضده . لذلك أمسك ثلاثة أيام عن السير ، في حين عاد عدى إلى قومه طي ، تنسلخ من طليحة وتعود إلى الإسلام وتقاتل مع خالد بن الوليد قبل أن يهاجموا طليحة . وراقت هذه الحجة طليحة ، فتركهم ينصرفون إلى طي . فلما تحدثوا إلى قومهم وتحدث إليهم قومهم برأى عدى اقتنعوا وعاد عدى بإسلامهم إلى خالد .

وارتحل خالد نحو الأنسر يريد جديلة . وتعرض له عدى كره أخرى فقال له : « إن طيئاً كالطائر ، وإن جديلة أحد جناحي طي ، فأجئني أياماً لعل الله أن ينتقد جديلة كما انتقد الغوث » . ولم يتردد خالد في إجابته إلى ما طلب ، فذهب إلى جديلة ، فلم يزل بهم حتى بايعوه ، فجاء خالد بإسلامهم ، ولحق بالمسلمين منهم ألف راكب . يقول المؤرخون : فكان عدى خير مولود ولد في أرض طي وأعظمه عليهم بركة .

بلغت أنباء طي وجديلة طليحة وهو فيهن بقى معه بالبزاخة . ولست في حاجة إلى أن أذكر ما وهنت هذه الأنباء من عزمه وأضعفت من قوته . ولكنه أصر مع ذلك على موقف المقاومة إذا هوجم . وما كان له أن يفعل غير ذلك ، وإلى جانبه عيينة بن حصن على رأس سبعمائة من فزارة ، وهو أشد الناس حنقاً على أبي بكر وحرصاً على توهين سلطان المسلمين . فعيينة هو الذي كان على رأس فزارة في غزوة الأحزاب ، وكان صاحب كتيبة من الكتاب الثلاث التي حاولت مهاجمة المدينة بعد اتفاق الأحزاب مع بني قريظة . ثم إنه هو الذي أراد الإغارة على المدينة بعد قليل من هزيمة الأحزاب ، فصده رسول الله ، وحماه على الفرار في غزاة ذي قرد . فإن يكن قد أسلم بعد مواقفه تلك ، فإنما أسلم مدعناً للقوة التي لا تغلب . أما وقد قبض الله رسوله إليه فلن يرضى عن سلطان أبي بكر . لن يستطيع طليحة إذن أن يرجع عن نبوته بعد أن غادرته طي وجديلة وهو يعلم أن رجوعه يقلب عليه عيينة ويثير عليه كل من حوله . ويعرض حياته للخطر . فليقيم حيث هو : ولينتظر خالد بن الوليد ومن معه . ثم ليكن الأمر بعد ذلك ما يكون .

وآن لخالد أن يتحرك لمقاتلة المرتدين ، فأرسل طليعة له عكاشة بن

طليحة يصير مع ذلك على مقاومة المسلمين

طلبة خالد بن الوليد لقتال طليحة الشوكة . ولقى عكاشة وثابت حبالاً أخا طليحة^(١) فقتلاه . فلما بلغ مقتله طليحة خرج مع أخيه الآخر سلمة ينظران ويسألان . ولم يسهل سلمة ثابتاً حين رآه أن قتله . وثبت عكاشة لطليحة ، فاستعان بأخيه سلمة وقتلا عكاشة ، ثم رجعا أدراجهما .

وأقبل خالد بن الوليد بالناس ، فلما رأوا أصحابيهم قتيلين جزعوا وقالوا : سيّدنا من سادات المسلمين وفارسان من فرسانهم ! ورأى خالد ما بأصحابه من الجزع فأثر ألا يواجه بهم عدوهم حتى تطمئن نفوسهم . لذلك انحرف بهم إلى طيء ، واستنفر بمعونة عدى كل من استطاع أن يستنفره من رجالها . ورأى المسلمون عددهم يزداد وقوتهم تتضاعف بهذا العدد ، فطابت بالحرب نفوسهم ، فسار بهم خالد إلى بزاخة ليقضى على طليحة غير وانٍ ولا متردد .

الطائيون
يقاتلون قيساً

وكانت قيس وبنو أسد متجهزين حول طليحة للقتال . قال قوم من الطائيين الذين انضموا إلى جنود خالد : سألنا خالداً أن نكفيه قيساً فإن بني أسد حلفاؤنا . فقال : والله ما قيس بأوهن الشوكتين ، اصمدوا إلى أى القبيلتين أحبيتم . فقال عدى : لو ترك هذا الدين أسرقى الأدنى فالأدنى من قومي بلجاهدتهم عليه ، أفأنا أمتنع عن جهاد بني أسد لحلفهم إلا لعمر الله لا أفعل ! فقال له خالد : إن جهاد الفريقين جميعاً جهاد . لا تخالف رأى أصحابك ، امض إلى أحد الفريقين ، وامض بهم إلى القوم الذين هم لقتالهم أنشط . وكذلك قاتلت طيء قيساً ، وقاتل سائر المسلمين بني أسد .

وكان عيينة بن حصن هو الذى يقود المعركة في جانب طليحة في حين كان طليحة يقيم في بيت من الشعر ملتجئاً في كساء له يتنبا للناس . فلما حمى وطيس الحرب ورأى عيينة قوة خالد والمسلمين كثر على طليحة يسأله : هل جاءك جبريل بعد ؟ قال : لا . فرجع عيينة فقاتل ، حتى إذا ازداد وطيس الحرب ضراماً كثر راجعاً إلى طليحة يقول : لا أبالك ! أجاعك جبريل بعد ؟ قال :

عيينة بن حصن
يقود المرتدين
وطليحة يتنبا لهم

(١) هكذا في كتاب الكامل لابن الأثير ، ولكن الذى في الطبرى والقاموس وغيرهما أن حبالا هو ابن سلمة بن خويلد ، فهو ابن أخى طليحة لا أخوه .

لا والله . قال عيينة : حتى متى ! والله لقد بلغ منا . ثم إنه رجع إلى الوطيس فرأى خيل خالد تكاد تحيط به وبأصحابه ، فرجع إلى طليحة فترعاً يكرر : هل جاءك جبريل بعد ؟ قال : نعم . قال : فإذا قال لك ؟ قال طليحة : إنه قال لي : « إن لك رجلاً كرحاه ، وحديثاً لا تنساه » . ولم يمالك عيينة حين سمع الهذر أن صاح : قد علم الله أن سيكون حديث لا تنساه . ثم نادى في قومه : انصرفوا يا بني فزاره فإنه كذاب ! .

وانصرف الناس يؤلّون الأدبار . ومرو قوم بطليحة ينادونه : ماذا تأمرنا ؟ وكان طليحة قد أعد فرسه عنده وهياً بعيداً لا مرأته النّوّار . فلما بصّر بالناس يغشّونه وينادونه قام فوثب على فرسه ثم حمل امرأته ونجا بها ، وهو يقول : « من استطاع أن يفعل منكم مثل ما فعلت وينجو بأهله فليفعل » .

طليحة يفر إلى الشام ويعود إلى الإسلام

كانت هذه خاتمة المقاومة التي حاول هذا المتنبي أن يثبت بها لأبي بكر ، بل كانت هذه خاتمة نبوته ؛ فقد لحق بالشام وكذبه من قالوا من قبل بنبوته . واستقر المقام بطليحة في كسلب فنزل بها ، وعاد إلى الإسلام حين باخه أن القبائل التي تابعتة قد عادت إلى الدين القيم . وخرج بعد ذلك إلى مكة معتمراً في خلافة أبي بكر ، فرّ بجنابات المدينة ، فذكر بعضهم لأبي بكر مكانه ؛ فقال : « ما أصنع به ! خلّوا عنه فقد هداه الله للإسلام » .

ولما استخلف عمر بن الخطاب أتى طليحة يبأيه ؛ فقال له عمر : أنت قاتل عكاشة وثابت ! والله لا أحبك أبداً ! قال : يا أمير المؤمنين ، ما يهلك من رجلين أكرمهما الله بيدي ولم يهينني بأيديهما ؛ فرضي عمر ببيعته ، ثم قال له : يا خدع ما بقي من كهانتك ؟ قال : نفخة أو نفختان . ثم رجع إلى قومه فأقام بينهم ، حتى خرج إلى العراق فأبلى بها مع المسلمين أحسن بلاء .

انصرف عيينة بن حصن في قومه من بني فزاره وأعلن على ملأ من الناس أن طليحة كذاب . وفرّ طليحة على فرسه واصطحب امرأته النّوّار ونصح للناس أن يفرّوا . أفكان ذلك آخر النضال بين خالد بن الوليد والقبائل التي وقفت في صف طليحة ، وبينه وبين القبائل المرتدة في الشمال الشرق من شبه الجزيرة ؟ قد يتبادر ذلك إلى الذهن ، وبخاصة إذا عرفت أن بني أسد قوم طليحة عادوا إلى الإسلام ولم يكن قد أصيب في القتال منهم أحد . لكن الواقع أن خالداً

بقي في عسكره بالبزاحة شهراً كاملاً ، وأنه قاتل من فلول القبائل مَنْ بقي على رِدَّتِهِ ، ومن اجتمع حول أم زِمْل يمالئها على عصيان أبي بكر وعلى الردة ؛ كما قتل من اعتدى على المسلمين بالقتل ، وبعث إلى المدينة بمن خرجوا على خليفة الرسول أمثال قُرّة بن هُبَيْرَة ، والفجاعة السُّلَمي ، وأبو شَجَرَة بن عبد العُزَي السُّلَمي . فدخلوها أسرَى حتى أنفذ أبو بكر فيهم أمره .

خالديّ بالبزاحة
يقاتل فلول
القبائل المرتدة

يحمل بنا قبل أن نقص نبأ أم زِمْل وسائر المرتدين من فلول جيش طليحة ، أن نقف هنيهة وأن نسأل : ما بال هؤلاء القوم لم يرجعوا إلى الإسلام كما رجع بنو أسد قوم طليحة وأعرف الناس به ؟ ! أفلا يقتضيهما العقل بعد ما تبينوا كذبه أن يكونوا مع المؤمنين بنبوّة محمد ورسالته ؟ لقد أسلفنا جواباً على مثل هذا السؤال . فأكثر هؤلاء العرب إنما أذعنوا لنبوّة محمد ولم يؤمنوا بها . وكثير منهم من رأى عبادة الأصنام هزواً فعدل عنها إلى عبادة الواحد الأحد . لكنهم رأوا فيما فرضه عليهم محمد من التكاليف بحكم هذه العبادة ما لا تطمئن إليه طبائعهم ، فرأوا أن من الحق لهم أن يتحللوا منه . وقد صارحوا أبا بكر بهذا في أمر الزكاة ؛ لأن حب الناس المال أقوى في نفوسهم من كل شيء غيره . لكنهم كانوا يودون لو تحلّلوا من الصلاة ومن سائر التكاليف التي فرضها الإسلام عليهم . وهم إنما اتبعوا طليحة ، واتبعوا مسيلمة ، واتبعوا غير هذين ، ليحطوا عن عوائقهم ما فرضه الإسلام عليهم . فإذا ثبتوا بعد فرار طليحة وأرادوا مواجهة خالد فذلك لأنهم يأملون في نصر يجعل أبا بكر يصالحهم على النزول عن بعض هذه التكاليف ويحقق لهم ما كانوا يرجونه من مصانعة طليحة .

السبب في إصرار
هذه الفلول
على ردتها

وثمّ سبب آخر يتصل بنفسية البدو والأعراب ومن إليهم جعلهم لا ينفصون بفرار طليحة . فقد كانت بينهم وبين المهاجرين والأنصار ثارات قديمة من عهد الرسول تناسوها حين تغلب الرسول عليهم فأذعنوا لسلطانه وأظهروا الرضا بأمره . وإنما كان شأنهم في ذلك شأن المغلوب يرضى كارهاً ، فإذا أتيت له فرصة للتأر اقتنصها ولم يفتها . وهذه فرصة تهيأت تُعيد للأذهان يوم الأحزاب وغزوة الخندق . ولقد كانت المدينة مُوشكة أن تفتح أبوابها للأحزاب لولا الريح الصرصر العاتية التي جعلتهم يولون منها فراراً ويمتلئون رعباً . فليهتبلوا

هذه الفرصة التي أتاحتها المقادير لمواجهة خالد وليثبتوا له ، لعلمهم يكونون أحسن حفظاً مما كانوا على عهد محمد ، ولعلمهم يستعيدون لقبائل البادية ذلك الاستقلال العزيز عليهم بعد أن تقلّص ظلّه أو كاد .

ولو أن القبائل كلها حرّكتها هذه العواطف البدوية لدقّ موقف خالد والذين معه . لكنك قد رأيت طيئناً تنحاز مع من انحاز إلى طليحة ، ثم لا تلبث حين يخاطبها عدى بن حاتم أن تعود إلى الإسلام ، وأن تنضم إلى خالد ، وأن تحارب في صفه ، وأن تدخل على طليحة من الفرع ما كان بين الأثر في هزيمته ، ولقد حدث مثل ذلك بعد أن فرّ طليحة وانخدل عيينة في بني فزارة . وكانت بنو عامر تقدّم للردّة رجلاً وتؤخر أخرى تنتظر ما يصير إليه أمر قيس وبنى أسد . فلما هزمهم خالد ودارت عليهم دائرة السوء ، أقبلت بنو عامر يقولون : ندخل فيما خرجنا منه . وبائعهم خالد على ما بايع عليه أهل البزاخة من أسد وغطّافان وطى . فكان لعودهم إلى الإسلام أثره فيمن سواهم من القبائل ، كما كان لعود طى إلى الإسلام أثره في طليحة ومن انحازوا إليه .

ثم إن خالد أخذ الذين قتلوا المساحين من مختلف القبائل بشدة أورثت القلوب الرعب . فهو لم يقبل من غطفان وهوازن وسليم وطى حين وادعهم إلا أن يحيثوه بالذين قتلوا وحرّقوا ومشّأوا وعدّوا على المسلمين الذين كانوا بينهم حين ردّتهم . فلما جرى بهم صفح عن الأذئاب ، وأخذ الزعماء منهم ، وبينهم قرّة بن هُبيرة ، فأوثقهم ، ومثّل بالذين عدّوا على المسلمين ، فأحرقهم بالنيران ، ورمى بهم من الجبال ، ونكّسهم في الآبار ، ورضّخهم بالحجارة ، وجعلهم عبرة لمن يعتبر . أما قرّة بن هُبيرة وعيينة بن حصن فبعث بهما مع طائفة من الأسرى إلى أبي بكر ، وكتب إليه يقول : « إن بنى عامر أقبلت بعد إعراض ودخلت في الإسلام بعد تربص . وإنى لم أقبل من أحد قاتلى أو سامنى شيئاً حتى يحيثوى بمن عدا على المسلمين . وقد قتلت المعتدين كل قتلة ، وبعثت إليك بقرّة وأصحابه » .

ولم تأخذ أبا بكر في الذين قتلهم خالد شفقة أو رحمة ، بل رأى فيهم

أعداء الله وأعداء رسوله وأعداء دينه الحق ، فكتب إلى خالد يقول : « ليزدك ما أنعم الله به عليك خيراً . وائق الله في أمرك ؛ فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . جيد في أمر الله ولا تنهين . ولا تظفرن بأحد قتل المسلمين إلا قتلته ونكسنت به جهرة » ، ومن أصبت ممن حاد الله أو صادّه ممن ترى في قتله صلاحاً فاقتله » . ذلك ما كتبه أبو بكر رقيق القلب لبين الطبع إلا فيما يغضب الله ورسوله . فلما بلغ كتابه خالداً أمعن في سياسة الإرهاب التي بدأها . وطال مقامه على البرازحة شهراً يصعد عنها ويصوب إليها في طلب المعتدين على الإسلام والمسلمين ، فمنهم من أحرق ، ومنهم من رى به من رعوس الجبال ، ومنهم من رجس بالحجارة .

أبو بكر يقر
سياسة خالد

على أن أبا بكر اتخذ في معاملة الأسرى الذين جاءوا إلى المدينة سياسة ليست كسياسة خالد بأساً وشدة . فقد رأيت ما كان من حبيبة بن حصن ومحالته طليحة وقتاله المسلمين . وقد جاء مع قرة إلى المدينة في الأسرى ويدها بمجموعتان بجبل إلى عنقه . وكان غلمان المدينة ينخسونه بالجريد ويقولون له : أيّ عدو الله ، أكفرت بعد إيمانك ! فيقول : والله ما كنت آمنت بالله قط . ومع ذلك تجاوز عنه أبو بكر وحقق له دمه ، فاتقى بذلك شره وشر بني قزاة معه .

لكنه يحقن دم
الأسرى الذين
جاء بهم إلى
المدينة

أما قرة بن هبيرة فكان في بني عامر . وقد مر به عمرو بن العاص عائداً من عمان إلى المدينة فنزل عليه ، فرآه وقومه يقدمون للردة رجلاً ويؤخرون أخرى . فلما أراد عمرو والرحلة خلا به قرة فقال : « يا هذا ، إن العرب لا تطيب لكم نفساً بالإتاوة . فإن أنتم أعفيتموها من أخذ أموالها فستسمع لكم وتطيع ، وإن أبيتم فلا أرى أن تجتمع عليكم » . وأجابه عمرو : « أكفرت يا قرة ؟ ! أتواعدنا بالعرب وتخوفنا بها ! » . فلما أرسل خالد قرة أسيراً إلى المدينة وجيء به إلى أبي بكر ، قال : « يا خليفة رسول الله ، إني قد كنت امرأ مسلماً ، ولي من ذلك على إسلامي عند عمرو بن العاص شهادة . قد مرّ بي فأكرمته وقسّيته ومنعته » . فدعا أبو بكر عمرًا وسأله عن قرة وأمره ، فقص عليه الخبر ، حتى إذا انتهى إلى أمر الصدقة وما قال عنها اعتراضه قرة قائلاً : حسبك

قصة قرة بن هبيرة

يرحمك الله ! . قال عمرو : لا والله ، حتى أبلغ له كل ما قلت . فلما أتم عمرو كلامه ابتسم أبو بكر وتجاوز عن قرّة وحقق دمه .

لم تكن سياسة الصفح سياسة هودة أو تردد من أبي بكر ، بل كان المقصود منها تسكين الثارات ما كان في تسكينها للإسلام والمسلمين خير . أما فيما خلا ذلك فلم يكن اللين يعرف إلى قلب أبي بكر سبيلا ما اتصل الأمر برسالة محمد . كان علقمة بن علاثة من بني كلب قد أسلم ثم ارتد في زمن الرسول ولحق بالشام . فلما توفى محمد أقبل مسرعاً حتى عسكر في بني كلب . وبلغ ذلك أبا بكر ، فبعث إليه القعقاع بن عمرو وأمره أن يسير حتى يغير عليه لعله أن يأخذه أو يقتله ، وقال له : « واعلم أن شفاء النفس الخوض فاصنع ما عندك » . وخرج القعقاع في رجاله ، فلم يثبت له علقمة وفرّ راکضاً ، وأسلمت امرأته وبناته ومن أقام من الرجال ، وجحدوا أن يكونوا مالهوه . ورجع علقمة إلى أبي بكر تائباً ، فقبل منه وحقق دمه ؛ لأنه لم يقاتل المسلمين ولم ينتل منهم .

نصة علقمة
ابن علاثة

مقتل الفجاءة
السلمي

لكنه لم يقبل من الفجاءة إياس بن عبد يا ليل ولم يحقق دمه . فقد قدم الفجاءة هذا على أبي بكر فقال له : أعنني بسلاح ومُرني بمن شئت من أهل الردّة . فأعطاه سلاحاً وأمره بما شاء أن يأمره به . لكن الفجاءة شنتها غارة في سائيس وعامرووازن على المسلمين المرتدين على سواء ، وقتل من المسلمين من قتل . عند ذلك أرسل أبو بكر طريفة بن حابس في رجال قاتلوا الفجاءة ومن معه وجاعوا به أسيراً . فأمر أبو بكر فأوقدت له نار في مصلّى البقيع على حطب كثير ، ثم رمى به فيها فأت حرقاً . ولو لم يقتل الفجاءة من المسلمين من قتل لَمَا أصابته هذه الميتة القاسية التي أسف أبو بكر لقسوتها من بعد وتنتى لو لم تكن كذلك .

قصة أبي شجرة
ابن عبد العزى

قبل أن نختم هذا الفصل بحديث أم زمل نُورد قصة أبي شجرة بن عبد العزى ؛ فهو بحديث عيينة وقرّة وعلقمة أشبه . كان أبو شجرة هذا ابن الخنساء الشاعرة صاحبة المراثي الفياضة في أخيها صخر ، وكان هو شاعراً مثلها وقد لحق بأهل الردّة وجعل يقول الشعر في تحريضهم على المسلمين وقتالهم .

وكان مما قاله في ذلك قصيدة جاء فيها :

فَرَوَيْتُ رَمَحِي مِنْ كَتِيْبَةِ خَالِدٍ وَإِنِّي لِأَرْجُو بَعْدَهَا أَنْ أَعْمَرَ

فلما رأى تحريضه على خالد لم يُشمر ورأى الناس يرجعون إلى الإسلام رجع إليه ، وقد قبل منه أبو بكر وعفا عنه فيمن عفا عنهم . فإما كانت خلافة عمر جاءه أبو شجرة وهو يعطى المساكين من الصدقة يقسمها بين الفقراء ، فقال : يا أمير المؤمنين أعطني فإنني ذو حاجة . قال عمر : مَنْ أَنْتَ ؟ فأما عرفه قال : أَيْ عَدُوَّ اللَّهِ ! أَلَسْتُ الَّذِي يَقُول :

فَرَوَيْتُ رَمَحِي مِنْ كَتِيْبَةِ خَالِدٍ وَإِنِّي لِأَرْجُو بَعْدَهَا أَنْ أَعْمَرَ

ثم جعل يعلوه بالدرة في رأسه حتى طار عَدُوٌّ وَإِلَى نَاقَتِهِ فَارْتَحَلَهَا عَائِدًا إِلَى قَوْمِهِ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ .

تداول الناس أنباء أبي بكر وعفوه عن رجع إلى الإسلام بعد رده ، فسكنت حدة القبائل التي ناصرت طليحة ثم عادت إلى الإسلام حين هزمه خالد بن الوليد . لكن فلولا من غَطَطْنَا وَطِيءُ وَسُلَيْمٌ وَهَوَازُنٌ وَغَيْرَهَا تَجَمَّعَتْ واجتمعت إلى أم زِمْلٍ سلمى بنت مالك وعاهدتها أن تقف وإياها في وجهه حتى الموت . ولا شك أن قد كان لهذه الفلول ثارات عند المسلمين ، لم تسكن منها الهزيمة ولا سكن منها عفو أبي بكر ، هي التي حفزتها إلى التجمع والتعاهد على قتال المستيثس . وما بقاؤها بعد فرار طليحة وانكشاف كذبه لولا هذه الثارات وتحركها في نفوسها ! وكان لأم زِمْلٍ عند المسلمين ثأر لم يندمل جرحه رغم مرّ السنين ، فكان من الطبيعي أن تجتمع هذه الفلول حولها وأن تتخذ من ثأرها علماً ولواء لثاراتهم جميعاً .

الفلول التي
تجمعت إلى
أم زمل

وأم زِمْلٍ هذه هي بنت أم قِرْفَةَ التي قُتِلَتْ أَيَّامَ النَّبِيِّ أَشْنَعُ قِتْلَةً . فقد خرج زيد بن حارثة يوم ذاك إلى بني فِزَارَةَ فلقبهم بوادي القرى فأصابوا رجاله ، وأصيب هو بجرح ممت حُمِلَ على أثره إلى المدينة فلما برئ رده رسول الله إلى بني فِزَارَةَ في جيش فقتلهم وأصاب فيهم وأسروهم . وكانت أم قِرْفَةَ فاطمة بنت بدر بين الأسرى . وكانت هي التي تحرض قومها في الموقعة الأولى

من هي أم زمل
بنت أم قرفة

التي أصيب فيها زيد؛ فلما ظفر بها أمر بقتلها فقتلت قتلاً عنيفاً. قيل إن كل ساق من ساقها شُدَّ إلى بعير ثم دفع كل بعير إلى ناحية فتشزقت. وسببت ابنيتها أم زمل، فوقع لعائشة أم المؤمنين فأعتقتها، فأقامت عندها زمناً ثم رجعت إلى قومها. وقد بقى مقتل أمها أمام عينيها يُقَيِّضُ مضجعها ألا تجد إلى الثأر له الوسيلة. فلما كانت الردة ارتدت وجدت من فلول هذه القبائل عوناً على أن تأخذ بثأرها لتهدأ نائرتها وتسكن حفيظتها.

وكانت أمها أم قرفة في عزّة ومكانة من قومها. كانت عمّة عُمَيَّة بن حصن، وكانت زوج مالك بن حذيفة، وكان لها منه أبناء تعتز بهم في بني فزارة. وكان لها جمل تخرج عليه في طليعة قومها إذا خرجوا ليغنموا من قبيلة أخرى. فلما مات بقى هذا الجمل لابنتها أم زمل. وكانت ابنيتها في مثل عزها، وكان لها من المكانة في قومها ما كان لأُمها. فلما اجتمعت حولها فلول القبائل التي قاتلت أبا بكر وخالداً ركبت جملها وسارت بينهم وجعات تدعوهم لحرب خالداً وتشجعهم؛ واجتمع مع هذه الفلول كل شريد وكل مضيق عليه، حتى استغلظ أمرها وعظم شأنها. فلما بلغ ذلك خالداً وهو فيما هو فيه من تتبع الثائرين وأخذ الزكاة ودعوة الناس وتسكينهم، سار إليها يقاقلها.

خالداً يقاقل
أم زمل ويقتلها

والتقى الجمعان وحسبى وطيس القتال واشتدت الحرب، وأم زمل على جملها تحرض رجالها وتدفعهم إلى المعركة، فيندفعون مستبسلين لا يبالون، حتى لقد أبيدت منهم بيوت بأسرها. ورأى خالد بأس هذه المرأة وشدها واستماتتها في محاربتة فجعل مائة من الإبل لِمَنْ ينخس جملها. واندفع فوارس المسلمين نحوها، فإذا من حولها الرجال الأشداء يدافعون عنها ويموتون دونها. ولقد مات حول جملها مائة رجل قبل أن يستطيع فرسان المسلمين الوصول إليه. فلما وصلوا إليه عقروه وقتلوه وقضوا بذلك على فتنتها. فقد فتنت الرجال حقاً بقوتها وعزها وشجاعته وشدة تحريضها لهم. ولم تابث هذه الفلول حين رأوا جملها يُعَقَّرُ ورأوها تُقَتَّلُ أن فسرت عزمهم وتشبث جمعهم، ففروا مولين الأدبار لا يُعَقِّبُونَ. بذلك خبت نار الفتنة وقضى على الردة في الشمال

الشرق من شبه الجزيرة . وما عسى أن يبقى منها وقد فرّ رعوها أو طاحت رعوهم فلم يبق منهم باقية ! .

موقف المرتدين
بعد هزيمة طليحة
وأنصاره

أو لم يكن هذا المثل الذي ضربه أبو بكر يكتفى العرب كي يرجعوا في سائر الأنحاء من شبه الجزيرة إلى الإسلام ! . لقد رأوا جنوده تسير إليهم من كل صوب ، يقصد كل لواء منها إلى حيث أمره خليفة رسول الله . وقد ترامت إليهم أنباء خالد بن الوليد وعرفوا مصير طليحة ؛ لكنهم أبوا مع ذلك أن يدعوا . إنهم رأوا نبيّ قریش ينشر في العرب لواءه ويمد عليهم ساطانه ، فلم لا يكون لكل قبيلة نبيّ يرد عنها قریشاً إن لم ينشر في مختلف القبائل لواءها ! ونسيت القبائل ونسى الذين ادّعوا النبوة فيها أن محمداً قام في قریش يدعوها إلى الله لا يريد فيها سلطاناً ولا يبتغي منها جزاءً ولا شكوراً ، وأنه قام بأمر ربه ، ففضى عشر سنوات في جهاد ، أي جهاد ، يؤذيه أهله وتُناصبه مكة كلها العداوة ، وتعرض حياته وحياة من اتبعوه للخطر ، ويأتمر به خصومه ليقتلوه ، ويخرجه قومه من دياره مهاجراً إلى المدينة ، حتى أذن الله لدينه الحق أن ينتشر بين العرب ، وجاءت الوفود من كل صوب تعلن إلى النبي إسلامها . نسى الذين ادعوا النبوة هذا كله ، وخیل إليهم أن بلوغ الغاية التي بلغها محمد أمر يسير ، كما نسوا أن محمداً إنما بلغها بالدعوة إلى الحق ، وأنهم يدعون النبوة زوراً وبهتاناً . لذلك لم يكفهم أن طهر أبو بكر شمال شبه الجزيرة من رجس الردة ليثوبوا إلى رشادهم ، بل أخذت أهل الجنوب العزة بالإثم ، وادّكروا ما كان بينهم وبين الحمجاز من قديم الخصومة ، وما كان لآبائهم فيه من غزوات توجّتها أكاليل النصر . أما وقد أصروا على العناد في ردتهم ، فلم يكن بدّ من أن يُردّوا عنها إلى الإسلام أو يبعثوا بخزيها ويؤدوا حياتهم ثمناً لها .

فلينتقل خالد إذن من البرازحة إلى البسطاح ، ثم لينتقل بعد البطاح إلى اليمامة ، فقد خط القدر في لوحه أن يرد سيفه المرتدين إلى الحق . وما خطّ في لوح القدر لا محالة نافذ .

الفصل الثامن

سجاح ومالك بن نويرة

تقع منازل بني تميم على مقربة من بني عامر إلى الجنوب ؛ وهي تحاذي المدينة من الشرق ممتدة نحو الخليج الفارسي ، وتتصل من ناحية الشمال الشرقى بمصب الفرات . وكان لبني تميم بين قبائل العرب في الجاهلية وفي عهد الرسول مقام ، لما ظهر فيها من خصال الشجاعة والكرم ، ولما نبغ بين رجالها من الأبطال والشعراء . ولا يزال التاريخ يذكر لفروعها بني حنظلة ودارم وبني مالك وبني يربوع مواقف ترونها كتب الأدب وكتب التراجم كما يرونها كبار المؤرخين .

ولقد أدّى اتصال هذه القبائل بمصب الفرات وبالخليج الفارسي إلى تنقل أبنائها بين شبه الجزيرة وأرض العراق ، كما أدّى إلى اتصالهم بفارس . وكان من أثر ذلك أن دان كثيرون منهم بالنصرانية وإن بقي أكثرهم يعبدون الأصنام . فلما انتشر الإسلام بينهم احتفظوا باستقلالهم ، ولم ينزلوا عنه راضية نفوسهم . لذلك كانوا في مقدمة القبائل التي أبت أداء الزكاة حين بعث رسول الله جُباته يقتضونها من الناس . ولقد أسرع أبو العنبر من تميم إلى نبأهم وسيوفهم حين جاء العاشر يطلب إليهم أداها . فلما ذهب عيسى بن حصن بأمر الرسول فقتل وسبى منهم ، ذهب وفد من أشرافهم إلى المدينة ودخلوا المسجد ونادوا النبي من وراء حجراته أن يرد إليهم أسراهم ، وذكره بمواقفهم معه في حنين ، وبما لقومهم من مكانة بين العرب . وخرج إليهم حين الصلاة ، فذكروا له أنهم جاءوا يفاخرونه . فلما رأوا خطيبه أبلغ من خطيبهم ، وشاعره أشعر من شاعرهم ، وصوته أعلى من أصواتهم ، أسلموا ؛ فأعتق النبي أسراهم وردهم إلى قومهم راضية نفوسهم .

وقبض رسول الله له في تميم عَمَّال ، بينهم مالك بن نويرة على رأس بني يربوع . وقد اختلف العَمَّال حين بلغتهم وفاة النبي ما يصنعون : أيودون

لما قدم أداء الزكاة
في عهد النبي

الزكاة لأبي بكر أم يقسمونها بين الناس . وكان لما بينهم من تنافس أثر بين في اختلافهم ذلك . بل لقد أدى هذا التنافس إلى أن يقاتل بعضهم بعضاً ، وأن يقيم فريق منهم على الولاء لسلطان المدينة ، وأن يتنكر الآخرون لهذا السلطان .

وكان مالك بن نويرة فيمن ردوا الزكاة لأصحابها ولم يروا لأبي بكر حقاً في اقتضاها . بذلك أصبح عدواً للمسلمين معروفاً لإغارتهم عليه .

وبينما القوم في اختلافهم فجأتهم سجاح بنت الحارث مقبلة من أرض الجزيرة بالعراق يحيط بها رهطها من تغلب ، وتقود معها جنداً من ربيعة والنمر وإياد وشيبان . وكانت سجاح تميمية من بني يربوع وكان أخوالها من تغلب بالعراق . وقد تزوجت فيهم ، وأقامت بينهم ، وتنبصت فيمن تنصّر منهم . وكانت تنقم من محمد ومن اتبعه ما ينقمه منهم اليهود والنصارى ، وما ينقمه منهم الفرس والروم . وكانت امرأة ذكية ، تدعى الكهانة ، وتعرف كيف تقود الرجال . فلما ترى إليها أن محمداً أدركته الوفاة ، جاءت في رهطها وفي القبائل المحيطة بها تريد أن تغزو المدينة وأن تقاتل أبا بكر .

مجيء سجاح بنت الحارث إلى تميم

يرى بعض المؤرخين ، وقد يكونون على حق فيما يرون ، أن سجاح لم تنحدر من شمال العراق إلى شبه جزيرة العرب يتبعها رهطها والقبائل المحيطة بها لكهانتها ومطامعها الذاتية ، وإنما انحدرت مدفوعة بتحريض الفرس وعملهم في العراق كي يزيدوا الثورة في بلاد العرب ضراماً ، ليستعيدوا ما كان لهم في كثير من أرجائها من سلطان بدأ يأفل منذ أقام محمد بدهان عاملاً له على اليمن ، بعد أن كان بدهان عامل كسرى عليها .

السبب في مجيء سجاح من شمال العراق

وقد يرجح رواية هؤلاء المؤرخين أن سجاح كانت الأنثى الوحيدة التي ادّعت النبوة ، وأن مثيلاتها اتخذت في كل العصور أداة للتجسس والدعاية ، وأنها لم تلبث في بلاد العرب إلا ريثما بثت دعوة الانتفاض ، ثم عادت إلى العراق فسكنت إلى حياتها به .

وليس عجباً أن يتخذها الفرس أداة لإذكاء الثورة في بلاد العرب وقد كانوا يرون هذه البلاد أهون من أن يجرد لها جيش فارسي يقاتلها ، وإن كانت

مع ذلك جديرة بأن تُردَّ إلى عزلتها الأولى قبل قيام محمد بها وانتشار الإسلام فيها . ولا شيء أدنى إلى تحقيق هذه الغاية من القضاء على الدين الجديد الذي جعل أبنائها يعتدون بأنفسهم ، وإن لم يعتدَّ الفرس بهم .

موقف بنى تميم
من الإسلام حين
جاءت بسجاح
إليهم

جاءت سجاح إلى شبه الجزيرة متأثرة بهذه العوازل . وكان طبيعياً أن تجعل وجهتها أول نزولها بلاد العرب إلى قومها بنى تميم . وقد فجأتهم وهم مختافون فيما بينهم : يقول قوم بإيتاء الزكاة واتباع خليفة رسول الله ، وينكر آخرون هذا وذلك ، ويتردد أقوام فهم في حيرة ؛ ثم ينشأ عن هذا الاختلاف قتال بينهم يشتد حيناً ويهدأ حيناً . ورأت هذه البطون من بنى تميم متقدم سجاح وعرفوا عزمها على قتال أبي بكر ، فازدادوا بين الإسلام والردة اضطراباً . وشهد من بقى على إسلامه منهم ما هو أدهى وأمر مما هم فيه ؛ فها هي ذى في جيشها اللسجب بالقياس إلى جموعهم المتنافرة تأخذهم على حين غفلة منهم وتعلن فيهم نبوتها وتدعوهم إلى الإيمان بها . أفيقولون عنها ما قال عيينة بن حصن عن طلحة : « نبيه من بنى يربوع خير من نبي من قريش ، وقد مات محمد وسجاح حية » ، وعلى ذلك يتبعونها ويقومون معها في وجه أبي بكر والمسلمين ، أم ينصرفون عنها ويدعونها تسير في طريقها تواجه أبا بكر ، فإما قضى عليها فانقضت فتنتها ، وإما تم لها الغلب فكان لهم ، وهم قومها الأدنون ، فبخار نصرها وبخار نبوتها .

سجاح ومالك
ابن نويرة

وقفت سجاح في جندها على حدود بنى يربوع ، وأرسلت إلى زعيمهم مالك بن نويرة ودعته إلى المواجهة ، وأنبأته بعزمها على غزو المدينة . وأجابها مالك إلى المواجهة ، لكنه صرفها عن عزمها على لقاء أبي بكر وحرضها على قتال من اختلف معه من أحياء بنى تميم . واقتنعت سجاح برأيه وقالت : « نعم ! فشانك بمن رأيت . فإنما أنا امرأة من بنى يربوع ، وإن كان ملك فهو ملككم » .

صفة مالك
ابن نويرة

كيف أسرع سجاح إلى الرجوع عن عزمها وموافقة مالك على رأيه ؟ ليس فيما تذكره الروايات التي انتهت إلينا ما يبين عن السر في هذا الانقلاب . لكن الروايات تذكر أن مالكاً كان شريفاً فارساً شاعراً ، وكانت فيه خيلاء الصديق أبو بكر

كقومه ، وكان ذا لسمّة كبيرة ، وكان حلوا الحديث حسن المحاضرة . قصّ أخوه مُتَسَمِّم بن نويرة ، وكان أسمى من مالك مكانة في الشعر ، لكنه كان أعور قبيح الصورة ، أن حياً من العرب أسروه فشدوا وثاقه وألقوه بفنائهم . وبلغ مالكا خبره ، فأقبل على راحلته حتى انتهى إلى القوم وسلم عليهم وحادثهم وضاحكهم وأنشدهم ، فوالله إن زال كذاك حتى ملأهم سروراً ؛ وبلغ من ارتياح القوم إليه أن أطلقوا متمسكاً بغير فداء . وأسرت بنو تغلب متهمساً في الجاهلية ، فجاء مالك ليفديهم ، فلما رآه القوم أعجبهم جماله ، وحادثهم فأعجبهم حديثه فلم يقبلوا منه فداء ، وأطلقوا له الأسير فعاد به إلى قومه .

هل اقتنعت سجاح بحديث مالك وجماله ، واقتنع بهما أخوالها بنو تغلب وسائر أنصارها ؟ إنما نذكر ذلك لعله يفسر ما كان بين سجاح ومسيلمة من بعد . وسواء أصبح ذلك أم لم يصبح فقد دعت سجاح أمراء بني تميم لموادعتها فلم يوادعها منهم مع مالك إلا وكيح . وأغارت سجاح في جندها وجند مالك ووكيح على السريّات فاقتتلوا ومات من الجانبين خاق كثير وأسر بعضهم من بعض ، ثم إنهم تصالحوا وترادوا الأسرى ، وعاد السلام إلى بني تميم .

وخرجت سجاح في جنود الجزيرة وقد راجعها العزم أن تلقى أبا بكر . أما مالك ووكيح فقد صالحا قومهما بعد أن رأيا سخطهم على اتباعهما هذه المنبئة . وبلغت سجاح قرية النّسّاج ، فلقبها أوس بن خزيمه فهزمها ، ثم ترادوا الأسرى وصالحها على ألا تجتاز دياره إلى المدينة . هنالك اجتمع رؤساء أهل الجزيرة وقالوا لها : ما تأمريننا ، فقد صالح مالك ووكيح قومهما فلا ينصروننا ولا يريدوننا أن نجوز أرضهم ، وقد عاهدنا هؤلاء القوم ؟ قالت : اليمامة . فقالوا : إن شوكة أهل اليمامة شديدة وقد غلظ أمر مسيلمة . وهنا تجرى الرواية بأنها قالت : « عليكم باليمامة ، ودقوا دفيف الحمامة ، فإنها غزوة صرامة ، لا يلحقكم بعدها ندامة » . ولم يبق لهم بعد هذا السجع الذي زعموه حياً إلا أن يمتثلوا أمرها .

هزيمة سجاح
في النّسّاج

مسيرها مع قومها
إلى اليمامة

فيم كان انقلابها إلى اليمامة وقد خانها الحظ بين قومها بني تميم ، وخانها في مسيرتها إلى أبي بكر ؟ أو لم يكن حولها من رجالها من يشيرون عليها ؟ .

أم أنهم تم إيمانهم بنبوّتها وبهذا السخف الذي تزعم أنه يوحى إليها فلم يتردوا في اتباعها ؟ الحق أن قصة سجاح كلها عجب ، وما روى عنها إلى فن القصص أقرب . فقد ذكروا أنها لما بلغت الإمامة في رجالها هابها مسيامة وخاف إن هو شغل بها أن يغلبه جند المسلمين أو تغلبه القبائل التي حوله ، فأهدى لها ، ثم أرسل إليها يستأمنها على نفسه حتى يجيء إليها . ونزلت في جندها على الماء وأذنت له ، فجاء في أربعين من بني حنيفة ، ثم خلا إليها يحدّثها ويذكر لها أنه كان يرى أن لقريش نصف الأرض فظالموا ، فليكن نصف الأرض لها . وسجع لها سجعاً أعجبها ، فردّت عليه بمثل سجعه . ثم إنهما تناظرا وتحادثا وطال بهما الحديث . وأعجبت سجاح بمسيامة وبحاو حديثه وما شرع لقومه ، وانتهت إلى الإيمان بتفوقه . فلما عرض عليها أن تجمع نبوّه إلى نبوّتها وأن يتزوجا كان قلبها قد لان له فلم ترفض طلبه . وانتقلت إلى خيامه وأقامت معه ثلاثة أيام رجعت بعدها إلى قومها ، وذكرت لهم أنها وجدته على الحق فتزوجته .

سجاح ومسيلمة
يتناظران وتنتهي
مناظرتهما إلى
أن يتزوجا

وعرف قومها أنه لم يجعل لها صداقاً فقالوا لها : « ارجعي إليه ؛ فقبيح بمثلك أن تتزوج بغير صداق » . فلما رجعت إليه أغلق حصنه دونها وبعث يسألها ما طلبها ، ثم نزل للناس عن صلاتين : صلاة العشاء وصلاة الفجر ، لإكراماً لها . وانتهى الأمر به وبها على أن يحمل لها النصف من غلات الإمامة وحمل إليها النصف مما اتفقا عليه ، فاحتملته وانصرفت به إلى الجزيرة ، وخلّفت وراءها من رجالها من يحمل لها النصف الآخر . لكن هؤلاء الرجال لم يقيموا إلا ريثماً أقبلت جيوش المسلمين فهاجمت مسيلمة وقتلته . ولم تزل سجاح في تغلب حتى نقلهم معاوية عام المجاعة إلى بني تميم حيث أقامت مسامة حسنة الإسلام إلى أن ماتت .

مسيلمة ينزل
لأتباعه عن
صلاتين صداقاً
لسجاح

هذه قصة سجاح بنت الحارث . وهي — كما قدّمّت — عجيبٌ كل العجب . وهل عجب كمغامرتها بالسير من الجزيرة للقاء أبي بكر وقتاله ، ثم إسراعها إلى العدول عن عزمها حين تحدث مالك بن نويرة إليها ، ثم انقلابها إلى الإمامة ولقائها مسيامة وزواجها منه وعودها من عنده إلى أرضها ، وبقائها بعد

العجب من أمر
سجاح وقصتها

ذلك مع ذويها كأنها لم تخرج من بينهم ولم تتزوج من غيرهم !
وأمر مسيلمة معها أعجب العجب . ولئن صح أنه تزوجها ليكون ذلك
برهاناً على دهائه في السياسة وعلمه بمدخل القلوب ، فهو قد أراد أن يتخلص
منها ليفرغ لقتال من حوله من القبائل ومن أوفدهم أبو بكر لقتاله من المسلمين .
ورآها لينة فاستهوى أنوثتها ، فلما لانت له ودانت أعرض عنها وتخلص منها .
والحق أن حديث هذه المرأة مع مالك بن نويرة ، ثم مع هذا الزميل من مدعي
النبوة يشهد بأنها إن تكن حسنة السجع في كهانتها فقد كانت لينة العريكة
في أنوثتها . فأما مسيلمة فكان رجلاً قزماً لا جمال فيه إلا حسن حديثه ؛
وكان قليل الافتتان بالمرأة ومحاسنها ، ولذلك كان مما شرعه لقومه أن من ولد
له ولد لم يجز له أن يقرب امرأة إلا أن يموت ذلك الولد ؛ فإذا مات جاز له أن
يبتغي ولداً غيره فيقرب امرأته . أما من كان له ولد ذكر فالنساء عليه
حرام !!

* * *

مالك بن نويرة
بعد هزيمة طليحة
الأسدي

بَسِيماً يجري ذلك في الينامة بين مسيلمة وسجاح كان خالد بن الوليد يصعد
في البزاحة ويصوب ، يستعيد إلى الإسلام من تاب وأتاب ويعاقب بأشد
العقوبة من قتل مسلماً أو علماً عليه ، وينتهي بمقاتلة أم زمل حتى يقتلها
ويشتت جمعها بعد أن شتت جمع طليحة وحمله على الفرار . وتداول
الناس أنباء خالد ، فبلغت مالك بن نويرة بالبطحاء فردته إلى الاضطراب والحيرة .
لقد منع الزكاة وقام مع سجاح في وجه المسلمين من بني تميم ، وأصبح بذلك
عدواً للمسلمين معرضاً لإغارتهم عليه . فإذا عساه يصنع بعد أن باءت جنوده
وجنود سجاح معها بالفشل والخزيمة ؟ أمّا صاحبه وكيع فقد رأى قبح ما صنع ،
فعاد إلى الإسلام وأخرج الزكاة . وأما مالك فبقى متحيراً : أينكر أمسه ويعود
مسليماً مع أبي بكر كما كان مع محمد يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ، أم يصير على
مثل موقفه مع سجاح والأمر لله من قبل ومن بعد !

خالد بن الوليد
يزعم السير إلى
البطحاء ، وموقف
الأنصار من هذا
السير

وفرغ خالد من أسد وغطفان ومن معها بعد أن عاد كل من بقي من هذه
القبائل إلى الإسلام وأذعن لسلطان المدينة . ثم إنه أزمع السير إلى البطحاء يلقي
فيها مالك بن نويرة ومن كان معه في مثل تردده . وعرف الأنصار هذا العزم

منه فترددوا وقالوا : « ما هذا بعهد الخليفة إلينا ، إنما عهده إن نحن فرغنا من
البرازحة واستبرأنا بلاد القوم أن نقيم حتى يكتب إلينا » . وأجابهم خالد :
« إن يكن عهده إليكم هذا فقد عهد إلى أن أمضى . وأنا الأمير وإلى تنتهي
الأخبار . ولو أنه لم يأتني كتاب ولا أمر ثم رأيت فرصة إن أعلنته بها فأتني
لم أعلمه حتى أنتهزها . وكذلك إذا ابتليتنا بأمر لم يعهد لنا فيه لم ندع أن نرى
أفضل ما يحضرنا ثم نعمل به ؛ وهذا مالك بن نورة بحيانا . وأنا قاصد له بمن
معي من المهاجرين والتابعين لهم بإحسان ، ولست أكرهكم » . وسار ومن معه
خلا الأنصار ، يقصد البطاح .

وبرم الأنصار بالأمر وتشاوروا فيما بينهم فاستقر رأيهم على أن يلحقوا به .
ذلك أنهم قالوا : لئن أصاب خالد اليوم خيراً إنه لخير حُرِّمتموه ، ولئن أصابته
ورجاله مصيبة ليجتنبنكم الناس ، وجردوا إلى خالد رسولا استمهله حتى لحقوا
به وساروا معه ، فلما بلغوا البطاح لم يجدوا بها أحداً ؛ فقد فرق مالك بن نورة
قومه في ديارهم ونهاهم عن الاجتماع ، وقال لهم : « يا بني يربوع ، إنا كنا قد
عصينا أمراءنا إذ دعونا إلى هذا الأمر ، وبطأنا الناس عنهم فلم نُفلح ولم ننجح .
وإني قد نظرت فرأيت الأمر يتأتى للقوم بغير سياسة . وإذا الأمر لا يسوسه
الناس ، فإياكم ومناوأة قوم قد صُنِعَ لهم » . ونصح لهم بالرجوع إلى الإسلام
والتفرق في الديار ، ورجع هو إلى منزله .

لم يجد خالد بالبطاح أحداً ، فبث الجنود وأمرهم أن يأتوه بكل من لم يُجب
داعية الإسلام ، فإن امتنع فليقتلوه . وكانت وصية أبي بكر أن يؤذن جنده
المسلمين إذا نزلوا منزلاً ، فإن أذن القوم كفوا عنهم ، وإن لم يؤذّنوا قتلوا منهم
ونهبوهم . فإن أجابوا بعد ذلك إلى داعية الإسلام سألوهم عن الزكاة ، فإن أقرروا
قبلوا منهم ، وإن أبوا قاتلوهم .

جاء الجند بمالك بن نورة في نفر من بني يربوع إلى خالد . وكان المنطق
يقضى بعد الذي رأيت بأنه إن أقر مالك وأصحابه بالإسلام ، أن يعاملهم خالد
معاملة من تاب وأناب . لكن الذي حدث أن خالد أمر بمالك بن نورة
فقتل ، وأن هذا القتل أثار بالمدينة ثائرة ظلت زمناً قبل أن تهدأ ، وأنه كان

جند خالد يجهلون
بمالك بن نورة

ذا أثر في تصرف عمر بن الخطاب مع خالد بن الوليد بعد أن ولي الخلافة . لهذا تفصل الروايات مقتل مالك بن نويرة في شيء من الإسهاب وتختلف فيه . قيل إن رؤساء الجند الذين جاءوا بمالك ومن معه اختلفوا فيما بينهم : أقروا مالك ومن معه بالإسلام وأجابوا داعية الأذان ، أم أنكروا وتنكروا ؟ روى الطبري عن أبي قتادة الأنصاري ، وكان من رؤساء هذا الجند ، أنه كان يحدث أنهم لما غشوا القوم راعوهم تحت الليل فأخذ القوم السلاح ، فقلنا : إنا المسلمون . قالوا : ونحن المسلمون . فقلنا : ما بال السلاح معكم ؟ قالوا لنا : فما بال السلاح معكم ؟ فقلنا : فإن كنتم كما تقولون فضعوا السلاح ، فوضعوا السلاح ثم صلينا وصلوا .

مقتل مالك بن نويرة والروايات في سببه

إلى هنا تتفق الروايات . ومن هنا يبدأ خلافاً . قال أبو قتادة : إن القوم أقرروا بالزكاة ولأيتائها . وقال غيره : بل أنكروها وأصروا على منعها . ماذا يصنع خالد إزاء هذا الاختلاف بين شهود العيان ، وكيف يقضى فيه ؟ تجري رواية بأنه أمر بحبس مالك وأصحابه حتى ينظر في أمرهم . وحبسوا في ليلة باردة جعلت تزداد بتقدم الليل برداً . وأخذت خالد الشفقة بالقوم فأمر فنادى : « دافئوا أسراكم » . وكانت هذه العبارة في لغة كنانة معناها القتل ، وكان الحراس من بني كنانة ، فما لبثوا حين سمعوها أن ظنوا أن خالد أراد قتلهم فقتلوهم . وسمع خالد الضجة فخرج ، وقد فرغوا منهم ، فقال : إذا أراد الله أمراً أصابه .

الرواية بأن مالكاً وأصحابه قتلوا خطأ في الفهم

وتجري رواية ثانية بأن خالد دعا إليه مالكاً يناظره ليعرف أى الشهادتين حق : الشهادة بإسلامه ، أم الشهادة بإصراره على الردة أو على منع الزكاة . وفيما هما يتناظران راجع مالك خالد وقال : « ما أخال صاحبكم إلا وقد كان يقول كذا وكذا » . قال خالد : « أو ما تعدّه لك صاحباً ؟ » ثم قدمه فضرب عنقه وأعناق أصحابه .

رواية المناظرة بين مالك وخالد

ويقول أبو الفرج في الأغاني لهذا الحوار بين خالد ومالك ما نصه : قال ابن سلام : من لا يعذر خالد يقول إن مالكاً قال لخالد : أو بهذا أمرك صاحبك — يعنى النبي صلى الله عليه وسلم — إنه أراد بهذه الفروسية . ومن يعذر خالد يقول إنه أراد انتفاء أمر النبوة ، ويحتاج بقول مالك :

وَقُلْتُ خذُوا أَمْوَالَكُمْ غَيْرَ خَائِفٍ وَلَا نَاضِرٍ فِيهَا يَجِيءُ مِنَ الْغَدِ
فَإِنْ قَامَ بِالْأَمْرِ الْمَخُوفُ قَائِمٌ مَنَعْنَا وَقُلْنَا : الدِّينُ « دِينَ مُحَمَّدٍ »
أَيُّ لِنَهْ مَنَعَ الزَّكَاةَ وَقَالَ لِقَوْمِهِ خذُوا أَمْوَالَكُمْ فَالِدِينَ دِينَ مُحَمَّدٍ لَا دِينَ
أَبَى بَكْرٍ .

وقد روى ابن خلكان ما ذكر أنه الحديث الذي دار بين الرجلين ،
وأورد ما يأتي : « فقال مالك إني آتي الصلاة دون الزكاة . فقال له خالد :
أما علمت أن الصلاة والزكاة معاً لا تقبل واحدة دون أخرى ! ! فقال مالك :
قد كان صاحبك يقول ذلك . قال خالد : أو ما تراه لك صاحباً ! والله
لقد هسبت أن أضرب عنقك . ثم تجادلا بالكلام طويلاً ، فقال له خالد :
إني قاتلك . قال : أو بذلك أمرك صاحبك ؟ قال خالد : والله لأقتلنك » .
وأمر به فقتل .

يرجح بعضهم هذه الرواية الثانية على الرواية الأولى . على أن هؤلاء الذين
يرجحونها يرونها ناقصة ، ويزنون أنها إن لم تكمل ناقضت تصرف ابن الوليد
في أمر قُرّة بن هُبيرة والفُجاعة السُّلَمِيّ وأبوشَجْرَة وأمثالهم ممن قصصنا حديثهم .
فهو قد بعث بهؤلاء إلى أبي بكر ليرى فيهم رأيه . ولم يكن مالك بن نويرة
أعظم من أيهم إيماناً ولا أكبر جريرة ؛ فما باله يقتله ولا يبعث به إلى الخليفة
ومكانه من بني تميم لم يكن دون مكان أي أولئك من قومه !

الذين يربطون
بين مقتل مالك
وتزواج خالد
من امرأته

وتتمة القصة في رأيهم أن خالدًا تزوج أم تميم زوجة مالك في يوم مقتله ،
وقبل أن يحفف الترابُ دمه ، مخالفًا بذلك كل تقاليد العرب . وهم يريدون أن
يربطوا بين مقتل مالك وزواج خالد من امرأته ، وأن يجعلوا هذا الزواج سبب
ذلك القتل . ولعلمهم في ذلك على حق ، ولعلمهم مخطئون .

ذكر اليعقوبي في تاريخه : فأثاه مالك بن نويرة يناظره واتبعته امرأته ؛
فلما رآها خالد أعجبته فقال : « والله لا نلت ما في مثابتك حتى أقتلك ، فنظر
مالكًا فضرب عنقه وتزوج امرأته » . وذكر أبو الفرج في الأغاني : « لما
تنبأت سَجَّاحُ اتبعها مالك ثم أظهر أنه مسلم ، فضرب خالد عنقه ، فطعن
عليه في ذلك جماعة من الصحابة ، لأنه تزوج امرأة مالك بعده ، وقد كان يقال

إنه يهواها في الجاهلية ، واتهم لذلك أنه قتل مسلماً ليتزوج امرأته بعد .
وروى أبو الفرج كذلك قال : « قال محمد بن سلام : وسمعت يوماً يونس
وأنا أراد التميمية في خالد وأعذره فقال لي : يا أبا عبد الله ، أما سمعت بساقى
أم تميم ! فكان يقال إنه لم ير أحسن من ساقىها . »

وقد نسجت الروايات لهذا الحادث من بعد صوراً أدنى إلى فنون الأدب
منها إلى وقائع التاريخ . فقد قيل : إن ليلي كانت مع زوجها وهو يناظر خالداً ،
فلما سمعته يقول له إنى قاتلك ، والله لأقتلنك ، ألقى بنفسها على قدمي الفاتح
تلمس منه العفو وقد انسدل شعرها على كتفيها وبال الدمع منها عيني زانهما
الخور فزادهما سحرًا . ونظر خالد إلى وجهها البارح ، وهي تزو إليه مستعطفة
مسترحمة ، نظرة هوى وإعجاب ، فصاح مالك : إنى مقتول لا محالة ! وأجاب
خالد : ما لهذا والله ، وإنما قضى عليك كفرك ، وأمر بضرب عنقه .

موقف ليل
من مناظرة
مالك وخالد

لسنا نقف عندما نسجته فنون الأدب من هذه التفاصيل . لكن الثابت
الذى لا ريبه فيه أن ليلي أعجبت خالداً ، وأنه لذلك أمسكها من بعد ولم
يسرّحها مع ما جره زوجها عليه من متاعب .

وحسبك لتقدّر هذه المتاعب أن تعلم أن أبا قتادة الأنصاري غضب لفعالة
خالد ، إذ قتل مالكاً وتزوج امرأته ، أشد الغضب ، فتركه منصرفاً إلى المدينة ،
مستحماً ألا يكون أبداً في لواء عليه خالد . روينا ما قيل من أن الجند الذين
سجنوا مالك بن نويرة وأصحابه هم الذين قتلوا حين سمعوا خالداً يقول : دافئوا
أسراكم وأن خالداً غضب لذلك ثم قال : إذا أراد الله أمراً أصابه . ويضيف
أصحاب هذه الرواية أن أبا قتادة ظن ما حدث حيلة من حيل خالد ، وأنه
ذهب إليه يقول : هذا عملك ، وأن خالداً زجره فغضب وذهب إلى
المدينة .

نورية أبي قتادة
الأنصاري

ويذكر آخرون أن أبا قتادة ذهب إلى المدينة بعد أن تزوج خالد أم تميم ،
وأن متمم بن نويرة أخا مالك ذهب معه . فلما بلغا المدينة ذهب أبو قتادة
ولا يزال الغضب آخذاً منه مأخذه ، فلقى أبا بكر فقص عليه أمر خالد وقتله
مالكاً وزواجه من ليلي ، وأضاف أنه أقسم ألا يكون أبداً في لواء عليه خالد .

حديث أبي قتادة
مع أبي بكر

لكن أبا بكر كان مُعْجَبًا بخالد وانتصاراته ، فلم يعجبه أبو قتادة ، بل أنكر منه أن يقول في سيف الإسلام ما قال .

أترى الأنصاري هاله غضب الخليفة فأسكنه ؟ كلا ! فقد كانت ثورته على خالد عنيفة كل العنف . لذلك ذهب إلى عمر بن الخطاب فقص عليه القصة وصوّره له خالداً في صورة الرجل الذي يغلب هواه على واجبه ، ويستهن بأمر الله لإرضاء لنفسه . وأقرّه عمر على رأيه وشاركه في الطعن على خالد والنيل منه . وذهب عمر إلى أبي بكر وقد أثارته فتعلة خالد أيّماً ثورة ، وطلب إليه أن يعزله وقال : « إن في سيف خالد رهقاً^(١) وحق عليه أن يُقيد » . ولم يكن أبو بكر يُقيد من عُمّاله . لذلك قال حين ألح عمر عليه غير مرة : « هَيْهَ يا عمر تأوّل فأخطأ ، فارفع لسانك عن خالد » . ولم يكتف عمر بهذا الجواب ولم يكف عن المطالبة بتنفيذ رأيه . فلما ضاق أبو بكر ذرعاً بإلحاحه قال : « لا يا عمر ! ما كنت لأشيم^(٢) سيفاً سلّاه الله على الكافرين » .

لكن عمر كان يرى صنيع خالد نُكْراً ، فلم تطب نفسه ولم يسترح ضميره . كيف إذن يسكت ، وكيف يذر خالداً في طمأنينته يشعر كأنه لم يَأْثِم ولم يحن ذنباً ! لا بد أن يعيد القول على أبي بكر وأن يذكر له في صراحة أن عدوّ الله عدا على امرئ مسلم فقتله ونزا على امرأته ، فليس من الإنصاف في شيء ألا يؤاخذ بصنيعه . ولم يسع أبا بكر إزاء ثورة عمر إلا أن يستقدم خالداً ليسأله ما صنع . وأقبل خالد من الميدان إلى المدينة ، ودخل المسجد في عدّة الحرب مرتدياً قباء له عليه صبدأ الحديد وقد غرز في عمامته أسهماً . وقام إليه عمر إذ رآه يخطو في المسجد فنزع الأسهم من رأسه وحطّمها وهو يقول : قتلت امرأ مسلماً ثم نزوت على امرأتها ! والله لأرجمنك بالأحجار . وأمسك خالد فلم يعترض ولم يقل شيئاً ، ولا يظن إلا أن رأى أبي بكر فيه مثل رأى عمر . ودخل على أبي بكر وقصّ عليه قصة مالك ومناصرته سجاح وتردده بعد ذلك ، وجعل يلتمس المعاذير عن قتله ، وعذره أبو بكر وتجاوز عما كان منه في الحرب ؛

(١) الرهق : السفه والخفة وركوب الشر والظلم وغشيان المحارم .

(٢) أشيم : أغمد . والشيم يستعمل في السل والإغقاد .

عمر بن الخطاب
يؤيد أبا قتادة
عند الخليفة

ثورة ابن الخطاب
بفتلة خالد

أبو بكر يستدعي
خالد إلى المدينة

لكنه عتفه على الزوج من امرأة لم يحفّ دم زوجها . وكانت العرب تكره النساء في الحرب ، وترى الاتصال بهن أثناءها عاراً ، أى عار .

وخرج خالد من عند الخليفة ناجياً بإمارته على الجند ، متأهباً للعود إليهم وقيادتهم إلى اليمامة . ومر بعمر - وكان ما يزال في المسجد - فالتفت إليه وقال : هلم إليّ يا بن أم سامة ! قال هذه العبارة وفي عينيه نظرة الساخر ، وفي صوته نبرة المتنصر ، وكأنه يقول : استبق أحجارك فارجم بها غيري . وأيقن عمر أن أبا بكر عذره وغفر له وأظهر الرضا عنه ، فأمسك بدوره . وانقضى ذلك اليوم بينهما عند مبادلة هذه العبارات .

إصرار ابن الخطاب بعد خلافته على رأيه فيخالد وعزله إياه

على أن عمر لم يتزحزح عن رأيه فيما صنع خالد . فلما توفّي أبو بكر ، وبويع عمر خليفة له ، كان من أول ما صنع أن أرسل إلى الشام ينعى أبا بكر ، وبعث مع البريد الذي حمل النعي رسالة يعزل بها خالدًا عن إمارة الجيش . وقد عاتبه خالد على ذلك حين رجع إلى المدينة ، فكان جواب عمر : « ما عزلتك لريبة فيك ، ولكن افتن بك الناس فخشيت أن تفتن بالناس » . وهذه حجة لها قيمتها . لكن لإجماع المؤرخين منعقد على أن عمر بقي متأثراً برأيه في موقف خالد من مقتل مالك بن نويرة وزواجه امرأته ، وأن هذا الرأي كان له أثره من بعد في عزل خالد .

متهم بن نويرة ونشاطه بعد مقتل أخيه

لم يكن نشاط متمم بن نويرة بأقل من نشاط أبي قتادة منذ قدم معه المدينة . فقد طلب إلى أبي بكر دية مالك فوداه ، وتحدث إليه في سببهم ، فكتب إليه برد السبي . وأقام متمم بالمدينة زمناً طال إلى ما بعد غزوة اليمامة ، ثم كان موضع العطف الشديد من عمر لإصرار عمر على رأيه في خالد . وكان متمم قد قال في أخيه مرثي كثيرة لا تزال تُعد من عيون الشعر العربي . ذكروا عن السبب في اتصال المعرفة بين متمم وعمر أن ابن الخطاب كان يصلي الصبح يوماً ، فلما انفتل من صلاته إذا هو برجل قصير أعور متنكباً قوساً وبيده هراوة ، فسأل من هذا . وعرف أنه متمم بن نويرة ، فاستنشد قوله في أخيه ، فأنشد إحدى قصائده حتى بلغ قوله :

وَكُنَّا كَنَدَمَانِي جَذِيمة حِقْبَةً من الدهر حتى قيل لن يَتَصَدَّعا
فلما تفرَّقنا كَانَتِي ومالكاً لطول اجتماع، لم نَسِتْ لَيْلَةً معا
فقال عمر : « هذا والله التأبين . ولو دِدت أَنِي أحسن الشعر فأرئى أخى
زيداً بمثل ما رثيت به أخاك » . قال متمم : « لو أن أخى مات على ما مات
عليه أخوك ما رثيته » . وكان زيد قُتِلَ باليمامة شهيداً تحت لواء خالد بن الوليد .
قال عمر حين سمع قول متمم : « ما عزَّأني أحد عن أخى بمثل ما عزَّأني به
متمم » .

بلغ اختلاف الرأى بين أبى بكر وعمر فى حادث مالك بن نويرة ما رأيت . اختلاف أبى بكر
وعمر فى أمر خالد . أفاكان اختلافهما كان اختلاف فى
الرأى السياسى مع ذلك راجعاً إلى خلاف فى تقدير ما صنع خالد، أم كان اختلافاً على السياسة
التي يجب أن تتبع فى هذا الموقف الدقيق من حياة المسلمين ، موقف الردة وقيام
الثورة بها فى أنحاء شبه الجزيرة ؟ .

الرأى عندى فى هذا الخلاف أنه كان اختلافاً فى السياسة التي يجب أن
تتبع فى هذا الموقف . وهو اختلاف يتفق وطبائع الرجلين . أما عمر ، وكان مثال
العدل الصارم ، فكان يرى أن خالداً عدا على امرئ مسلم ونزاً على امرأته
قبل انقضاء عدتها ، فلا يصح بقاؤه فى قيادة الجيش حتى لا يعود لمثلها فيفسد
أمر المسلمين ، ويسىء إلى مكانتهم بين العرب ، ولا يصح أن يترك بغير عقاب
على ما أثم مع ليلى . واوضح أنه تأوّل فأخطأ فى أمر مالك ، وهذا ما لا يجيزه
عمر ، فحسبه ما صنع مع زوجته لبقام عليه الحد . وليس ينهض عذراً له أنه
سيف الله ، وأنه القائد الذى يسير النصر فى ركابه . فلو أن مثل هذا العذر
نهض لأبيحت لخالد وأمثاله المحارم ، وإكان ذلك أسوأ مثل يضرب للمسلمين فى
احترام كتاب الله . لذلك لم يفتأ عمر يعيد على أبى بكر ويأج حتى استدعى
خالداً وعنّفه على فعلته .

أما أبو بكر فكان يرى الموقف أخطر من أن يقام فيه لمثل هذه الأمور
وزن . وما قُتِلَ رجل أو طائفة من الرجال لخطأ فى التأويل أو لغير خطأ ،
والخطر محيط بالدولة كلها ، والثورة ناشبة فى بلاد العرب من أقصاها إلى أقصاها .
وهذا القائد الذى يُستهم بأنه أخطأ من أعظم القوى التي يُدفع بها البلاء ويُتقى

بها الخطر ! وما التزوج من امرأة على خلاف تقاليد العرب ، بل ما الدخول بها قبل أن يتم طهرها ، إذا وقع ذلك من فاتح غزا ، فحق له بحكم الغزو أن تكون له سبياً يصيحن ملك يمينه ! ! إن التزمست في تطبيق التشريع لا ينبغي أن يتناول النوابيع والعظماء من أمثال خالد ، وبخاصة إذا كان ذلك يُضِرّ بالدولة أو يعرضها للخطر . ولقد كان المسلمون في حاجة إلى سيف خالد ، وكانوا في حاجة إليه يوم استدعاه أبو بكر وعنه أكثر من حاجتهم إليه من قبل . فقد كان مسيلمة باليمامة على مقربة من البطاح في أربعين ألفاً من بني حنيفة ، وكانت ثورته بالإسلام والمسلمين أعنف ثورة ، وكان قد تغلب على عكرمة بن أبي جهل من قواد المسلمين ، وكان أكبر الرجاء معلقاً بسيف خالد في الانتصار عليه . أفن أجل مقتل مالك بن نويرة ، أم من أجل ليلي الجميلة التي قتلت خالداً ، يعزل خالد وتعرض جيوش المسلمين لتغلب مسيلمة عليها ، ويتعرض دين الله لما يمكن أن يتعرض له ! ! إن خالد آية الله ، وسيفه سيف الله . فلتكن سياسة أبي بكر حين استدعاه إليه أن يكتفى بتعنيفه ، وأن يأمره في الوقت نفسه بالسير إلى اليمامة ولقاء مسيلمة .

أبو بكر يأمر خالد بالسير إلى اليمامة

هذا في رأيي هو التصوير الصحيح لما كان بين أبي بكر وعمر من خلاف في هذا الحادث . ولعل أبا بكر إنما أصدر أمره إلى خالد يومئذ بالسير للقاء مسيلمة بعد أن تغلب متنبئ بني حنيفة على عكرمة ليسرى أهل المدينة ومن كان على رأى عمر منهم خاصة ، أن خالداً رجل المدممات ، وأنه قد قذف به حين أصدر إليه هذا الأمر إلى جهنم ، إما ابتغله وقضى عليه فكان ذلك خير عقاب له على ما صنع بأم تميم وزوجها ، ولما صهره النصر فيه وطهره فخرج مظفراً غانماً قد سكّن من المسلمين روعاً لا تُعدّ فعاته بالبطاح شيئاً مذكوراً إلى جانبه .

وقد صهرت اليمامة خالداً وطهرته وإن تزوج في أعقابها بنتاً بكراً عقد عليها كما فعل مع ليلي ، ولمّا تجفّ دماء المسلمين ولا دماء أتباع مسيلمة . ولقد عنفه أبو بكر على فعلته هذه بأشدّ مما عنفه على فعلته مع ليلي . لكنه لم يزد على التعنيف ولم يزد خالد على سماعه . وما أرى أبا بكر في تعنيفه إلا أراد أن يسكّن

من ناثرة النافرين أمثال أبي قتادة . وإن أعجب فليس عجبى للكتّاب
والمؤرخين الذين حاولوا أن يسيثوا بهذا الحادث إلى تاريخ خالد بأعظم من عجبى
لأمثالهم ممن حاولوا أن يبرئوه أو يتلمسوا له الأعذار . فما مالك ، وما ليلى ،
وما بنت مُجَاعَة إلى جانب المئات والألوف من الرعوس التى طاحت بسيف
خالد أو بأمره ! وهذه المئات والألوف من الرعوس الطائرة عن أجسادها هى فعز
خالد وهى التى جعلته سيف الله . فإن أصاب سيفه رَهَقٌ فى لحظة من اللحظات
فقد أصاب هذا السيف النصر والفخار فى سنوات وسنوات .

عاد خالد من المدينة إلى البطاح بعد أن أصدر أبو بكر لإيمه أمره أن يسير
لقتال مسيامة باليمامة ؛ وعاد إليها وقد برئت من الردة وآثارها ، فأقام بها على
رأس جنده ، ينتظر من أبى بكر مدداً كان يجهّزه لمؤازرته . فلما جاءه المدد
سار على رأس الجيش كله ، يقصد أبلغ المتنبيين فى شبه الجزيرة مكرراً ، وأشدّهم
خطراً . سار ممتلئاً ثقة بنفسه ، وإيماناً بالله ، وطمأنينة إلى أنه جلى شأنه
مؤيده وناصره .

وإن ينصركم الله فلا غالب لكم .

الفصل التاسع

غزوة اليمامة

الجيش الذي أمد
به أبو بكر خالداً
لقتال مسيلمة

سار خالد بن الوليد من البطاح على رأس عسكره ومعه المدد الذي أمد به أبو بكر به ، ومقصدهم جميعاً اليمامة ، يلقون بها مسيامة بن حبيب متنبئ بني حنيفة . ولم يكن هذا المدد الذي بعث به الصدّيق دون جيش خالد أيّداً أو قوة . فقد تألف من رجال من المهاجرين والأنصار أصحاب رسول الله الذين شهدوا الحرب فشهدت لهم الحرب ، ومن القبائل التي عرفت في القتال بالبأس والبطش . ولقد كان ثابت بن قيس والبراء بن مالك على رأس الأنصار ، وأبو حنيفة بن اليمان وزيد بن الخطاب على رأس المهاجرين ؛ أما القبائل فكان على كل قبيلة زعيمها . وهل كان لأبي بكر أن يضمن على قائد عسكره للقاء مسيلمة بمدد ! لقد كان يعلم أن أربعين ألفاً يقفون إلى جانب هذا المتنبئ في عدة القتال ، وأنهم يؤمنون به ويلاقون الموت في سبيله ، فإذا هو لم يرمهم بخيرة المسلمين في القيادة ، وفي البطولة ، وفي خوض المعامع ، تعرضت سياسته في قتال أهل الردة جميعاً للفساد . وأبو بكر أحصف وأعلى رأياً وأبعد نظراً وأقوى إيماناً من أن يعرض الإسلام الناشئ لمثل هذا المصير .

وكان بين هؤلاء الذين أمد بهم أبو بكر خالداً جماعة من القراء حفاظ كتاب الله ، كما كان بينهم جماعة ممن شهدوا بدرّاً . هذا مع أن أبا بكر كان يضمن بأهل بدر ويقول : « لا أستعمل أهل بدر ، أدعهم حتى يلقوا الله بصالح أعمالهم ؛ فإن الله يدفع بهم وبالصالحين أكثر مما ينتصر بهم » . وإنما خرج الصدّيق على رأيه ذلك ، فأمد خالداً بالبدرين وبمن شهدوا المواقع في عهد الرسول ، لأن مسيامة كان قد استغلظ أمره في اليمامة ؛ فكل تضحية في سبيل القضاء عليه دفع عن دين الله ، وكل تهاون معه يزيد الثورة في بلاد العرب ضيراً مآلاً ، ويزيد موقف المسلمين حرجاً .

والحق أن ما أدركه المسلمون إلى ما قبل اليمامة من النصر قد كان بالقياس

إليها حينئذ يسيراً . كانت القبائل القريبة من المدينة والتي أرادت محاصرتها غداةبيعة الصدّيق ، لا يدعى أحد فيها النبوة ، ولا تطمع في شيء إلا أن تعني من الزكاة . وقد نجح عندئذ بن حاتم في صرف القبائل عن طليحة الأسدى ، فهان أمره فلم يقدر على المقاومة . ولم تكن أم زمل لتقوى عليها بمن اجتمع حولها من فلول تلك القبائل . وكان بنو تميم على خلاف بينهم ، وكانت سجاح قد وهنت من عزم مالك بن نويرة ، فلم يكن بينه وبين خالد بن الوليد قتال . أما مسيلمة ومن اجتمع حوله باليمامة فكانوا ينكرون أن يكون محمد رسول الله إليهم ، وكانوا يرون لأنفسهم ما لقريش من حق ، فلهم نبي ورسول ، كما لقريش نبي ورسول ، وبينهم من الجند البواسل أضعاف جند قريش عدداً . وهم إلى ذلك كتلة واحدة ، لا يفتأ في عضدهم خلاف ولا يضعضع من عزمهم تنافس ، وليس بينهم من التفاوت في العقيدة والجنس ما بين أهل اليمن . لا جرم ، وذلك شأنهم ، أن يكونوا أولى بأس وقوة يجب أن يحسب الصدّيق لها الحساب .

قوة مسيلمة
وأسبابها

ولم تكن هذه العوامل وحدها هي التي لفتت نظر أبي بكر لتقوية غزاة اليمامة ما استطاع تقويتهم . فهو حين عقد ألويته الأحد عشر لحرب أهل الردّة لم يكن يقيم لمسيلمة كل هذا الوزن ، أو يحسب لبني حنيفة كل هذا الحساب ، لذلك وجه إليهم عكرمة بن أبي جهل ، ثم وجهه في أثره شُرْحَبِيل ابن حَسَنَةَ يعاونه . وسار عكرمة إلى اليمامة ولم ير أن ينتظر شُرْحَبِيل ، بل بادر بلقاء مسيلمة ليكون له فخار النصر عليه . وكان عكرمة بطلاً مجرباً وفارساً مغوراً ، وقد اجتمع في لوائه أبطال صناديد طالما أبلتوا في الحرب أحسن البلاء . مع ذلك لم يثبت عكرمة ولا ثبت لوائه لمسيلمة ، بل نكبهم بنو حنيفة فانهزموا ، وبلغ من نُكْر هزيمتهم أن أقام شُرْحَبِيل بالطريق حيث أدركه الخبر على حقيقته الفاجعة . وكتب عكرمة لأبي بكر بالذي أصابه وأصاب جنده ، فلك أبا بكر الغضب وكتب إليه : « يا ابن أم عكرمة ! لا أريناك ولا ترى . لا ترجعن فتوهن الناس . امض إلى حُدَيْفَةَ وَعَسْرَ فَجَعَلْ قَتْلَ أَهْلِ عُمَيْيَةَ وَمَهْرَةَ ، ثم تسير أنت وجندك تستبرعون الناس حتى تلقى المهاجر بن أبي أمية باليمن وحضر موت » . ولا أراني في حاجة إلى بيان ما في هذا الكتاب من مظهر الغضب .

عكرمة بن أبي
جهل يهزم أمام
قوات مسيلمة

وحسبك بدؤه بقوله : « يا ابن أم عكرمة » ، ففي هذه العبارة ما فيها من زراية واستخفاف .

كيف استغلظ
أمر مسيلمة ؟

كيف استغلظ أمر مسيامة حتى بلغ هذا المبلغ ؟ ! لقد كان — على تعبير مؤرخي العرب — « رويحلا ، أصيفر ، أخينس » لا يدعو مظهره إلى تقدير واحترام . ولقد ذهب مع وفد بني حنيفة إلى النبي عام الوفود ، فلما بلغ الوفد المدينة لم يأخذه قومه ليلقى النبي معهم ، بل خلّفوه على رحلهم . ولما سلم القوم بذل لهم النبي العطاء ، فذكروا له مسيلمة ، فأمر له بمثل ما أمر به لكل منهم ، وقال يجامله : « أمّا إنه ليس بشرّكم مكاناً » ، وذلك لحفظه رجال أصحابه . أف يكون ذلك هو الذي يدعى النبوة من قومه ! لذلك لم يصدقه منهم أول الأمر إلا نفر قليل . أفعجزة تلك التي جمعت الألوف وعشرات الألوف حوله فيما دون السنتين ؟ كلا ! وإنما هي شعبذة المشعبدن ، وحيل المحتالين ، وانقياد الجماعات لهؤلاء وأولئك . فقد كان من أهل هذه الأرجاء رجل يُدعى « نهاراً الرجال — أو الرجال — بن عُنْفُوّة » . وكان قد هاجر إلى رسول الله بالمدينة ، فقرأ القرآن ، وفقه الدين ، وعرف تعاليم الإسلام ، وكان ذكياً ذا بصيرة . أرسله رسول الله معلماً لأهل اليمامة يفقههم في الدين ، ويرد من اتبع منهم مسيامة ، ويشد من عزائم المسلمين ويشغب معهم على المنتهين الكاذب . لكن « نهاراً » كان أعظم فتنة على بني حنيفة من مسيامة نفسه . فهو لم يلبث ، حين رأى السواد يتبعه ، أن أقرّ بنبوته وأن شهد بأن محمداً يقول إن مسيلمة قد أشرك في الرسالة معه . ما عسى أن يقول أهل اليمامة عن هذا ! لقد شهد شاهد من أهل محمد لمسيلمة . وهذا الشاهد رجل فقيه عالم ، يتلو عليهم قرآن محمد ، ويقص عليهم تعاليمه ، ويفقههم في دينه ، وهو يشهد لمسيلمة بالنبوة . ما إلى نبي ذلك أو الطعن في صحته بعدئذ من سبيل . لذلك أقبل الناس على مسيامة أفواجاً يؤمنون به رسولا لله إلى بني حنيفة ، وبذلك أقبلت عليه الدنيا وأصبح في متناول يده كل ما يشاء ويهوى .

نهار الرجال
وشدعته

ووضع مسيلمة كل ثقته في « نهار الرجال » وصار ينتهي إلى أمره في كل ما يريد أن يقلد محمداً فيه . وجعل نهار ، لقاء ذلك ، يُعَبّ من نعيم الحياة

الدنيا ويستمتع بكل ما لذَّ له أن يستمتع به منها . وإذا الفقهاء والعلماء أسلموا
لمتاع الدنيا أنفسهم ، وأخضعوا لمن يملكون هذا المتاع علمهم ، فويلٌ للعلم
والفقه ، وويل للحقيقة أى ويل ! . .

ولسنا نقف عندما يروى من محاولة مسيامة إتيان المعجزات ، ولا عندما
أوحى إليه في زعمه ، فذلك كله سخف لا يثبت للتاريخ ونقده . وحسبنا ما تقدم
بياناتاً للأسباب التي أدت إلى متابعة الناس مسيامة وإلى استفحال أمره ، حتى
لم يستطع عكرمة حين لقيه إلا أن يعود منكوباً مهيض الجناح .

ولا تسأل كيف اتَّبع مسيامة عقلاء قومه ، وأنت تعرف العصبية العربية
وتعصب القبائل لاستقلالها وجريتها . ذكروا أن طليحة الذمري جاء اليمامة
فقال : أين مسيامة ؟ قالوا مته ، رسول الله . قال لا ، حتى أراه . فلما
جاء قال له : من يأتيك ؟ قال : رحمان . قال : أفى نور أم فى ظلمة ؟ قال
مسيامة : فى ظلمة . ورد طليحة : أشهد أنك كذاب وأن محمداً صادق ، لكن
كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر . وفى رواية ذكرها الطبرى أن طليحة
قال : كذاب ربيعة أحب إلينا من كذاب مضر . واتَّبع الرجل مع ذلك مسيامة
وقاتل وقتل معه .

طليحة الذمري
وكيف اتبع
مسيامة

أمّا وذلك شأن مسيامة وما أصاب عكرمة فى قتاله ، فلم يكن بين قواد
العرب من ينازله غير داهية الحرب وعبقريتها خالد بن الوليد ، ولم يكن عجباً أن
يعزز أبو بكر خالداً بالمدد . ثم إن الصديق كتب إلى شرحبيل بن حسنة أن
يقيم حيث هو حتى يجيء خالد إليه . فإذا فرغوا من مسيامة لحق شرحبيل بعمرو
ابن العاص يُعينه على قضاة فى شمال شبه الجزيرة .

خالد يسير إلى
اليمامة بجيشه

وفى خالد يسير إلى اليمامة التقت جيوش مسيامة بلواء شرحبيل واضطارته
إلى الارتداد . يقول بعض المؤرخين إن شرحبيل صنع ما صنع عكرمة ، وأراد
أن يفوز بفخار النصر فأصابه ما أصاب سلفه : ولعل الأمر لم يكن كذلك ،
ولمّا تقدمت جند من اليمامة فلاقوا شرحبيل فارتد عنهم حتى يجمه خالد .
وأى ذلك كان فقد بقى شرحبيل حيث تراجع حتى بلغت جيوش المسلمين ، فاما
عرف خالد ما أصابه لامة أشد اللوم على صنيعه . ولعله كان يؤثر أن يتراجع

من غير أن يشتبك مع خصمه حتى لا يقوى الظفر روحهم المعنوية .

سرية مجاعة بن
مرارة يقتلها
لخالد بن الوليد

وإن جيوش خالد لتتلاحق إلى أرض اليمامة وتبلغ أنباؤها مسيلمة ، إذ خرج مُجَاعَة بن مُرَّارَة في سرية يطلب ثأراً له في بني عامر وبني تميم ، وقد خاف أن يفوته إذا شُغل بلقاء المسلمين وقتلهم . وأدرك مُجَاعَة ثأره وكرّ راجعاً مع أصحابه ، حتى إذا بلغوا ثَنِيَّة اليمامة كان التعب قد أخذ منهم فناموا . وأدركهم جيش خالد فتنبّهوا ؛ وعرف خالد أنهم من بني حنيفة ، وظن أنهم خفوا لقتاله فأمر بقتلهم ، لم يغن عنهم قوتهم لأنهم خرجوا لثأرهم . فقد سألهم عن رأيهم في الإسلام ، فكان جوابهم : نقول منا نبي ومنكم نبي . وقال أحدهم ، سارية بن عامر ، وهو يُعرّض على السيف يخاطب خالداً : « أيها الرجل ، إن كنت تريد بهذه القرية غداً خيراً أو شراً فاستبق هذا الرجل » وأشار إلى مُجَاعَة . واستبقى خالد مجاعة لم يقتله ، وجعله كالرهينة ؛ لأنه كان من أشرف بني حنيفة ، وكان له عندهم مقام كريم ، ولأن خالداً كان يطمع في معاونته إياه بالرأى . ولقد قيّده بالحديد ، وجعله في قبّته ، وجعل زوجه الجلديدة ليلى أم تميم على حراسته .

جند مسيلمة
بمقرباء

كان مسيلمة قد جمع جنده بعقرباء في طرف اليمامة ، وجعل الأموال وراء ظهورهم . وكان هذا الجند أربعين ألفاً ، وقيل ستين ألفاً . وهذه أعداد قلما سمع العرب بمثلها في الجيوش من قبل . وأقبل خالد غداة اليوم الذي ارتهن فيه مجاعة فصصف جنده في وجه مسيلمة صفّ القتال . ووقف الجيشان ينظران أمر الصدام ، وكلّ يقدر أن مصيره معلق بمصير ذلك اليوم . ولم يبالغ أيهما في تقدير هذا الأمر ؛ فيوم اليمامة من الأيام الحاسمة في تاريخ الإسلام وفي تاريخ العرب .

يوم اليمامة
حاسم في تاريخ
العرب

كانت قوة مسيلمة قوة الردة الملحّة والإنكار الصريح أن تكون نبوة محمد لغير قريش ، وأن تكون للناس كافة . وكانت هذا القوة هي المركز الذي تتطلع إليه الأعين من اليمن وعمّان ومهّرة والبحرين وحضرموت والجنوب كله من شبه الجزيرة منحدرًا من مكة والطائف إلى خليج عدن ، وتتطلع إليه الأعين كذلك من بلاط فارس . وكانت جيوش مسيلمة تؤمن به وتتفاني في

سبيله ، ثم تزيدا الحصومة القديمة بين الحجاز وجنوب الجزيرة إيماناً وتفانيًا . وكانت جيوش المسلمين زهرة قوتهم والملاذ والحمى الدين الله وكامته ؛ عليها خالد أعظم قائد عرفه التاريخ في عصره ، وبينها حفاظ كلام الله قراء القرآن ، وقد جاءوا جميعاً يملأ الإيمان قلوبهم بأن الجهاد في سبيل الله والدفع عن دينه الحق أول فرض على المؤمن ، وأنه فرض عين على كل ذى علم وبيضة . لا محيص إذن أن تكون المعركة حامية ، وأن تكون مثلاً لما لقوة الإيمان من بأس وسلطان .

وتقدم شرحبيل بن مسيامة يحرض جيش بني حنيفة بعبارات تهتز لها النفس العربية الدقيقة الحس بكل ما يتصل بالعرض والحسب أشد اهتزاز .
صاح فيهم : « يا بني حنيفة ! اليوم يوم الغيرة ، إن هُزمتُم تُستردف النساء سيئات ، ويُتكَحَنَ غير حَظِيَّاتٍ ، فقاتلوا عن أحسابكم ، وامنعوا نساءكم » ، وأمرهم أن يشدوا . والتقى الجمعان والمسلمون ألباً تحنطهم حميتهم ؛ يقول المهاجرون لاسلم مولى أبى حُدَيْفَةَ : تخشى علينا من نفسك شيئاً ؟ فيجيبهم : بشس حامل القرآن أنا إذاً . بل لقد تنازوا بشر من هذا الحديث وأسوأ منه أثراً . جعل المهاجرون والأنصار يرمون بالجن أهل البوادي ، ويرميهم أهل البوادي بمثل ما يرمونهم به . يقول أهل القرى : « نحن أعلم بقتال أهل القرى يا معشر أهل البادية منكم » . ويقول أهل البادية : « إن أهل القرى لا يحسنون القتال ولا يدرون ما الحرب » .

لذلك لم يَشَبُّوا بالجموع بني حنيفة ، مع ما كان بين الفريقين من قتال شديد ؛ فأنشئ صف المسلمين هزيمًا ، وزال خالد عن فُسْطاطه ، فدخله بنو حنيفة فرأوا فيه مُجَاعَةً مقيداً بالحديد ورأوا على مقربة منه أم تميم . وحمل رجل منهم بالسيف على ليلى يريد أن يقتلها ، فصاح به مجاعة : « مهْ ؛ أنا لها جارٌ ، فَنِعْمَتِ الحرة ؛ عليكم بالرجال ! » . وقطع الجند حبال الفسطاط ومزقوه بسيوفهم تاركين مجاعة وليلى ينظران ما الله صانع بالقوم جميعاً .

على أن المسلمين لم يترجعوا حتى قتلوا من بني حنيفة خلقاً كثيراً . وكان في الأولين الذين قتلوا نهاراً الرجال القاري الفقيه الخائن الخادع . خرج في

ابن مسيلة يحرض
قومه في بني حنيفة

تراجع المسلمين
ودخل جنود
مسيلة فسطاط
خالد بن الوليد

طليلة بنى حنيفه ، فلقية زيد بن الخطاب فقتله ، فأزال بقتله من الوجود روح الإثم التي طوعت لمسياسة أن يبلغ ما بلغ ، وأن يقف وجنده يهدد المسلمين ويرسل الروح في نفس كل حريص على دين الله .

لم تزايل خالد بن الوليد رباطة جأشه حين زال عن فسطاطه ، ولم يداخله ريب في مصير اليوم . لقد رأى أنما انهزم من جند المسلمين من انهزم لتنازع الناس وتواكلهم ، فلو لم يتواكلوا انتصروا . لذلك لم يلبث حين لاحت له فترة تهادن بين الفريقين أن صاح في الجند صيحة بطش وغضب : « امتازوا أيها الناس لنعلم بلاء كل حي » ، ولنعلم من أين نؤتى » . ودوت هذه الصيحة ، تداولها سمع الجيش كله فنبهته إلى حقيقة أمره . واطمأن خالد ، حين رأى الناس امتازوا ، إلى أنه قطع بأمره كل مظنة للتواكل ، وأنه هيباً للنصر طريقه .

أثارت صيحة خالد ماركب في الفطرة العربية من قوة العصبية ، ورأى زعماء المسلمين ما حل بهم ، فثارت في قلوبهم الحمية لدين الله ، وسما الإيمان بنفوسهم إلى ما فوق مراتب الحياة ، وتجاوى الاستشهاد أمامهم باسم مضيقاً يفتح لهم أبواب الجنة خالدين فيها ، وأظلمتهم نسمة من روح الله أرتهم الحياة لهواً ولعباً وغروراً باطلاً ، فانقلبوا من الهزيمة يطلبون النصر أو الشهادة . قال ثابت بن قيس - وكان على رأس الأنصار - : « بشما عودتم أنفسكم يا معشر المسلمين ! اللهم إني أبرأ إليك مما يعبد هؤلاء (وأشار إلى أهل الإمامة) وأبرأ إليك مما يصنع هؤلاء (وأشار إلى المسلمين) ، ثم اندفع إلى الوطيس يقاتل ويقتل ، وينادى : « هكذا عنى حتى أريكم الجلال ! » وأبلى بلاء أذهب عن الأنفس الروح ، وظل يجاهد حتى خلصت إليه الجراح من كل جانب فمات وقد رزق الشهادة . وكان البراء بن مالك من الصناديد الذين لا يعرفهم الفرار ، فلما رأى ما صنع الناس وثب وقال : « أين يا معشر المسلمين ! أنا البراء بن مالك . هلم إلى ! » . وسمعه المسلمون وكلهم يعرفون بأسه ، ففاء إليه منهم فئة قاتلت القوم وقتلت منهم حتى أجلتهم عن مواقفهم . وهبت ريح أثارت الرمال في وجوه المسلمين ، فذهب قوم يتحدثون إلى زيد بن الخطاب

صيحة خالد :
امتازوا أيها
الناس

الحمية لدين الله
تثور في قلوب
المسلمين

ما يصنعون ، فكان جوابه : « لا والله لا أتكلم اليوم حتى نهزمهم ، أو ألقى الله الذين ابتغوا الشهادة وفازوا بها . غصوا أبصاركم وعضوا على أضراسكم أيها الناس ، واضربوا في عدوكم وامضوا قُدُماً » واندفع في صدر القوم يقاتل ويقتل ، وجنده من ورائه ، حتى لقي الله يكلمه بحجته . وصاح أبو حنيفة بمن حوله : « يا أهل القرآن ، زينوا القرآن بالفعال » . وألقى بنفسه في الغمار يقاتل وقومه حتى ضمه الله إليه . وأخذ سالم مولى أبي حنيفة الراية وقال : « بئس حامل القرآن أنا إن لم أثبت » : وقاتل حتى قُتل . بهذه الصبيحات الصادرة من قلوب ملأها الإيمان قوة وبأساً ، « رت روح الاستشهاد في جند المسلمين جميعاً » ، فهانت أمامهم الحياة واستحبوا الشهادة عليها ، فاندفعوا يطلبونها صادقين ، فردوا جيوش مسيامة إلى ما وراء خطوطها الأولى .

وكانت جيوش مسيامة تقاتل قتال المستيثس هي كذلك . كانت تقاتل عن وطنها ، وتقاتل عن أحسابها ، وتقاتل عن عقيدة مريضة هي عندها دون الوطن ، ودون الحسب مقاماً ؛ لذلك ثبتت للمسلمين وجعلت ترد منهم من تستطيع رده ، وتحارب عن كل شبر من الأرض لا تنزحزح عنه حتى تعود وتحاول استرداده .

لم يُرْعَ خالد لاستبسال بني حنيفة ، بل أيقن حين سمع صبيحات المسلمين ، ورأى إقدامهم على الموت مستبشرين ، أنه ملك زمام اليوم ، وأن النصر صار منهم قريباً .

لكنه حرص مع ذلك على أن يرى المسلمون هذا النصر قريباً كما يراه هو . لذلك خرج على رأس رجاله وقال لحماته : « لا أوتين من خلقي » ، ثم صاح صيحة المعركة : « يا محمداه » . وهو لم يكن يريد بخروجه وبصبيحته أن يشدد العزائم فحسب ، بل كان يريد كذلك أن يسلك إلى النصر أسرع طرقه ، وأن يستله من مكمنه . فقد رأى بني حنيفة يسقطون حول مسيامة قتلى لا يبالون الموت ، فأيقن أن أقرب الطرق إلى النصر قتل مسيامة نفسه . لذلك داور برجاله حتى كان حياله ، ثم جعل يستدرجه ليخرج إليه . وأقبل المحيطون بمسيامة يخرجون إلى لقاء خالد فيلقاهم الموت من سيفه قبل أن يبلغوه . وكثر

جيوش مسيامة
تقاتل قتال
المستيثس

خالد يداور
ليقتل مسيامة

في هؤلاء القتل ، وشعر مسيلمة بالخزي يركبه لشدة جبنه ، فساورته نفسه أن يخرج كما خرجوا . لكنه أيقن أنه مقتول إن خرج لا محالة ؛ فتردد واضطرب . وإنه لفي اضطرابه وتردده إذ شد خالد بن الوليد برجاله عليه وعلى من حوله وركبهم يعملون فيهم السلاح . هنالك صاح أصحاب مسيلمة به : « أين ما كنت تعدنا ! » فأجابهم وقد ولي مدبراً : « قاتلوا عن أحسابكم » . وكيف يقاتلون وقد أسرع هو إلى الفرار ! أو ليس المنطق أن يتبعوه فأراً كما اتبعوه نبيّاً !

ورأى محكم بن الطفيل فرار القوم ، ورأى المسلمين يتعقبونهم ، فصاح بهم : « يا بني حنيفة ! الحديقة » ، يريد منهم أن يحموا بها . وكانت هذه احتيازم بالحديقة الحديقة على مقربة منهم ، وكانت لمسيلمة وتدعى حديقة الرحمان ، وكانت فسيحة الأرجاء منيعة الجدران كأنها الحصن . وقد فروا إليها وتحصنوا بها من هزيمتهم بعد أن خر الألوف منهم صرعى مُجذَّلين في الميدان بسيوف المسلمين . ووقف المحكم برجاله يحمي ظهورهم في أثناء فرارهم . وإنه لكذلك يحاول صد المسلمين ويحرّض رجاله على دفعهم ، ويقايل وإياهم أشد قتال حتى يتحصن قومه ، إذ رماه عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق بسهم وقع في نحره فقتله .

تحصن مسيلمة وقومه بالحديقة . أفيحاصرهم المسلمون وإن طال حصارهم ؟ كلا ! إن هذا الجيش الشمل بنشوة الظفر يريد النصر كاملاً ؛ ويريده سريعاً . لذلك أحاط بالحديقة يلتمس فيها فرجة تغنيه عن فتح بابها الوثيق الرّاج فلم يجد . قال البراء بن مالك : « يا معشر المسلمين ، ألقوني عليهم في الحديقة » . قال الناس : « لا تفعل يا براء » . وماذا عسى أن يصنع البراء وحده بين هذه الألوف التي تكدست في الحديقة لاجئة من الموت ! لكن البراء أصر على قوله وزاد : « والله لتطرحنّني عليهم فيها » ورفع المسلمون إلى أعلى الجدار ، فلما رأى القوم وكثرتهم تردد وتراجع وقال : أنزلوني . لكنه ما لبث أن عاد يقول : احمولوني . وتكرر ذلك منه . ثم إنه وقف على الجدار تحدّثه نفسه : إنه البراء البطل الذي يتحدث الناس في شبه الجزيرة كلها بفعاله ، ألا لئن عاد أدراجه

البراء بن مالك
يتصور الحديقة
ثم يفتح بابها

ليقولنَّ الناس : همَّ ولم يفعل ، وليذهبن ذلك بشهرته في البطولة ، وليتندرن الناس بإحجامه بعد الأقدام . وإن حدث ذلك فإذا يبقَى له ، وأى وجه يطالع الناس به ! لذلك نضاً عنه تردده وألقى بنفسه على بنى حنيفة أمام باب الحديقة ، فقاتلهم وقتل يمنة ويسرة ، حتى فتح الباب للمسلمين ، ودخلوا منه زُمَراً تلمع في أيديهم سيوفهم ، ويطال الموت من حلق عيونهم ؛ فما لبث بنو حنيفة حين رأوهم أن فروا أمامهم يترامضون في الحديقة التي انقلبت سجنًا تراكض الأغنام رأت الذابح يدخل عليها بسكينه .

هذه رواية . ورواية أخرى أن المسلمين تسوّروا الحديقة من الجدران وحاولوا اقتحام الباب . ولعل البراء كان بين الذين تسوّروا الجدران أقربهم مكانًا من الباب ، وأنه ألقى بنفسه في الحديقة ففتحه للمسلمين بعد أن قاتل من وجده من القوم دونه ؛ وذلك حين كان اللاجئون إلى الحديقة في شغل عنه بمن شدوا عليهم يرمونهم بالنبل من أعلى .

اقتحام المسلمين
الحديقة ومهاجمتهم
جيوش مسيلمة

اقتحم المسلمون الحديقة والتحموا بأعدائهم فيها ، وما عسى أن تجدى سيوف بنى حنيفة والأشجار من حولهم تعوقهم ! مع ذلك استحر القتال وكثر القتل بين الفريقين ، وإن زاد قتلى بنى حنيفة على قتلى المسلمين أضعافًا مضاعفة . وكان وحشياً الحبشي قد أسلم بعد أحد ، وبعد أن قتل حمزة سيد الشهداء فيها ، وكان حاضراً اليمامة . ولقد رأى مسيلمة في الحديقة فهز حركته ، حتى إذا رضى عنها دفعها عليه فأصابته . وقد اشترك معه رجل من الأنصار ضرب مسيلمة بسيفه ، فكان وحشياً يقول : ربك أعلم أينما قتله . وصاح رجل يقول : قتله العبد الأسود .

مقتل مسيلمة

انهلَّت عزائم بنى حنيفة حين سمعوا الصبيحة بموت مسيلمة وأسلموا أنفسهم لا يقاتلون ، وأمعن المسلمون فيهم قتلاً . فلم تعرف بلاد العرب في تلك العصور موقعة كان فيها ما كان في موقعة اليمامة من دماء . لذلك أطلق على حديقة الرحمان اسم حديقة الموت ، ولا يزال هذا اسماً في كتب التاريخ جميعاً .

ولما انتهت الموقعة أمر خالد فجىء بمجاعة من فسطاطه ، فطلب إليه

مراجعة يدل خالد
على مسيلمة

أن يدلّهُ على مُسيّاحة . وجعل القوم يكشفون عن القتلى حتى مروا بمحكّم اليمامة ، وكان المحكم وسيما ، فابما رآه خالد سأل مجاعة : هذا صاحبكم ؟ وأجاب مجاعة : لا ! هذا والله خير منه وأكرم ؛ هذا محكّم اليمامة . ودخل خالد ومجاعة حديقة الموت فرّوا يبحثة ذلك الرويحل الأصيفر الأخينس ، فقال مجاعة : هذا صاحبكم قد فرغتم منه . وقال خالد : هذا الذي فعل بكم ما فعل .

الآن وقد انتهت فتنة مسيّاة ، واجتث أصباها ، وقد قُضي على جيشه هذا القضاء المبرم ، أفما آن لخالد أن يطامن ويلبّده أن يستريح ؟

كلا ! ليس هذا من طبع خالد ، وليست هذه السياسة سياسته في الحرب . إنما سياسته أن يبلغ النصر مداه حتى لا يترك وراءه ما قد تُعْثِي عواقبه . لم يكفِه من حرب بني أسد ومن والاهم فرار طاميحة ، بل بقي حتى استبرأ الأرض ، وحتى قضى على أم زمل وولها . وهو لم يدعْ بني تميم حتى قضى في ديارهم على كل نافع في نار للفتنة أو في رماد . وكذلك فعل ما هنا . قال له عبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبي بكر وقد فرغ من بلحوا إلى حديقة الموت : « ارتحل بنا وبالناس فانزل على الحصون » ، يريدان حصون اليمامة . فكان جواب خالد : « دعاني أثبت الخيول فألقط من ليس بالحصون ، ثم أرى رأيي » . وبثّ الخيول فجاءوا بما وجدوا من مال ونساء وصبيان ، فضمه إلى العسكر . ثم نادى بالرحيل لينزل على الحصون فيفتضّها على من بها ، ويفرغ بذلك من بني حنيفة فلا تقوم لهم من بعد قائمة أبداً .

كان خالد قد وثق بمجاعة بعد الذي كان من جواره أمّ تميم ، ومن إخلاصه القول له في مسيلمة ومن معه . وجاء مجاعة هذا إليه وقال : والله ما جاءك إلا سرعانُ الناس ، وإن الحصون لمملوءة رجالا ؛ فهل لك إلى الصالح على ما ورأى ؟ ونظر خالد إلى جيشه فرأى قوماً نهكتهم الحرب وقد أصيب من أشرف الناس فيهم خاق كثير ، وهم إلى ذلك حيراص على أن يعودوا متوجّين بفخار النصر . أما وقد يكون مجاعة صادقا فقد رأى خالد من الخير أن يصلحه . وتصالحا على أن يحتفظ المسلمون بما غنموا إلا نصف السبي .

خالد يتابع المعركة حتى يبلغ النصر مداه

الصلح بين خالد ومجاعة

واستطرد جماعة يقول : الآن آتى قولى فأعرض عليهم ما قد صنعت . وانطلق فقال للنساء : البسن الحديد ثم أشرفن على الحصون . وقد فعلمن . وراهن خالد فأيقن أن جماعة لم يكذبه . وعاد جماعة يزعم أنهم أبوا أن يجيزوا ما صنع ، وإنما أشرف على رموس الحصون منهم من أشرف حتى يرجع إليهم فيروا رأيهم . ونزل خالد عن النصف مما كان قد تصالح عليه من السبي . فلما فتحت الحصون لم يجد بها إلا النساء والصبيان ومشيمة فانية ورجالا ضعفى . عند ذلك نظر إلى جماعة مغضباً وقال : ويحك ! خدعتنى ! وأجاب جماعة مطمئناً : هم قولى ، ولم أستطع إلا ما صنعت . وأكبر منه خالد صدق وطنيته فأجاز الصالح وسرح صاحبه .

ويروى أن جماعة ذهب إلى قومه قبل كتابة عهد الصلح ، وقبل أن يرى خالد من الحصون ، فعرضه عليهم ، فاعترضه سلمة بن عمير الحنفي وقال : « لا والله لا نقبل حتى نبعث إلى أهل القرى والعبيد فنقاتل ولا نصالح خالداً ، فإن الحصون منيعة والطعام كثير والشتاء قد حضر » . وأجابه جماعة : « إنك امرؤ غر مشوم . غرك أنى خدعت القوم حتى أجابوني إلى الصلح ، فهل بقى أحد فيه خير أو به دفع ! وإنما بادرتكم قبل أن يصيبكم ما قال شريحبيل بن مسيابة : قبل أن تُسْتَرْدَفَ النساء سبيات ، ويُنْكحن غير حظيات » . وسمع إليه القوم فأجازوا صلحه ولم يحفلوا قول سلمة بن عمير .

وجاء خالد رسولاً من أبي بكر ومعه أمر أن يقتل كل قادر على القتال من بنى حنيفة . لكن خالداً كان قد صالحهم ؛ وهو رجل متى عهد وفى . وحشّر بنو حنيفة للبيعة والبراءة مما كانوا عليه ؛ وجىء بهم إلى خالد فى عسكره ، فبايعوا وأعلنوا براءتهم من الردة ورجوعهم إلى الإسلام . وبعث خالد بوفد منهم إلى أبي بكر بالمدينة . فلما قدموا عليه قال لهم : ما هذا الذى استدلت منكم ما استدلت ؟ قالوا : يا خليفة رسول الله ، قد كان الذى بلغك مما أصابنا ، وقد كان امرأ لم يبارك الله له ولا لعشيرته فيه .

رسالة أبي بكر إلى
خالد وإنفاذه
الصلح برغمها

ولعلك تسأل : كيف رضى خالد عن جماعة بعد أن خدعه ، وخالد من نعرف بأساً وشدة ! لكن نصر المسلمين المؤزر جعل خالداً أدنى إلى التسامح ؛

عدد القتل من
بنى حنيفة

وقد بلغ قتلى بنى حنيفة مبلغاً زاده تسامحاً . قيل إن الذين قُتلوا في حادثة الموت بلغوا سبعة آلاف ، وإن مثل هذا العدد قُتل منهم في الميدان ، وإن سبعة آلاف أخرى قُتلوا حين بثَّ خالد جنوده تطارد الفارين . هذا إلى أن الصالح الذي عقده مجاعة قد ترك للمسلمين كل ما غنَسوا من ذهب وفضة ، وسلاح ، وجعل لهم ربيع السبي ، وجعل لهم في كل قرية من قرى بنى حنيفة حديقة ومزرعة يختارهما خالده . فإن يكن مجاعة قد أنجى بعد ذلك من بقى من قومه فلم يقتل منهم كل قادر على القتال ، فإن قومه جميعاً قد رجعوا إلى الإسلام وأقرّوا بسلطان أبي بكر . أما وقد بلغ خالد ذلك كله فأيس له أن يغضب من مجاعة لخدعته أو ينقم منه بسببها .

وكما بلغ قتلى بنى حنيفة ذلك العدد الذى لم يكن يدور بخالد أحد من أهل ذلك العصر في بلاد العرب ، بلغ عدد القتلى من المسلمين مبلغاً جاوز كل ما كان يجرى في تقديرهم . قُتل فيها من المهاجرين ثلثمائة وستون ، ومن الأنصار ثلثمائة ، وذلك خلا من قتلوا من أهل القبائل . وبلغ مجموع قتلى المسلمين مائتين ألفاً .

ولقد عيّر المهاجرون والأنصار أهل القبائل وفاخروهم بعدد قتلاهم . ولم يكن تفوق المهاجرين والأنصار مقصوداً على زيادة العدد في القتلى ، بل كان بين هؤلاء تسعة وثلاثون من كبار الصحابة ومن حفاظ القرآن . وأنت تعرف ما هؤلاء وأولئك من قدر ومقام بين المسلمين . ولكن رُبَّ ضارّة نافعة ؛ فقد كان مقتل هؤلاء الحفاظ سبب جمع القرآن في خلافة أبى بكر مخافة أن يستحرق القتلى في سائرهم من بعد ، كما استحرق فيمن حضر منهم غزوة اليمامة .

حزن المسلمين
بمكة والمدينة على
القتلى

ولم يكن يعدل حزن المسلمين بمكة والمدينة على هؤلاء القتلى إلا فرحهم بما آتاهم الله من النصر . عاد عبد الله بن عمر بن الخطاب بعد أن أبلى في اليمامة أحسن البلاء . فاجأ لقيه أبوه قال له : « ما جاء بك وقد هلك زيد ! ألا وارىت وجهك غنى ! » . وأجاب عبد الله : « قد حرصت على ذلك أن يكون ، ولكن نفسى تأخرت فأكرمه الله بالشهادة » . وفى رواية أنه قال :

« سأل الله الشهادة فأعطيتها ، وجهدت أن تساق إلى فلم أعطيها » . وليس حزن عمر لمقتل أخيه زيد إلا مثلاً لما عمّ مكة والمدينة من أسى على الأبطال الذين استشهدوا في قتال مسيلمة .

أفحزن خالد بن الوليد كما حزنوا ؟ أفأزعجه منظر القتلى وروعه مسيل الدماء ؟ كلا ! ولو أن ذلك كان لما جاز له يوماً أن يتولى القيادة ، وأن يكون فاتح العراق والشام ، وموطد الأساس الأول للإمبراطورية الإسلامية . وأين القائد القادر الذي لا يهتز طرباً حين يرى الألوف من الأعداء يخرون صرعى أمام جيوشه ! لم يرع خالد إذن ولم ينزعج ؛ بل إنه لم يلبث حين اطمأن إلى النصر وأتم الصلح وتسلم زمام الأمر أن دعا جماعة إليه وقال له : « زوجني ابنتك » . وكان جماعة قد سمع بحديث ليلى أم تميم وباستدعاء أبي بكر خالداً وتعنيفه إياه على ما فعل مما يخالف تقاليد العرب ، فقال : « مهلاً ! إنك قاطع ظهري وظهرك معي عند صاحبك » . ولم يعجب خالد هذا الكلام فلم يعره أية عناية بل حلق إلى الرجل وقال : « أيها الرجل زوجني » . ومن ذا يستطيع أن يعصى له إثر نصره في اليمامة أمراً ! وزوجه جماعة ابنته ، فدخل بها في بيت أبيها ، ثم جعل لها فسطاطاً يجاور فسطاط أم تميم .

خالد يتزوج
ابنة جماعة

وبلغ أبا بكر ما صنع خالد ، فتولته الدهشة أول ما عرفه ، ثم استحالته ثورة أبي بكر لزوج خالد وكتابه إليه في ذلك الدهشة غضباً ، فاستحال الغضب ثورة . لقد كان كل دفاعه عنه في حادث أم تميم أنه لم يقتل زوجها ليتزوجها ، وأنه إن يكن أخطأ فإنما خطؤه أنه خالف تقاليد العرب وصنع ما يعيبونه من مثل هذا الزواج والدماء تقطر والمآتم قائمة . فكيف به يكرر فعلته في اليمامة وقد قُتل بها من المسلمين مائتان وألف ولم يكن قتل منهم أحد في حادث مالك بن نويرة ! لذلك لم يملك أبو بكر ، وهو الحليم ، غضبه ، بل دفعته ثورته فكتب إليه كتاباً « يقطر بالدم » على حد تعبير الطبري ، جاء فيه : « لعمرى يا بن أم خالد إنك لفارغ ! تنكح النساء وبفناء بيتك دم ألف ومائتي رجل من المسلمين لم يحقّف بعد » ! وتناول خالد الكتاب ونظر فيه فتألم لغضب أبي بكر وهز رأسه وجعل يقول : هذا عمل الأعيسر ، يعني عمر بن الخطاب . لكن الأمر لم يجاوز الأسف

ثورة أبي بكر
لزوج خالد
وكتابه إليه في ذلك

لغضب أبي بكر من جانب خالد ، ولم يجاوز هذه الثورة على خالد وهذا الكتاب إليه من جانب أبي بكر .

ومن تكون بنت مُجَاعَة في أعياد النصر التي يجب أن تقام لخالد !
لأنها لن تزيد على قُربان يطرح على قدمي هذا العبقري الفاتح الذي روى
أرض اليمامة بالدماء لعلها تطهر من رجسها . بل إنها لن تزيد على جارية
من الجوارى اللاتي يضربن بالدفوف في هذه الأعياد ويتغنن مطربات ،
أن عاد مهد الإسلام كاملاً إلى حسي الإسلام . لكن ! تبارك اسمك اللهم !
إن الإسلام لا يعرف هذه الأعياد ؟ وإنما يعرف أن النصر من عند الله
يؤتيه من يشاء . وقد آتاه خالد ، فأعز به دينه الحق ، وحق به الردة
والمرتدين .

محا خالد الردة والمرتدين بغزوة اليمامة ومحتهم . بذلك آن لبلاد العرب
أن تطمئن وتدين بدين الله . فأما ما بقي من أنباء حروب الردة بـمَهْرَة وعُمان
واليمن مما تلا اليمامة فلم يكن في مثل خطرهما . من ثم آن لأبي بكر بعد اليمامة
أن تسكن نفسه ، وأن لخالد بعدها أن يستريح .

وتحول خالد إلى واد من أودية اليمامة يقال له الوبر ، وكان له به منزل
جمع فيه بنت مجاعة وأم تميم .

أطفال هناك مقامه وكلمات هناك راحته ؟ ذلك شأن لم تحدثنا به
كتب التاريخ .

لكن سياسة أبي بكر وسياسة الإسلام كانت لا تزال في حاجة إلى سيف
خالد ، وسنلقاه لذلك عما قريب . فإلى الملتقى عبقري الحرب وسيف الله !
إلى الملتقى على شواطئ الفرات ! .

الفصل العاشر

بقية حروب الردة

البحرين - عمان ومهرة - اليمن - كندة وحضرموت

الربيع التي عادت
إلى الإسلام

قضى خالد بن الوليد على المرتدين في بني أسد وبني تميم وفي ربيع اليمامة ، وأعاد من بقي حيًّا من هذه القبائل إلى حمى الدين القيم . ومنازل هذه القبائل تمتد من الشمال الشرقى لبلاد العرب حتى تتأخم خليج فارس في شرقها ، وهي تقع لذلك إلى شمال المدينة من الشرق ، ثم تنحدر حتى الجنوب الشرقى من مكة . وقد فسح عودها إلى الإسلام رقعة الدولة التي تدين بالولاء لأبي بكر ، والتي كانت حين الردة مقصورة على مثلث من الأرض رأسه المدينة وقاعدته بين مكة والطائف .

بقاء الثورة
مشوبة في الجنوب
من شبه الجزيرة

ولم تكن ثورة القبائل النازلة إلى شمال المدينة بذات خطر تعشى آثاره . فلم يتحدث المؤرخون عن إصرار أهلها على الردة وقاتلهم بسببها ما تحدثوا عن بني أسد أو عن اليمامة ، ليس يستثنى من ذلك إلا دومة الجندل وعلى رأسها أكيدر الكندي ؛ فقد أصرت دومة وقاتلت حتى أخضعها ابن الوليد وأسر أكيدروفرغ منه ؛ وكان إخضاعه إياها في أثناء فتحه العراق . أما في الجنوب فقد بقيت الثورة على أبي بكر والردة عن الإسلام مشبوبيتين ، وبقي القتال ناشبًا بسببها بين جيوش المسلمين وأهل هذا الجنوب زمنًا غير مديد . وإذا قلت الجنوب قامت النصف من بلاد العرب ، والنصف الذي لا يستهان به . وهذا النصف يشاطئ خليج فارس فخليج عدن فالبحر الأحمر إلى شمال اليمن ، وتقع فيه ممالك البحرين فعُصمان فهرة فحضرموت فكندة فاليمن . وأنت لا تستطيع أن تتخطى هذه الممالك من الشرق إلى الغرب أو من الغرب إلى الشرق إلا أن تخترقها جميعًا . فكلها تقع تباعًا على شاطئ الخليجين والبحر الأحمر . وكلها ، فيما خلا اليمن ، قليلة العرض ، فما بين حدودها والشاطئ أميال معدودة . أما سائر الجنوب من شبه الجزيرة مما تحيط به هذه الممالك وتفصله

عن الماء فبادية الدهناء ، هذه الصحراء المخوفة يوم ذاك ، والخوفة إلى يومنا الحاضر ، والتي يطلق عليها اليوم اسم الربع الخالي .

أما وذلك موقع هذه البلاد فمن اليسير أن تدرك ما كان بينها وبين فارس من اتصال ، وما كان بينها وبين الشمال من بلاد العرب من شئمة لا يسهل قطعها . فاجتياز الدهناء لم يكن ممكنًا . والحجىء من الحجاز إلى عمان أو كندة أو حضرموت كان يقتضى السير إليها من بلاد البحرين شرقًا أو من اليمن غربًا . هذا الموقع الجغرافى لتلك البلاد جعل لبلاط كسرى من الصابة بها ، بل من السلطان فيها ، ما لم يكن له بغيرها من بلاد العرب .

سلطان فارس
فى البلاد النائرة

أشرنا فى غير موضع إلى أن اليمن ظالت فى سلطان فارس إلى أن دخل بدهان فى الإسلام ، وصار عامل النبى عليه السلام على اليمن بعد أن كان عامل كسرى عايمها . وكان سلطان فارس أكثر رضوحًا فى البحرين و عمان . وكان من أبناء فارس عدد عظيم استوطن البحرين و عمان وعات كاهمته بين أهليهما . وكانت فارس تمد أبناءها هؤلاء بنفوذها وبقواتها كلما خشيت ثورة العرب انخلص بهم ، أو محاولة هؤلاء العرب القضاء على سلطانها فى ربوعهم . ليس عجيبًا إذن أن تكون هذه البلاد آخر من دان بالإسلام على عهد رسول الله فى عام الوفود ، وأن تكون أول من ارتد حين قبض ، ثم تكون آخر من يعود إلى الإسلام بعد حروب طاحنة تختم حروب الردة وتعيد إلى البلاد العربية ، وحدثها الدينية وتقيم فيها الوحدة السياسية .

وقد اختلفت الروايات متى كانت حروب الردة فى هذه الأنحاء : أكانت فى السنة الحادية عشرة للهجرة كما كان ما سبقها من تلك الحروب ، أم كانت فى السنة الثانية عشرة . ولا غناء فى الوقوف عند هذا الخلاف ؛ فالثابت أن حروب الردة اتصفت منذ بيعة أبى بكر إلى أن انتهت بلاد العرب كلها بالإذعان ، وأن بلاد الجنوب شاركت من بعد فى تنفيذ سياسة أبى بكر ، قوية الإيمان صادقة العزم فى الجهاد ، حريصة على الظفر والاستشهاد حرص السابقين الأولين من أصحاب رسول الله .

لا مفر ، وموقع البلاد الجغرافى ما رأيت ، أن يبدأ المسامون للقضاء على الردة

فيها بالسير من البحرين إلى عمان فهرة حتى اليمن ، أو من اليمن إلى كندة فحضر موت حتى البحرين . وقد آثروا أن يبدعوا بالبحرين . لأنها كانت تجاور اليمامة ، فكان انتصارهم في موقعة عقرباء ذا أثر فيها . ثم إنها كانت أيسر من اليمن أمراً ، فكان البدء بها أدنى إلى فوز يجر وراءه فوزاً مثله في جميع البلاد التي تجاورها .

* * *

قتال المرتدين
بالبحرين

مع ذلك لم يكن المجهود الذي بذله المسلمون للقضاء على الردة بالبحرين سيراً . والبحرين شقة ضيقة من الأرض تشاطئ مع هــجـر خابج فارس ، وتمتد من القطيف إلى عمان . والصحراء في بعض أنحائها تكاد تتصل بماء الخليج ، وهي تتصل باليمامة في جزئها الأعلى . لا يفصل بينهما إلا سلسلة من التلال يُهَوِّنُ انخفاضها اجتيازها . وكان بنو بكر وبنو عبد القيس من قبائل ربيعة يقيمون بالبحرين وهــجـر . وكان يقيم بهامعهم جماعة من التجار جاءوا من الهند وفارس وتوطنوا الثغور من مصب الفُرات إلى عدن . وقد تزوج هؤلاء مع أبناء البلاد فاستولدوا بها طائفة ذعيت الأبناء . وكان ملك هذه الأنحاء ، المنذر بن ساوى العبدى ، نصرانياً دان بالإسلام حين دعاه إليه العلاء بن الحضرمي رسول النبي إلى أهل البحرين في السنة التاسعة من الهجرة . وقد ظل المنذر ملكاً على قومه بعد إسلامه ، فكان يدعوهم إلى دين الله كما كان يدعوهم إليه الجارود بن المُعَلَّى العبدى . وكان الجارود قدِمَ على النبي بالمدينة فأسلم وفقه الدين . وعاد إلى قومه يدعوهم إلى دين الحق ويفقههم فيه .

بدء الردة في
البحرين

مات المنذر بن ساوى في الشهر الذي مات فيه النبي . فارتد أهل البحرين جميعاً عن الإسلام ، كما ارتد غيرهم من سائر أنحاء شبه الجزيرة . وأدت ردتهم إلى فرار العلاء بن الحضرمي من البحرين . كما فر غيره من رسل النبي في البلاد التي ارتدت . لكن الجارود العبدى أصر على إسلامه ، وقام في قومه بنى عبد القيس يسألهم عن سبب ردتهم . قالوا : لو كان محمد نبياً لما مات . فقال لهم : تعلمون أنه كان لله أنبياء فيما مضى ، فما فعلوا ؟ قالوا : ماتوا . قال الجارود : إن محمداً صلى الله عليه وسلم مات كما ماتوا ، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله ، الصديق أبو بكر

وأن محمداً عبده ورسوله . فشهد قومه كشهادته وعادوا إلى إسلامهم وثبتوا عليه .

لم يثن رجوع بنى عبد القيس إلى الإسلام سائر أهل البحرين عن ردتهم ، بل اجتمع الذين أصروا على الردة بزعماء الحُطَم بن ضُبَيْعة أخى بنى قيس بن ثعلبة ، فردوا الملك في آل المنذر ، وملكوا عليهم المنذر بن النعمان بن المنذر ، وكان يسمى الغرُور . ثم إنهم حاولوا أن يصرفوا الجارود والذين معه عن إسلامهم فذهبت محاولتهم سدى . عند ذلك خرج الحطم حتى نزل القطيف وهجر واستغوى من بهما من الأبناء ، كما ضم إليه من لم يكن دخل في الإسلام من قبل ، وحاصر الجارود ومن معه في ناحية جُوائى ، مؤيداً من فارس وبلاطها . ولقد ألح عليهم في الحصار حتى اشتد عليهم الجوع وكادوا يهلكون . مع هذا لم يرجع عن إسلامه منهم أحد ، وهانت عليهم الحياة في سبيل دينهم الحق .

وفيما هم كذلك كان أبو بكر قد رد العلاء بن الحضرمي إلى البحرين على رأس لواء من الألوية الإحدى عشر لقتال المرتدين فيها . ولم يذهب العلاء إليها حتى كان خالد بن الوليد قد قضى على مسيلمة وأتباعه . لذلك أسرع من عاد إلى الإسلام من بنى حنيفة ينضمون إلى العلاء حين مر باليمامة . لحق به ثُمَامَة ابن أثال في المسلمين من قومه ، وقيس بن عاصم المستقرى كذلك ، كما جاء كثير من أهل اليمن ومن سائر القبائل التي شعرت بقوة المسلمين وبأن سلطانهم لا محالة عائد كما كان . ولا عجب ! فذلك شأن الناس في كل أمة وعصر ، يتبعون القوة لأنهم يحسبون أن الحق يدعمها كما تدعمه . ويرون أنها لا تستطيع أن تقوم وحدها إذا كان أساسها الجور والظلم . ولقد كان قيس بن عاصم ، قبل أن ينضم مع قومه إلى العلاء ، فيمن منعوا الزكاة وردوا الصدقات إلى الناس . فلما مر العلاء باليمامة بعد انتصار خالد ، عاد قيس فجمع الصدقات وساقها إليه ، ونزع عن الأمر الذي كان همّ به وخرج معه إلى قتال أهل البحرين .

وانحدر العلاء بمن معه من الجند ، وسلك بهم مفاوز الدهناء إلى غايته . فلما جن الليل أمر الناس بالتزول حتى لا يضلوا في تيه الصحراء . فلما نزلوا

أبو بكر يرد
العلاء بن الحضرمي
لحاربة المرتدين
بالبحرين

قصة الدهناء
وآية الله فيها

نفرت لإبلهم وتفرقت في الصحراء بما عليها من الزاد والماء ، ولم يجد الجند ما يقتاتون منه أو يطفئون به ظمأهم . هنالك ركبهم من الهم ما ركبهم ، وأيقنوا الموت ، فأوصى بعضهم إلى بعض . وتحدث إليهم العلاء فقال : « ما هذا الذي ظهر فيكم وغلب عليكم ! ! » . وأجاب الناس : « كيف نلأم ونحن إن بلغنا غداً لم تحم شمسنا حتى نصير حديثاً ! » . ورد عليهم العلاء ممتلئ القلب إيماناً يقول : « أيها الناس ، لا تراعوا ! ألسن مسلمين ! ألسن في سبيل الله ! ألسن أنصار الله ! » . قالوا : « بلى ! » قال : « فأبشروا فوالله لا يخذل الله من كان في مثل حالكم ! » .

وهنا تجرى الرواية بأنهم بعد أن صلوا الفجر نصّبوا في الدعاء ، حتى إذا بزغت الشمس لمع لهم سراب ثم آخر ثم ثالث قال رائدهم : إنه الماء ؛ فمشوا حتى نزلوا عليه فشرّبوا واغتسلوا ونالوا منه ما شاءوا . وتعالى النهار ، فإذا لإبلهم تعود إليهم من كل صوب وتبرك ؛ فقام كل رجل إلى رحله فركبه . ثم إن أبا هريرة وصاحباً له من أهدي العرب بهذه البلاد كرّاً راجعين إلى المكان الذي كان به الماء فإذا هو لا غدير به ولا أثر للماء فيه . وقال الذي له علم بهذه الأنحاء إنه يعرف هذا المكان وإنه لم ير به ماء ناعماً قبل اليوم . ومن ثم قيل إنما كان ذلك من آيات الله . وإن الماء إنما كان منياً من الله .

ويبدو بعض المستشرقين الشك في هذه الرواية . وسواء أكان لهذا الشك موضع أم لم يكن ، فقد ارتحل العلاء وجيشه لإبلهم وتابعوا السير حتى بلغوا البحرين . وأرسل العلاء إلى الجارود يشد من عزيمته وعزيمة من معه ، ووقف هو من الحطّام موقف المتأهب للقتال . ولكنه رأى المرتدين في عدد وعدة يعلنان المواجهة والهجوم عسيرين ؛ لذلك خندق المسلمون وخندق المرتدون ، وجعلوا يتراوحن القتال ثم يرجعون إلى خنادقهم . وأقاموا كذلك شهراً لا يدرى أيهم ما يكون المصير . ولأنهم كذلك إذ لاحت للمسلمين ذات ليلة فرصة غنموها ، فكانت القاضية على خصومهم قضاء حاسماً .

ذلك أنهم سمعوا في عسكر المشركين ضوضاء شديدة كأنها ضوضاء هزيمة أو قتال . فبعث العلاء من قص له الخبر ، وعرف أن القوم أمعنوا تلك الليلة

كيف قضى
المسلمون على
خصومهم

في الشراب ، وأنهم سكارى لا يملك أحدهم دفعاً عن نفسه . عند ذلك خرج المسلمون من خنادقهم واقتحموا عليهم عسكرهم ووضعوا السيوف فيهم . وجعلوا يقتلون منهم كل من أصابوا . وفر المرتدون هرباً ، فإذا هم بين مترد في الخندق ، ودهيش مقتول ، ومأسور ، وناج لا يعرف لنفسه مستقراً . ومرد قيس بن عاصم على الحطيم ملقى على الأرض فقتله . وأسر عفيف بن المنذر الغرور . فقال له العلاء : أنت غررت هؤلاء ! فأسلم الغرور وهو يقول : إني لست بالغرور ، ولكنى المغرور ! وعفا العلاء عنه .

وفرّ الذين نجوا من الموت أو الأسر . وركبوا الشراع إلى جزيرة دارين ، فتركهم العلاء بها ريثما جاءت الكتب تنبيهه بأن من بقى بالبحرين من القبائل قد فاعوا إلى أمر الله . وكان جيشه قد ازداد عدده بمن انضم إليه من أهل البلاد ومن الأبناء الذين بها . عند ذلك أمر الناس بالذهاب إلى دارين حتى لا يبق لمترد في الأرض ملجأ .

و دارين جزيرة من جزر الخليج الفارسي . تواجه البحرين ، كان بها اقتحام البحر إلى دارين والقضاء على الردة فيها

أديار خمسة لخمس شعب من النصاري . وتجرى الرواية بأن العلاء لما أمر المسلمين بالذهاب إليها لم يكن لديهم سفن يركبون البحر عليها ، فنهض فيهم فقال : « قد أراكم الله من آياته في البر لتعتبروا بها في البحر ، فانهبوا إلى عدوكم . ثم استعرضوا البحر إليهم فإن الله قد جمعهم » . وأجابه قومه : « نفعل ، ولا نهاب بعد الدهناء والله هولاً ما بقينا ! » وارتحلوا ، حتى إذا أتوا ساحل البحر اقتحموا على الخيل والبغال والحمير والجمال ودعوا الله ، فاجتازوا البوغاز يمشون على مثل رملة ميثاء فوقها ماء يغمر أخفاف الإبل . أفكان ذلك ساعة جزر الخليج الفارسي ، أم في الرواية مبالغه وأن الأبناء الذين انضموا إلى المسلمين أعاروهم سفناً عبروا البحر عليها ؟ لم تجر الرواية بهذا التصوير الأخير وإن كان في رأى بعض المؤرخين محتملاً . وأياً ما يكن الأمر ، فقد بلغ المسلمون دارين والتقوا فيها بالفارين فقاتلوهم أشد القتال ، حتى أتوا عليهم لم يتركوا منهم مخبراً ، وسبوا الذراري وساقوا الأموال التي بلغت كثرتها حدّاً جعل تنقل

الفارس ستة آلاف والراجل ألفين (١) .

وعاد العلاء بن الحضرمي إلى البحرين ، وعاد الناس معه إلا من أحب المقام . وكتب العلاء إلى أبي بكر بنصره ، وأقام بالبحرين وقد قضى على الردة فيها . من ثم لم يكن يخشى شيئاً إلا غارة قبائل البادية التي ألفت الغزو للسلب . ودسائس الفرس الذين تقلص نفوذهم في جنوب شبه الجزيرة . على أنه كان مطمئناً من هذه الناحية إذ انضم إليه قبل ذهابه إلى دارين من قبائل البحرين ومن الأبناء من كفوه مشونة ما يخشى . وكان عتيبة بن النخع والمثنى بن حارثة الشيباني على رأس المنضمين إليه . وقد قعدوا بكل طريق للمنهمزمين والذين يعيشون في الأرض فساداً . بل لقد تابع المثنى السير على شاطئ الخليج الفارسي يقاوم دسائس الفرس ويقضي على أنصارهم من القبائل ومن الأبناء حتى بلغ مصب الفرات ، فكان لبلوغه هذا المصب ولاتصاله بأرض العراق ولدعوته إلى الإسلام هناك أثر لعلمنا لا نبالغ إذا قلنا إنه كان المقدمة لفتح العراق .

المثنى يستبصر
الأرض ويصل
إلى العراق

• • •

لسنا نسبق الحوادث بالكلام عن هذا الفتح . وما لنا نفعل وعمان تجاور البحرين ، وشأن الردة فيها ليس أقل استغلاظاً منه في غيرها ! فلنتابع جيوش المسلمين إليها حتى تذهب وتنبه هي كذلك .

وكانت عمان على عهد النبي تابعة لفارس . وكان جيفر أميراً عليها ، وقد بعث النبي إليه عمرو بن العاص يدعو إلى الإسلام . ولما أبدى جيفر مخافته أن يتمرد قومه على الزكاة يدفعونها إلى المدينة ، اتفق عمرو معه على أن تقسم بين فقراء بلاده . وأقام عمرو بين القوم ، حتى إذا ارتدوا إثر وفاة النبي فرّ عائداً إلى المدينة ، وفر جيفر إلى الجبال فاعتصم بها .

وكان قائد الثورة بالردة في عمان ذو الناج لقيط بن مالك الأزدي . وقد ادعى من النبوة ما ادعى غيره . وكان أبو بكر قد وجه حذيفة بن محصن

(١) تجرى رواية أخرى بأن العلاء لم يذهب بالمسلمين إلى دارين في هذه الحرب ، وأن دارين بقيت في عزلتها لم تعد إلى الإسلام وإلى حكومة شبه الجزيرة إلا في عهد عمر بن الخطاب .

الغلفاني من حمير إلى عمان ووجه عرفة بن هرثة البارقي من الأزدي إلى مهرة .
وأمرهما أن يسيرا معاً وأن يبدعا بعمان فتكون القيادة فيها لحذيفة ، وأن يُشتبا
بمهرة فتكون القيادة فيها لعرفة .

وأنت تذكر أن عكرمة بن أبي جهل كانت وجهته اليمامة . وأنه لم ينتظر
شُرْحَبِيل بن حسنة يعاونه ، بل أسرع بلقاء مسيلمة ليعود بفخار النصر
فردّه مسيلمة هزيمًا . وأنت تذكر كذلك أن أبا بكر أبي على عكرمة أن يعود
إلى المدينة . وأمره أن يلحق بعمان يعين حذيفة وعرفة على أهلها . وقد أبلغ
أبو بكر هذا الأمر إلى هذين القائدين ، وعهد إليهما أن ينتهيا إلى رأى عكرمة .
وأسرع عكرمة فأدرك القائدين قبل أن يبلغا عمان ، وتشاور وإياهما ، فراسلوا
جيفراً وأخاه عبّاداً^(١) حيث كانا معتصمين ، وطلبوا إليهما أن ينضما مع
أصحابهما إليهم .

كيف حالف
المسلمين النصر
في عمان

وبلغ لقيطا هجاء المسلمين فجمع جموعه وعسكر بدبّا . وخرج جيفر
وعباد ومن معهما إلى صُحار وبعثا إلى عكرمة وصاحبيه فقدموا عليهم بها . والتقى
الجيشان بدبا في معركة حامية الوطيس كاد الظفر يتوج فيها لقيطا وأصحابه .
ولأنهم لذلك ، وإن المسلمين ليضطربون ويتمشى الخلل في صفوفهم ، إذ
أقبل عليهم مدد عظيم من نبي عبد القيس ومن غيرهم من قبائل البحرين حمّى
ظهرهم وشد أزهرهم وضاعف قوتهم ودفعهم يهاجمون لقيطا ومن معه ويركبونهم
ويقتلون منهم عشرة آلاف ، ويسبون نساءهم وأبناءهم . ويقتسمون بينهم
أموالهم . بذلك تمت كلمة ربك في عمان ، واستقر للمسلمين فيها الأمر .

وأقام حذيفة بعمان يوطئ الأمور ويسكن الناس . وسار عرفة إلى المدينة
يسوق خُمس الغنائم إلى أبي بكر . أما عكرمة فضى في جيشه إلى مهرة ليرد
الأمر فيها إلى نصابه ، وليعيد إليها كلمة الإسلام .

* * *

ترك عكرمة حذيفة بعمان أقصى الشرق من جنوب شبه الجزيرة ، وسار
غرباً إلى مهرة حيث ارتد الناس . سار في جيش لجب تضاعف عدده بانضمام

قتال المرتدين
في مهرة

(١) في الكامل لابن الأثير : « عياذ » .

رجال القبائل التي عادت إلى الإسلام بعد أن بهرهم نصره . وبلغ مهرة فألفي جمعين مختلفين يدعو كل منهما الآخر أن يذعن لرياسته . وقد اختار عكرمة أضعف الجمع وأقلهما عدداً ، فدعاهم للرجوع إلى الإسلام فأسرعوا إلى دعوته . وخرج عكرمة في جيشه وفيمن رجع إلى الحق من أهل مهرة ، فلقوا بالجمع الآخر واقتتلوا أشد من قتال ديباً ، وانتصر المسلمون فقتلوا وأسروا وغنموا ؛ وكان فيما غنموا ألفاً نجبية . وبعث عكرمة الخمس إلى أبي بكر مع رئيس الجمع الذي حالفه ، ثم أقام زمناً لتسكين الناس . فلما سكنوا واطمأن الأمن وعاد النظام ، خرج في جيشه الذي ازداد كربة أخرى أضعافاً مضاعفة بمن انضم إليه من أهل مهرة ، وسار يلقي المهاجر بن أبي أمية المخزومي تنفيذاً لأمر الخليفة حتى يتعاون معه على رد الأمر إلى الإسلام في اليمن وفي حضرموت .

» * «

تري أيسر عكرمة من مهره إلى حضرموت وكندة ؟ ذلك أدنى إلى التصور . فحضرموت تجاوز مهرة وتناخمها . لكن المهاجر بن أبي أمية كان ينحدر من الشمال إلى اليمن ؛ فلم يكن لعكرمة بدٌّ من أن يسرع ليلقاه بها . هذا إلى أن ثورة اليمن كان قد طال مداها واستفحل أمرها ، فالإسراع بالقضاء عليها يهون القضاء على من بقي بكندة وحضرموت من المرتدين .

وقد تحدثنا فيما سلف عن ثورة الأسود العنسي في اليمن ، وعن ادعائه النبوة وخروجه إلى صنعاء ، وعن انتشار أمره كالخريق حتى بلغ مكة والطائف ، ثم عن قتله غيلة في مؤامرة اشتركت فيها زوجه آزاد التي كانت قبله تحت شهر بن بازان ملك صنعاء . وقد جرت الروايات بأن قتل الأسود انتهى إلى المدينة يوم مات النبي ، فأقام أبو بكر فيروز حاكماً لليمن . لكن ذيوع النبأ بموت النبي بعد قليل أعاد الثورة فيها أشد مما كانت ، وتضافرت عوامل كثيرة زادت هذه الثورة ضراماً واستعاراً .

السوامل التي أدت إلى اشتداد الثورة في اليمن

العامل الأول :
تفرق السلطة

أول هذه العوامل تفرق السلطة في هذه الأنحاء تفرقاً أضعفها : فمات بازان وزعت السلطة في اليمن بين ابنه شهر بصنعاء وجماعة من المسلمين

بنجران وهمدان وغيرهما ، فكان ذلك مما شجع العنسى على الانتقاض والثورة . وكان الأمر فى شمال اليمن إلى مكة كأمر اليمن فى تفرق السلطة ، فكان لتهامة مما يحاذى البحر حاكم ، وللداخل فى مختلف القبائل حكام متفرقون . وكان طبيعياً بعد أن أخفقت ثورة الأسود أن يحاول كل واحد من هؤلاء الحكام العود إلى إمارته واسترداد السلطان فيها ، وأن يقاتل فى سبيل ذلك ما أطاق القتال . وكان طبيعياً كذلك ألا يهدأ أنصار الأسود العنسى وأن يعملوا جهدهم ليثيروا الأرض ، لعل الأمر يعود إليهم كما كان للأسود . أما وقد مات النبي وانتشرت فى بلاد العرب كلها فكرة الردة ، وصح لكل قبيلة ولكل فخذ من قبيلة أن يطمع فى استقلاله القديم ، فقد بلغ الاضطراب غايته فى اليمن وما حولها من البلاد التى كانت مسرحاً لنشاط العنسى وأنصاره .

والذى حدث أن هؤلاء الأنصار لم تهدأ بموت العنسى ثأرتهم ، بل جعل فرسانهم يجوبون البلاد فيما بين نجران وصنعاء ، لا يأوون إلى أحد ، ولا يأوى إليهم أحد . وكان عمرو بن معدى كسرب البطل الشاعر صاحب الصمصامة ممن انتهزوا هذه الفرصة ، فحاول اقتناص السلطان من طريق الثورة ، كما حاول اقتناصه أيام العنسى بالانضمام إليه . وقام قيس بن عبد يغوث من ناحيته ، وكان على رأس من ائتمروا بقتل العنسى ، فطرد فيروز عن الملك وطرد معه داذويه . بذلك عم الاضطراب ، وتعذر رد السكينة والأمن إلى هذه الأرجاء .

نشاط ثوار اليمن
بعد مقتل العنسى

كيف السبيل إلى معالجة هذه الحال ؟ إن أول ما يجب عمله تأمين الطريق بين المدينة واليمن . وقد قامت قبائل عكّ وبعض الأشعرين على هذا الطريق الذى يساحل البحر فقطعوه مستعينين بمن انضم إليهم من الأوزاع . وأقرب مدن المسلمين إلى هذا الطريق الطائف . لذلك كتب حاكمها الطاهر ابن أبى هالة إلى أبى بكر ، وسار إليهم فى جند قوى ، واصطحب معه مسروقاً الكلبيّ ، فلما لقيهم أكثر القتل فيهم ، حتى قيل إن الطريق تعطل بحثهم . وكتب أبو بكر إلى الطاهر قبل أن يأتيه نبأ هذا الفتح يشجعه ومن معه على القتال

ويأمرهم أن يقيموا بالأعقاب^(١) ، حتى يأمن طريق الأخابث . ومن يومئذ سميت جموع عكّ هذه جموع الأخابث ، وظل هذا الطريق يسمى طريق الأخابث زمناً طويلاً .

العامل الثاني :
الخلاف في الجنس

أما العامل الثاني الذي زاد الثورة في اليمن استعاراً فالخلاف في الجنس . فقد أقام أبو بكر فيروز على صنعاء مقام شهر حين قتل ذو الحمار . وكان شركاء فيروز في المؤامرة بقتل الأسود داؤويه الذي كان وزيراً معه لشهر ، وجيشنس صاحبهما ، وقيس بن عبد يغوث قائد الجند . وكان فيروز وجشنس من الفرس ، وكان قيس عربياً من حمير اليمن . لذلك نفس قيس على فيروز أن أسند أبو بكر إليه الأمر من دونه وعزم قتله .

لكنه رأى حين أنعم النظر أن قتل فيروز قمين أن يجر إلى فتنة يقاومه فيها الأبناء جميعاً . والأبناء هم طائفة الفرس التي استقرت باليمن منذ حكمها الأكاسرة . وقد كبرت هذه الطائفة وعلت مكانتها أن كان الحكام منها . فإذا لم يستنفر قيس عرب اليمن جميعاً للقضاء على الفرس جميعاً كان حرياً أن يصيبه ما أصاب الأسود من الإخفاق ، وأن يفقد حياته كما فقد الأسود حياته .

قيس بن عبد يغوث
يريد اليمن لعرب
اليمن

لذلك كتب إلى ذي الكلاع الحميري وأضرابه من زعماء العرب باليمن يقول : « إن الأبناء نزع في بلادكم ، فضلاء فيكم . وإن تركوهم لن يزالوا عليكم . وقد أرى من الرأي أن أقتل رؤوسهم وأن أخرجهم من بلادنا فتهربوا » . لكن ذا الكلاع وأصحابه لم يمالئوه ولم ينصروا الأبناء ، بل اعتزلوا وأبلغوا قيساً يقولون : « لسنا من هذا في شيء . أنت صاحبهم وهم أصحابك » . ولعلمهم كانوا يمالئون قيساً وينصرونه على الأبناء لولا أنهم رأوا أبا بكر والمسلمين يمالئون هؤلاء ويكلمون الأمر إليهم ، ورأوا الأبناء يحتفظون بإسلامهم وبالولاء لأبي بكر وسلطان المدينة . ما لهم إذن والخلاف لا يدرى أحد ما تكون نتائجه ، وبخاصة بعد أن سرت الردة في اليمن فأصبحت معرضة

(١) الأعقاب : أرض لبني عك بن عدنان بين مكة والساحل .

لحيوش المسلمين ، وبعد أن تجاوزت أرجاء شبه الجزيرة جميعاً نبأ هذه
الحيوش وبسير النصر في ركابها !

لم يثن قيساً عن عزمه قعود ذى الكلاع وأصحابه عن نصرته ، بل
كاتب العصابات التي كانت مع الأسود سرّاً ، والتي كانت تصعد في البلاد
وتصوب محاربة جميع من خالفهم ، وطلب إليهم أن ينضموا إليه ليكون
أمره وأمرهم واحداً ، وليجتمعوا على نفي الأبناء من بلاد اليمن . ولم يكن في
ريب من إجابة هذه العصابات طلبته . أو لم تكن طليعة الأسود وعلى أساسها
انتصر ! ! وكتبت العصابات بالاستجابة إليه ، وأخبروه أنهم إليه سراع . ولما كان
ذلك كله قد حدث سرّاً فقد فجأ صنعاء خبر دنو هذه العصابات منها ،
فاجتمع أهلها يتشاورون ماذا يصنعون .

وأسرع قيس إلى فيروز ، وكأنما فجأه الخبر فأزعجه ، واستشاره واستشار
دأذويه ليخذهما ولئلا يتهما ، ودعاها في الغد ودعا جشنس معهما إلى طعام
الغداء . وأقبل دأذويه قبل صاحبيه ، فلم يلبث حين دخل على قيس أن عاجله
فقتله . أما فيروز فجاء بعد صاحبه فسمع الهمس بأصحابه ففر يركض . ولقيه
جشنس في طريقه فركض معه يطلبان النجاة . وركضت خيل قيس تلاحقهما فلم
تدركهما ، فعادت أدراجها تستنزل غضب قيس عليها . وبلغ الفارسان جبل
خولان منزل أخوال فيروز ، لا يكادان يصدقان أنهما صارا من الهلاك
بمنجاة .

قيس يقتل دأذويه
ويحكم صنعاء
حكماً عربياً

ونار قيس بصنعاء فدانت واطمأن له الأمر فيها ، كما اطمأن للأسود من
قبل ولم يدُر بخاطره أن أحداً سيقدر عليه فينزله عن عرشه . باغى أن فيروز
يزعم أنه سيستعين أبا بكر ويهاجم قيساً بقوة من بني خولان ، فسخر وقال :
« وما خولان ! وما فيروز ! وما قرار أووا إليه ! » . وانضم إليه عوام القبائل من
عرب حمير وإن بقي الرؤساء في عزلتهم . ولإذ أنيس في نفسه القوة عمد إلى
الأبناء ففرقهم ثلاث فرق ؛ فأما من أقام ولم يظهر الميل إلى فيروز فأقرهم وأقر
عيالهم . وأما من فر إلى فيروز فقسم عيالهم فرقتين ، وجه لإحدهما إلى عدن

لِيُحْمَلُوا فِي الْبَحْرِ ، وَوَجْهَ الْأُخْرَى فِي الْبَرِّ إِلَى مَصْبِ الْفَرَاتِ وَأَمْرَ بِهِمْ أَنْ يَنْفُوا إِلَى بِلَادِهِمْ وَأَلَّا يَقِيمَ بِالْيَمَنِ مِنْهُمْ أَحَدٌ .

وعرف فيروز ما أصاب بني وطنه ، فاستنهض القبائل التي بقيت على إسلامها لينصروه . وإنما فعل ذلك ليصد بعصية الدين نعمة الوطن . وأجابه بنو عقيل بن ربيعة كما أجابته عكّ ، وساروا يستنقذون عيال الأبناء الذين قرر قيس نفيهم . وخرج فيروز على رأسهم ، فرد أبناء فارس ، والتقى بقيس دون صنعاء فأجلاه عنها ، وعاد أميراً عليها من قبل خليفة المسلمين . وخرج قيس هارباً في جنده ، وعاد إلى المكان الذي كانوا به حين مقتل العنسيّ ، ففرض بفراره على الفكرة القومية التي كانت أساس دعوته . وقد عزز أبو بكر مكانة فيروز إذ بعث إليه طاهر بن أبي هالة في جيشه فأقام إلى جواره .

فيروز يجلي قيساً
عن صنعاء
ويسترد إمارته
عليها

لكن انتصار فيروز وعوده إلى الإمارة لم يوطد السلم ولم يُعَدِّ الأمن فيما وراء صنعاء من ربوع اليمن ؛ فقد بقي المرتدون بها أشد ما يكونون تحمساً لردتهم . وهنا موضع الكلام عن العامل الثالث من العوامل التي زادت الثورة في هذه الأرجاء استعاراً . فلم تنس اليمن يوماً ما كان بينها وبين الحجاز من تنافس جعل لها أغلب الأمر الكلمة العليا . ولم تقم بين اليمن والحجاز في عهد الرسول حروب تنكس نتائجها رموس بن حميز . ولئن دوى في أنحاء اليمن نصر خالد وعكرمة على قبائل العرب وملوكهم ، لقد كان في عشائر اليمن من الأبطال والقواد من تفاخر بهم هذين البطلين الحجازيين ، ومن تهتز لسماع أسمائهم صناديد العرب فرقاً . وحسبك من هؤلاء عمرو بن معدى كرب صاحب الصمصامة . لقد كان فارس بن زبيد وحاميههم ، إذا ذكر اسمه فزع الأبطال وهابوا لقائه ؛ وكان له من بعد في وقائع الفتح الإسلامي على عهد عمر بن الخطاب مواقف لا يزال التاريخ يذكرها . ولم يغير تقدم سنة يومذاك من شدة بأسه . شهد غزوة القادسية وقد جاوز حد المائة فكان له فيها بلاء أحسن البلاء .

العامل الثالث :
الخصومة القديمة
بين الحجاز واليمن

قام عمرو بالثورة مع من تابعه ، وانضم إليه قيس بن عبد يغوث ، وتضافر الرجلان يعيثان في أنحاء البلاد فساداً ، ويخذهان من أهلها عوتاً ومدداً ، لم يند

منها غير نجران التي ثبتت بمن فيها من النصارى على عهدهما محمد ، ثم أكدت نياتهما بتجديد هذا العهد مع أبي بكر .

أفيدر المسلمون اليمن وذلك شأنها يعيثر بها هذان الثائران ومن سار سيرتهم ، حتى يأكل بعضها بعضاً وتأكل الثورة أبناءها ؟ كلا ! بل سار عكرمة ابن أبي جهل من مهرة إلى اليمن حتى ورد أبيهم في جيشه اللجب زاده المنضمون من مهرة عدداً وعدة . وسار المهاجر بن أبي أمية منحدرًا من المدينة إلى الجنوب ماراً بمكة والطائف ، في اللواء الذي عقده أبو بكر له . والذي تأخر عن السير بضعة أشهر لمرضه . وقد اتبعه من مكة والطائف ونجران رجال لهم في الحرب دُرْبَةٌ وشهرة . فلما سمع أهل اليمن بمقدم هذين القائدين ، عكرمة والمهاجر ، وبأن المهاجر قتل قوماً حاولوا مقاومته ، أيقنوا أن ثورتهم مقضى عليها لا محالة ، وأنهم إن قاتلوا قتلوا وأُسروا ولم تغن عنهم المقاومة شيئاً . ولقد بلغ بهم الأمر أن اختلف قيس وعمرو بن معدى كرب وتهاجيا وأضمر كل لصاحبه الغدر ، وذلك بعد أن كانا متحالفين على لقاء المهاجر وقتاله . وأراد عمرو أن ينجو بنفسه ، فهاجم قيساً ذات لياة وأخذه إلى المهاجر أسيراً . عند ذلك قبض المهاجر عليهما جميعاً وبعث بهما إلى أبي بكر ليرى فيهما رأيه .

وهمَّ أبو بكر بقتل قيس قصاصاً لداذويه وقال له : « يا قيس ، أعدوت على عباد الله تقتلهم وتتخذ المرتدين والمشركين وليجة من دون المؤمنين ! » . وأنكر أبو بكر يعفون قيس قتل داذويه ، ولم تكن عليه بينة . أن تم هذا القتل في سر من الناس . لذلك تجافى أبو بكر عن دمه ولم يقتله . ونظر الصديق إلى عمرو بن معدى كرب وقال له : « وما تخزى أنك كل يوم مهزوم أو مأسور ! لو نصرت هذا الدين لرفعك الله ! » قال عمرو : « لا جرم لأفعلن ولن أعود » . وأخلى أبو بكر سبيلهما وردهما إلى عشائرهما .

وسار المهاجر من نجران حتى نزل صنعاء ، وأمر جنده أن يتعقبوا العصابات المتمردة التي أثارت الفساد في الأرض من عهد الأسود ، وأن يقتلوا من ثقيفوه منهم لا يقبلون منه توبة ولا إنابة . وإنما قبل توبة من أناب من غير المتمردة . أما عكرمة فقد بقي في جنوب اليمن بعد أن استبرأ النخع وحمير . بذلك عادت

اليمن كلها آمنة مطمئنة ، ورجع أهلها إلى دين الله الحق ؛ وبذلك لم يبق من المرتدين في شبه الجزيرة كلها إلا أهل حضرموت وكندة .

وقبل أن نسير مع عكرمة والمهاجر للقاء المرتدين فيهما ندفع شبهة قد ترد كيف نصر أبو بكر الفرس على العرب ؟ وكيف ناصر فيروز ومن معه على قيس ومن اتبعه ؟ ودفع هذه الشبهة يسير . فأنت تعلم أن الإسلام لا يرى فرقاً بين عربي وعجمي إلا بالتقوى ، وأن أكرم الناس عند الله أتقاهم . على أن ذلك لم يكن وحده الذي دعا أبا بكر لنصرة فيروز ، بل دعاه لنصرته كذلك أن الفرس أول من أسلم باليمن ، والسابقة في الإسلام لما قدرها . ثم إن العرب من أهل تلك البلاد هم الذين قاموا بالثورة على الدين الجديد ، قام بها الأسود العنسي مدعي النبوة في عهد الرسول ، وقام بها أنصار الأسود من بعده ، وفي جملتهم عمرو بن معدى كرب ثم قيس بن عبد يغوث . وبازان وشهر وفيروز والفرس من حولهم هم الذين قاموا بالدعوة للإسلام في هذه الربوع ، وهم الذين استمسكوا به وقاوموا خصومه ، وهم الذين أقاموا على الولاء لسلطان المدينة وخليفة رسول الله حين ارتدت العرب كلها وتضرمت الأرض في شبه الجزيرة ناراً . فلا عجب إذاً أن يؤيد أبو بكر فيروز بسلطانه ، وأن يمدّه بجند وقواده ، وأن يقيمه أميراً على صنعاء ، كما أقام النبي شهراً أميراً عليها ، وكما أقام أباه بازان أميراً على اليمن كلها من قبله .

* * *

والآن فإنخط الخطوة الأخيرة في حروب الردة ، ولنتقل مع المهاجر وعكرمة إلى كندة وإلى حضرموت .

ونذكر تمهيداً لذلك أن رسول الله قبض وعمّاله على هذه البلاد: زياد ابن لبيد على حضرموت ، وعكاشة بن محصن على السكاسك والسكُون ، والمهاجر بن أبي أمية على كندة . وقد رأيت أن المهاجر كان مريضاً بالمدينة فلم يخرج إلى عمله بكندة ولا خرج في لوائه إلى المرتدين باليمن إلا بعد أشهر من وفاة الرسول . لذلك أناب عنه زياد بن لبيد في عمله منذ استعمله الرسول على كندة إلى أن خرج في جيشه إلى اليمن .

قتال المرتدين
في كندة
وحضرموت

كيف تولد المهاجر
ابن أبي أمية
أمر كندة

وقصة تولية المهاجر أمر كندة طريفة ؛ فقد كان أخا أم سلمة زوج رسول الله أم المؤمنين ، وقد تخلف مع ذلك عن الخروج مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى غزوة تبوك . وغضب رسول الله لتخلفه وأقام زمناً عاتباً عليه . وحز في نفس أم سلمة أنها لم تُفلح في استرضاء زوجها عنه . وإنما يوماً لتغسل للنبي رأسه وتحدثه ويتلطف بها إذ قالت له : كيف ينفعني شيء وأنت عاتب على أخي ! ورأت منه رقة فدعت أخاها ، فلم يزل برسول الله ينشر عذره حتى رضى عنه وأمره على كندة . وقام زياد في الإمارة مقامه حتى ذهب إليه في خلافة أبي بكر .

سياسة زياد بن
ليبد وصرامتها

وكانت كندة لمجاورتها اليمن قد استجابت لدعوة الأسود العنسي أول ما قام بها . لذلك أمر رسول الله أن توزع بعض صدقات كندة في حضرموت وبعض صدقات حضرموت في كندة . واشتد زياد في اقتضاء هذه الصدقات شدة أثارت الخواطر . ولقد استطاع أن يغلب على المتذمرين في كندة بمن ناصره من رجال السكون الذين حافظوا على إسلامهم وعلى ولائهم فلم يخرج عليه منهم أحد . فلما مات النبي وفشت الردة في العرب ، أراد زياد قمعها قبل أن يستفحل في إمارته أمرها . وشجعه على ما أراد أن التفّت حوله القبائل التي بقيت على إسلامها ودفعوه لمقاتلة المتبردين عليه . وهاجم زياد بني عمرو بن معاوية في غفلة منهم فقتل رجالهم وسبى نساءهم ، وسار بهن وبالأموال في طريق يفضي إلى عسكر الأشعث بن قيس زعيم كندة . وكان بين أولئك النسوة ذوات مكانة في قومهن لم يعرفن قبل ذلك اليوم إلا العزة والكرامة . فلما مررن بالأشعث نادين منتحبات : « يا أشعث ، يا أشعث ! خالاتك ، خالاتك ! » ، هنالك ثار في عروق الأشعث دمه ، وأقسم لينقذهن أو يموت دونهن .

وكان الأشعث زعيماً قوياً محبوباً من قومه عظيم المكانة فيهم . ولعلك تذكر أنه ذهب عام الوفود إلى المدينة ، فلقى رسول الله بها على رأس ثمانين رجلاً من كندة قد لبسوا كلهم الحرير ، وأنه أسلم وخطب إلى أبي بكر أخته أم فروة ، فعقد أبو بكر الزواج ثم تأجل تنفيذه حتى يطمئن أهل العروس إلى فراقها . لا عجب وهذه مكانته أن يغضب قومه لغضبه ، وأن يخرجوا

الأشعث بن قيس
يقاتل زياداً

مقاتلين معه . وقد خرجوا وقاتلوا زياداً واستردوا السبي وردوا لليهن عزتهن وكرامتهن .

من يومئذ أثارها الأشعث في كندة وحضر موت ضرراً شعواء ، حتى خاف زياد مغبتها ، فكتب إلى المهاجر بن أبي أمية يستنصره . وكان المهاجر قد انحدر من اليمن . كما انحدر منها عكرمة ، للقضاء على ما بقي من الردة في شبه الجزيرة . وسار المهاجر من صنعاء ، وسار عكرمة من اليمن وعدن ، والتقىا بمأرب . وقطعا معاً مفازة صبيهد . وعرف المهاجر ما أصاب زياداً ، فاستخلف عكرمة على الجيش . وتعجل في كتيبة سريعة ، حتى إذا التقى بجيش زياد هاجم الأشعث فهزمه وقتل رجاله ، وفر الأشعث والناجون معه فالتجئوا إلى حصن النَجِير .

كانت النجير مدينة منيعة ليس من اليسير أخذها عنوة . وكان لها ثلاثة سبل تتصل عن طريقها بما وراء الحصن . فجاء زياد فنزل على أحدها ، ونزل المهاجر على الثاني ، وظل الثالث مفتوحاً لأهل الحصن ينجيهم منه المدد . على أن عكرمة قدم في جيشه فنزل على ذلك الطريق فقطع عنهم الميرة ورد الرجال . ولم يكتف بهذا ، بل بعث فرقاً من الفرسان تفرقت في كندة إلى الساحل وجعلت تمنع في الناس قتلاً . ورأى المتحصنون بالنجير ما لقي قومهم ، فقال بعضهم لبعض : « الموت خير مما أنتم فيه . جزوا نواصيكم حتى كأنكم قوم قد وهبتم لله أنفسكم فأنعم عليكم فبؤم بنعمته ، لعله أن ينصركم على هؤلاء الظلمة » . وجز القوم نواصيهم وتواثقوا ألا يفر بعضهم عن بعض . وخرجوا حين تنفس الصبح فاقتتلوا في الطرق الثلاثة المؤدية إلى الحصن مستميتين . وما تُجدى الاستانة وجيوش المهاجر وعكرمة لا تُغلب عدداً وبأساً ! وأيقن أهل النجير حين رأوا المدد لا ينقطع عن المسلمين أن القضاء نازل بهم لا محالة ، فتولاهم اليأس فخشعت نفوسهم وخافوا الموت . وخاف الرؤساء على أنفسهم فهانت عليهم نخوتهم ، فخرج الأشعث إلى عكرمة ليستأمن له المهاجر على نفسه وعلى تسعة معه على أن يفتح للمسلمين الحصن ويُخلى بينهم وبين من فيه . وأجابه المهاجر إلى ما طلب على أن يكتب كتاباً تكون فيه أسماء التسعة الذين يطلب

حصار حصن
النجير والاستيلاء
عليه

خيانة الأشعث
ابن قيس

أمانتهم . وكتب الأشعث أسماء أخيه وبنى عمه وأهليهم ، ونسى أن يكتب اسمه معهم ، ثم جاء بالكتاب فحتمه وتسلمه المهاجر . وسرب الأشعث التسعة من الحصن وفتح أبوابه للمسلمين ، فاقتحموه فلم يدعوا فيه مقاتلا إلا ضربوا عنقه . وسبى المسلمون النساء ممن في النجير ، فكانت عدتهن ألف امرأة . ووضع المهاجر الحرس على الأسرى وعلى الأموال حتى يُحصيهم ويبعث بالخمسة إلى المدينة .

يا عجباً للحياة وتصاريقها ! فهذا الأشعث الذي ارتكب هذه الحياة النكراء ، والذي أسلم قومه للقتل وأسلم ألف امرأة للسبي . هو هو الأشعث الذي لم يطق أن يسمع نداء خالاته نساء بني ربيعة بن معاوية : « يا أشعث ، يا أشعث ! خالاتك ، خالاتك ! » فخفف للثأر لهن وأتقذهن من أسر زياد . والأشعث الذي ذهب إلى النبي فيما عرفت من كرامة فأكرمه المسلمون ، هو هو الأشعث الذي تدلى إلى هذا الحضيض فلعننه المسلمون ولعننه سبايا قومه وسمينه : « عُرِفَ النار » ، وهي كلمة معناها في لغة اليمن : الغادر . لكنه التعلق بالحياة والخوف من الموت إذا ركباً نفساً أذلاها فهانت فسقطت فيما هو شر من الموت .

ودعا المهاجر النفر الذين ذكرهم الأشعث في كتابه فأطلق سراحهم . ولما لم يكن اسم الأشعث في الكتاب الذي حتمه أمر به فشد وثاقه وهم بقتله وقال له : « الحمد لله الذي خطأ فاك يا أشعث ! لقد كنت أشتهد أن يخزيك الله ! » على أن عكرمة بن أبي جهل تدخل في الأمر وقال : « أخره وأبانه أبا بكر فهو أعلم بالحكم في هذا . وإن كان رجلاً نسي اسمه أن يكتبه وهو ولي مخاطبة أفلدك يُبطل ذلك » ! وأخره المهاجر لا عن رضا ، وبعث به إلى أبي بكر مع السبي ، فجعلوا يلعنونه ويلعننه المسلمون طول الطريق .

وتحدث أبو بكر إلى الأشعث فأنبه على ما صنع . وسأله : « ما تُراني صانعاً بك ؟ » وأجاب الأشعث : « إنه لا علم لي برأيك وأنت أعلم به » . قال أبو بكر : « فإني أرى قتلك » . قال الأشعث : « فإني أنا الذي راوضت القوم فما يحل دمي » . وحثى الأشعث حين طال الحوار بينه وبين أبي بكر أن

أبو بكر ينفو
عن الأشعث

يُقتل فقال : « أو تحتسب في خيراً فتطلق أسارى وتقبل عثري وتقبل إسلامي وتفعل بي مثل ما فعلته بأمثالي وترد عليّ زوجتي ؟ » وزوجته التي يتحدث عنها هي أم فروة أخت الصديق . وتردد أبو بكر هنيهة في الإجابة ، فأردف الأشعث : « افعل تجدني خير أهل بلادى لدين الله » . وبعد أن فكر أبو بكر في الأمر غفر له وقبل منه ورد عليه أهله وقال : « انطلق فليباغني عنك خير » وأقام الأشعث مع أم فروة بالمدينة لم يبرحها إلا في عهد عمر افتتح العراق والشام ، ثم كان له في حروب ذلك الفتح من البلاء ما أعاد إليه اعتباره في أعين الناس .

وأقام المهاجر وعكرمة بحضرموت وكيندة حتى اطمأنت الأمور واستقر الأمن ؛ فكان ذلك آخر حروب الردة ، وكان القضاء على الثورة في بلاد العرب ، ثم كان التوطيد لوحدها السياسية ، وحدة استمرت بعد ذلك زمناً ثم شابتها الشوائب . ولم يكن عمل المهاجر في القضاء على أسباب التمرد في هذه الأرجاء بأقل شدة منه في اليمن ؛ فقد قطع دابر المتمردين ، وأزّل أشد العقاب بالثائرين . ويكفيك مثلاً يدل على أمثاله أن مغنيتين تغنت لإحدهما بشتم رسول الله ، وتغنت الأخرى بهجاء المسلمين ، فقطع المهاجر يديهما ونزع ثنأيهما . وقد كتب إليه أبو بكر يكشف له عن خطئه فيما صنع ، ويذكر أنه كان الأولى به أن يقتل الأولى لأن حد الأنبياء ليس يشبه الحدود ، وأن يصفح عن الثانية إن كانت ذمية . « فلعمري لمّا صفحت عنه من الشرك أعظم . فاقبل الدعة . وإياك والمثلة في الناس فإنها مأثم ومنقرة إلا في قصاص » . وقس على ما صنع المهاجر بالمغنيتين ما صنع بالمرتدين .

وبعث أبو بكر إلى المهاجر يخيره بين إمارة حضرموت وإمارة اليمن ، فاخترار اليمن وذهب إلى صنعاء فأقام بها مع فيروز ، وبقي زياد بن لبيد على حضرموت .

أما عكرمة فقد أعدّته للعود إلى المدينة . لكنه لم يرجع إليها كما خرج منها ، بل عاد وقد تزوج ابنة النعمان بن الجون ، لم يصدّه عن ذلك ما كان من تعنيف أبي بكر لخالد بن الوليد حين تزوج أم تميم وحين تزوج ابنة مجاعة

المهاجر بن أبي
أمية يتولى أمر
اليمن

فخالف بذلك تقاليد العرب . على أن زواج عكرمة بهذه الفتاة قد أثار مشكلة من نوع آخر أدت إلى تدمير الجند وإلى عرض الأمر على أبي بكر ليفصل فيه برأيه .

قصة عكرمة وزواجه ابنة النعمان بن الجون
فقد تزوج عكرمة بابنة النعمان هذه وهو بعد أن ثم حملها معه إلى مأرب : واختلف الجند في أمرها ، يقول بعضهم : دعها فإنها ليست بأهل أن يرغب فيها ، ويقول آخرون : لا تدعها . ورويت القصة للمهاجر فكتب إلى أبي بكر يسأله فيها . ورأى أبو بكر أن لا حرج على عكرمة فيما صنع ؛ فقد كان النعمان بن الجون جاء إلى رسول الله وطمع في أن يزوجه ابنته هذه فزينها له ثم جاء بها ، وزاد في زينتها أنها لم تشك وجعاً قط ؛ ورغب رسول الله عنها وعاد بها أبوها إلى عدن . لذلك ظن جماعة من الجند أن عكرمة يحمل به أن يرغب عنها كما يرغب عنها رسول الله ، ليكون له فيه صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة . أما أبو بكر فلم يرض هذا الرأي ، ولم ير في زواج عكرمة منها بأساً . واستقر عكرمة مع زوجه هذه بالمدينة ، كما اجتمع بها الجند الذين فصلوا عنها أول حروب الردة .

وأجال أبو بكر نظره في شبه الجزيرة كلها حوله ، وتذكر يوم بيعته ، ففاضت بالدمع عينه شكراً لأنعم ربه أن آتاه النصر وعزز بعزمه وحزمه دين الحق . وأين المدينة يوم ذاك ، المدينة الظافرة المنتصرة صاحبة السلطان على ربوع العرب كلها ، من تلك المدينة التي انتفض عليها العرب وثاروا بها وحاولوا محاصرتها إثر وفاة الرسول ! ! وما كان لأبي بكر مع ذلك أن يفخر أو يستكبر وهو يذكر قول الله لرسوله : « وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى » .

ما عسى أن يكون الغد ؟ وكيف تزداد وحدة الدين قوة ويزداد دين الله علواً وانتشاراً ؟ إلى هذه الناحية اتجهت سياسة أبي بكر ، وفي هذا كان يفكر منذ اطمأن إلى النصر . وقد طال تفكيره فيه حين كان قواده وجنوده لا يزالون في الجنوب يقضون على البقية الباقية من الردة وآثارها . وإذا أراد الله أن يتم أمره فقد كانت الإمبراطورية الإسلامية ثمرة هذا التفكير وهذا الاتجاه .

ما عسى أن يكون الغد

الفصل الحادى عشر

التمهيد للفتح وللإمبراطورية

ألف الناس من أقدم الحقب فى التاريخ أن يروا الحد الشمالى لبلاد العرب
الحد الشمالى لبلاد العرب
ممتداً من أعلى خليج العقبة إلى أعلى الخليج الفارسى فى شماليهما . وليس هذا
الحد ممتداً فى خط مستقيم ، بل هو يتبع سلسلة الجبال التى تفصل بين صحراء
النفود^(١) وبادية الشام . وقد كانت دومة الجندل بالجوف أعلى المدائن التى
تتناخم هذا الخط ، وذلك فيما خلا العصور التى كانت الشام والعراق منقسمتين
فيها إلى الدولة العربية .

وأهل الشام الأصليون من الفينيقيين . وأهل العراق الأولون من الآشوريين .
ولقد كانت الصحراء التى تترامى بينهما ، وهى بادية الشام ، تحول فى
العصر الأولى دون التقائهما وامتزاجهما . فاجتياز الصحارى ليس أمراً محبباً إلى
أهل الحضر . وفيم يجنازونها ويتعرضون لأخطارها وليس فيها من أسباب الحياة
ما يجذب النفس إليها ! وإن كثيرين ليفرون حتى اليوم من اجتياز هذه البادية
بالسيارة ، ويؤثرون النقلة بين الشام والعراق على متن الهواء .

على أن هذه الصحراء التى لم يَهْوَ إليها الفينيقيون من أهل الشام
ولا الآشوريون من أهل العراق فى العصور القديمة ، قد استهوت العرب أهل
البادية ممن يرون الصحراء الطليقة سحرًا وحيًا وحرية وجمالاً ، ويرون الحضر
قيداً بل سجنًا وإن لُبِسَتْ فيه الشفوف . والمؤرخون يذكرون هجرة العرب
إلى الشمال لانتهاء سد مأرب ، ونزوح قبائل الأزد التى جرفها السيل إلى
الحجاز وإلى الشام ؛ أو لاتخاذ الروم البحر طريقاً للتجارة بدلا من البادية .
وهم يذكرون أن هذه الهجرة حدثت فى القرن الثانى المسيحى . ومع التسليم
بهذه الرواية ، فلا ريب فى أن قبائل من العرب استقرت ببادية الشام قرونًا

(١) صحراء النفود ، كما نعرفها اليوم ، هى بادية السماوة المعروفة فى كتب العرب أو تقرب منها .

طويلة من قبل ، متخافة عن القوافل التي كانت تنزل العراق أو الشام للغزو أو للتجارة .

وقد أقام العرب الذين نزحوا إلى الشام وإلى العراق على حدود الحضر في كل من الدولتين . ولم يكن مقامهم على هذه الحدود مما اضطرتهم إليه سياسة الدولة التي نزلوا بها ، وإنما جذبتهم البادية إليها فلم يستطيعوا مقاومة سحرها ، واستهواهم الحضر ليكونوا على مقربة منه كي ينالوا رزقهم دون مشقة أو عناء . وذلك شأن أهل البادية في كل عصر ، وأنت إذا التمست منازلهم اليوم بمصر أو بالشام أو بالعراق أو بأي بلد يتصل فيه الزرع برمال الصحراء ، رأيتها على شفا الصحراء بين الحضر والبادية ، ورأيت أهلها يولون شطر البادية وجوههم ويمعنون فيها بقوافلهم حيناً بعد حين . وكأن الوراثة البدوية المتغلغلة في نفوسهم والحارية مع الدماء في عروقهم ، تأبى عليهم أن يستقروا وأن يسكنوا إلى ما يسكن أهل الحضر إليه من نظم الجماعة . وطبيعتهم هذه تفرض عليهم أواناً من الشظف ما كان أغناهم عنها لولا ما يجدونه في فسحة البادية من حرية مطلقة ومن اتصال بالوجود غير المحدود ، ينهض عندهم عوضاً عن كل شظف ، ويهون عليهم كل مشقة .

ولم تلبث بادية الشام حين انتشرت فيها قبائل العرب الذين هاجروا إليها أن صارت كأنها قطعة من شبه الجزيرة . وكان الغسانيون أقوى هذه القبائل عنصراً ، وأكثرهم على الحياة صبراً وجلداً . لذلك أقاموا مملكة بني غسان على حدود الشام ، كما أقام اللخميون ملك الحيرة على شواطئ الفرات . ولقد كان دأب هؤلاء العرب يومئذ كدأب بني وطنهم دائماً ، يشاركون الأمة التي يقيمون على حدودها في مصيرها ويشاطرونها آمالها . من ثم سلموا في الشام بحكم الروم ، وفي العراق بحكم الفرس . وإنما كان ذلك منهم تسليمًا بالأمر الواقع أكثر مما كان إذعاناً لغلب المنتصر ؛ لذلك كانت الأوضاع السياسية تتغير في أمرهم تبعاً لقوتهم وضعفهم ، وكان لهم أكثر الأمر استقلال ذاتي حرصوا عليه ودافعوا عنه .

ومن العجب في أمر البدوي أنه ، على تعلقه بالبادية وحبه لإياها وانجذابه

لإيها كلما بعد عنها ، شديد الإعجاب بالحضر وما يحيط به من زروع نضرة ، وما يبدو على أهله من نعمة ورفاه عيش . ولقد كان حديث الشام وجناتها وأعنانها وحورها العين مما لا يفتأ أهل مكة والمدينة وسائر بلاد الحجاز يتذكرونه بعد رحلة الصيف ، يقص نبأه من اشترك في الرحلة ، ويرويهِ الرواة عنهم بعد ذلك ، فإذا شفاه السامعين تنفرج ، وصدق عيونهم يتسع ، وريقهم يتحلب ، شوقاً لهذه الحضرة النضرة ، والمياه الجارية ، والأيدى الناعمة والحدود الملساء ، أن يكون لهم مثلها في بلادهم . وكأنما غاب عنهم أن باري النسم قسم الرزق بين الناس بالعدل ، فجعل لأهل البادية الحرية الشاملة وإباء الضيم ، يقابلهما شظف لا يصدّ عنهما ولا يقلل من الرغبة فيهما والحرص عليهما ؛ وجعل لأهل الحضر الرفاهية والنعمة والنظام والأمن ، يقابل ذلك قيود للحرية في كل مظاهرها ، ثم لا ينزع الناس إلى تحطيم هذه القيود حرصاً على النعمة وعلى الأمن .

كان ذلك شأن القبائل التي هاجرت إلى العراق وإلى الشام على تفاوت بينها في التعلق بالبادية . ومع أن أكثرها نعم بالحضر وتره ، لقد ظل حرصها جميعاً على حياتها العربية شديداً ، كما ظلت العلاقات بينها وبين شبه الجزيرة متصلة على القرون . وليس من غرضي أن أفصل ذلك في هذا الكتاب . فنطاق البحث لا يتسع له ولا يقتضيه . وإنما أثبتت منه هنا ما يجلو لنا بعض السر في تمهيد هاتين الإمارتين العربيتين ، إمارة اللخمين وإمارة الغسانيين . للفتح العربي والإمبراطورية الإسلامية في عهد أبي بكر .

أشرنا إلى أن هجرة العرب من الجنوب إلى الشمال ترجع إلى ما قبل انهيار سد مأرب ، وقبل تحويل الروم طريق التجارة من البر إلى البحر . والواقع أن هذه الهجرة أقدم بكثير من هذين الحادتين ، على ما كان لهما من جليل الخطر في حياة بلاد العرب ؛ فالنسابون يذكرون أن التنقل بين القبائل كان كثير الوقوع من قبل الإسلام ، وهو لا شك كان كثير الوقوع منذ أقدم العصور . فقد كان العرب يتعاملون مع البلاد التي تجاورهم ؛ إذ كانوا ينقلون تجارة الشرق الأقصى إلى بلاد الشام ومصر والروم ، وكانوا ينقلون تجارة الشام ومصر والروم

حرس القبائل
التي هاجرت إلى
بادية الشام على
حياتها العربية

إلى الشرق الأقصى . وكانت هذه التجارة تسير محترقة شبه جزيرة العرب في أحد طريقيين : طريق حضرموت إلى البحرين على الخليج الفارسي ثم إلى الشام ، وطريق حضرموت إلى اليمن فالحجاز إلى الشام . وكانت مكة تتوسط هذا الطريق الثاني ، وكان أهل الجنوب من الحضارة واليمنيين وأهل عمان والبحرين هم السابقين الأولين للقيام بهذه التجارة ذلك بأنهم كانوا أكثر من أهل الشمال حضارة ؛ لخصب أرضهم ، ولاتصالهم بالفرس اتصال جوار مباشر . لذلك كانت أكثر القبائل التي هاجرت إلى العراق وإلى الشام واستقرت بهما من قبائل الجنوب . فالغساسنة الذين أسسوا مملكتهم شرق الشام كانوا من الأزد ، إحدى قبائل عُمَـان التي تنسب إلى شعب كهلان اليمنى . كذلك تُنسب قبائل قُضاعة وتَنُوخ وكلب التي استقرت على حدود الشام إلى شعب حمير اليمنى ، وطبيعيُّ أن تستقر قبائل الجنوب بالعراق ؛ فإن العراق يجاور حضرموت وما اتصل بها من قبائل بنى حنيفة وتغلب ومن إليهم .

قبائل الجنوب من شبه جزيرة العرب هي التي هاجرت إلى بادية الشام

هاجرت بطون من هذه القبائل منذ العصور الأولى إلى بادية الشام ، واستقرت بها مستقلة عن سلطان أولى السلطان في حضر العراق وفي حضر الشام . فلما انهار سد مأرب ثم انقسمت التجارة بين طريق البادية وطريق البحر ، هاجرت بطون أخرى وقبائل أخرى إلى الحجاز ، ثم هاجرت بعض هذه البطون منه إلى الشام ، التماساً لرزق أوفر وحضارة أكثر وأرفه من حضارة البادية .

وكان السلطان في العراق وفي الشام متداولاً بين الإمبراطوريتين الفارسية والرومية . فكانت فارس تنتزع الشام من الروم أحياناً وتضمه إلى العراق التابع لها . وكان الروم ينتزعون العراق من فارس أحياناً ويضمونه إلى الشام التابع لهم . وكان العرب الذين نزحوا إلى بادية الشام ينضمون في كثير من الأحيان إلى جيش الفرس أو جيش الروم ، متأثرين بما في طبيعتهم من ميل إلى الغزو والسلب . وأدّى ذلك إلى أن فكرت الدولتان في اتخاذ هؤلاء الذين نزحوا إلى البادية الممتدة بينهما سداً يحول دون اعتداء إحداهما على الأخرى ، لتبقى الشام خالصة للروم ، والعراق خالصة لفارس .

اتصال العرب الذين نزحوا إلى بادية الشام بفارس والروم

على أن هذه القبائل العربية انحازت بحكم منازلها في البادية إلى أقرب حضر لها ؛ فانهاز المقيمون على حدود الشام إلى الروم ، وانهاز المقيمون على حدود العراق إلى فارس ، مع احتفاظهم باستقلالهم الذاتي ، ومعيشتهم البدوية ، وحياتهم العربية الخالصة .

لم يحل احتفاظهم بهذه الخصائص دون تأثيرهم بحياة الحضر القريب منهم ، وسياسة الدولة التي يخضع هذا الحضر لها . بل لقد تغافل في هذا الحضر من أنيس منهم في نفسه الكفاية لامثال حياة الحضر والاضطلاع بأعبائها ، وبلغ من ذلك أن امتد سلطانه وعظم في المملكة نفوذه . وإن المؤرخين ليزكرون أن الإمبراطور الروماني فيليب كان عربياً من بني السميذع أول من عرف التاريخ من العرب الذين هاجروا إلى الشام ، وأنه كان قبل ارتقائه عرش الإمبراطورية رئيس عصابة في تعبير الغربيين ، ورئيس قبائل تغير وتغزو في تعبير العرب . وأعلى ذلك من مكانة العرب المقيمين بالشام ، وإن لم يصرفهم عن البادية ولم يدمجهم في حضارة الروم .

أما العرب الذين أقاموا على حدود العراق ، فلزموا البادية ولم يجازفوا بالدخول إلى حوض الفرات كي لا يخضعوا لسلطان الفرس فيه . وظل ذلك دأبهم حتى كانت الفرس مسرحاً لثورات وحروب داخلية اتصلت بين ملوكها وزعماء الطوائف فيها . وقد تغلب زعماء الطوائف واستقلوا بأمر الفرس ، كل منهم في ناحيته . وأتاح ذلك للعرب أن دخلوا حوض الفرات وأنشؤا على شاطئه مدينة الأنبار ، ثم أنشؤا الحيرة .

ولعل قبائل من هؤلاء العرب كانوا من الأسرى الذين جاء بهم الفرس حين غزواتهم الأولى لجنوب شبه الجزيرة . فقد ذهب بعض المؤرخين إلى أن الملك بُخْتَنَصْرَ الثاني غزا شبه الجزيرة وعاد منها بالأسرى ، وأنزلهم على شاطئ الفرات فأقاموا الأنبار ؛ ثم إنه نقلهم من الأنبار جنوباً فأنشؤا مدينة الحيرة^(١) .

(١) يذكر المسعودي أن بختنصر لم يكن ملكاً بل كان مرزباناً على العراق الملك كيخسرو ، وأنه حارب العرب باسم كيخسرو وأسر منهم . ويخالف الطبري وبعض مؤرخي العرب هذه الرواية =

وأياً كانت الرواية الصحيحة فالثابت أن العرب بدأ سلطانهم يستقر في العراق من ذلك الحين ، وأنهم استقلوا بالأمر غرب الفرات بين الأنبار والحيرة حين تولى أمرهم جنديمة الأبرش أو الوضّاح بين سنة ٢١٥ وسنة ٢٦٨ ميلادية . وقد جمع جنديمة كلمتهم وامتدّ سلطانه فيهم من الحيرة إلى الأنبار إلى عين التّمر ؛ وبذلك اشتمل غرب الفرات كله إلى بادية الشام . بل لقد امتدّ سلطانه على العرب المقيمين بهذه البادية حين غزا مُضَرّ المقيمين بها ، وضم إليه منهم عدى بن ربيعة وشرّفه وأكرمه .

جنديمة الأبرش
يضم غرب الفرات
تحت سلطانه

وعدىّ هذا هو الذى تزوج الرّقاش أخت جنديمة ، فتناولت كتب الأدب نبأهما بآثار روائية شائقة ، وهو الذى أولدها عمرو بن عدى صاحب قصة الزبّاء التى انتحرت قائلة : « بيدى لا بيد عمرو » .

بينما جنديمة الوضّاح على ملك العرب بالعراق ، كان أذينة ابن السّميدع على رأس العرب بالشام ، وكان سابور عاهل فارس ، وقياب لمباطور الروم . وقد ثار أهل الشام بسطان فيليب لتسوة حكمه . وانتهاز سابور الفرصة فسار إلى الشام وهزم جند الروم . عند ذلك نقض أذينة عهد ولائه للروم وانضم للفرس ، وطمع في أن يكون له في ظل سابور من المكانة بالشام ما لجنديمة بالعراق . على أن فالريان تولى إمبراطورية الروم مكان فيليب ، وسار بنفسه إلى الشام وهزم سابور وردّه إلى فارس . عند ذلك عاد أذينة موالياً للروم . غير أن الدوائر ما لبثت أن دارت على فالريان . وأراد أذينة أن ينضم إلى سابور بكرةً أخرى . فرفض سابور ولائه بعد الذى رآه منه . ولم يجد أذينة بداً في محافظته على سلطانه وعلى حياته من أن ينهض بنفسه على رأس عرب الشام لمحاربة فارس . وبسّم له الحظ فغلبها وطارد جيوشها إلى المدائن . بذلك سمّت مكانته عند الروم . وصار صاحب القيدح المعلنّى في محاربة الفرس ، حتى لقد تغلّب

أذينة بن السّميدع
على رأس العرب
بالشام

= وينهبون إلى أن تبعاً الأول سار من اليمن على رأس بطون من نخم وجذام وعاملة وقضاة والأزد وغيرهم فغزا جانب العراق المجاور للبحرين ، ثم إن جنده تحيروا ، أى أقاموا على شاطئ الفرات . ولما عاد تبع إلى اليمن تخلف بطون من هذه القبائل فأقاموا بالحيرة حيث تحيروا . وفي رواية عن ملوك الطوائف أن الإسكندر الأكبر هو الذى أقامهم حين غزا فارس إذ أقر كل مرزبان على ناحية وجعله ملكاً على أهلها ليفرق كلمة الفرس ويجعل بعضهم بعضاً فلا يثورون به ولا ينتفضون على سلطانه .

عليهم من بعد ذلك كرة أخرى .

وحكم بعد أذينة أبنائه ، ومنهم الزبّاء . وقد استهوت إليها جذيمة ودعته ليتزوجها ، ثم قتلته ، فكان جزاؤها أن ذهب إليها عمرو بن عدى ومعه قصير بن عمرو فانتحرت حتى لا يقتلها . وبوفاتها انقضى عهد بني السميدع بالشام .

وخلف الغسانيون من أبناء جفنة بني السميدع على ملك الشام ، بعد فترة قصيرة حاول جماعة من بني نصر القامين بأمر العراق أن يتولوا أثناءها أمر الشام ، فلم يستقر لهم فيه أمر .

تمهيد هؤلاء
العرب بالعراق
والشام للفتح
العربي
والإمبراطورية
الاسلامية

نقف هنيهة ها هنا ، في منتصف القرن الثالث الميلادي ، لنرى كيف صار الأمر في شرق الشام وغرب العراق إلى العرب . فهؤلاء الذين نزلوا البادية أول ما نزلوها قبائل مهاجرة أو أسرى جاء بهم مارك فارس من شبه الجزيرة ، قد صاروا إلى حيث يعتدّ بهم الروم وتعتدّ بهم فارس ، وتحرص كلتا الدولتين على ولائهم لها ومناصرتهم إياها ، وتعترف كلتاها لهم بالاستقلال الذاتي تقديرًا لشجاعتهم وإقدامهم في الحروب . والحق أنهم لم يكونوا في صلتهم بهاتين الإمبراطوريتين العظيمتين دون اليمن أو حضرموت أو غيرهما من بلاد شبه الجزيرة التابعة لنفوذ فارس ، بل لعلهم كانوا أكثر منها استقلالاً . وأنت لذلك تستطيع أن تقول إن بلاد العرب امتدت من خليج فارس وخليج عدن جنوباً إلى الموصل وأرمينية شمالاً ، وإن تأثرّ عرب العراق وعرب الشام بحضارة الفرس وحضارة الروم أكثر مما تأثر بهما سائر بقاع شبه الجزيرة .

ألنّا في حلّ ، وذلك هو الشأن ، من أن نقول إن هؤلاء العرب في العراق والشام كانوا الطلائع الأولى في التمهيد للفتح العربي وللإمبراطورية الإسلامية ؟ لم يدُرْ ذلك بخلد أحد منهم بطبيعة الحال . فلم يكن أحد منهم يتصور بعث محمد ورسالته ، وما أدى إليه البعث وأدت إليه الرسالة من وحدة بلاد العرب ومن سمو النفس العربية إلى حيث سمت . لكن مقامهم بين الفرات وأودية الشام ، واحتفاظهم بخصائص حياتهم العربية ، واتصالهم بأهلهم وبمن يحيطون بهم في شبه الجزيرة ، كل ذلك كان مقدّمة لما تلاه بعد أربعة قرون من

زحف عرب الجزيرة إليهم محاربين لتحلّ الإمبراطورية الإسلامية محل الإمبراطوريتين الفارسية والرومية .

تولى عمرو بن عدى ملك العراق بعد جزيمة الأبرش من قبل سابور ، فانتهز جزيمة من الزبّاء ، كما قدمنا . وقد جعل عمرو الحيرة عاصمته ؛ ومن يومئذ صارت عاصمة اللخمين إلى أن انحل الملك عنهم .

وكانت تبعيّة عمرو بن عدى ومن جاء بعده من ملوك الحيرة لبلاط فارس محدودة ، فكان صاحب الحيرة مطلق السلطان على غرب الفرات إلى بادية الشام وكان ولاؤه لعاهل الفرس مقيداً بدفع العرب من شبه الجزيرة أو عرب الشام التابعين لإمبراطور الروم عن أرض فارس ، وبحماية التجارة التي تسير من فارس إلى الشام أو إلى بلاد العرب .

ملوك الحيرة لم
استقلال ذاتي مع
تبعيتهم لفارس

على أن هذا الولاء لم يحل دون اقتحام العرب أرض فارس ، وبخاصة ما جاور منها الخليج الفارسي . وقد صدهم الفرس غير مرة ، ثم اضطّر سابور ذو الأكتاف إلى حفر خندق سابور على حدود بلاده ليصد عنها العدوان .

وتوالى الملوك من بني نصر على عرش الحيرة ، حتى تولاه النعمان الأكبر في أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس المسيحي . وقد تولاه من قبيل يَزْدَجَرْد . والنعمان الأكبر هو الذي بنى قصرى الخورنق والسدير ، وهو صاحب قصة سنّمار .

النعمان الأكبر
صاحب الخورنق
والسدير

ويرى أن النصرانية بدأت تنتشر بالعراق في عهده ، وأنه لان لها وعطف عليها . فأنشئت فيها برضاها أديار وبيع . بل إن بعضهم ليذهب إلى أنه تدينّ بالنصرانية ، ثم تقشّف ونزل عن ملكه لابنه المنذر الأكبر^(١) ، وذلك حين رأى يزْدَجَرْد يضطهد النصرانية ويحارب الذين يدينون بها .

وكان يَزْدَجَرْد قد بعث بابنه بهرام جوز إلى الحيرة لينشأ فيها ، وحذق

(١) أشار على بن زيد الشاعر إلى نزول النعمان الأكبر عن ملكه في قصيدة جاء فيها :

تدبر رب الخورنق إذ أشرف يوماً وللهدى تفكير
سره ماله وكثرة ما يملك والبحر معرضاً والسدير
فارعى قلبه فقال وما غبطة حى إلى الممات يصير

بهرام العربية واليونانية وأحاط بشئون العرب والروم خُبْرًا . فلما مات يزدجرد أثر الفرس أن يولّوا عليهم كسرى بن أردشير بن سابور ذى الأكتاف ، لأنه نشأ بينهم حين كان بهرام غريبًا عنهم . وسار بهرام يسترد عرشه وأعانه المنذر . فلما اعتلى العرش نصّح له المنذر أن يعفو عن خصومه ؛ بذلك كسب بهرام قلب الخاصة ، ثم كسب قلب الشعب بأعطياته وبتخفيفه من أعباء الضرائب .

وبالغ بهرام جور فيما بدأه أبوه من محاربة النصرانية ، فكان ذلك سببًا في نشوء الحرب بين فارس والروم . وأعان المنذر بهرام في هذه الحرب التي انتهت إلى صلح بين الفريقين طال أمده .

كان ملوك العرب من بنى غسان بالشام يناصرون الروم في محاربتهم الفرس ، كما كان اللخميون يقاتلون الروم حلفاء لجيش فارس . ولعل الحروب اشتدت في هذه الفترة الأخيرة بين الإمبراطوريتين أن زاد العامل الديني أوارها . فنذ تولى قسطنطين إمبراطورية الروم في أوائل القرن الرابع الميلادى بدأت المسيحية تزدهر . وبدأ أباطرة الروم يُعلون من شأنها في كل مكان ، وبدأ المبشرون بها ينتشرون في مختلف البلاد . وانتقالهم من الشام إلى العراق وإلى بلاد فارس هو الذى هاج يزدجرد لمناهضة هذا الدين الجديد ، وهو الذى جعل بهرام جور يغلو في محاربته ، حتى ينتهى الأمر إلى ذلك الصلح الذى أشرنا إليه .

موقف العرب
بالشام والعراق
من دين الفرس
ودين الروم

ماذا كان موقف العرب في العراق وفي الشام من دين الفرس ، ومن دين الروم ؟ أثارت قبائل العراق بالمجوسية فأقبأت عليها ، وتأثرت قبائل الشام بالمسيحية فأقبلت عليها ؟ أم أعرض هؤلاء وأولئك عن المجوسية والمسيحية جميعًا ، واحتفظوا بوثنيتهم العربية ، وبأصنامهم يعبدونها لتقربهم إلى الله زلنى ؟

للجواب عن هذا السؤال قيمة كبرى في البحث الذى نشأله الآن . فهو يكشف عن اتجاه العقلية العربية وعن ميول العرب الروحية ، ويحلل لنا كيف مهّدت هذه العقلية وهذه الميول للفتح العربى في ظل الإسلام .

ذكرنا أن العرب تأثروا في العراق وفي الشام بحضارة الفرس وحضارة الروم .
فن عرب العراق من أجادوا الفارسية ، وفقهوا تيارات التفكير الفارسي في
الفن والأدب والدين ، وتبينوا مَسْتَوِيَّة ماني وتعاليم زَرْدُشْت وزندقة مَزْدَك .
ولم يكن ذلك عجيبيّاً وقد أتاح لهم رغد العيش وزفره أن يتثقفوا ، وأن تبلغ بهم
ثقافتهم علم هذا كله وعلم ما اتصل بهم من تفكير اليونان وفلسفتهم .
ولذلك علّم أهل الحيرة قريشاً الزندقة في الجاهلية والكتابة في صدر الإسلام^(١) .
وكان ذلك شأن عرب الشام في اتصالهم بثقافة الروم وأديهم ودينهم .
بل لعلمهم كانوا أرقى عقلية من عرب الحيرة ؛ لأنهم كانوا أقرب اتصالاً بالثقافة
اليونانية والمدنية الرومانية .

لم يأخذ عرب العراق بمجوسية الفرس مع اتصالهم بهم وإعجابهم بحضارتهم .
ولم يأخذ عرب الشام بوثنية الروم أو اليونان ولم يعبدوا آلهتهم . فلما استقرت
المسيحية في الإمبراطورية الرومية هوت إليها النفس العربية في الشام والعراق
جميعاً . فلماذا ؟

لماذا هوت النفس
العربية إلى
النصرانية

يذكر بعض المؤرخين أن أوّل ملك تنصّر من بنى غسان إنما تنصر لأن
إمبراطور الروم لم يكن يرضى عن ولاية غير نصراني في أنحاء الإمبراطورية .
وإذا فسر هذا تنصر أمراء العرب فإنه لا يفسر تنصر القبائل . فإن قيل إن
قبائل الشام تنصرت مجازاة للموكها ، فالناس على دين ملوكهم ، فقد تنصر من
قبائل العراق كثيرون يدينون بالولاء للملك الحيرة . وكان يحارب النصرانية حليفاً
لفارس . لا بد إذًا من دافع آخر أدى بهذه القبائل العربية في العراق لتدين
بالنصرانية ، وأن يكون هذا الدافع متصلاً بالعقلية العربية وميوها الروحية .

والعقلية العربية بفطرتها بدوية مستقيمة . تريد الحقيقة في بساطة ، وتقصد
إليها في غير التواء ولا تعقيد . فزندقة مزدك ومثنوية ماني قد تستهوى من يعجبهم
الحوار ويغريهم الجدل ، وكذلك الأمر في فلسفة اليونان . ولا تميل العقلية العربية
إلى هذا التعقيد الجدلي . لهذا هوت إلى النصرانية وأخذت بها واطمأنت إليها ،
ولم يدن بالمجوسية من العرب إلا قليل .

(١) فجر الإسلام لأحمد أمين ص ٢٣ ، نقلاً عن الأعلام النفيسة لابن رسته .

والنصرانية دين سماوى أصحابه أهل كتاب أقرّ الإسلام صفاءه الأول ؛
فلا عجب أن يكون أخذ العرب بها فى العراق وفى الشام من طلائع التمهيد
للفتح العربى وللإمبراطورية الإسلامية .

على أن سبق العرب للنصرانية فى العراق والشام لم يغير من خصائصهم ،
ولم يصرفهم عن استقلالهم وعن تعلقهم بحياتهم العربية . تولت الأميرة العربية
ماوية بنت الأرقم بن الحارث الثانى أمر العرب بالشام فى أواخر القرن الرابع
المسيحى ، فطمع الروم فى ملكها ، فحاربته حتى اضطرتهم لمصالحتها ، ثم
أمدتهم بفوارس لمحاربة القوط الطامعين فيهم . وقد دافع هؤلاء الفرسان العرب
عن القسطنطينية دفاعاً مجيداً .

ولم يكن حرص الغساسنة على استقلالهم الذاتى إزاء الروم ، وحرص
اللخمين على استقلالهم الذاتى إزاء فارس ، ليجمع بين هؤلاء العرب وأولئك ؛
ولم يجمع بينهم اشتراكهم فى الميل للمسيحية ؛ بل كانت الحروب تتصل بين
اللخمين والغسانين اتصالها بين فارس والروم . أليست القبيلة أساس العمران
العربى ! فكما كان عرب شبه الجزيرة قبائل يقاتل بعضهم بعضاً ، كان عرب
بادية الشام قبائل يقاتل بعضهم بعضاً .

اللخميون
والغسانيون
فى ذروة المجد

فى الثلث الأول من القرن السادس المسيحى بلغ اللخميون ذروة المجد
فى العراق ، وبلغ الغساسنة ذروته فى الشام ، وكان ذلك فى عهد المنذر الثالث
للخمي والحارث بن جبلة الغسانى . تولى المنذر الثالث ابن ماء السماء ملك الحيرة
بين سنة ٥١٣ وسنة ٥٦٢ ميلادية فى عهد قباد ، ثم كسرى أنوشروان . وتولى
الحارث بن جبلة زوج مارية ذات القرطين ملك الغساسنة بين سنة ٥٢٩
وسنة ٥٧٢ ميلادية ، فى عهد جستينيان ، ثم فى عهد جستين الثانى . وكان هذا
الحارث يدعى الحارث الأعرج ، كما كان يدعى الحارث الوهاب .

فى هذا العهد ظلت الحروب متصلة بين الفرس يخالفهم المنذر ، والروم
يخالفهم الحارث . وكان المنذر فى هذه الحروب شديد البأس قوى الشكيمة ،
بلغ من ذلك أن فرض الصلح الذى تم بين الفرس والروم جعلاً سنوياً يدفعه
الروم للمنذر .

استمر هذا الصلح زمناً قوياً فيه الروم واشتد ساعدتهم وخشيهم كسرى ،
فدفع حليفه المنذر فحارب الحارث وتغلب عليه . ثم عادت الحرب فشبت بين
الروم والفرس كرة أخرى إلى سنة ٥٦٢ م . وكان المنذر في هذه الأثناء لا يهدأ
عن الحرب ، يحارب خصومه ، ويحارب خصوم فارس ، ويوغل في ممتلكات
الروم حتى يبلغ حدود مصر .

لم تخفص قوة المنذر من قدر الحارث عند الروم ؛ فقد ظل في نظرهم القوة
التي يواجهون بها عرب العراق . ولذلك ولاه الإمبراطور جستنيان منذ
سنة ٥٢٩ م ملكاً على جميع قبائل العرب في سوريا ، وجعل له لقب فيلارك
وبطريق (Phylarque et Patrice) وهو اللقب الذي يلي لقب الحاكم الروماني
في الشام .

فكّر الحارث في التخلص من المنذر . أما وهو لا يستطيع ذلك في ميادين
القتال . فليجعل الغدر سلاحه . فبينما كانت الحرب ناشبة بينهما يوماً أوفد مائة
من رجاله عطرتهم ابنته حليلة ليلقوا ملك الحيرة ويبلغوه أن ملك الغسانيين يدع
له . وانتهاز أحدهم فرصة غال فيها المنذر وقتله . عند ذلك اضطرب جند العراق ،
فهاجمهم الحارث وشتت شملهم ؛ وذلك يوم حليلة^(١) .

بلغ مجد العرب المقيمين ببادية الشام وما جاورها من أرض العراق
وأرض الشام غاية ذروته في هذا العهد . وقد أبرز الأدب الجاهلي هذا المجد في
كل جلالة .

فالمنذر هو صاحب يوم النعيم ويوم البؤس ، وهو الذي قتل عبيداً
الأبرص في يوم بؤسه ، وهو صاحب قصة شريك بن عمرو ؛ وكان كثيرون
من شعراء شبه الجزيرة يؤمنونه . وقد عاصر الحارث الوهاب النابغة الذبياني
وعلقمة الفحل .

آخر ملوك الحيرة تولى عمرو بن هند ملك العراق بعد أبيه المنذر الثالث ؛ وفي السنة التاسعة
من حكمه ولد رسول الله . ومن بعد عمرو تولى بنو المنذر على ملك الحيرة حتى

(١) راجع كوسان دبرسفال في تاريخ العرب ج ٢ ، ص ١١٣ - ١١٤ . وتاريخ الحيرة
وتاريخ غسان بعض ما استوفاه دبرسفال مستنداً إلى المصادر العربية واليونانية والأوربية .

تولاه أبو قابوس النعمان بن المنذر الرابع صاحب الشاعر الأعشى ميمون بن قيس بين سنة ٥٨٣ وسنة ٦٠٥ م . وقد امتد ملك النعمان في بلاد فارس حتى بلغ دجلة حيث بنى مدينة النعمانية على مقربة من المدائن عاصمة كسرى . وكان النعمان على قبح صورته مرفئاً ولوعاً بمتع الحياة ولينها . تزوج امرأة أبيه المتجرّدة ذات الجمال البارع ، فأحببت المُنسَخَلَّ اليشكري فقتله النعمان . وأنشأ النعمان الخدائق الغناء وجلب إليها أبهج الزهر ، فشقائق النعمان تنسب إليه .

لم يرض كسرى أبُرويزَ عما بلغ النعمانُ من سلطان وما يرفل فيه من نعمة ، فحبسه وقتله ، ثم قضى على سلطان اللخمين جميعاً . ولقد قام مقامه على ملك الحيرة إياس بن قبيصة ، وأقام معه مرزباناً فارسياً يدعى بهرجان . وفي عهد إياس بُعث النبي ، وفي عهده كان يوم ذى قار ، ثم كان إياس آخر ملوك الحيرة من العرب . فقد قام داذويه الفارسي من بعده مرزباناً على العراق من قبيل كسرى .

ويوم ذى قار من أيام العرب الماثورة . ذكروا أن النعمان بن المنذر أودع أمواله وحريمه هاني بن قبيصة حين عرف غضب كسرى عليه . فلما قُتل النعمان طالب كسرى هانشاً بودائع هاني . ثم إن بني بكر بن وائل غضبوا لقتل النعمان فأغاروا على سواد العراق فنهبوا منه . وأراد كسرى معاقبتهم . فالتقت جيوشه بهم في ذى قار . ففاز العرب على الفرس فوزاً عظيماً . يروى عن النبي عليه السلام أنه قال في يوم ذى قار : « هذا أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم ونصرت عليهم بي »^(١) . ذلك أن النبي عليه السلام بُعث عام ذى قار .

ذلك كان مصير اللخمين بالعراق . أما الغسانيون بالشام فظلوا يتولى الأمر منهم أمير بعد أمير ، حتى كان جبلة بن الأيهم حاكم عرب الشام عند ما فتحه عمر بن الخطاب . تولى منهم عمرو الأصغر في سنة ٥٨٧ م ، فلجأ إليه النابغة الذبياني هرباً من النعمان بن المنذر صاحب الحيرة ؛ وتولى بعده أبو كرب النعمان السادس ابن الحارث الأصغر ، ففاز من النابغة بخير مدائح . ثم تولى

الغسانيون إلى آخر عهدهم

عدد من الأمراء تدل كثرتهم على اقتسامهم ملك الغساسنة بالشام ، حتى انتهى أمرهم إلى الأيهم الثاني ثم إلى ابنه جبلة بن الأيهم .

ولعل تقسيم السلطان في الشام بين عدة أمراء من العرب كان بعض سياسة الروم في عهود كثيرة ، حتى لا يناوئ العرب الإمبراطورية بوحدتهم . يرجح ذلك أن الغسانيين لم تكن لهم عاصمة بالشام كما كانت الحيرة عاصمة اللخمين بالعراق ؛ بل كانت الجابية عاصمة ، وكانت تدمر عاصمة ، وكانت جبولان عاصمة ، وكانت جيلق على مقربة من دمشق عاصمة . وهذا يتفق مع السياسة المركزية التي جرت عليها إمبراطورية الروم ، كما تتفق سعة السلطان لصاحب الحيرة مع سياسة اللامركزية التي جرت عليها الإمبراطورية الفارسية .

ذكرنا فيما سلف أن عرب العراق وعرب الشام استمسكوا باستقلالهم الذاتي وبمحياتهم العربية . لذلك ظلت لغة أهل شبه الجزيرة لغتهم ؛ فلم تمحها الفارسية في العراق ، ولم تمحها اليونانية أو اللاتينية في الشام . وكان من أثر هذا أن ظلت صلات ملوك الحيرة وصلات بني غسان بشبه الجزيرة وثيقة ، وظل الذين يُشيدون بذكر هؤلاء الملوك وينالون جوائزهم هم شعراء شبه الجزيرة . وكتب الأدب ودواوين الشعراء . تروى للناطقة الذبياني ولأعشى قيس ولعلقمة الفحل ولغيرهم كثيراً مما قيل في هؤلاء الملوك وكرمهم وما باغوا من حضارة وترف . وحسان بن ثابت شاعر النبي كان وثيق الصلة بجبلة بن الأيهم قبل إسلامه .

كان احتفاظ هؤلاء العرب الذين هاجروا من شبه الجزيرة إلى بادية الشام بخصائصهم وبمحياتهم ولغتهم العربية ، من الطلائع التي مهدت للفتح العربي والإمبراطورية الإسلامية . وسرى من بعد كيف انغمس هؤلاء العرب في كثير من الأحيان بلحیوش المسلمين ، وكيف حاربوا في صفوفهم من كانوا حلفاءهم من الروم والفرس .

الفرس والروم هل تأثرت علاقات فارس والروم بالقضاء على ملك الحيرة ؟ كلا ! بل بعد تفضيع سلطان الغرب ظلت الحروب متصلة بينهما بعد ذلك ، كما كانت متصلة بينهما سبعة قرون

متوالية من قبل . كانت إمبراطورية الروم لذلك العهد مسرح قلق واضطراب شجع الفرس على غزو الشام . وكان فوكاس إمبراطور الروم يومئذ في شغل بثورة هِرقل عليه . لذلك أوغل الفرس في بلاد الشام . فاستولوا عليها وانحدروا منها إلى ناحية بيت المقدس يحاصرون المدن ثم يأخذونها عنوة . وتولى هرقل حين كان الفرس في مسيرتهم إلى القدس فلم يستطع ردهم أو منعهم من تخريب آثار المسيحية واليهودية بالمدينة المقدسة . ثم إن اليهود انضموا إلى المجوس وأعانواهم على النصرارى . فلما استقر الأمر لكسرى بالشام ، فتح مصر وحل بسلطانه محل الروم فيها . وفي هذه الانتصارات المتوالية للفرس على الروم نزل قوله تعالى :

«الْمُ غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بَضْعِ سِنِينَ . لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ .

وصدق الله العظيم . ففي بضع سنين عاد هِرقل فحارب الفرس وأخرجهم من مصر ومن الشام ، وطاردهم إلى المدائن ، واسترد منهم الصليب الأعظم ، ثم رده إلى بيت المقدس في حفل حافل . لذا تضعضع سلطان الفرس وإن استنفد ذلك من قوة الروم ما كان بالغ الأثر في التمهيد للفتح العربى والإمبراطورية الإسلامية .

موقف أبى بكر
من فارس والروم

لم يَغِبْ علم ما نزل بالروم ، ثم بالفرس عن أهل مكة والمدينة . ولم يغب عنهم كذلك أمر بنى عمومهم من العرب ببادية الشام وما جاورها من العراق وبلاد الشام . وقد هوّن ذلك من أمر الإمبراطوريتين العظيمتين في نظرهم . وزاد في تهوين أمرهما قيام النبی العربى وانضواء بلاد العرب كلها تحت لواء الإسلام . لكن ما هان من أمر الإمبراطوريتين لم يبلغ بالعرب حد التحرش بهما أو التفكير في غزوهما ، وإن بلغ بهم حد اليقين باستقلال شبه الجزيرة عنهما والدود عن هذا الاستقلال في وجهيهما . لذلك ألقت اليمن وألقت بلاد الجنوب كلها بنير فارس ، ثم اتجه جلّ غرض الرسول عليه السلام إلى تأمين التحوم العربية في الشمال من جنود قيصر . ولم يدر بخواطر المسلمين أن يغيروا على الشام ، أو أن يتخذوا من دعوة النبی هرقل إلى الإسلام سبباً للإيغال فيه . ترى الصديق أبوبكر

أقيم أبو بكر على هذه السياسة لا يتعداها ، وله في رسول الله أسوة حسنة ، أم يغامر بحرب قيصر ، والنصر بيد الله يؤتيه من يشاء ؟

كان هذا الخاطر يدور بنفس أبي بكر حينما كان النصر يحالف أعلامه في حروب الردة . فقد قضى خالد بن الوليد على مسيلمة باليمامة ، ومنذ نشر المهاجر بن أبي أمية وعكرمة بن أبي جهل لواء الإسلام في أرجاء اليمن وما جاورها ، أيقنت شبه الجزيرة كلها أن الأمر فيها صائر بإذن الله إلى خليفة رسول الله . لكن أبا بكر كان أحصاف من أن يستنم لهذا النصر فينسى به ما تنطوى عليه صدور العرب من حفيظة قد تضطرم فتضرم الثورة كوة أخرى . أو ليس من الخير أن تتجه أنظار العرب إلى ما وراء الحدود من شبه الجزيرة فتتسى بذلك حفاظها وتنسى أحقادها ! وبادية الشام تنتشر فيها قبائل من العرب ، فجدير بها أن تسمع الدعوة إلى الدين الجديد كما سمعها العرب في شبه الجزيرة . ولعل هذه القبائل إذ تتصل بأصولها وتسمع الحديث عن أجدادها ، تعود بها الذكري إلى الماضي ، فتسرع لتشارك بنى عمومتها فيما هداهم الله إليه من الحق ، وتشهد معهم أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله .

كان هذا الخاطر يدور بنفس أبي بكر وهو في داره المتواضعة بالمدينة ، وكان يدور بنفسه وهو في مجلسه بالمسجد ، ثم كان يدور بنفسه وهو يحوب الأنحاء الفقيرة آناء الليل في سر من الناس ، يعين المحتاج ، ويأسو كلوم الجريح ، ويسكن أنات البائس والمسكين . ولم يستأثر هذا الخاطر بتفكير أبي بكر لأنه كان يحب السلطان لنفسه أو يطمع في التوسع فيه ، بل لأنه كان يريد أن يطمئن المسلمون إلى دينهم وحرية الدعوة إليه . وإنما تم للمسلمين الطمأنينة ما قام الحكم فيهم على أساس من العدل المجرد من الهوى . والحكم على هذا الأساس يقتضى الحاكم أن يسمو به فوق كل اعتبار شخصي ، وأن يكون العدل والرحمة مجتمعين . وقد كانت نظرية أبي بكر في تولى أمور الدولة قائمة على إنكار الذات والتجرد لله تجرداً مطلقاً ، جعله يشعر بضعف الضعيف وحاجة المحتاج ، ويسمو بعدلته على كل هوى ، وينسى في سبيل ذلك نفسه وأبناءه وأهله ، ثم هو مع ذلك يتتبع أمور الدولة جليلها ودقيقها بكل ما آتاه الله من يقظة وحذر .

تفكير الصديق
فيما بعد حروب
الردة

وكان حكم أبي بكر في العام الأول من خلافته يكاد ينحصر في القضاء على الردة والقائمين بها . وهل كان للمسلمين المقيمين بالمدينة ما يختلفون فيه وأهلهم جميعاً قد ذهبوا مجندين يجمعون الثورة ويقضون على أسباب الفتنة ، وهم في أثناء ذلك يتبعون أخبارهم وقيموهم الصلوات لنصرهم ! ! وليّ أبو بكر عمر بن الخطاب القضاء في المدينة ، فأقام عاماً كاملاً لم يختلف إليه متقاضيان . وكان أبو عبيدة بن الجراح قائماً بأمر المال ، يتلقاه من الزكاة ، وينظر في توزيعه على حاجات المسلمين . وكان عثمان بن عفان يكتب الأخبار للخليفة ، ويكتب زيد بن ثابت ما عداها . وقد كفاه عمّاله على البلاد والقبائل مؤونة إدارتها بما كان لهم من أمانة وحسن بصر بالأمور ، ثم كانوا على اتصال دائم به في توجيه سياستهم . وقد رأيت الشيء الكثير من ذلك فيما كان بينه وبينهم من مكاتبات أثناء حروب الردة . وإذا كان أبو بكر في شغل بهذه الحروب طيلة العام الأول من خلافته ، فقد أقام مقامه عتّاب بن أسيد عامله على مكة في الحج بالناس ذلك العام .

لم يشغل أبا بكر عن حروب الردة شاغل إلا ما اتصل بها مما قصصنا نبأه حين الحديث عنها . أما وقد هان أمر المرتدين ولم يبق لأحد من أهل الحواضر والبادى أن يأبه لهم أو يخشى خطرهم ، أفلا يجمل بأبي بكر أن يغامر بحرب قيصر ؟ إنه إن يفعل يصرف أذهان العرب في شبه الجزيرة كلها عن ثاراتهم ، ويجعل لهم من الفخار ما ينسيهم ضيغتهم على يرب وأهلها ، ويمهد الطريق لانتشار كلمة الله في الإمبراطورية الرومية المترامية الأطراف .

غزو الروم
مغامرة لا يسهل
الإقدام عليها

لكن غزو الروم مغامرة إن لم يحالف النصر فيها أعلام المسلمين تعرضت شبه الجزيرة لشرّ من الثورة التي أخمدتها حروب الردة : تعرضت للروم وحكمهم ، وتعرضت بذلك لكارثة تجتث حكم المدينة ، وقد تفتن المسلمين عن دينهم . ومنازلة الروم ليست هينة . إنما انتصر أبو بكر على المرتدين في شبه الجزيرة لأن الإسلام قضى على الوثنية فيها ، ولأن البواعث التي أدت بطليحة ومسيلمة والعنسي إلى الثورة وجدت من قبائل هؤلاء المنتبئين من رأى ردتهم نقضاً لعهد عقوده مع رسول الله ، حين ذهب وفودهم إليه بالمدينة تعلن

الإسلام وتنضوي تحت لوائه . أما الروم فكانوا نصارى أهل كتاب كالمسلمين ، ثم كانوا إلى ذلك أصحاب الكلمة العليا في توجيه سياسة العالم لذلك العصر .

صحيح أنه قامت بينهم وبين فارس حروب استطالت على السنين ، كتب النصر في بُدائها للفرس ، ثم انتهى الغلب فيها للروم . وقد استنفدت هذه الحروب من قوة الدولتين الكبيرتين ما يحتاج إلى الجهد الضخم والسنين الكثيرة لتعويضه . لكن للفوز في الحروب بريقاً يكلل هام المنتصر بأكاليل تبهر أنظار الناس ، وتصدهم عن محاربة من كان النصر حليفه . ولم تكن الأمة العربية قد جربت حظها في مثل هذه الحروب من بعد لتتقدم على مغامرة لها من الخطر ما يصد عنها ، بل ما يخيف منها .

ولم يرد التفكير في محاربة الفرس بخاطر أبي بكر ؛ فالحجاز لا يتصل بفارس . والبلاد العربية التي تتاخم الفرس هي البلاد التي فشت فيها الردة ، ويتعذر لذلك أن يعتمد أبو بكر عليها أو يأمن أهلها في غزو دولة لا يزال لها ، مع ظفر الروم بها ، جيوش جرارة وموارد كثيرة . أفلا يجمل بالخليفة أن يوجه همه إلى توطيد الأمن في مختلف الأرجاء من شبه الجزيرة ، لتنضم كلها في وحدة تزيدها قوة وتزيد سياستها اتساقاً !

وإن أبا بكر ليفكر في هذا وفي مثله إذ ترامت إليه الأنباء بأن المثنى بن حارثة الشيباني قد سار بقواته شمالاً في البحرين ، حتى وضع يده على القطيف وهجر ، وحتى بلغ مصب دجلة والفرات ، وأنه قضى في مسيرته هذه على الفرس وعمالهم ممن عاونوا المرتدين بالبحرين . وسأل أبو بكر عن هذا المثنى من هو ، وإلى أي قبيلة ينتسب ، وعلم أنه من البحرين من بني بكر بن وائل ، وأنه انضم إلى العلاء بن الحضرمي في مقاتلة المرتدين على رأس من بقي على الإسلام من أهل هذه النواحي ، وأنه تابع مسيره مساحلاً الخليج الفارسي إلى الشمال ، حتى نزل في قبائل العرب الذين يقيمون بلدنا النهرين فتحدث إليهم وتعاهد معهم . وعلم أكثر من ذلك أنه رجل جليل المكانة يعتمد عليه . قال عنه قيس بن عاصم المِنَقَرِيّ : « هذا رجل غير خامل الذكر ، ولا مجهول النسب ، ولا ذليل العمد . هذا المثنى بن حارثة الشيباني ! » .

المثنى بن حارثة
الشيباني يتقدم في
أرض العراق

جعل أبو بكر يفكر فيما سمعه من ذلك وفيما يمكن أن ينشأ عنه . وأدّى ذلك به إلى معاودة التفكير في دفع المسلمين إلى خارج شبه الجزيرة كيما ينصرفوا عن ثاراتهم الأولى وثورتهم بسلطان المدينة . ألا يستطيع هذا المثنى أن يتوغل في العراق وأن يفتح للمسلمين أبوابه ما دامت أبواب الشام مستعصية ! فقبائل العرب في العراق من بني لحم وتغلب وإياد والنمر وبني شيان تهوى نفوسهم إلى مناباتهم في شبه الجزيرة . ومن العراق انحدرت سجاج تعلن نبوتها في بني تميم ، وتعتمد على أبناء هذه القبائل العربية التي نزحت إلى شواطئ الفرات . لعل البدء بتوجيه سياسة المسلمين إلى هذه الناحية يكون أجدى من كل توجيه آخر ! ولعل هذا المثنى الشيباني يكون خير طليعة لتنفيذ هذه السياسة !

اضطراب الأمر
في فارس

وشجّع أبا بكر على العود إلى هذا التفكير ما يعلمه من أمر فارس صاحبة السلطان في العراق . فقد انتصر هرقل على الفرس قبيلاً وفاة النبي وحطم جيوشهم في نيسوى ودستت جرد ، وسار حتى صار على أبواب المدائن عاصمة ملكهم . وقد بلغ من ضعف سلطانهم أن تخلصت اليمن من نيرهم وأن انضم بازان إلى رسول الله ، ثم لم يحركوا لاستردادها ساكناً . ومن بعد ذلك تقلص سلطانهم من البحرين ومن جميع الإمارات الواقعة على الخليج الفارسي وعلى خليج عدن ، ولم يفكر أحد من ملوكهم في استرداد شيء من هذا السلطان قلّ أو كثر . وكيف يفكرون والاضطراب ضارب بجذوره في بلاطهم ، يسعى كل أمير ليقتل الجالس على العرش فيأخذ مكانه ؛ حتى لقد ادعى هذا العرش في أربع سنين تسعة من الأمراء كانوا يقتتلون عليه فيقتل بعضهم بعضاً ، جهرة حيناً وغميلة حيناً . لا عجب إذن أن يصح ما تحدث الناس به إلى أبي بكر عن المثنى وفعاله . ثم لاعجب أن ينشط تفكير أبي بكر في العراق وفتحه .

مقدم المثنى بن
حارثة إلى المدينة

وبينا يتأمل الخليفة الأمر ويطيل التفكير فيه ، إذ أقبل المثنى إلى المدينة وتلقاه أبو بكر وسمع منه وعرف من أنبائه ما زاده اطمئناناً إلى أن البدء بفتح العراق العربي أدنى إلى النجاح ، ولن يلقى من المقاومة ما يلقاه التقدم في الشام . وليس العراق على شواطئ النهرين دجلة والفرات وفي الجزيرة الواقعة بينهما بأقل من الشام جمالاً ونصرة . وإذا لم يكن أهل الحجاز قد تحدثوا عنه ما تحدثوا عن

الشام لقرب الشام منهم ، ولأن الطريق إليه طريقهم في رحلة الصيف ، فغداً يتحدثون عن العراق وتتجه إليه أنظارهم ما اتجهت إلى الشام . فليعزم الصديق إذن أمره ، وليتوكل على الله .

وكيف له أن يتردد وقد ذكره المثنى بأن قبائل العرب التي استقرت بدلتا النهرين الغنية بألوان الزرع والفاكهة وبالطير والحيوان ، مالت إلى الخضر والإقامة وعمل أبنائها فلاحين في الأرض ، وأن دهاقين الفرس يستولون على غلاتها ، ولا ينال أولئك العرب منها إلا القليل الذي يوجد الدهاقين عليهم به . أيّ مرعى أنخصب من هذا المرعى لبث الدعوة العربية ، ولتأمين شبه الجزيرة من دسائس الفرس ومن عدوانهم ، فهؤلاء العرب وإن استقروا بأرض العراق يستجيبون لا ريب لكل دعوة عربية . ومعاملة الدهاقين لهم تُعِدُّهم للثورة بهم ، أما وقد أحسنوا السماع لحديث المثنى فالفرصة من ذهب ، يجب ألا تضيع ، بل يجب أن تتخذ خطوة لما بعدها .

ولئن حالف النجاج المسلمين في هذه الخطوة لتكون البشير بخطوات واسعة . فليست دلتا النهرين ، على خصبتها وحسن ثمرها ، أنخصب العراق أو أجمله أو أحسنه ثمرأ ؛ بل إن دجلة والفرات ليجريان متوازيين قرابة ثلاثمائة ميل قبل أن يتصلا . ولا يقف أمر المناطق التي يتوازيان فيها عند الخصب الممرع الذي يجعل منها جنة دونها جنات الشام التي بهرت أنظار أهل الحجاز وسحرت قلوبهم ، بل إن بها من ذكريات التاريخ ما يثير الإعجاب في نفس من يسمع بها من أهل شبه الجزيرة ، بل من أهل الأرض جميعاً . وحسبك أن مدينة « أور » التي تكشفت في عصرنا الحديث عن آثار يقرنها بعض الناس إلى آثار الفراعنة ، تقع في هذه المنطقة . فإذا أنت سرت شمالاً لقيك بعد قليل من توازي النهرين آثار بابل القديمة ، ولقيك على شواطئ الفرات برج بابل قائماً يحدث عن عظمة الآشوريين ويروي تاريخ مجدهم . ونحن نتحدث إلى اليوم عن هذا البرج فيثير حديثه في نفوسنا العجب . ما بالك به من أربعمائة وألف سنة مضت ، وبما كان يثيره في النفوس حين كان العرب يسمعون حديثه !

ليس العراق أقل
إغراء من الشام

فإذا أنت تابعت السير على الفرات قابلتك المدائن عاصمة الفرس ومهد الترف والنعمّة لذلك العهد في العالم كله . فقد بلغ الفرس يومئذ من الترف ما تبلغه الأمم حين تنحدر إلى ناسية التدهور والانحلال .

لعل الأسماء التي ذكرنا قد أثارت في نفسك صورة من العظمة التاريخية لهذه البقعة التي تقع شمالي دلتا النهرين ، وأثارت كذلك فيها ذكر ما كان حول هذه المدن من حدائق وكروم وزروع تمتد إلى الأفق زاهية الخضرة ، يبعث أريج زهرها أروح العطر إلى الهواء الذي نتنفسه .

أمّا ذلك بعض ما في هذه البقاع من خصب جعل الناس يطلقون عليها اسم « جنة الأرض » لكثرة غلالها وفرة خيراتها وبعض ما فيها من جمال يعدل ما في الشام أو يزيد عليه ، فقد رأى أبو بكر صدق ما يذكره المثنى الشيباني ، ورأى أن من الواجب على المسلمين أن يقوموا بتأمين العرب من أهلها . فإذا استجاب هؤلاء العرب من بعدُ للدعوة الإسلامية ولم يصرفهم الفرس عنها فذاك ، وإلا قاتل المسلمون الفرس ليكون الميدان لحرية الرأي فسيحاً ، وكلمة الحق منتصرة لا محالة بالحجة والموعظة الحسنة .

رأى خالده
ابن الوليد في
غزو العراق

واستشار أبو بكر أصحابه وعرض عليهم ما جاء به المثنى من الأنباء ، وقوله له : « أمرتني على من قبلي من قومي أقاتل من يلبني من أهل فارس وأكفليك ناحيتي » . وتداول القوم المشورة بينهم ، فأروا أن الأمر في حاجة إلى رأي خالده بن الوليد يكشف لهم عما يجب إذا قاوم أهل فارس المسلمين . وكان خالده باليمامة مقبياً مع زوجته أم تميم وبنت مُجاعة ، يستجم بعد غزوة عقر براء ، ويطمئن إلى العيش بينهما . وقد استدعاه أبو بكر على عجل فحضر . ولم يتردد خالده حين عرف ما جاء المثنى فيه عن الإشارة إلى ما قد يترتب من النتائج على مقاومة الفرس لجيش ابن حارثة . فقد يدعوهم انتصارهم إلى التفكير في استرداد نفوذهم في البحرين وما جاورها . فأما إن أعد الخليفة للحرب عُدتها ، وجعل ما قام به المثنى من قبل طليعة فتح يليق إليه المسلمون بفيلد أكبادهم فلا ريب عنده في أن العراق سيفتح أبوابه ، وفي أن العرب المقيمين به عاملين في الزراعة سيكونون من عوامل النصر لبني جنسهم .

وَأتم أولو الرأي المداولة فيما بينهم ، وأقروا أبا بكر على تأمير المثنى . عند

ذلك أمره أن يتابع ما بدأه بين العرب من عهد ودعوة إلى الحق ، فكان أمره هذا الخطوة الأولى في فتح العراق . فأما الخطوة الحاسمة فكانت توجيه خالد ابن الوليد على القيادة العامة لجيوش الفتح . وفعال خالد في العراق وانتصاراته على الفرس موضع حديثنا في الفصل التالي .

* * *

هذه الرواية في التمهيد لفتح العراق هي الراجحة في رأينا . على أن طائفة من المؤرخين يذهبون إلى أن المثنى لم يذهب إلى المدينة ولم يقابل أبا بكر ، وأنه أمعن في السير بجيشه في دلتا الفرات ، فلقية هُرْمَز ، فكانت بينهما وقعت نسي خبرها إلى أبي بكر . فلما سأل عن المثنى وعرف من هو وماذا كانت فعالة في البحرين أثناء حروب الردة ، أصدر أمره إلى خالد بن الوليد كي يخفف إليه ، ويعينه على هُرْمَز ، وينصره والعرب الذين آزره ليريحهم من هذا الطاغية الفارسي . وهذه الرواية مرجوحة عندنا وإن كنا لا نقطع بعدم صحتها . فقد انتصر المثنى على الفرس ولم يكن في حاجة إلى مدد . وشجع انتصاره أبا بكر على التفكير في غزو العراق ، فأمر خالد أن يذهب إلى دلتا الفرات يعزز المثنى ثم يسير حتى يفتح الحيرة عاصمة العرب اللخمين ، وأمر عياض بن غنم أن يسير إلى دومة الجندل يخضع أهلها الذين تمردوا وارتدوا ثم يسير من هناك إلى الحيرة . وأى القائدين سبق صاحبه فله القيادة العليا وله الأمر في تلك البلاد . وإنما ذكرنا أن الرواية الثانية مرجوحة ، ولم نقل إنها غير صحيحة ، لما في الروايات التي انتهت إلينا عن ذلك العهد من الاضطراب . ولقد بلغ من اضطرابها حين الحديث عن فتح العراق ومقدماته أن تردد الطبري وابن الأثير وغيرهما فلم يرجحوا رواية على أخرى .

رواية أخرى
في فتح العراق

ويرى بعض المتأخرين من المؤرخين أن خالداً حين ذهب إلى دلتا الفرات لم تكن أمامه خطة مرسومة ولا غاية معينة ، وإنما ذهب مدداً للمثنى لينقذه وينقل جيشه . فلما انتصر على الفرس وتقدم إلى الشمال وبعث إلى الخليفة بالأخماس وبأنبائه كان هو الذي صور الفتح كيف يكون ، وهو الذي اتجه إلى الحيرة فما شأها . ولقد يضعف من هذه الرواية أن أوامر أبي بكر إلى قواده

كانت صريحة دائماً في ألا ينتقل أحدهم من غزاة إلى ما بعدها إلا بإذنه. ذلك ما رأيناه في حروب الردة ، وذلك ما كان من بعدُ في فتح العراق والشام. فليس من الممكن مع هذا أن يكون فتح العراق فلتةً ، أو أن يسير خالد بن الوليد مستقلاً عن أوامر أبي بكر .

والآن فلنسير مع المثنى إلى دلتا النهرين . وعما قريب يلحقنا خالد هناك ليضرب الفرس في العراق ، ولينتقل منه إلى الشام فيمهد للقضاء على دولة الروم في آسيا القضاء الأخير .

الفصل الثاني عشر

فتح العراق

أجاب أبو بكر طلب المثنى بن حارثة الشيباني ، فأمره على من معه من قومه ليمقاتل أهل فارس ، فلما بلغته أنباء نصره بدلتا النهرين رأى أن يُمِده ليتابع غزواته . لذلك أمر خالد بن الوليد أن يجمع بقية جنده وأن يسير إليه ، وأن تكون القيادة العليا لخالد بطبيعة الحال . ولقد أمر عياض بن غنم أن يسير إلى دومة الجندل يخضع أهلها المتمردين ثم يسير منها شرقاً إلى الحيرة ، فإن بلغها قبل خالد فالأمر فيها له ، وخالد فيها من قواده ، وإن سبقه خالد إليها فالأمر والقيادة لخالد وعياض من قواده .

أوامر أبي بكر
بحسن معاملة العرب
من أهل العراق

وكان العرب في العراق يعملون فلاحين في أرضه ، ثم ينالهم القليل من خير . أما وافر الخير فيذهب إلى الدهاقين الفرس الذين كانوا يسومون العرب الخسف والظلم . وقد أصدر أبو بكر أوامره إلى قواده بالعراق ألا ينالوا هؤلاء العرب الفلاحين بسوء ؛ لا يقتلون منهم أحداً ، ولا يأخذون منهم أسرى ، ولا يسيئون إليهم في أمر يتصل بهم ؛ فهم عرب مثلهم ، وهم يشعرون بالظلم تحت نير فارس ، فيجب أن يشعروا بزوال هذا الظلم حين مقدم العرب ، ويجب أن يعطيهم العدل على أيدي بني عمومته . ذلك واحب على المسلمين يأمرهم الله به ، وهو بعد السياسة الحكيمة التي تكفل للمسلمين النصر ، وألا يؤثروا بعد نصرهم من خلفهم .

وكان جنود خالد قد قلَّ عددهم ، إذ قُتل منهم باليمامة ما سبق أن ذكرنا ، وعاد منهم مسرعاً إلى قومه من رغب في الرجوع إليهم . وما كان لخالد أن يستدعي هؤلاء ، وقد أمره أبو بكر أن يأذن لمن شاء بالرجوع ، وألا يستفتح بمتكاره ، وألا يكون معه في الغزو أحد ممن ارتد حتى يرى الخليفة رأيه فيه .

جيش خالد لفتح
العراق

وطلب خالد إلى أبي بكر المدد فأمدّه بالقعقاع بن عمرو التميمي . وعجب قوم وقالوا : أئماً رجلاً قد ارفض عنه جنوده برجل ! ! وأجابهم أبو بكر : لا يُهزم

جيش فيهم مثلُ هذا ! وكذلك كان جوابه حين أمدَّ عياضاً بعبد بن عوف^(١) الحميريّ . على أنه كتب إلى خالد حين بعث إليه القعقاع يقول له : « استنفر من قاتل أهل الردّة ومنّ ثبت على الإسلام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم »^(٢) .

ولم يلبث خالد حين عاد ينظم جيشه أن حشد ثمانية آلاف من ربيعة ومضر إلى ألفين كانا معه ، ثم سار إلى العراق على رأس عشرة آلاف ، قدم بهم على ثمانية آلاف كانوا مع أمراء الجند المسلمين الذين سبقوه إليه ، والمنشئ في مقدمتهم .

وكان أمر أبي بكر إلى خالد إذا دخل العراق أن يبدأ بالأبلة على الخليج الفارسيّ . وكانت الأبلة الثغر الذي تسير التجارة منه إلى الهند والسند ، وترد إليه منهما للعراق . وقد اختلف الرواة : أفتح المسلمون الأبلة في هذه الحرب ثم عادوا فاستردوها من الفرس أيام عمر بن الخطاب ؟ أم أنهم لم يفتحوها إلا في عهد عمر ؟ . أمّا إجماع الرواة فعلى أن أول غزاة بالعراق كانت غزاة الحفيرة^(٣) .

والحفيرة تقع قريباً من خايج فارس على حدود الصحراء وعلى مقربة من ثغر كاظمة . وكان هُرْمُز أمير هذه المنطقة كلها من قبل فارس ، ومن

هرمز أمير الثغور

(١) في الكامل لابن الأثير : « عبد بن غوث » .

(٢) وقد أورد الأزدی كتاب أبي بكر إلى خالد بن الوليد ليسير إلى العراق فإذا هو موجه إلى خالد ومن معه من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان ، وفيه بعد حمد الله والثناء على نبيه والتذكير لأمره ما نصه : « فقد أمرت خالد بن الوليد بالسير إلى العراق لا يبرحه حتى يأتيه أمرى ، فسيروا معه ولا تقاتلوا عنه فإنه سبيل يعظم الله فيه الأجر لمن حسنت فيه نيته ، وعظمت في الخير رغبته . فإذا قدمتم العراق فكفونوا بها حتى يأتيكم أمرى . كفانا الله وإياكم مهم أمور الدنيا والآخرة ! والسلام عليكم ورحمة الله ! » .

ولم يذكر الطبري ولا ابن خلدون ولا ابن الأثير هذا الكتاب .

(٣) يذكر الطبري وابن الأثير هذا الخلاف في أمر الأبلة . ويقول الأزدی في فتوح الشام : إن سويد بن قطبة الذهلي قاتل أهل الأبلة فقاوموه ؛ فلما بلغ خالد العراق وسار إليه اتفقا على أن يتظاهر خالد بمغادرته والسير إلى المنى ، ثم يرجع إليه إذا جن الليل . وخيل إلى جيش الفرس بالأبلة أنهم قادرون على قتال ابن قطبة ففدوا إليه مصبحين ، فلقبهم خالد فهزمهم شر هزيمة . ومثل هذه الرواية ورد في فتوح البلدان للبلاذري .

تم شرفهم بين أمرائها . وكان أهل فارس يعملون قلانسهم على قدر أحسابهم في عشائهم ؛ فمن تم شرفه فقيمة قلانسوته مئة ألف ، وتلك كانت قيمة قلنسوة هرمز . وكان هرمز من أسوأ أمراء الثغور معاملة للعرب ؛ حتى لقد بلغ من حقدهم عليه أن جعلوه مضرب المثل في الخبث ؛ فكانوا يقولون : « أخبث من هرمز » ، و « أكفر من هرمز » . وترجع كراهيته للعرب إلى أن أبناء عمومته في شبه الجزيرة كانوا لا يفتنون يشنون الغارات للنهب والسطو على البلاد الواقعة في إمارته ، فكان يحاربهم في البر . أما الهنود ، وكانت تجيء سفنهم إلى تلك الثغور فتقوم فيها بأعمال تشبه القرصنة ، فكان يحاربهم في البحر ؛ وكان بهذه الحرب في البر والبحر يعدّ نفسه حامى البلاد التي تعدّ مفاتيح فارس .

خالد بن الوليد
يقسم جيش
المسلمين ثلاث
فرق

سار خالد من اليمامة إلى العراق على رأس عشرة آلاف من الجند . فلما بلغ حدوده ألنى المثني ومن معه ينتظرونه . هنالك قسم الجند كله ثلاث فرق ؛ وجه كل واحدة منها في طريق على أن يلتقوا جميعاً بالحفير . فأما الفرقة الأولى وعلى رأسها المثني بن حارثة الشيباني فسارت قبل خالد بيومين . وأما الفرقة الثانية وعلى رأسها عدى بن حاتم الطائي فسارت قبله بيوم . وسار خالد في المؤخرة . وكان خالد قد بعث قبل ذلك إلى هرمز كتاباً يقول فيه : « أما بعد ، فأسليم تسلم ، أو اعتقد لنفسك وقومك الذمّة ، وأقر بالجزية ، وإلا فلا تلومن إلا نفيسك ، فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة » .

تناول هرمز هذا الكتاب وترامت إليه أنباء المسلمين ومسيرة جندهم ، فكتب إلى أردشير الملك بالخبر ، وجمع جموعه وسار إلى الكواظم يلتقي خالداً بها . فلما علم أن خالداً أمر أصحابه بالسير إلى الحفير أسرع بجنده إليها ونزل على الماء فيها . وقد قدم خالد عليهم وأمر بالنداء في الجند لينزلوا ويحطوا أثقالهم . وتحدث إليه قوم من رجاله أنهم على غير ماء ، فقال لهم : « ألا انزلوا وحطوا أثقالكم ثم جالدوهم على الماء . فلعمرى ليصيرن الماء لأصبر الفريقين وأكرم الجندين ! » .

ووقف هرمز في جيشه ، وعلى ميمنته وعلى ميسرته أميران من بيت الملك

في فارس ، هما قُبَاذ ، وأنشُوجان ؛ ونادى هرمز : أين خالد ؟ يريد أن يخرج ابن الوليد إليه يبارزه . فلقد كان يعرف من بطولة خالد وفعاله في بلاد العرب ما آمن معه بأنه إن يقتل خالداً يضمن لفارس نصف النصر إن لم يضمن لها النصر كله . ولكن كيف سولت له نفسه أن يقتله وخالدُ البطل الذي لا يغلب إلا الأمر يسير ؛ فالخيانة تمهد له دركاً غرضه . لهذا عهد إلى جماعة من فرسانه إذا رأوا خالداً خرج إليه أن ينقضوا عليه ويقتلوه .

وسمع خالد نداء هرمز فنزل عن جواده ومشى إليه فالتقيا فاختلعا ضربتين . وشدَّ فرسان فارس يريدون قتل خالد واستخلاص هرمز من يده . لكن القمعاق بن عمرو لم يُسهلهم أن حمل عليهم حين كان خالد قد قبض على ناصية هرمز يستلّ روحه من بين جنبه . وشدَّ المسلمون فانهزم أهل فارس أمامهم ، فطاردوهم وركبوا أكتافهم إلى الليل . وبلغ المسلمون الجسر الأعظم من الفرات حيث تقع البصرة اليوم ، في حين فرَّ قباد وأنشوجان فيمن بقي من جيش الفرس لا يلوون على شيء .

تم النصر للمسلمين ، فأمر خالد معقل بن مقرن المزني بالسير إلى الأبلّة ليجمع ما لها وسببها ففعل^(١) ، وأمر المثني بن حارثة أن يلاحق المنهزمين من جيش الفرس فطار في أثرهم وكأنما يريد ألا يفوتهم قبل أن يبلغ المدائن .

ومر المثني أثناء مطاردته جيش الفرس بحصن تقيم فيه أميرة فارسية يطلق مؤرخو العرب عليه اسم حصن المرأة . وقد ترك أخاه المعنّى بن حارثة على حصار هذا الحصن ، وسار هو فحاصر زوجها في حصنه ، ففرض الحصن على من فيه وقتلهم ، واستفاء أمواهم ، ثم استمر يطارد بقية الجيش ، وعلمت المرأة بما أصاب زوجها فصاحت المعنّى وأسلمت وتزوجته .

حصن المرأة

أطلق على هذه الغزاة الأولى لخالد بالعراق اسم «ذات السلاسل» .

(١) ينكر بعض المؤرخين ذهاب معقل إلى الأبلّة ، ويذكرون ، كما قدّمنا ، أن المسلمين لم يفتحوا هذا الثغر إلا في عهد عمر بن الخطاب . ويذهب مؤرخون آخرون إلى أن معقلاً فتح الأبلّة فاستردها الفرس ثم عاد العرب في عهد عمر فاستولوا عليها . وقد يمكن التوفيق بين هذه الرواية وما سبق أن ذكرناه من أن سويد بن قطبة هو الذي فتح الأبلّة بمعاونة خالد ، وذلك بأن يكون معقل اقتصر ، بعد غزاة كاظمة ، على جمع المال والسعى لتنفيذ الأمر لخالد .

وعلة هذه التسمية ، فيما يقولون ، أن الفرس اقتربوا في السلاسل حتى لا يفروا . ويروى أن خالداً جمع ما خُطِّفَ القوم وراءهم من هذه السلاسل فكانت وقر بعير ألف رطل . ويرتاب بعضهم في هذه الرواية فيسمى هذه الغزاة غزاة كاظمة ، نسبة إلى أقرب قرية من المكان الذي وقعت فيه .

أثر الغزوة في
نفوس العرب

كان لهذه الغزوة الأولى أثر عظيم ألهم حمية المسلمين . فقد رأوا الفرس لا يثبتون أمامهم أكثر مما كان يثبت العرب في حروب الردة . ولقد قُتِلَ هرمز من يد خالد ، فكان مقتله مرضاة للعرب جميعاً أي مرضاة . هذا إلى جسامته ما غنموه فيها مما لم يكن لهم بمثله عهد ؛ فقد بلغ نَقْلُ الفارس ألف درهم خلا السلاح .

وزاد نصر المسلمين في هذه المعركة جلالاً تنفيذ خالد للسياسة التي رسمها أبو بكر مع العرب الفلاحين بالعراق أدق تنفيذ . فقد سبى أبناء المقاتلة الذين كانوا يقومون بأمر الأعاجم . أما الفلاحون فتركهم لم يتركهم ، وأقر من لم ينهض منهم وجعل لهم الذممة .

ويعث خالد خمس الغنائم إلى أبي بكر بالمدينة ، ويبعث معها قانسوة هرمز وفيلاً أخذته المسلمون في الموقعة . ولم يكن أهل المدينة قد رأوا فيلاً في حياتهم ، بل لم تر بلاد العرب كلها فيلاً قبل ذلك إلا فيل أبرهة حين حاول هدم الكعبة . فلما طاف قائد الفيل به في المدينة عجب أهلها لمنظر الحيوان الضخم وتولى بعضهم الريب في أمره ، بل لقد جعلت ضعيفات النساء يقتلن : أمن خلق الله هذا ! ! وخيّل إلى بعضهن أنه من صناعة فارس ! ورأى أبو بكر أنه لا نفع فيه فردّه إلى العراق مع قائده .

الفرس
يتجهزون
لغزاة المذار

ألهمت هذه الغزاة حمية المسلمين ، حتى لقد استمر المثنى الشيباني يطارد الفرس المنهزمين وكأنما يريد ألا يفوتهم قبل أن يبلغ المداثر . وفيما هو يتعقبهم جاءت الأنباء بأن جيشاً عظيماً من الفرس أقبل من المداثر للملاقاة خالد وجنوده . ذلك أن الملك أردشير ما لبث حين جاءت رسالته رسالة هرمز أن دعا إليه قارن بن قريانس أحد الأمراء الذين تم شرفهم ، وجعله على رأس قوة سارت مدداً لجيش الثغور . ولقى قارن في طريقه إلى الجنوب قباز وأنوش-جان

على رأس الفُلول المنهزمين ، فاستوقفهم وتحدث إليهم وبعث السكينة إلى نفوسهم وضمهم إلى جيشه وعسكر بهم في المذار على ضفاف قناة تصل دجلة بالفرات . وأيقن المثنى أن انفراد جيشه بلقاء هذه القوة العظيمة قد يجر عليه الهزيمة ، فاختار مكاناً قريباً من المذار أنزل جنده فيه ، وكتب إلى ابن الوليد بتفصيل ما عنده . وخشى خالد أول ما بلغه النبأ أن يأتى قارن ابن حارثة فيهمزه فيفت ذلك في أعضاد المسلمين ، فطار بجيشه وبلغ المذار ، وقارن يُعيد للقاء المثنى عُدته ، وجنود المثنى لا يعلمون ما الله صانع بهم .

كان للمثنى ولجنوده العذر أن تثور مخاوفهم . فقد بعثت هزيمة هرمز الحقد والحفيظة إلى نفوس الفرس ، فأقبلوا وكلهم حب الانتقام ، وحسبوا أنهم بالغون منه غايتهم بهزيمة المثنى وجنوده وهم بعيدون عن مركز القيادة . فلما بلغ خالد المذار أخاف الفرس وإن لم يخفف وصوله غلواء قارن ولم يضعف من عزه . ورأى قباذ وأنوشجان فرصة الثأر لهزيمة الحفير سانحة ، وأرادا أن ينسلا بفعالهما ما تجللاه ثم من ثياب الخزى والعار ، فاستنضبا همم الجند الذين كانوا معهما ودفعاهم إلى الميدان يغلى في عروقهم حرص على الثأر لا تهدأ ناره . وخیل إليهما وإلى قارن أنهم إن هاجموا خالد قبل أن يتخذ للموقف عُدته لم يقتهم الظفر بالمسلمين وأن يردوهم على أعقابهم إلى شبه الجزيرة منكسة رءوسهم ، صريعاً في أذهانهم كل أمل في قتال كسرى أو منازلة رجاله .

خالد بن الوليد
في غزوة المذار

ورأى خالد تأهب جيوش الفرس فبقى على تعبثته التي جاء بها من الجسر الأعظم وشد بقواته عليهم . ورأى المثنى وجنوده في مقدم خالد عليهم معجزة أمدهم الله بها لينصرهم ، فانقلبوا من الخوف إلى اليقين بالنصر أسوداً كاسرة لا تهاب الموت بل تلقاه باسمه . وهنا حقت كلمة خالد لهرمز : « إلى جئتكم رجال يحبون الموت كما تحبون الحياة » . والتحم الجمعان ، فإذا قارن وقباذ وأنوشجان يندبحون بأعين رجالهم ، وإذا سيوف المسلمين تطيح برءوس الفرس من كل جانب ، وإذا الجيش الذى خيل إليه أن النصر بين يديه يفر أمام خالد وجنده إلى السفن يتخذونها مطاياهم للنجاة ، وإذا المسلمون يغمون مما تركوا ما شاء الله أن يغموا . وحال الماء بين المسلمين وتعقبهم ، فأقام خالد بالمذار

وسلم الأسلاب لمن سلبها باللغة ما بلغت ، وقسم الفء ونفذ من الأخماس من أحسنوا البلاء .

أقام خالد بالمدار ، فسبى أبناء المقاتلة ومن أعانهم ، وأقر الفلاحين ومن أجاب إلى الخراج من جميع الناس . وكان أبو الحسن البصري بين الأسرى في هذه الموقعة . وحرص خالد بعد أن اطمأن له الأمر على تأمين مواصلاته إلى الخليج الفارسي ، فأمر القواد على الجند الذين استبقاهم بالحفير وعلى الجسر الأعظم ، وولى العمال على الجباية ، وأقام مكانه يتنطس أخبار عدوه .

وما كان ليحسب أنه ، وهو لا يزال على مقربة من خليج فارس ، قد قضى على قوات كسرى بالعراق ؛ فهو بعد من الحيرة على آماد غير قليلة ؛ والحيرة تكاد تنصف الطريق بين الخليج والمدائن . وإلى شمال المدائن من أرض الفرس ما يعج بالهند عجيجاً . ولا يأمن المسلمون أن يستعين الفرس قبائل العرب بالعراق عليهم . وهذه القبائل منتشرة على تخوم العراق إلى البادية ، منتشرة في جزيرة العراق بين النهرين ، وأكثرها على النصرانية لم ترعجها فارس الجوسية عنها . فإذا جاء هؤلاء المسلمون فدعوها إلى الإسلام أو الجزية رأت أن الخير لها في أن تبقى كما هي متمعة بجزيرتها . لا جرم إن رأت ذلك أن تنضم إلى الفرس وأن تعينهم . هذه كلها احتمالات دارت بخلد القائل العبقري ، فقدرها قدرها ، وحسب لها حسابها .

التجهيز لغزوة
الولجة

ولم يخطئ فيما قدّر ؛ فإن الفرس ما لبثوا ، حين رأوا ما أصابهم بالحفير والمدار ، أن اتجه تفكيرهم إلى الاستعانة على العرب بالعرب . فإنه لا يقل الحديد إلا الحديد . وكان كسرى يطمئن إلى ولاء قبائل عربية كثيرة بينها جماعات عظيمة من بنى بكر بن وائل . لذلك دعاهم وجعل عليهم قائداً منهم ووجههم إلى الولجة . ولكي لا يكون لهم كل فخار النصر أقام قائداً من أقدر قواده ، هو بهمن جاذويه ، على جيش من الفرس وجّهه في أثرهم . ولقد ازداد جيش القبائل العربية بمن انضم إليهم بين الحيرة والولجة من العرب والدماقين الذين عسكروا إلى جانبهم . وبلغهم بهمن على رأس الجنود الفارسية وأعدّ معهم لقتال المسلمين عدته .

بلغت هذه الأنبياء خالد بن الوليد وهو بالمذار ، فأمر من خلف من قواده وجنوده على الحفير وكاظمة وسائر ما اطمأن له من أرض العراق أن يكونوا على حذر ، وألا يغتروا بما فتح الله عليهم من النصر ، وخرج في جنده إلى الولجة يقاتل جنود كسرى . وكان الفريقان في الغاية من قوة البأس والعزم ، حتى لقد تردد النصر بينهما زمنًا أي الفريقين يصاحب . وكان خالد في عبقرية قيادته قد أمر اثنين من أمراء جنده أن ينفصلا أثناء السير عنه وأن يكمنوا وراء العدو فيأخذوه أثناء القتال على غرة . لكن هذا الكمين تأخر فلم يظهر ، على حين كانت صفوف المقاتلين من المسلمين ومن عدوهم ترجح متقدمة طوراً ، متراجعة طوراً آخر . وظن الفريقان أن الصبر قد نفذ وأن المعركة لن تنتهي إلى غاية . وإنهم لذلك إذ خرج كمين المسلمين في ناحيتين من وراء جيش كسرى ، في حين كان خالد يشتد في الضغط عليهم من أمامهم . هنالك انهزمت صفوف الأعاجم فولوا وقد أخذهم خالد من بين أيديهم والكمين من خلفهم ، فلم ير رجل منهم مقتل صاحبه . ولّى الأعاجم وولى العرب الموالون لهم وسيوف المسلمين آخذة برقابهم ، وجنود المسلمين يأسرون منهم من لم يترد قتيلاً ؛ وسي خالد ذراري المقاتلة ومن أعانهم .

انتصار المسلمين في الولجة ومغانمهم منها

بلغت المغنم يومئذ مبلغاً جعل خالداً يقوم في الجيش مشيراً إلى ثراء الأرض التي يقاتلون فيها ويقول : « ألا ترون إلى الطعام كرفخ التراب »^(١) وبالله لو لم يلزمنا الجهاد في الله والدعاء إلى الله عز وجل ولم يكن إلا المعاش لكان الرأي أن تقارع على هذا الريف حتى نكون أولى به ، ونولى الجوع والإقلال من تولاه ممن اتسأقل عما أنتم عليه . أفيضنّ مسلم بعد هذا الكلام بروحه ! إنه ها هنا يجاهد في سبيل الله ، وينقل المغنم ، وتصيب السبايا ملك يمينه . أليس هذا نعيم الدنيا والآخرة ! من ذا يزهده فيه ! ومن ذا لا يسارع إلى لقاء الله عليه ! ! .

كان هذا شأن العرب ؛ فماذا كان شأن فارس حامية الحضارة في عالم يومئذ ، ومهد الترف والنعمة ، والعلم والفن ؟ إن تعجب لأمر بعد الولجة فلأن

التجهز لغزوة أليس

(١) الرفخ هنا : الأرض الكثيرة التراب ؛ يقال جاء فلان بمال كرفخ التراب ؛ أي في كثرته .

الذين على الدم في عروقهم للهزيمة التي نزلت بهم لم يكونوا الفرس ، بل كانوا بنى بكر بن وائل من العرب . هؤلاء شقّ عليهم أن يغلبهم بنو عمومتهم من شبه الجزيرة فغضبوا وغضب لهم نصارى قومهم ، فكانوا الأعاجم وكانهم الأعاجم . فاجتمعوا جميعاً بالآيس على صلب الفرات في منتصف الطريق بين الحيرة والأبلة . وكتب كسرى أردشير إلى بهمن جاذويه أن سرّ حتى تقدم آيس بجيشك إلى من اجتمع بها من فارس ونصارى العرب . ورأى بهمن أن يسير إلى أردشير ليحدث به عهداً ، وليتلقى أوامره ، فقدم جابان أحد القواد وأمره أن يحث السير إلى آيس وقال له : « كَتَفَكَيْفَ نَفْسِكَ وَجَنَدُكَ عَنْ قِتَالِ الْقَوْمِ حَتَّى أَلْحَقَ بِكَ إِلَّا أَنْ يُعْجِلَوكَ » . وألّى بهمن أردشير مريضاً فأقام إلى جانبه وترك الأمر إلى جابان ولم يبعث له عن مقامه نبأ ولم يحدث له منه ذكراً . وبلغ جابان آيس فوقف إلى جانب عبد الأسود العجلي أمير الجند على بنى بكر بن وائل ومن نقر معهم من نصارى العرب ، وجعل يدبّر وإياه أمر القتال .

لم يقف خالد بن الوليد على نيا من مسيرة جابان وجنود فارس ، وإنما بلغه ما كان من تجمع العرب النصارى بالآيس ، فخرج في جيشه ومن انضم إليه من عرب العراق ، وكرّ راجعاً إلى الحفير يؤمّن مؤخرته . واطمأن إلى ما أراد ، ثم انتلب مسرعاً يلقي العدو حيث عسكر . ولم ينظر القوم حين بلغ آيس ، بل دعاهم إلى القتال . وأسرع العرب إلى لقائه ، فلم يمهلهم أن قتل قائدهم مالك بن قيس . ولبا رأى جابان صفوفهم تضطرب تقدم بجنود فارس يعززهم ، وهو وجنوده أشد ما يكونون بالفوز ثقة . آيس بهمن قد وعدهم أنه آت إليهم ، فليصبروا للمسلمين وليصابروا حتى يجيئهم المدد ، وليستमितوا في الدفاع عن مواقعهم . ورأى خالد صبرهم وقوة تجلدهم لبأسه ، وإن لم يعرف باعثهم على هذا وذاك . وترجّحت الموقعة حينئذ حار له خالد ، فتوجه إلى ربه يستنصره ويقول : « اللهم إن لك علىّ إن منحتنا أكتافهم ألا أستبق منهم أحداً قدرنا عليه حتى أجرى نهرهم بدمائهم ! » . وأنت تعرف معنى هذه الكلمة صادرة من أعماق سيف الله ومن صميم قلبه ، هذا القلب الذي لا يعرف الخوف ولا يهاب الموت

المعركة ترجع
فيستنصر خالد
ربه

ولا يفرغ لمراى الدماء. وطال بالفرس وأنصارهم الصبر وبهمن لا يُقبل، ولم يذر خالد أثناء ذلك لوناً من ألوان المداورة التى تفيض بها عبقريته فى القيادة إلا ضيق به الخناق على أعدائه ، فلما عيّل صبرهم وتداعت قوتهم ولم يبق لهم من الهزيمة مفر ، تحطمت صفوفهم وانقلبوا على أعقابهم يسارعون إلى الهرب ، ولا مأرب لهم إلا النجاة . ورأى خالد فرارهم ، فأمر مناديه فنادى فى رجاله : « الأسر ! الأسر ! لا تقتلوا إلا من امتنع » . ولحق فوارس المسلمين بالفرس وأنصارهم من العرب وجاءوا بهم أفواجاً أسارى يساقون سوق النعَم .

وكان الفرس قد أعدوا قبل المركة طعام غذائهم فأعجلهم خالد عنه ، فلما انهزموا وقف خالد على الطعام وقال لرجاله : « قد نكسكموه فهو لكم » . وجلس المسلمون إلى الموائد يتناولون عشاء شهياً رأى الكثيرون منهم فيه عجباً ؛ رأوا الرقاق ولم يكونوا يعرفونه ، فجعلوا يقولون : ماهذه الرقاق البيض ! وجعل من عرفها يحيبهم مازحاً : هل سمعتم برقيق العيش ! فهذا هو . ولذلك سى الرقاق . أما العرب فكانت تسميه القرى .

ودعا خالد بالأسرى يستعرضهم اتبر يمينه أن يجرى نهرهم بدمائهم ، واكل بهم رجالا يضر بون أعناقهم فى النهر بعد أن صدد الماء عنه . وأقام الموكلون يضر بون يومئاً وليلة والنهر لا يجرى دمماً . وقال قوم من أصحاب خالد يخاطبونه : « لو أنك قتلت أهل الأرض لم تجر دماؤهم . إن الدماء لا تزيد على أن ترقق ، فأرسل عليها الماء تبر يمينك » . وأمر خالد فأعيد الماء إلى النهر فجرى دمماً عبيطاً ، ومن يومئذ سى هذا النهر : « نهر الدم » . روى الطبرى أنه كانت على النهر أرحاء طحنت فى ثلاثة أيام قوت ثمانية عشر ألفاً من الجند والماء من تحتها يتدفق أحمر قانياً .

نهر الدم

لم يكف خالد أن يجرى النهر دمماً ، بل قصد إلى بلد قريب من أليئس يسمى أمغيشياً أو مئيشياً كان مصرأ كالحيرة ، وكان يقع عند منتهى الفرات بنهر بادقلى ، وكان أهله قد اشتركوا فى الحرب بضاحية أليس ، فأمر جنده فهدموه وجعلوا عاليه سافله ، وأضابوا كل ما كان فيه وعدوه مغنماً ،

فكان نصيب الفارس منه ألفاً وخمسمائة سوى ما منحه خالد من أحسنوا البلاء في أليس .

وبعث خالد بالأنباء وبخمس الفء والسبي إلى أبي بكر مع رجل يدعى جندلا من بني عجل . فلما قصَّ عليه ما حدث وأخبره بفتح أليس وبعد الفء وبعدة السبي وبأهل البلاء من الناس وبفعال ابن الوليد ، لم يملك أبو بكر نفسه أن صاح : «عقدت النساء أن يلدن مثل خالد ! » . وأمر لجندل بجارية من أليس ولدت من بعده له ، وأمر فأذيعت أنباء النصر في المدينة وفي غير المدينة من بلاد العرب ، واطمأن إلى نصر الله جنوده في العراق ، وإلى أن سيف الله لا غالب له (١) .

ما يهتم به خالد
من الوحشية
ورأينا فيه

يقف بعض المؤرخين عند ما قصصنا من حوادث أليس وأمغيشيا يُبدون الأسف أن يقع من قائد عبقرى كخالد فعال ذلك مبالغها من الوحشية ، ويودون لو أن ما روى عنها غير صحيح ، وإن رجحوا صحته لتضافر رواة المسلمين على ذكره . ولست أقف عند ترجيح ما روى أو عدم ترجيحه . لكني لا أملك نفسي دون الابتسام حين أرى هذه الفعال تنعت بأنها وحشية . ولست أبتسم إنكاراً لهذا النعت أو استنكاراً له ، وإنما أبتسم لأنني أرى أن كل حرب وحشية ، والحرب مع ذلك مسوغة في نظر الأمم المتحضرة . فإذا كان الالتجاء إلى الحرب مع وحشيتها تسوغه قضية نعتقدها عادلة ، فتصوير ما يترتب على الحرب الوحشية في أصلها وضميمها بأنه وحشى يدعو إلى الابتسام وإلى أكثر من الابتسام .

والحق أن الحضارة الإنسانية لما تصل إلى المدنية السامية التي تنزهها عن الوحشية وتسمو بها عليها . فهذه الوحشية لا تزال تعد من مقومات الحضارة ، ولا يزال الاستعداد للحرب يعدّ جوهرية في حياة الأمم ، بل جوهرية لحفظ كيائها حتى تكسب المناعة من أسباب الانحلال ؛ فلما يلجأ إليه قائد من القواد في أثناء الحرب ، مما يزيد في وحشيتها بعض الزيادة أو ينقص منها بعض النقص ، ليس أمراً ذابال في حياة هذه الإنسانية . وقد اعتاد الناس في مختلف العصور

(١) يذكر الطبري وابن الأثير وغيرهما أن عدد القتلى من غير المسلمين بلغ في أليس سبعين ألفاً .

أن يعدلوا النصر عذراً عن كل ما سبقه . وقد حالف النصر خالد في كل مواقفه ، فليكن له من انتصاره العذر ، إن لم يكن من التماس العذر بد .

وحسبك لتطمئن إلى هذا العذر أن تعلم أن انتصار خالد وفعاله قد حطمت الروح المعنوية في قلوب الفرس ومن الالهم من العرب ، فانكهمشوا ولم يفكر أحد منهم في الثأر بعد أليس ، كما أرادوا من قبل أن يثأروا للمدار وللخفير . بل لقد بلغت هزائم الفرس من نفس كسرى أردشير فلم يُطلق أن يقاوم المرض الذي أصابه واستبقى بهمن إلى جواره فات غمماً وكمداً . وكيف للفرس أو لأوليائهم من العرب أن يفكروا في الثأر ، وقد رأوا المسلمين ينجون الموت حقاً ، ورأوا حبيهم الموت يهب لهم الحياة ! ثم رأوا قائدهم وكأنه إله الحرب استحال رجالاً ! أليس خيراً لهم ، وذلك ما تراه أعينهم ، أن يلقوا سلاحهم وأن يسلموا لحكم القدر ! ! .

وذلك ما فعلوا . تشاغل الفرس بموت مليكهم ، وتشتت العرب في البادية وفي جزيرة بين النهرين ، وانقطع كل نبأ عن التهيؤ للحرب أو لإجلاء المسلمين عن البلاد . لكن خالد كان أحصاف من أن يلهيه سكوتهم أو يُببطره الظفر . فلا يرى ما يطوى الغد في ضميره . وقبائل العرب هي التي حرضت الفرس على القتال في أليس . وهذه القبائل إن سكنت يوماً فليست غداً في غده . فإن لم يقض خالد على كل أمل لهم في الثورة أو في العذر ، وإن لم يؤمن كل طريق يؤدي إلى شبه الجزيرة ، فلا يلومن إن أصابه المكروه إلا نفسه . والحساب لكل صغيرة وكبيرة لم يفته في يوم من الأيام ، لهذا حسب للموقف حسابه وأحكم تدبيره . وأبسر هذا الحساب أن يحتل الحيرة عاصمة العرب ، وأن يضع يده على منازلهم غرب الفرات إلى حدود شبه الجزيرة .

أثر غزاة أليس
في الفرس وفي
أوليائهم من
العرب

وكان حاكم الحيرة مرزباناً فارسياً يدعى آزاذبه . وكانت عاصمة العراق العربي قد تقلص سلطانها في ذلك العهد ، بعد أن كان قبل خمس وعشرين سنة قوي الجانب مسموع الكلمة . ذلك أن اللخمين الذين أنشئوا الملك في الحيرة منذ القرن الثاني للمسيح وقاموا به قرونًا متوالية ، اختلفوا مع الطائيين اختلافاً أنشب الحرب بينهم . وانتهاز كسرى فرصة خلافهم فنصر الطائيين على

النعمان بن المنذر ثم قيض عليه فحبسه وقتله ، وأقام إياس بن قبيصة الطائي حاكماً للحيرة وما يقع في سلطانها . وبعد سنوات من ولايته هزم بنو بكر بن وائل جيشاً من الفرس يؤيده أنصار إياس بلدى قار هزيمة أطاحت بإياساً عن عرشه وطوعت لكسرى أن يقيم مرزباناً من لدنه حاكماً للحيرة . بذلك زال نفوذها وانحل سلطانها . لكن مكانتها في نفوس العرب جعلتهم مع ذلك يرمقونها بعطفهم وينالونها برعايتهم . ولهذا خشى خالد حين رأى حقدهم عليه ، أن يتضافر بنو بكر بن وائل مع الطائيين وسائر العرب المقيمين بالحيرة وفيما حوطا لمقاومته أو قطع الطريق عاياه ، فعزم مهاجمتها والاستيلاء عليها واتخاذها مقر قيادته ومصدر نشاطه .

التجهز لفتح
الحيرة

ولم يكن أهل الحيرة في شك من مقبله عليهم وحصاره إياهم بعد أن استفاضت بينهم أخبار أليس وأمغيشيا وانتصاره عندهما وأفعاله فيهما . وقد ر حاكم الحيرة أنه سيركب إليه النهر متخذاً من سفن أمغيشيا مطية . لذلك نهض آزاذبه في عسكره إلى خارج الحيرة ، وأمر ابنه فسد قناطر الفرات ليحول دون مسيل الماء فيما وراءها ، وليعوق بذلك سير السفن إليه .

ولم يخطئ آزاذبه في تقديره ؛ فقد استقل خالد وجيشه سفن أمغيشيا ودفعوها شمالاً إلى ناحية الحيرة . وإنهم لكذلك إذ جنحت السفن وارتطمت بقاع النهر . وريع المسلمون لخنوحها وارتطامها ، وأخذ الغضب من خالد مأخذه . وسأل عن علة ما حدث ، فأجابه الملاحون بأن أهل فارس سدوا القناطر وحولوا الماء ، فلم يبق منه بالنهر ما يحمل سفنهم ، فخرج في كتيبة من فرسانه فلقى ابن آزاذبه على فم العقيق ، ففاجأه ورجاله وهم في مأمنهم ، وأعاد الماء يجري في النهر وأقام مع فرسانه يحرسه . وعادت السفن إلى المسير وحملت إليه جيشه فسار به إلى الخورنق حيث أنزله ليُعدّ لفتح الحيرة عُدته .

خالد في قصر
الخورنق

ووضع خالد يده على قصرى الخورنق والنَّجف ، وكانا مصيف أمراء الحيرة ، في حين عسكر جيشه أمام أسوار المدينة . أما آزاذبه ففر هارباً من غير قتال ، متأثراً بما أصاب ابنه ، وبموت أردشير . ولم يثن فراره أهل الحيرة عن التحصن بقلع المدينة الأربعة وبأسوارها ، وعن اتخاذ العدة للدفاع عنها

ما وجدوا إلى الدفاع سبيلا .

لكن عدوتهم لم تكن لتُجديهم فتيلاً . فقد أثار الخورنق وأثارت الحيرة خيال الجند المسلمين وبعثت إلى نفوسهم ذكرى النعمان الأكبر ابن المنذر وذكرى سِنَمَار وما أصابه لبناء هذا القصر المنيف وما قيل من الشعر فيه ، فزادهم ذلك قوة على قوتهم وعزماً على عزمهم . والمائد النابغة ، ابن الوليد ، سيف الله وسيف دينه الحق ، ما غناء عدة وإن عظمت أمام عبقريته وبأس لقائه ! لقد أبى أهل الحيرة أن يُسلموا وألحوا في إلبائهم ، فعهد خالد إلى أمرائه أن يبذلهم بالدعوة إلى التسليم ، فإن أجابوا إليه قبلوا منهم ، وإن أصروا على الإباء أجّلهم يوماً ثم قاتلوهم وقتلوهم . ودعا أمراء المسلمين زعماء الحيرة إلى إحدى ثلاث : الإسلام ، أو الجزية ، أو المنابذة . واختار الزعماء المنابذة ، ففض الجند عليهم قصورهم وأكثروا القتل فيهم . وكان بأديار الحيرة عدد عظيم من القسيسين والرهبان ما لبثوا حين رأوا المذبحة تصيبهم وتصيب غيرهم أن نادوا : « يا أهل القصور ما يقتلنا غيركم ! » ورأى أهل القصور المقاومة عبثاً فنادوا : « يا معشر العرب ! قد قبلنا واحدة من ثلاث ، فكفوا عنا حتى تُبلغونا خالدًا » .

مقاومة الحيرة
تتحطم

وخلا خالد بأهل كل قصر دون الآخر ، وقال لهم : « ويحكم ! أنتم عرب ، فما تنقمون من العرب ؟ أو عجم فما تنقمون من الإنصاف والعدل ؟ » . وكان جوابهم : « بل عربٌ عاربة وأخرى متعرّبة » . قال خالد : « لو كنتم كما تقولون لم تحادّونا وتكرهوا أمرنا؟ » . وأجابوا : « لبيد لك على ما نقول أنه ليس لنا لسان إلا العربية » . قال خالد : « فاخترنا واحدة من ثلاث : أن ندخلوا في ديننا فلحكم ما لنا وعليكم ما علينا ، إن نهضتم وهاجرتم وإن أقمت في دياركم ، أو الجزية ، أو المنابذة والمناجزة ، فقد والله أتيتمكم بقوم هم على الموت أحرص منكم على الحياة » . وأجابوا : « بل نعطيك الجزية » .

وعجب خالد منهم لإلحاحهم في نصرانيتهم ، وقال لهم : « تبناً لكم ! ويحكم ؛ إن الكفر فلاةٌ مضلةٌ » ، فأحمق العرب من سلكها فلقية دليلان أحدهما عربى فتركه واستدل الأعجمى . ولم يغير هذا الكلام من إصرار القوم

على دينهم . ولعلمهم إنما فعلوا متأثرة نفوسهم باعتبار الكرامة الإنسانية التي تحول بين المرء والرجوع عن عقيدة يؤمن بها لأنه غلب على أمره وأكره على تبديل دينه ؛ متأثرة كذلك بأن المسلمين لا يزالون في أول عهدهم بالعراق ، وليس يدرى أحد أيطامن لهم الأمر فيه أم تُجلبهم الحوادث عنه .

صلح أهل الحيرة
على الجزية

وصالح خالد القوم على الجزية تسعين ومائة ألف درهم ، وكتب بيمنه وبين نقبائهم عدى وعمرو ابني عدى وعمرو بن عبد المسيح وإياس بن قبيصة وحيرى ابن أكال كتاباً عاهدتهم فيه برضا أهل الحيرة وأمرهم على هذه الجزية ، تقبل في كل سنة على أن يمنعه ، فإن لم يمنعه فلا جزية عليهم . أما إن غدروا بفعل أو قول فذمتهم منهم بريئة .

وأهدى القوم إلى خالد هدايا بعث بها وبنياً بالفتح والمعاهدة إلى أبي بكر ، فأجاز المعاهدة وقبل الهدايا ، لكنه احتسبها من الجزية وكتب بذلك إلى خالد (١) .

قصة شويل
وكرامة بنت
عبد المسيح

ويروى المؤرخون عند ذكرهم نبأ الصلح قصة طريفة وإن ران الريب على حوادثها ؛ ذلك أن خالداً أبى أن يكتب مع القوم عهداً إلا أن تُسلم كرامة بنت عبد المسيح أخت عمرو إلى شويل (٢) . وهو إنما أصر على ذلك

(١) يجمع المؤرخون على قصص يروونها عن عمرو بن عبد المسيح ، وكان يسمى بقبيلة لأنه خرج على قومه في بردين أخضرين فقالوا له : يا حار ، ما أنت إلا بقبيلة خضراء . قيل كان بقبيلة أول من طلب الصلح ففوضه فيه قومه . وسأل خالد بن الوليد عمراً : كم أنت عليك ؟ قال : مئوسين . قال : فما أعجب ما رأيت ؟ قال : رأيت القرى منظومة بين دمشق والحيرة تخرج المرأة من الحيرة فلا تزود إلا رغيفاً . فتبسم خالد وقال : هل لك من شيخك إلا عقله ، خرفت والله يا عمرو ! ثم أقبل على أهل الحيرة فقال : ألم يبلغني عنكم أنكم خبثة خدعة مكرة ! فإلستم تتناولون أموركم بخوف لا يدرى من أين جاء ! فتجاهل عمرو وأحب أن يريه من نفسه ما يعرف به عقله ويستدل به على صحة ما روى عنه فقال : وحقك أيها الأمير إنى لأعرف من أين جئت ، قال خالد : فن أين جئت ؟ قال : من بطن أمي . فقال : فأين تريد ؟ قال : أمامي . قال : وما هو ؟ قال : الآخرة . قال : فن أين أقصى أترك ؟ قال : من صلب أبي . قال : فقيم أنت ؟ قال : في ثيابي . قال : أنتقل ؟ قال : أي والله . فلما رأى خالد حصافته قال : قتلت أرض جاهلها وقتل أرضاً عالمها والقوم أعلم بما فيهم . قال عمرو : أيها الأمير . الخلة أعلم بما في بيتها من الجمل بما في بيت الخلة .

(٢) والبلاذري يذكر أن اسم الرجل خريسم .

لما قيل من أن شويلا هذا سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر فتح الحيرة فسأله كرامة ، فقال له : « هي لك ، إذا فتحت عنوة » . وكانت كرامة بارعة الجمل في صباها ، وكان شويل قد رآها في شبابه فجنى بها وأقام يهرف بها دهره . أما وقد طالب بها فما كان لخالد إلا أن ينفذ وعده رسول الله .

وشق هذا الأمر على أهلها وأعظموا الخطر ؛ فقالت لهم « هونوا عليكم وأسلموني فإنني سأفتدي . وما تخافون على امرأة بلغت ثمانين سنة ! إنما هذا رجل أحمتي رآني في شبيبتي فظن أن الشباب يدوم ! » . ودُفعت إلى شويل ، فقالت له : « ما أربك إلى عجوز كهاترى ؟ فادنى » قال : « لا ، إلا على حكيمى » . وقالت : « فلك حكمك مرسل » ، قال : « لست لأم شويل إن نقصمتك من ألف درهم » . وتظاهرت كرامة باستكثار المبلغ لتخذه ، ثم أتته به ورجعت إلى أهلها . وسمع أصحاب شويل بما صنع فسبحروا منه لتلثة الفداء وعنفه بعضهم ؛ فكان اعتذاره : « ما كنت أرى أن عدداً يزيد على ألف » ، وشكا أمره إلى خالد ، وقال : « كانت نيتي غاية العدد » . قال خالد : « أردت أمراً وأراد الله غيره . فأخذ بما يظهر ونذرك ونيتك كاذباً كنت أو صادقاً » .

ولما تم لخالد فتح الحيرة صلى صلاة الفتح ثمانى ركعات لا يسلم فيها . فلما أتتهن انفتل إلى أصحابه يقول : « لقد قاتلت يوم مؤتة فانقطع في يدي تسعة أسياف ، وما لقيت قوماً كمن لقيتهم من أهل فارس ، وما لقيت من أهل فارس قوماً كأهل ألييس » .

وأقام خالد بالحيرة وجعلها مركز قيادته ، فكانت أول عاصمة إسلامية خارج بلاد العرب . على أنه ترك أمر إدارتها لزعماء من أبنائها . لذلك اطمأنوا إلى حكمه ، ونشروا حولهم جواً من السكينة إليه . ورأى أهل البلاد القريبة من الحيرة عدلاً شاملاً ، ورأوا بلاط فارس مشغلاً عنهم ، ففكروا في مصالحة خالد والانضواء للوائه . أليس قد ترك الفلاحين يعملون في الأرض لم يتعرض لهم ، بل رفع عنهم ما كان نازلاً بهم من ظلم دهاقين الفرس ، وحفظ عليهم كل حقوقهم ؟ وكان أول من صالحه صلوبا بن نسطونا صاحب قسّ الساطيف

خالد يتخذ الحيرة
مركز قيادته

على بانقشيا وبسما، وكتب معه عهداً على الجزية والمنعة لقاء عشرة آلاف دينار في كل سنة ، القوي على قدر قوته ، والمقل على قدر لإقلاله . وختم هذا العهد بالعبارة الآتية وجهه فيها الحديث إلى صلوبا : « ولأنك قد نقبت على قومك وإن قومك قد رضوا بك ، وقد قبلت ومن معي من المسلمين » .

صلح البلاد
القريبة من
الحيرة مع خالد

وأسرع غير صلوبا من الدهاقين إلى مصالحة خالد على ما بين الفلاليح إلى هُرْمُزْ جِرْد على ألفي ألف . بذلك بلغ سلطان خالد إلى شاطئ دجلة ، وجعل عماله يقتضون الجزية في هذه البلاد جميعاً ما بين الخليج الفارسي جنوباً إلى الحيرة شمالاً ، ومن حدود بلاد العرب غرباً إلى دجلة شرقاً .

وأقام خالد فيالق من جيشه في أماكن حصينة ليمنعوا من أجارهم من عدوان غيرهم عليهم ، وليكون مُتَمَامِهِمْ في مختلف المواطن مظهر السلطان الإسلامي بين أهل البلاد . ولقد كان لتوزيع هذه القوات في مواطن حصينة أثره الحاسم في القضاء على كل تفكير في الفتنة ، وفي توطيد الأمر للمسلمين لا ينافيهم فيه منازع .

الاضطراب في
ملك فارس

ولما خشي خالد ثورة الفتنة من ناحية القبائل العربية . أما الفرس فكفاهم أن بقيت المدائن بعيدة عن غزو المسلمين ، ثم كفاهم ما كانوا فيه من اضطراب حال بينهم وبين التفكير فيما عداه . فقد قتل شيرى بن كسرى وخلفاؤه كل وارث للعرش من أبناء كسرى وبسهرام جور ، فلم يجد الفرس من يملكونه عليهم وتجتمع الكلمة حوله . وتعاقبت على العرش أميرات زدنّه ضعفاً على ضعف . لهذا قنع الأعاجم بأن تظل عاصمتهم آمنة بما أقاموا حولها من قوات اتخذت نهر شير الذي يصل بين دجلة والفرات معقلاً لها ، في حين ظل ملكهم فيما هو فيه من فساد واضطراب .

وما كانت هذه القوات الفارسية لتصد خالداً عن مهاجمتهم لولا أوامر أبي بكر إليه ألا يبرح الحيرة أو يوغل في الفتح حتى يدركه عياض بن غنم ليحتمى ظهره . وقد بقي عياض بدومة لم يستطع التغلب على أهلها من يوم خرج إليهم . لذلك أقام خالد سنة كاملة بعاصمته الجديدة ، ويكاد بعده عن ميادين القتال يقتله . ولطالما قال لأصحابه : « لولا ما عهد إلى الخليفة لم

أَتَنَقَّدَ عِيَاضًا ، وما كان دون فتح فارس شئ ع . إنها لسنة كأنها سنة نساء ! . ثم إنه غلبه السأم ، فدعا إليه من أهل الحيرة رجالا دفع إليهم كتابين ، أحدهما إلى ملوك فارس ، والآخر إلى مرازبتها في أولهما : « الحمد لله الذي حل نظامكم ، ووهن كيدهم ، وفرق كلمتكم ، ولو لم يفعل ذلك بكم كان شرًّا لكم . فادخلوا في أمرنا ندعكم وأرضكم ، ونجوزكم إلى غيركم ، وإلا كان ذلك وأنتم كارهون ، على أيدي قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة » . وجاء في الثاني : « أسلموا تسلموا وإلا فاعتقدوا منى الذمة وأدوا الجزية ، وإلا فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون شرب الخمر » .

سأم خالد وتحميه
ملوك فارس
ومرازبتها

ماذا عساه يفعل بعد هذين الكتابين وأوامر أبى بكر إليه صريحة ، « ورأى الخليفة — في تعبير خالد — يعدل نجدة الأمة ؟ ! » . لقد حرّم أبو بكر عليه المدائن قبل أن يدركه عياض . أو لا يجد فيما سوى المدائن رياضة لنشاطه الحربى تتفق وأوامر الخليفة ؟ ! نعم ! فهؤلاء هم الفرس قد أقاموا كتابا في الأنبار وعين التّسمر على مقربة من الحيرة ، وقد تسوّى لهذه الكتابات نفسها أن تهدد المسلمين في مستقرهم الحديد . فليتحرك خالد إليهم وليقض عليهم ، وليجعل لنفسه من ذلك رياضة عن سنة النساء التى قضاه قاعدا لا يقاتل ولا يقتل . وترك القعقاع على الحيرة ، وجعل على مقدمته الأقرع بن حابس وسار على شاطئ الفرات يبدأ بالأنبار .

ونزل خالد فحاصر المدينة ، وأمر جنده فرشقوا رجالها بالنبل . لكنها ظلت متحصنة بأسوارها وبالخندق العميق الذى حفر حولها . وخالد قائد لا صبر له دون النصر . لذلك طاف بالخندق ، حتى إذا كان عند أضيق مكان منه أمر بالإبل الضعاف فنحرت وألقيت في أعماقه فطمسته ، واقتحم الجند من فوقها إلى الأسوار فحطموا أبوابها ، وكانوا على أهبة الدخول إلى المدينة يجمعون فيها قتلا وسبيًا ؛ لكن قائدها الفارسى شيرزاد أرسل إلى خالد أنه قبل مطالبه في الصلح على أن يلحقه بمأمنه في كتيبة من خيل ليس معهم من المتاع والأموال شئ ع . وقبل خالد وسرّح شيرزاد ، ودخل الأنبار واستقر بها وصالح من حولها ، واستتب له الأمر ، وتم له بعض ما أراد من رياضة عبقرته على القيادة .

خالد يسير إلى
الأنبار ويستولى
عليها

ثم يسير إلى عين
التمر فيحاصرها
ويفتحها

اطمأن الأمر لخالد في الأنبار وما حولها ، فاستخلف عليها الزبير بن
ابن بدر ، وقام في جنوده يقصد عين التمر على شفا الصحراء بين العراق وبادية
الشام فبلغها في ثلاثة أيام . وكان مهران بن بهرام جوبين حاكم عين التمر من
قبل فارس ، وكان حوله فيها جمع عظيم من العجم ، وإلى جانب هؤلاء
الآعاجم أقام عشير عظيم من قبائل البادية ، بنى تغلب والنسر وإياد يرأسهم
عقبة بن أبي عقبة والحذيل ومن كانوا معهم على قيادة الجنود التي نفرت مع
سجاح لتغزو المسلمين بالمدينة . ورأى أهل عين التمر مقدم خالد عليهم ،
فقال عقبة لمهران : « إن العرب أعلم بقتال العرب ، فدعنا وخالد ! » وابتسم
مهران وقال : « صدقت ! لعمري لأنتم أعلم بقتال العرب وإنكم مثلنا في قتال
العجم ، دونكمهم ! وإن احتجتم إلينا أعنّاكم » . ولم يفتن بعض الفرس
لخدعة مهران وخالوا كلامه عجزاً فلاموه عليه فأجابهم : « دعوني ، فإنني لم أرد
إلا ما هو خير لكم وشر لهم . إنه قد جاءكم من قتل ملوككم وقلّ حدكم ،
فاتقيته بهم . فإن كانت لهم على خالد فهي لكم ، وإن كانت الأخرى لم يبلغوا
منهم حتى يهينوا فنقاتلهم ونحن أقوى وهم مضطعون » .

شدة خالد في
معاملة المدافعين
عن عين التمر

ونزل عقبة لخالد على الطريق وحمل بجنده على جيش المسلمين ، فأسرع
خالد إليه فاحتضنه فأخذه أسيراً ، فولّى البدو منهزمين من غير قتال . وتعقبهم
المسلمون فأكثروا الأسر فيهم في حين نجا الحذيل ومن معه من أمرائهم .
ولم يلبث مهران حين رأى من الحصن ما حدث أن فرّ في جنده وترك الحصن
تحميه الكتائب التي امتنعت فيه ، وتحميه فلول البدو التي عادت هزيمة
إليه . ورأى من بالحصن أن لا طاقة لهم بخالد ، فسألوه الأمان فتأبى إلا
أن ينزلوا على حكمه . وأجابوه إلى ما طلب وفتحوا له أبواب الحصن ، فاعتقلهم
وأمر بعقبة فضرب عنقه ، ثم ضرب أعناق المقاتلة بالحصن وسبى نساءهم
وغنم أموالهم .

ويفسر الرواة شدة خالد في هذا الموقف بأن أعداءه قتلوا عسيراً الصحابي
كما قتلوا أحد الأنصار غدرًا ، ويرى بعضهم أن هذه القسوة أورثت عرب
العراق حقدًا على خالد كان ذا أثر في الانتفاض الذي حدث بعد ذهابه
لفتح الشام .

وكان بالحصن بيعة^١ يتعلم الإنجيل فيها أربعون غلاماً عليهم باب مغلق .
وقد كسر خالد الباب عليهم وسألهم : ما أنتم ؟ قالوا : رُهْنٌ ، فقتلهم فيمن
أحسنوا البلاء . وأكبر الظن أن ما كانوا يتعلمونه في هذه البيعة كان عظيم
الجدوى ؛ فقد نشأ منهم سيرين^٢ أبو محمد بن سيرين فقيه البصرة ، ونُصَيْرُ
أبو البطل الفاتح موسى بن نصير فاتح الأندلس .

ولما أتم خالد فتح الأنبار وعين التمر بعث إلى أبي بكر بالأخماس والأنباء
مع الوليد بن عقبة . وقص الوليد على الخليفة ما حدث . ولعله قص عليه سأم
خالد سنة مُقامه بالحيرة وقوله للمسلمين : «لولا ما عهدت إلى الخليفة لم أُنقذ
عياضاً ، وما كان دون فتح فارس شيء ! إنها لسنة كأنها سنة نساء» وكان أبو بكر
من جانيبه قد بدأ يسأم موقف عياض ويرى فيه ما يضعف الروح المعنوية
للمسلمين . ولولا فعال خالد بالعراق لأزرى هذا الموقف بهم ، ولأغرى
خصومهم بالانتفاض عليهم ومحاولة النيل منهم . فلما سمع قصص الوليد عن
خالد وسأله أمر الوليد أن يتوجه مدداً لعياض بدومة الجندل . وألنى الوليد عياضاً
يحاصر القوم ويحاصرونه وقد أخذوا عليه الطريق ، ولم يجد بعد مداولة الرأي معه
وسيلة تُنقذه من هذا الموقف . هنالك قال له : «الرأي في بعض الحالات خير
من جند كثيف . ابعث إلى خالد فاستعده» .

أبو بكر يمد
عياض بن غنم
بالوليد بن عقبة
لفتح دومة الجندل

وما كان لعياض أن يتردد في قبول المشورة وقد بقي سنة كاملة لا يقوى
على خصومه ولا يبلغ منهم . وبعث إلى خالد رسولا أدركه غداة فراغه من عين
التمر . فلما فض خالد كتاب عياض ورأى ما فيه تهلل وأخذ منه الطرب وردّ
الرسول لساعته يحمل كتاباً منه إلى عياض يقول فيه :

إياك أريد .

لَبِثَ قَلِيلاً تَأْتَاكَ الْخِلَائِبُ يَحْمِلُنَ آسَاداً عَلَيْهَا الْقَاشِبُ^(١)
كَتَائِبُ تَتْبَعُهَا كَتَائِبُ

ونخفة خالد لنجدة عياض وهذه الشطرات من الرجز تقطع في الدلالة
على ما قلعنا من أن سأمه سنة النساء وبُعده عن ميادين القتال كادا

(١) القاشب : السيف الصقيل المجاو .

يقتلانه ، كما تدل على أن الأنبار وعين التمر لم تشفيا غلّته ، ولم تكفيا رياضة لعبقريته الجبارة .

ابن الوليد يسرع
السير إلى دومة

وخلف خالد عويم بن الكاهل الأسلمي على عين العمر وخرج في جنده يسرع إلى دومة جهده . وكان بين دومة الجندل وعين التمر ثلاثمائة ميل قطعها خالد في أقل من عشرة أيام ، اجتاز خلالها بادية الشام وصحراء النفود ، منحدرًا من الشمال إلى الجنوب ، مستعرضًا خطر الصحراء ورمالها السافية بعزم لا يعرف الخطر . فلما كان قريبًا من دومة وتسامعت القبائل بمقدمه بهتت ، ثم اختلف زعماءها بينهم ما يصنعون .

وكانت القبائل العسكرية بدومة في ذلك الحين أضعاف عددها يوم جاءها عياض قبل عام . ذلك أن بني كلب وبهراء وغسان نفروا من العراق ونفر معهم غيرهم منحدرين إلى دومة يريدون أن يثأروا من عياض لهزائمهم أمام خالد . وكان مجيئهم مما زاد موقف عياض حرجًا . وكان أكيدر بن عبد الملك الكندي صاحب دومة هو الذي انتقض على سلطان المدينة ، وهو الذي دفع أبا بكر ليعث إليه عياض يرده بالسيف عن انتقاضه . ولم يكن أحد من أهل هذه القبائل أعرف بخالد من أكيدر ؛ فهو لم ينس عام تبوك ورجوع رسول الله منها إلى المدينة ، وانقلاب خالد بن الوليد بأمر الرسول إلى دومة في خمسمائة فارس وانقضاضه عليه وأخذه إياه أسيرًا ، وتهديده إياه بالقتل إن لم تفتح دومة أبوابها . وهو لم ينس كيف فتحت دومة الأبواب فداءً لأمرها ، وكيف ساق خالد منها ألني بعير وثمانمائة شاة وأربعمائة وسق من برّ وأربعمائة درع . ولم ينس أخذه إياه إلى المدينة حيث أسلم وحالف رسول الله . لم ينس أكيدر هذا كله . لذلك لم يلبث حين عرف مقدم صاحبه أن توجه بالقول إلى الجودي بن ربيعة أمير القبائل التي انحدرت تنصر دومة وتثار من عياض ينصحه أن يصالح خالدًا . قال : « أنا أعلم الناس بخالد ! لا أحد أيمن طائرًا منه ولا أحد في حرب . ولا يرى وجه خالد قوم أبدًا كثروا أو قلوا إلا انهزموا عنه . فأطيعوني وصالحوا القوم » .

صاحب دومة
ينصح القبائل
بمصالحة خالد

أبت القبائل رأى أكيدر فقال لهم : « لن أمالككم على حرب خالد ،

فشأنكم» وخرج لطيئته يلقاه . وتختلف الرواية فيما أصابه حين أدخل على خالد : يقول بعضهم أمر به خالد فضرب عنقه ، ويقول آخرون بل أسر وأرسل إلى المدينة ثم سرحه عمر في خلافته ، فذهب إلى العراق وأقام على مقربة من عين التمر بمكان أسماه دومة .

ومضى خالد فجعل دومة بين عسكره وعسكر عياض بن غنم . وكان الجودي بن ربيعة قد بقى على أهل دومة ، في حين ترأس كل قبيلة من القبائل التي أمدت دومة زعيمها . وقد ضاق حصن دومة بهذا العدد ، فأقام سائر القوم حوله يحيطون به . واستفتح الفريقان القتال ، فلم يلبث الجودي أمام خالد إلا قليلاً ثم أخذه خالد أخذاً ، وأخذ الأقرع بن حابس زميله على أهل دومة ، وهزم عياض من يليه من جند القبائل . عند ذلك أسرع القوم جميعاً إلى الفرار يريدون دخول الحصن والاحتباء به . فلما امتلأ أغلق من فيه أبوابه دون أصحابهم وتركهم عرضة للمسلمين يقتلونهم ويأسرون منهم من يشاءون .

وأقبل خالد فقتل الذين ظلوا خارج الحصن حتى سد بهم بابه ، ودعا بالجودي فضرب عنقه ، ودعا بالأسرى فضرب أعناقهم ، إلا أسرى كلب فإنه أطلقهم على كره منه أن أجارهم الأقرع وعاصم . قال هذان لخالد . « قد آمنّاهم » ، فأطلقهم وهو يقول : « مالي ولكم ! أتحنفون أمر الجاهلية وتضيعون أمر الإسلام ! » .

وطوّف خالد بالحصن ، حتى إذا كان عند بابه أمر به فاقتلع ، واقتحم المسلمون على من فيه فقتلوا المقاتلة وسبوا النساء وباعوهن خير المشترين ، واشترى خالد أجمل فتاة فيهن ابنة الجودي بن ربيعة وأقام معها بدومة ، ورد الأقرع ابن حابس إلى الأنبار .

خالد يحاصر
حصن دومة
ويقتضه ويقتل
المقاتلة ويسبي
النساء

ما عناية المسلمين بدومة الجندل كل هذه العناية ؟ وما حرصهم على الاستيلاء عليها كل هذا الحرص ؟ ! لقد رأيتهم على عهد الرسول تتجه أنظارهم إليها ، ثم يحالفونها ويضمونها إليهم . وما هم أولاء في عهد أبي بكر يقضون سنة أمام حصونها ، ثم لا ينفكون عنها حتى تدلين لهم وتعود إلى سلطانهم ، ولعلك عرفت الجواب من خلال هذا القصص : فدومة كانت تقع على رأس

سبب عناية
المسلمين بدومة

الطريق الذى يؤدى إلى الحيرة وإلى العراق ، وعلى أبواب وادى سرحان الذى يؤدى إلى الشام. فطبيعى أن تنال من عناية رسول الله ما نالت حين كان أكبر همه إلى تأمين الحدود ما بين الشام وشبه الجزيرة . وطبيعى أن تنال مثل هذه العناية من أبى بكر وجنوده تقاتل بالعراق وتقف على تخوم الشام . وتلك هى العلة فى أن عياداً لم يبرحها على طول ما أقام أمامها ، وفى أن خالداً خف إليها أول ما استشير فى الوسيلة للتغلب عليها ، ولو أن دومة لم تُدْعن للمسلمين ولم تخضع لسلطانهم لبقى أمرهم فى العراق تحت رحمة المقادير ، ولما استطاعوا فتح الشام .

ولنقف الآن هنيهة مع خالد بدومة نسأله : ما سرّ هذه الموهبة التى جعلت النصر طوع يده ، بل جسدت النصر فى شخصه وجعلته مثاله ، فلو أنه عاش بين اليونان الأقدمين لاسموا إله النصر خالداً ؟ ! . أترأه يخبئنا ؟ ما أظن ! وهو لا يضمن بالحواب استكباراً ، بل لأنه لا يعرف هذا السر أكثر مما نعرف . فهذا السر يتصل بالروح ، والروح من أمر ربى ، وخالد مثلنا لم يؤت من العلم إلا قليلاً . ومتى عرف صاحب موهبة مكانها من نفسه ومصدر نبعها من روحه ؟ ! إنما هو فيض من فضل الله يتجلى به على من يشاء من عباده ، فإذا هذا خالد بن الوليد وذاك عمر بن الخطاب ، وغيرهما ابن سينا ، وابن رشد ، ورفائيل وبتهوفن ، وشكسبير ، والمعرى ، وشوقي . وهذا الفيض الإلهى الذى يتصل بروح عبد من خلق الله هو الذى يسمو به وبالأمة التى ينشأ فيها إلى حيث يريد الله . فإذا التقت تيارات الفيض فى زمن واحد وفى أمة واحدة ما التقت فى أبى بكر وعمر بن الخطاب وخالد بن الوليد ومن عاصرهم وعمل معهم ، سميت فى فترة وجيزة من الزمن إلى حيث سميت الأمة الإسلامية فى سنوات معدودة ، فانتقلت فى أقل من جيل من بداوة شبه الجزيرة إلى هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف المتغلغلة بسلطانها الروحى فى أعماق النفوس ، التى حملت عبء الحضارة عن العالم كله عشرة قرون تباعاً حتى احتملته أوروبا ولا تزال تنهض بعبئه إلى اليوم .

والناس يشعرون بسلطان هذه المواهب فتعنتو لها وجوههم ، فإذا ارتحل الصديق أبو بكر

عنهم صاحبها خلا لهم الجو فرفعوا رءوسهم وحاولوا الظفر بحريتهم . وكذلك صنع أهل الحيرة وغيرهم من أهل العراق في غيبة خالد بدومة . ظن الأعاجم ومن ناصرهم من العرب أن الحظ موات والفرصة سانحة ، وحيث إلى بني تغلب أن الثأر لمقتل عقمة قد حان . ولم يكن في طاقة القعقاع إلا أن يحصى ما كسب المسلمون فلا يدع من وراء حدودهم يتقدم إلى غزوهم . وبلغت خالداً هذه الأنباء فلم يطلق البقاء بدومة بل خرج وعلى مقدمته الأقرع بن حابس ومعه عياض بن غنم . وما لبث حين بلغ الحيرة أن جعل عليها عياضاً ، ووجه القعقاع إلى الحُصَيْد حيث تواجد الثائرون من العرب والفرس . أما هو فأقسم ليبتغى تغلب في دارها .

أهل العراق
ينهبون الفرصة
لغيايب خالد
فينثرون

ولقد كفى أن علم أهل العراق بمقدمه فاستقط في أيديهم وتكسر وجه الحظ لهم ، وخاب ما ظنوا أن هؤلاء الغزاة من شبه الجزيرة سيرحلون عنهم كما رحل من قبل أمثالهم . وبدأ ذلك كله واضحاً في وجوههم حين خرج القعقاع إلى استقبال خالد بظاهر الحيرة . فقد وقف في طرقاتها رجال من أهلها يرون جيش المسلمين يمر بهم فيقولون لأصحابهم إذا رأوهم : مرّوا بنا فهذا فرح الشر .

مرد خالد إلى
العراق وفعاله فيه

وسار القعقاع إلى حُصَيْد وقد أمدّه خالد من روحه بقوة على قوته ، فلم يثبت له العجم بل قُتل قائدهم ، وفرّ جيشهم ، وغنم المسلمون ما شاء الله أن يغنموا . وحيث إلى الفارين أنهم يستطيعون التحصن ببِلدة الخنافس مع من بها من العجم . لكن قائدها فرّ أول ما سمع بمقدم جيش المسلمين ، فلم يلق هذا الجيش من يحاربه . وانتهى خبر ذلك كله إلى خالد ، فكتب إلى قواده فواعدهم ليلة وساعة يجتمعون فيها ببِلدة المُصَيِّخ ، منازل هذيل الثائرة بهم . واجتمعوا ليلة موعدهم وأغاروا على هذه القبائل وهم نائمون ، فلأوا القضاء بقتلهم ، حتى كأنهم غنم مصرّعه .

وقتل بالمُصَيِّخ رجالان من المسلمين معهما من أبي بكر كتاب بإسلامهما ، فلما بلغ مقتلهما أبا بكر وداهما . لكن عمر أخذها على خالد وأضافها إلى قتل مالك بن نويرة . وكما دافع الصديق عن ابن الوليد في الأولى دافع عنه في هذه

بقوله عن الرجلين . « كذلك يلتقي من ساكن أهل الحرب » .

وان لخالد بعد المُصَيِّخ أن تبرّ يمينه ليمبغتن تغلب في دارها . لذلك تقدم إلى قائديه التمتع وأبى ليلى أن يرتحلا أمامه ، وواعدهما الغارة على التغلبين في ليلة عيسنها . واجتمع القواد الثلاثة من ثلاثة أوجه فجردوا السيوف ، فلم يفلت من جيش بنى تغلب مخبر . وأخذ خالد السبي والمغانم ، فبعث بالخمسة إلى أبي بكر مع النعمان بن عوف الشيباني . وقد اشترى على بن أبي طالب من السبي صابحة بنت ربيعة بن بُجيسر التغلبي فولدت له عمر ورقية .

ذاغت أنباء خالد وشنّه الغارة على القبائل ليلا في منازلها ، وأخذته النساء والبنات سبيات منها ، وقسمته المغانم والسبي بين عسكره ، وعجز القبائل جميعاً عن مقاومته ، ففتت ذلك في أعضاد رجال البادية بالعراق ، فألقوا سلاحهم وطلبوا الأمان ، وجعل خالد يسير شمالاً على شاطئ الفرات وفيما حوله ، فلا يلتقى إلا الإذعان والإيمان بعبقريته . فلما بلغ الفراض ، وهي تخوم العراق والشام ، نزلها بجيشه وأفطر بها رمضان في تلك السفرة التي انتصت له فيها الغزوات والأيام ونظمت نظماً .

ولننزل مع خالد الفراض نستجم قليلاً . فالفراض هذا أدنى إلى شمال العراق وشمال الشام . فلو أن عياض بن غنم ساعفه الحظ فأخضع دوة أول ما ذهب إليها لما كان هذا الشمال الذي بلغه خالد هو الذي عناه أبو بكر حين أمر عياضاً أن ينزل العراق من شماله ، إنما كان مقصد المصديق إلى شمال الحيرة . أما أن تبلغ جنوده تخوم الشام من أعلاه فتلك معجزة لم يفكر الخليفة فيها ، وهي معجزة لم يؤتها إلا الذي عقدت النساء أن يلدن مثله . وأية معجزة كمواجهة الروم من تخوم فارس ! وأية جرأة ك مقام خالد بالفراض شهراً كاملاً وليس بينه وبين جيوش الروم العسكرية بالشام غير مجرى الفرات ! أولاً يخشى أن تضيق هذه الجيوش صبراً بمرآه فتنازله فيتضاعف بذلك عدوه ؟ وأى عدو ! فارس من الشرق ، والروم من الغرب ، وقبائل البدو الحاقدة الخنقة من كل جانب . أليس خيراً له وقد قضى على ثورة العراق أن ينسحب إلى الحيرة وأن يقيم بها فيوطد ملك المسلمين فيها ! ! .

خالد يبلغ الفراض
على تخوم العراق
والشام

كلا ! لئن فعل ليكونن السياسى الذى يريد أن يجعل الزمن من جنده ، والصبر من أعوانه . وخالد أضيق صدرًا بالزمن وأكثر ازدراء للصبر وأشد مقتًا للسياسة المحاولة المطاولة من أن يمر شيء من ذلك بخاطره . وما الفرس وما الروم وما رجال البادية وما جموعهم وإن زحرت أمام نظرتهم القوية الصارمة التى تلقى الرعب فى القلوب فتهاز الميادين وتبطش بالدول أسرع البطش ! . إنه مقيم ها هنا بالفراض ، وللروم رأيهم إن شاءوا مصالته .

ولمّا تكن الروم قد ذاقتم بأس خالد . لذلك أغاظهم أن يقيم جيش المسلمين فى وجوههم وأن يطيل المقام ، وثارت فى عروقهم حمية أذكاهم الفرس والعرب الذين ذاقوا من نكال خالد أهوالا . فقد كان للفرس كتائب قريبة من الفراض ، وأهل البادية من تغلب والنمر وإياد منتشرون فى كل مكان . هؤلاء وأولئك انضموا للروم وحرصوهم وأمدوهم ، فساروا حتى إذا لم يبق إلا الماء بينهم وبين خالد بعثوا إليه يقولون : إما أن تعبّروا إلينا ، وإما أن نعبرُ إليكم . قال خالد : بل اعبروا إلينا . وفيما يعبرون صفّ صفوفه ودبر خطته . وقالت الروم لحلفائهم : امتازوا حتى نعرف اليوم ما يكون من حسن أو قبيح من أيّنا ينجى . والتقى الجمعان وقد أمر خالد رجاله أن ياحوا عليهم ولا يرفهوا عنهم ؛ فكان صاحب الخيل يحشر منهم الزمر برماح أصحابه ، فإذا جمعوهم قتلوهم . على أن مقاومة الروم وحلفائهم تؤذّن بالمعركة أن تطول ؛ لذا أبدع خالد ألوانًا من المداورة فى القيادة لم يعهدها أعداؤه من قبل فلم يثبتوا لها . وإنكشف الروم وحلفائهم مدبرين والمسلمون من ورائهم يُمعنون فيهم قتلا . وبلغ من ذلك أن قتل بالفراض فى المعركة وفى الطلب مائة ألف فى رواية جميع المؤرخين .

غزوة الفراض

انتصار المسلمين
الحاسم فى وقعة
الفراض

أقام خالد على الفراض بعد الموقعة عشرة أيام ، ثم أذّن فى الناس بالرجوع إلى الحيرة ، وكان أذانه ذاك لخمسة بقين من ذى القعدة من السنة الثانية عشرة للهجرة .

ترى أيعود خالد مع الجيش يستقر بالعاصمة الجديدة ؟ !

إن عليه لله دينًا يجب قبل كل شيء أدائه . وهو قد شعر بعد الفراض بجلال هذا الدين وبأنه لم يعد فى وسعه إرجاؤه . لقد فتح الله عليه اليمامة ، ثم

فتح عليه العراق ؛ وأدال له من دولة كسرى ، وبشره في الفراض بإدالة الروم ودولتهم . لله الحمد على ذلك كله ألف حمد ، جل ثناؤه ، وتباركت أسماؤه ! ترى أو يكفي الحمد ويجزئ الثناء عما أنعم الله به عليه ؟ أو ليس فرضاً لله عليه أن يحج بيته ، يزيد تبارك وتعالى حمداً وشكراً ، ويستغفره عما فرط منه ، إنه هو الغفور الرحيم ! ! .

وتجسم الشعور بهذا الواجب في نفس خالد بعد موقعة الفراض ، وجعل يزداد في العشرة الأيام التي قضاها بها ، ثم صار قوة قاهرة لا فكاك له منها ولا سلطان له عليها ، بل صار أمامها أضعف من جيش الروم ومن جيش الفرس أمامه . لم يرغب عنه ما يهني ببعده عن العراق من فرص للفرس يحركون أثناءها أسباب الفتنة ويشجعون بها عوامل الانتفاض والثورة . ذلك أمر يجب لا ريب اتقاؤه . لكنه لن يردّه بحال عن عزمه ولن يصرفه عن أن يؤدي لله دينه .

ولا سبيل إلى اتقاء هذا الأمر إلا أن يحج خالد وأن يعود إلى العراق ، ثم لا يعلم بذلك أحد إلا أصفياؤه الذين يخرجون معه . لكن ! أليس واجباً عليه أن يبلغ الخليفة وأن يتلقى أوامره ! فإن أبي عليه الخروج كان له عند الله عذره . وهبه أجازه ثم حدث ما يخشى وانتقض العراق فأى خير للإسلام في أن يعود بعد حجه يجاهد كما جاهد بعد دومة ! وإن لم يجزه الخليفة لم يسترح ضميره لنكوله . ليس له إذن إلا أن يمضي في عزمه وأن يتم حجه في سر من أبي بكر ومن الناس جميعاً . وإنه لوائق أن الصدّيق سيلتمس له عن صنيعة عذراً ، وأن الله سيكتب له بحجه أجراً .

حج خالد في
سر من الناس

أمر خالد الجيش إذن أن يعود إلى الحيرة متمهلاً وأظهر أنه في الساقية ، وخرج في نفر من أصحابه ينهب الأرض إلى مكة ، متخذاً أكثر الطرق استقامة وإن كان أشدها وعورة . ومتى صده الوعر عن شيء ؟ ولم يحتاج سلوك هذا الطريق إلى دليل يهديه . وما حاجته إلى دليل وهو من أبناء مكة يعرف ما يعرفون من طرق بلاد العرب لتجارهم ، وهو قائد جاب أرجاء البادية جميعاً وعرف أوديتها وكتبانها ، سهولها ونجودها ! . وبلغ مكة وأتم فرائض الحج وأدى لله دينه ؛ ثم عاد أدراجه لم يعلم بمقدمه إلى مكة أحد من الألو

الذين قدموا إليها ، ولم يعلم به أبو بكر ، وفي رواية أنه كان بمكة على الحج في ذلك العام .

عاد أدراجه ينهب الأرض إلى الحيرة في ذلك الطريق الوعر ، كما نهبها من قبل إلى مكة . ودخل الحيرة حين دخول ساقة الجيش من الفراض إليها . بذلك لم يفطن إلى رحلته لأداء الفريضة أحد من فرس العراق ولا من عربيه ، ولم يترتب على غيبته هذه الفترة عن العراق أثر .

وأقام خالد بالحيرة مطمئناً ، وكأنما خيل إليه أنه أدى كل ما عليه لله ولدين الحق من واجب ، وأنه يستطيع بذلك أن يحجم ، ثم لعله من بعد أن يذهب إلى المدائن يفتض على كسرى عاصمته . لكن للأقدار أحكاماً يُعجز الناس غيبها وإن أوتوا من قوة الحكم وسرعته ما أوقى سيف الله . ولقد شاءت الأقدار أن يتابع خالد ما فتح الله به عليه في الفراض ، وأن يغزو الروم في صميم ملكها ، كما غزا فارس في صميم ملكها^(١) .

قليل إن عمر هو الذي كان على الحج حين ذهب خالد إلى مكة ، وأن أبا بكر لم يرأس الحج في خلافته . والمؤرخون يرجحون أن أبا بكر هو الذي كان على حج ذلك العام . وأما الروايتين صحت فإن أبا بكر لم يعرف بحج قائده الأكبر إلا بعد أن رجع الناس جميعاً من الفريضة وبعد أن استقر خالد بالحيرة . أفغضب الخليفة لخروج خالد من غير إذنه ؟ وهل ترك هذا الغضب موجدة في نفس الصديق عليه ؟ ! ذلك ما سنراه بعد حين .

(١) تتفق روايات المؤرخين عن فتح العراق ومسيرة خالد به إلى فتح الحيرة ؛ وما يقع على بعض التفاصيل من اختلاف الروايات لا يغير من تتابع الحوادث ولا من نتائجها . أما ما بعد ذلك فوضع خلاف . وما رويناه في هذا الفصل عن الأنبار وعين التمر والفراض هو ما اتفق عليه الطبري وابن الأثير وابن خلدون ومن أخذ مأخذهم . أما البلاذري في فتوح البلدان ، وأما الأزدى والواقدي في فتوح الشام ، فلا يذكرون شيئاً عن وقعة الفراض ، ويروون أن خالداً إنما غزا الأنبار وعين التمر حين وجهه أبو بكر من العراق أميراً على قوات المسلمين بالشام .

الفصل الثالث عشر

بين العراق والشام

تحدث الناس في مختلف الأقطار بفعال خالد بن الوليد في العراق العربي ، وبانتصار المسلمين على الفرس في جميع المواقع التي التحموا فيها . وكان لهذه الأنباء من الصدى في الشام وفي باديته ما نسبته عاهل الإمبراطورية الرومية الشرقية في مستقره بيزنطية وما أثار تفكيره . فالغساسنة الذين يقيمون تحت كنفه بالشام عرب كاللخميين وبني تغلب وإياد والنسرو وغيرهم ممن يقيمون على حدود العراق ويتغلغلون بين النهرين فيه . وقبائل بني بكر وبني عذرة وبني عدوان وبني بحرة تقع منازلهم على تخوم الغساسنة وبادية الشام . أليس طبعياً أن يفكر المسلمون في غزو الشام العربي كما فكروا في غزو العراق العربي ؟ ! هذا أمر يجب الاحتياط له والحذر منه . ويجب لذلك تحصين التخوم بين الشام وبلاد العرب وجعلها من المنعة بحيث تصد المسلمين عن التفكير في العدوان على أية ناحية من الإمبراطورية الرومية .

حذر الروم من المسلمين

إلى هذا الاتجاه انصرفت سياسة الروم ، فانقلبت من الطمأنينة إلى الحذر . لقد كان همّ المسلمين في عهد الرسول أن يحصّنوا تخوم العرب في الشمال مخافة عدوان الروم عليهم بتحريض اليهود والنصارى الذين أجلاهم الدين الجديد عن شبه الجزيرة . أما اليوم فالروم هم الذين يُعنون بتحسين تخومهم في الجنوب مخافة عدوان المسلمين عليهم بقوة إيمانهم وبما كفّل لهم هذا الإيمان من نصر وفتح .

لم يكن هذا الخطر الذي أثار هواجس هرقل بعيداً عن تفكير أبي بكر ، بل كان يتردد في نفسه منذ بدأت طلائع النصر تسير أعلام المسلمين في حروب الردة . لكنه كان يتردد في تنفيذه قبل الفراغ من هذه الحروب ، خشية انتقاض العرب عليه وثورتهم به كرة أخرى . فلما هون المثنى بن حارثة الشيباني أمر العراق ، ولما انطلق خالد بن الوليد يكتسح أمامه الفرس وأهل البادية

تفكير أبي بكر في غزو الشام

ويضع يده على الخيرة ويجعلها عاصمته ، ازداد أبو بكر تفكيراً في أمر الشام . إن به من قبائل العرب مثل ما بالعراق ، وقد انضمت بعض قبائل العراق إلى جيوش المسلمين وحاربت في صفوفهم جيوش كسرى مع بقائها على نصرانيتها . لا جرم أن تفعل قبائل الشام فعلها . فالروم يحكام على الشام ، وبينهم وبين قبائل البادية المقيمة به من اختلاف الجنس واللغة ما بين الفرس والعرب على شواطئ دجلة والفرات . فإذا تقدم العرب في الشام وتغلبوا على جنود الروم انضم عرب الشام إلى أبناء عمومتهم من أهل شبه الجزيرة . ومن شأن هذا الانضمام أن يزيد المسلمين طمأنينة إلى النصر على عدوهم ، وأن ينتهي بهم إلى الاستقرار في هذه البلاد الممرعة الخصب مع بني عمومتهم . فإن أسلم هؤلاء يوماً كان لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم .

وزال كل تردد من نفس أبي بكر حين سلمت دومة الجندل وفتحت أبوابها للمسلمين . لكن انشغال قوات المسلمين بالعراق وبقتال المرتدين في الجنوب من شبه الجزيرة جعله يؤثر أن يقف من الروم موقف المدافع ، فلا يبدوهم بقتال إلا أن يبدؤوه به . ولقد كانت أوامره إلى قواده على تخوم الشام صريحة في هذا المعنى كل الصراحة . ولم تكن الروم من جانبها لتجاوز باجتياز تلك التخوم وهم يرون المسلمين ينتصرون في كل مكان . بذلك ظل القرىقان على حذر بعضهم من بعض ، وأكبرهم هؤلاء وأولئك ألا يشتبكوا في قتال .

موقف الروم
والعرب على تخوم
الشام

وزاد الروم إثارة لهذا الموقف أن القوات التي أوفدها أبو بكر عقب بيعته إلى شمال شبه الجزيرة لقتال من ارتد ولحماية التخوم بقيت سليمة لم يُصعبها أذى . فقد عادت القبائل هناك إلى سلطان المدينة دون أن يستحر قتال ، اللهم إلا دومة الجندل ، إذ أصرت على انتفاضها فقاومت عياضاً وظلت متحصنة منه حتى فض ابن الوليد حصونها . وكانت قوات الروم من أهل فاسعين ومن عرب البادية المقيمين على حدود الحضر ؛ فلم يكن يدفعها إلى مقاتلة العرب وازع نفساني يجب إليها الموت انتصاراً لحق تُعلى كلمته ، أو لمثل أعلى تحرص على تحقيقه .

خالد بن سعيد
قائد المسلمين على
تخوم الشام

كان قائد المسلمين على هذه التخوم خالد بن سعيد بن العاص . قيل إن
أبا بكر لما عقد الأولوية لقتال أهل الردة عقد لخالد فيمن عقد ، فنهاه عمر
ابن الخطاب عن تأميره ، وقال له : « إنه لمخذول ، وإنه لضعيف التروثة » ؛
وما زال يحرضه على عزله حتى جعله أبو بكر رداءً بتيّماء على تخوم الشام ،
ولم يجعله على من يقاتلون المرتدين .

رسالته الأولى
إلى أبي بكر

ونزل خالد تيماء وقد أمره أبو بكر ألا يبرحها ، وأن يدعو القبائل التي
حولها إلى الانضمام إليه لإلّا من ارتد منهم ، وألا يقاتل إلا من قاتله حتى يأتيه
أمره . ونفذ خالد أمر الخليفة ، فاجتمعت إليه جموع كثيرة جعلت عسكره
عظيماً . وترامت إلى الروم أنباء هذه الجموع على تخومهم ، فلم يبق لدى
هرقل ريب في وجوب دفعهم ؛ ولهذا الأمر اتخذ عدته . وترامت إلى خالد بن
سعيد من ذلك أنباء سارع فبعث بها إلى المدينة مشفوعة برأيه أن يأذن الخليفة
له في منازلة الروم ومن انضم إليهم من قبائل العرب بالشام ، مخافة أن يأخذوه
ومن معه على غرة .

فكّر أبو بكر في رسالة خالد بن سعيد وطال تفكيره . إن الأنباء الواردة
من جنوب شبه الجزيرة حسنة كلها . لقد قضى عكرمة بن أبي جهل والمهاجر
ابن أبي أمية على المرتدين هناك . وعما قريب يرجع عكرمة بجيوشه ويظال
المهاجر أميراً على اليمن . ومتى عادت جنود المسلمين كان لإرسال المدد إلى الشام
يسيراً . لكن ! أو تكفي هذه الجنود لقتال الروم ولغزو الشام وعند الروم
من العدد والعدة ما لا يحمله أبو بكر ، وما تغلب هرقل به من قبل على
فارس ؟ . أو ليس من الخير أن يستعين بمن بقى على إسلامه من أهل الجنوب
ليبعثهم إلى الشام فإذا ذهبوا فلن يقاوم الروم أكثر مما قاوم الفرس في العراق العربي .

أبو بكر يشاؤ
أهل الرأي في
غزو الشام

وأصبح يوماً فدعا إليه عمر وعثمان وعليّاً وطلحة والزبير وعبد الرحمن
ابن عوف وسعد بن أبي وقاص وأبا عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل وأبي
ابن كعب وزيد بن ثابت وجلة المهاجرين والأنصار من أهل بدر وغيرهم ،
فدخلوا عليه ، فتحدث إليهم وذكر لهم أن رسول الله كان عوّل أن يصرف
همته إلى الشام فقبضه الله إليه ، واختار له ما لديه . « والعرب بنو أم وأب .

وقد أردت أن أستنفرهم إلى الروم بالشام ، فمن هلك منهم هلك شهيداً ، وما عند الله خير للأبرار ، ومن عاش منهم عاش مدافعاً عن الدين ، مستوجباً على الله عز وجل ثواب المجاهدين » . ثم طلب إليهم رأيهم ، فقال عمر : « والله ما استبقنا إلى شيء من الخير قط إلا سبقتنا إليه . قد والله أردت لقاءك بهذا الرأي الذي ذكرت ، فما قضى الله أن يكون ذلك حتى ذكرته الآن ، فقد أصاب الله بك سبل الرشاد . سرتب إليهم الخيل في أثر الخيل ، وبعث الرجال تتبعها الرجال والجنود تتبعها الجنود ؛ فإن الله عز وجل ناصر دينه ومقر الإسلام وأهله ومنجز ما وعد رسوله » .

رأى عبد الرحمن
ابن عوف

على أن عبد الرحمن بن عوف كان أدنى إلى الحذر وأشد اتقاء للمغامرة . قام فقال : « يا خليفة رسول الله ، إنها الروم وبنو الأصفر ! حدٌ حديد ، وركن شديد ! والله ما أرى أن تُقحم الخيل عليهم لإقحاماً ولكن تبعث الخيل فتغير في أداني أرضهم ، ثم تبعثها فتغير فترجع إليك ثم تبعثها فتغير ثم ترجع إليك ، فإذا فعلوا ذلك مراراً أضربهم بعدوهم وغنموا من أداني أرضهم فقتلوا بذلك على قتالهم . ثم تبعث إلى أقاصي أهل اليمن وإلى أقاصي ربيعة ومضر فتجمعهم إليك جميعاً . فإن شئت بعد ذلك غزوتهم بنفسك ، وإن شئت بعثت على غزوهم غيرك » .

جلس ابن عوف بعد هذا الكلام فسكت الناس وسادت هنيهة صمت اتجه بعدها أبو بكر إلى الحاضرين يسألهم : « ماذا ترون رحمكم الله ؟ » . وتكلم عثمان بن عفان فقال : « أرى أنك ناصح لأهل هذا الدين ، شفيق عليهم ، فإن رأيت رأياً فيه لهم رشد وصلاح وخير فاعزم على إمضائه ، فإنك غير ضنين ولا متهم عليهم » . وأقر الحاضرون جميعاً رأي عثمان وقالوا : « ما رأيت من رأي فأمضه ، فإننا سامعون لك مطيعون ، لا نخالف أمرك ولا نتهم رأيك ، ولا نتخلف عن دعوتك وإجابتك » . فقام أبو بكر يدعو القوم للتجهز إلى غزو الروم بالشام ، ويقول : « إني مؤثر عليكم أمراء وعاقدهم لهم عليكم ، فأطيعوا ربكم ولا تخالفوا أمراءكم ، ولتحسن نيّتكم وسيرتكم ؛ فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » .

موقف المسلمين
من الدعوة لغزو
الشام

تُرى أتحمس الناس لهذه الدعوة ؟ أأجاب الخليفة منهم أحد يطلب الجهاد ؟ ! لقد أخذتهم هيبة الروم فسكتوا . عند ذلك صاح فيهم عمر : « ما لكم يا معشر المسلمين لا تجيبون خليفة رسول الله إذ دعاكم لما يحييكم ؟ » ونبهت القوم هذه الصيحة فرضوا الجهاد وإن آثروا أن يستعين الخليفة على عدوه بأهل اليمن وأهل شبه الجزيرة جميعاً^(١) .

لا عجب وذلك موقف المسلمين أن يطول تفكير الصديق فيه ، وأن يشغل به عن كل ما سواه . كان جرير بن عبد الله من خرج مع خالد بن سعيد إلى الشام ، فاستأذن خالداً إلى أبي بكر ليكلّمه في قومه وليتخلصهم وليجمعهم له ، وكانوا أوزاعاً في العرب . وأذن له خالد ، فقدم على أبي بكر فذكر له عدة من النبي وأتاه على العدة بشهود وسأله لإنجازها . فلما سمع أبو بكر حديثه غضب وقال له : « ترى شغلنا وما نحن فيه بغوث المسلمين من بإزائهم من الأسدین فارس والروم ، ثم أنت تكلفني التشاغل بما لا يغني عما هو أرضى لله ورسوله ! دعني وسر نحو خالد بن الوليد حتى أنظر ما يحكم الله في هذين الوجهين » . وسار جرير حتى قدم على خالد بالحيرة .

موقف أبي بكر
من الأحداث
المحيطة به

ولا عجب كذلك إذا انصرف تفكير الصديق إلى هذه الحرب التي نشبت منذ بويج ؛ فقد جعلت تزداد على الأيام دقة وخطراً ، وتقتضي العناية بها والسهرة عليها . فهذه الجيوش المنتشرة بالعراق ، والقائمة على تخوم الشام ، أفي حاجة هي إلى المدد ؟ وأيها أشد إلى المدد حاجة ؟ وهؤلاء المقيمون بالمدينة ومكة والطائف ممن ذهب أهلهم إلى صفوف القتال ، أيعوزهم شيء ؟ ! وقبائل العرب من الشمال إلى الجنوب ما شأنها ؟ وما عواطفها إزاء المدينة وإزاء الخليفة ؟ والأنباء الواردة من ميادين القتال بالنصر تارة ، وبالعجز طوراً كشأن عياض بن غنم بدومة ، بأى شيء تقابل ، وعلى أى نحو تداع في الناس ؟ ! كان أبو بكر في شغل بهذا كله وبما يتصل به . ولئن كان أهل الرأي حوله موضع ثقته

(١) يذكر الأزدی ، على خلاف مع الطبري وابن خلدون وابن الأثير أن خالد بن سعيد كان حاضراً هذا المجلس ، وأنه كان أول من أجاب إلى التجهز مع أهله ومن تبعه . ونحن نؤثر رواية الطبري أن خالداً كان بتياء ، وأنه لم يحضر هذا الاجتماع .

واطمئنانه ، لقد كان هو المرجع الأخير وصاحب الرأي النافذ في هذه الأمور جميعاً . تلك أيام حرب إذا لم يوحد فيها التوجيه خيف الاضطراب وسوء الأثر . والخليفة هو المسئول الأول أمام الذين بايعوه عن كل ما يقع ، فعليه التبعية العظمى أمام الله وأمام ضميره وأمام الناس .

وكان شعور أبي بكر بحسامة هذه التبعية عظيماً ، وذلك ما دعاه للمقام بالمدينة منذ اشتدت حروب الردة ، كي يفرغ لشؤون الدولة لا يشغله شيء عنها . أما وقد تضاعفت هذه الشؤون وامتدت الحرب إلى فارس وأرشكت أن تمتد إلى الروم ، فقد نسي الرجل ما عداها ليتم له التفرغ لها وإن فاتته كل ما يرفه عنه ؛ بذلك يكفل للمسلمين النجاح ، ولدين الله النصر ، سائراً دائماً في الطريق الذي رسمه رسول الله ، لا يتنكب به ولا يحيد عنه .

كانت سياسة أبي بكر خير كفيل بالنصر والنجاح . فقد كان في حكمه مثال العدل والرحمة مجتمعين ، كما كان العزم الذي لا تغلّ منه قوة ، ولا يعرف الوهن إلى ناحية من نواحيه مأتى . لم يلبث حين عادت بلاد العرب إلى دين الله أن ترك لكل منها من الاستقلال ما ترك لها رسول الله من قبل ، فلم يطلب إليها إلا الزكاة التي كانت تؤديها أيام النبي . وكانت الزكاة ينفق جانب عظيم منها في شؤون هذه البلاد وعلى فقرائها بإشراف عمّالها الذين ولاهم أمورها ، والذين كانوا على مثاله عدلاً ونصفاً . بذلك اطمأنت العرب جميعاً إلى عيشهم ، وزال كل خوف من انتقاضهم .

سياسة أبي بكر
بعد حروب الردة
وانتصار المسلمين
بالعراق

ولم يكن أبو بكر يستقي لنفسه من الزكاة أو من أخماس النوى إلا ما فرضه المسلمون له ، ثم ينفق أكثرها في تجهيز الجيوش للجهاد ، ويوزع ما بقي على الفقراء وأبناء السبيل وكل من له حق في بيت مال المسلمين . وكان بيت المال في دار أبي بكر بالسُّنح ، فلما انتقل إلى المدينة نقله إلى داره بها . ورأى بعضهم ما يجيء من مغنم فارس ، فقال له : ألا تجعل على بيت المال من يحرسه ؟ قال : لا ! ذلك أنه كان ينفق كل ما فيه فلا يبقى به ما يحتاج إلى حارس . ولم يقف أمر ذلك عند الزكاة وأخماس النوى . فقد فُتِح أثناء خلافته منجم للذهب في بني سَلِيم على مقربة من المدينة ، هو عرق الذهب الذي

يستغلّ في عصرنا الحاضر ، فكان أبو بكر يسوّى في قسمه بين السابقين الأولين والمتأخرين في الإسلام ، وبين الحر والعبد والذكر والأنثى . وقيل له : « ألا تقدّم أهل السبق على قدر منازلهم ؟ » فقال : « إنما أسلموا لله ووجب أجرهم عليه ، يوفّيهم ذلك في الآخرة ؛ وإنما هذه الدنيا بلاغ » .

أدّى هذا العدل بين الناس جميعاً إلى اطمئنانهم جميعاً . وأدى حزم أبى بكر وحمله تسيعة الأمر كاملة إلى مهابتهم لإياه وإكبارهم له . كان عمر بن الخطاب أقرب المشيرين إلى قلبه وأرجحهم رأياً عنده ، وكان عثمان وعلى وطلحة والزبير وغيرهم موضع تقديره واحترامه ، لا يقطع في أمر برأى قبل مشورتهم . ولكنه لم يكن مع ذلك يُلقي على أحد منهم تبعة ، ولم يكن يتوارى وراء مشورتهم ليدفع عن نفسه لوماً . ولقد رأيت كيف خالف الجماعة في بعث أسامة ، وكيف أبدى من الحزم وقوة العزم في محاربة المرتدين ما جعل مشيريه كلهم يقرّون من بعد بسداد رأيه وبعد نظره ؛ ثم رأيت كيف خالف ابن الخطاب في خالد بن الوليد حين مقتل مالك بن نويرة ، وكيف كان يستخير الله في كل شيء ، فإذا خار له في أمر لم يرجع عنه ولم يراجع لأى اعتبار دونه .

تفرغه التام
لشؤون الدولة

ولم يغيّر تزايد تسيعاته من شظف عيشه ، بل زاده انصرافاً عن كل ما يرفه به عن نفسه . كان حين مقامه بالسُّنح لا يأبى على نفسه ألواناً من الرّفه تعينه على الحياة والجهد فيها ؛ فكان يغدو إلى المدينة وربما ركب فرسه وعليه إزار ورداء مُشَقَّق فيصلى بالناس ؛ وكان يستريح بالسُّنح أحياناً فيصلى عمر بهم . وكان يقيم يداره صدر النهار يوم الجمعة يصبغ رأسه وطحته ، ثم يذهب إلى المدينة يخطب الناس ويؤمهم للصلاة . أما منذ أقام بالمدينة لتزايد أعباء الدولة فقد تم تفرغه لشؤون المسلمين وإن فاته ما يرفه عنه . وأقام مع تزايد هذه الأعباء لا يتخذ لنفسه خادماً في داره ولا في أعمال الدولة . ثم كان يجلس في المسجد حيث كان يجلس رسول الله ، يسمع للناس ويحدثهم ويستشيرهم ويشير عليهم ، ويقضى فيما يعرض عليه من شئ الشُّؤون .

وكان ، على إثارة الشظف ، شديد البر بالفقراء والضعفاء . كان يشتري الأكسية ويفرقها على الأرامل في الشتاء ، وكان يرعى الفقراء والمساكين بنفسه

في سرّ من الناس . كان عمر بن الخطاب يتعهد امرأة عمياء بالمدينة ويقوم بأمرها ، فكان إذا جاءها ألفاها قد قضيت حاجاتها . وترصد عمر يوماً ، فإذا أبو بكر هو الذي يكفيها مئونها ، لم تصرّبه عن ذلك الخلافة وجسامة تبعاتها . وقال عمر حين رآه : « أنت هو لعمرى ! » .

ولا حاجة إلى القول بأن مثال أبي بكر كان أسوة عماله في سائر بلاد شبه الجزيرة ، وأن طمأنينة العرب إلى عدل الخليفة وإنصافه ، وإلى بره ورحمته ، وإلى حكمته وحسن سياسته ، كانت من العوامل ذات الخطر في نجاح سياسته .

وكان أبو بكر مطمئناً من جانبه إلى النجاح كل الاطمئنان . لقد وعد الله رسوله لينصرن دينه ، ووعد الله حقّ . وقد نصر الله المسلمين في حروب الردّة ، وها هي ذى جيوشهم بالعراق يسايرها النصر حيث سارت ، وبقى النصر عليها من المغنم ما جعل قبائل العرب أشد على الحرب إقبالا . وقد رأيت ما استفاء المسلمون بالعراق . ولم يكن يرسل للخليفة من هذا النى إلا خمسة ، أما أربعة الأخماس فكانت توزع بين الجند في ميادين القتال . وكان لأهل الجند في مختلف القبائل من حظ رجالهم نصيب يُغري من تخلف على أن يخف إلى الميدان ليكون له ولأهله مثله . هذا إلى ما غرسه الإسلام في النفوس من حب الاستشهاد ؛ لذلك كان أبو بكر مطمئناً إلى إقبال القبائل على الحرب إذا دعيت إليها ، لا تضمن عليها بتضحية ، بل تخف إليها سراعاً يجذبها حب الاستشهاد وتغريها معالم النصر .

عوامل النصر في
تقدير أبي بكر

وكان أبو بكر يعلم ما للحرص على الاستشهاد في نفوس الأكثرين من أثر لا يقاس إليه إغراء النى . وهل نسيت صيحات الأبطال الذين اندفعوا إلى الوطيس في معركة اليمامة ، لا يشك أحدهم في أنه ملاق ربه . وهو بهذا اللقاء سعيد كل السعادة ! وحب الاستشهاد هو الذى أملى على خالد بن الوليد ما كتبه إلى هرمز وإلى غيره من الفرس يقول لهم : « لقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة » . وهم يقبلون على الاستشهاد لأنه طريق الجنة ، إذ يغفر الله للمجاهد في سبيله كل ذنوبه . وقد كان أحدهم يرى صاحبه يتخطفه

الموت من صفوف القتال فيرى في استشهاده آية الرضا من الله عنه ، ويتمنى لنفسه مثل هذا الحظ من رضا ربه . قوم ذلك حرصهم على الموت طبعي أن توهب لهم الحياة في أسمى مكان من العز والسؤدد ، وأن يطمئن خليفة رسول الله إلى نصرهم ، وأن يبعثهم إلى الشام يفتحونه كما فتح إخوانهم العراق .

على أن إغراء النوى لم يكن بالأمر الذي يستهان به . فهو في فطرة البدوي منذ خلقه ، ولن يزال في فطرته أبد الدهر . وقد رأيت خالد بن الوليد حين وقف بعد غزاة أليس بالعراق يقول بلخنده : « إنه إذا لم يكن في العراق إلا هذا الثراء الضخم وهذا النوى الذي يعدّ في بلاد العرب حلمًا لكفى مغريًا بالحرب » . ولقد كانت القبائل التي ارتدت تعضّس أصابعها ندمًا على ما فعلت مما حرمها الاشتراك في حروب العراق . والذين أقاموا على إسلامهم في أنحاء شبه الجزيرة كثيرون ، ولن يتردد هؤلاء في إجابة الدعوة إلى الجهاد متى وجهها الخليفة إليهم ، ولن يكونوا إذا غزوا الشام إلا أبطالًا فاتحين .

كتاب أبي بكر
إلى أهل اليمن

لذلك كله لم يتغير عزم أبي بكر على غزو الشام حين دعا القوم إلى التجهز إليه فسكبتوا متأثرين بقول عبد الرحمن بن عوف : « إنها الروم وبنو الأصفر ، حدّ حدّيد وركن شديد ! » ، بل بدأ يستنفر الناس ، وكتب إلى أهل اليمن يقول لهم : « أما بعد ، فإن الله كتب على المؤمنين الجهاد وأمرهم أن ينفروا خفافاً وثقالاً . ” وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله “ . فالجهاد فريضة مفروضة ، وثوابه عند الله عظيم . وقد استنفرنا من قِبَلنا من المسلمين إلى جهاد الروم بالشام ، فسارعوا إلى ذلك وعسكروا . وخرجوا وحسنت في ذلك نيّتهم وعظمت في الخير حسبتهم ، فسارعوا عباد الله إلى فريضة ربكم » .

لقيت هذه الدعوة أذنًا سمّعة . فما كاد رسول الخليفة يتلوها حتى خف ذو الكلاع الحميريّ إلى فرسه وسلاحه ونهض في قومه ومن عسكر معه من جموع اليمن وسار يطلب المدينة . كذلك خفّ قيس بن هبيرة المراديّ في مذحج ، وجندب بن عمرو الدوسيّ في الأزد ، وحابس بن سعد الطائي في طي .

بَسَيْنَا كَانَ رَسُولُ أَبِي بَكْرٍ إِلَى الْيَمَنِ قَدْ بَلَغَهَا وَأَقَامَ يَتَحَدَّثُ إِلَى أَهْلِهَا ،
وَبَسَيْنَا كَانَ أَهْلُ الْيَمَنِ فِي اسْتِعْدَادِهِمْ وَمَسِيرَتِهِمْ ، كَانَ أَبُو بَكْرٍ يَسْتَنْفِرُ
إِلَيْهِ مَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَأَهْلُ مَكَّةَ وَغَيْرِهِمْ يَجْمَعُهُمْ لِيُؤْفِدَهُمْ
إِلَى الشَّامِ .

وقد اختلفت الروايات : متى بدأ أبو بكر يسيّر هذه الجيوش ، وأى جيش
كان أولها ، ومن هم الأمراء الذين اجتمعوا إليه ، ومن من الأمراء أقام حيث
هو ثم توجه إلى الشام طوعاً لأمر الخليفة . واضطراب الروايات في أمر الشام
يزيد على اضطرابها في فتح العراق وفي حروب الردة^(١) .

مسيرة الجيوش
إلى الشام

والكثير من هذه الروايات يذهب إلى أن أول جيش سار إلى الشام إنما
سار بعد أن عاد أبو بكر من حجته في آخر السنة الثانية عشرة وأول السنة
الثالثة عشرة من الهجرة . وتذهب روايات أخرى إلى أن أبا بكر سيّر خالد
ابن سعيد بن العاص إلى حدود الشام حين سير خالد بن الوليد إلى العراق
السنة الثانية عشرة . والراجح عندي أن خالد بن الوليد ذهب إلى العراق فتولى
القيادة العامة فيه على المنشي ومن معه قبل أن يفرغ المسلمون من حروب الردة في
اليمن وكندة وحضرموت ، وأن خالد بن سعيد ، إن كان قد ذهب في هذا
الوقت أو ذهب قبله ، فإنما ذهب لحماية التخوم لا للغزو . والراجح عندي
كذلك أن أبا بكر لم يفكر في غزو الشام إلا بعد أن تم النصر للمسلمين في
حروب الردة باليمن وما حولها ، وبعد أن دخل ابن الوليد الحيرة واطمأن بها ،
وبعد أن فتحت دومة أوابها فصار طريق وادي سرحان إلى الشام آمناً
بفتحها .

يؤيد هذا الرأي ما سبق أن ذكرناه من استنفار أبي بكر قبائل اليمن ،
وما كان ليستنفرها قبل القضاء على الردة فيها . ثم إن عكرمة بن أبي جهل

(١) في الطبري روايات عدة . وفي البلاذري روايات يتفق بعضها مع بعض روايات
الطبري ، ويختلف بعضها كل الاختلاف . والأزدى يروي غير روايات الطبري والبلاذري .
والواقدي يخالف هؤلاء في أمور ويتفق معهم في أمور . أما ابن الأثير وابن خلدون فأقرب إلى الطبري
سوى ليحسب الإيمان أنهما أخذاه عنه .

وذا الكلاّح الحميرى لم يقيما باليمن بعد أن اطمأن الأمر في ربوعها ، بل ذهباً مع المهاجر بن أبى أمية للقضاء على الردة بكندة وحضرموت . فلما اطمأن أمر الجنوب كله وآن لعكرمة أن يعود إلى المدينة سرح الجند الذين جاهدوا معه ، ثم تولى قيادة جيش آخر تألف بديلاً من جيشه . ومن اليسير عليك أن تقدّر ما يستغرقه العود من اليمن إلى المدينة ، ثم السفر من المدينة إلى الشام ، وأنت تعلم أن الطريق بين مكة والمدينة تقطع على ظهور الإبل في أكثر من عشرة أيام ، وأن العير كانت تطرّد في ذلك الزمن إلى الشام شهراً مقبلاً وشهراً مدبراً .

أول أمير على جند المسلمين إلى الشام

ولقد اختلفت الروايات كذلك : أى أمراء الجند ذهب إلى الشام أول ما فكر أبو بكر في غزو الروم ؟ قيل إن خالد بن سعيد بن العاص الأموى كان هذا الأمير . وقد ذكرنا فيما سلف أن خالداً إنما ذهب أول حروب الردّة ردّاً بتيما على تخوم الشام . وتجرى رواية غير هاتين بأن خالداً كان باليمن من قبيل رسول الله ، وأنه قدّم إلى المدينة بعد شهر من وفاة النبي ، فلما رأى على بن أبى طالب وعثمان بن عفان قال لهما : « يا بنى عبد مناف ، لقد طيبت نفسي عن أمر يليه غيركم ! » . فلما وجّه أبو بكر الجند إلى الشام جعل خالد بن سعيد عليها ؛ فقال له عمر : أتؤمّره وقد صنع ما صنع وقال ما قال ؟ ولم يزل به حتى عزل خالداً وأمرّ يزيد بن أبى سفيان . وفي رواية أن عمر قال لأبى بكر في شأن خالد : « إنه رجل فخور يحمل أمره على المغالبة والتعصّب » . وقيل إن خالداً لم يذهب أميراً وإنما ذهب في جيش أبى عبيدة بن الجراح . ونحن نرجح رغم هذا الاضطراب في الروايات ، أن خالداً ذهب ردّاً بتيما ، وأنه أقام بها ، وأنه لم يكن بالمدينة حين استنفر أبو بكر الناس لقتال الروم ، وأن أبا بكر إنما استنفر الناس تلبيةً لنداء خالد حين بعث إليه يستعده ويذكر له من أنباء الروم وتحركهم ما حرك الخليفة لغزو الشام .

ولقد كان للروم كل العذر في أن يتحركوا وأن تزداد حركتهم نشاطاً . فالأنباء كانت تصل إليهم تترى بانتصار المسلمين في العراق وبانقضاء الثورة التي كانت قائمة في بلاد العرب . وهم لم ينسوا مجازفة محمد وأصحابه بالغارة

عليهم والانتقاص من أطرافهم وموادعة القبائل المقيمة على تخومهم . وها هم أولاء أتباعه يقيمون اليوم على تلك التخوم ، وقد تحدثهم أنفسهم باجتيازها . لذلك دعا الروم الغسانيين وغيرهم من القبائل المقيمة ببادية الشام ليقفوا سداً منيعاً في وجه المسلمين . واجتمع من هذه القبائل عدد عظيم لا يقل عن من اجتمع حول خالد بن سعيد . ووقف الجمعان ، هذا في أرض العرب وذاك في أرض الشام ، وكلٌّ يتربص بصاحبه الدوائر . وفيما هم كذلك كانت أنباء خالد بن الوليد تدوى في جو الفرس والروم والعرب كله . فالأنبار تفتح أبوابها ، وعين الثمر يقتل مقاتلتها وتسبي نساؤها ، وجنود المساميين يغنمون ما شاء الله أن يغنموا . أفيبقى إخوانهم في الدين بمنزلتهم من تيماء لا يقتحمون الشام كما اقتحم ابن الوليد وجيوشه العراق !! .

أول فتح الشام وكتب خالد بن سعيد إلى الخليفة مرةً أخرى . كتب إليه باجتماع الروم ومن نفر إليهم من بهراء وكلب وتنبوخ ولختم وجندام وغسان ، واستأذنه في متازلتهم . وكان أبو بكر يعدّ إذ ذاك جيوشه لغزو الروم ؛ لذلك كتب إلى خالد بن سعيد يقول : « أفدِّم ولا تُحجم واستنصر الله ! » . وكانت هذه الكلمات أول فتح الشام .

الفصل الرابع عشر فتح الشام

أقام خالد بن سعيد بتيماء في جيشه وفيمن نفر معه من قبائل البادية على تخوم الشام . وأقام جيش الروم مضاعف العدد بمن انضم إليه من القبائل على الناحية الأخرى من هذه التخوم . ولقد أثار تقابل الجيشين على هذا النحو حمية المسلمين وحركهم لقتال خصومهم . فلما قرأ خالد في كتاب أبي بكر : « أقدم ولا تُحجم واستنصر الله » . أسرع بكل قواته فتخطى الحدود لمنازلة القوم . ولم يلبث الروم وأنصارهم حين رأوه دنا منهم أن تفرقوا وتركوا منازلهم ، فدخل معسكرهم وغنم ما فيه ، وكتب إلى أبي بكر بالذبا ؛ فأجابه : « تقدم ولا تقتحم حتى لا تُؤذي من خلفك » . وتقدم خالد حتى بلغ القسطنطين في طريق البحر الميت ، فهزم جيشاً من الروم على الشاطئ الشرقي لذلك البحر ثم تابع مسيرته . هنالك ثارت حمية الروم وثار حمية أهل الشام معهم ، فتجمعوا في قوات تزيد على ما اجتمع قبالة تيماء أضعافاً مضاعفة .

ورأى خالد بن سعيد تجمعهم ، فكتب إلى أبي بكر يستمده ليتابع مسيرته المظفرة . وكانت جيوش المسلمين قد بدأت السير من المدينة إلى الشام لغزو الروم . وأبو بكر متفائل بمسيرتها ، مملوء أملاً بنصر الله إياها . فالروم ليسوا خيراً من الفرس حالا . وهم مذ غلبوا الفرس قد استغرقوا في سُبَاتهم . وجعلوا كل اعتمادهم في حماية تخومهم على أبناء البادية . ولأبناء البادية في مواقف كثيرة آيات بأس وشجاعة ميزتهم . لكن روابط الجنس واللغة لم تكن قائمة بينهم وبين الروم كقيامها بينهم وبين بني عمومته العرب المسلمين . ولم تكن نصرانية عرب الشام كنصرانية هرقل ، إذ كانوا من الأرثوذكس ، وكان قيصر من الكاثوليك . ولعلهم رأوا في ضمن هرقل بالروم على القتال دليلاً على خوفه أن يُهزم أبناء وطنه أو يُقتلوا . لذلك تراخوا في القتال ، وتركوا خالد ابن سعيد يتقدم دون أن يثبتوا له .

خالد بن سعيد
يغلب الروم
ويدخل معسكرهم

أى جيوش المسلمين كان أسرع إلى إمداد خالد بن سعيد ؟ اختلف الرواة في هذا الأمر كما اختلفوا في بدء خالد بغزو الشام كما قدمنا . أما والطبري يجعل لخالد هذا سبق ويوافقه ابن الأثير وابن خلدون ومن إليهما على هذا الرأي ، فإننا نساير الطبري وأصحابه الآن في روايتهم ، لنعود إلى رواية الواقدي والأزدى والبلاذري من بعد .

كان عكرمة بن أبي جهل قافلاً من كندة وحضره وت عن طريق اليمن ومكة ، فلما بلغ المدينة أمره أبو بكر أن يسير مدداً لخالد بن سعيد . وكان عكرمة قد سرح الجند الذين قاتلوا معه في جنوب شبه الجزيرة ، فاستبدل الخليفة بهم غيرهم ، وأمرهم أن يسيروا تحت لواء عكرمة إلى الشام ؛ ولذلك سمى هذا الجيش جيش الببدال . وسار ذو الكلالع على رأس الجند الذين صحبوه من اليمن مسرعاً مع عكرمة إلى الشام ، حتى يطمئن خالد بن سعيد ويتابع مسيرته .

وكان عمرو بن العاص مقيماً بقضاة مد قضى على الردة فيها ، فبعث إليه أبو بكر يخبره أن يبقى حيث هو أو أن يسير إلى الشام ، وكتب له : « وقد أردت أبا عبد الله أن أفرغك لما هو خير لك في حياتك ومعادك ، إلا أن يكون الذي أذنت فيه أحب إليك » . وكان جواب عمرو : « إني سهم من سهام الإسلام ، وأنت بعد الله الراعي بها والجامع لها . فانظر أشدها وأخشأها وأفضلها فارم بها شيئاً إن جاءك من ناحية من النواحي » . وكتب الصديق إلى الوليد بن عتبة بمثل ما كتب به إلى ابن العاص ، فكان جوابه إثارة الجهاد . عند ذلك أمر الخليفة عَمَرًا على فلسطين ، وكتب إلى الوليد فأمره بالأردن .

سارت هذه الجيوش متجهة إلى الشام ، ولا يشك أبو بكر في أن الله قد فتحه عليه . وكان الوليد بن عتبة أول من أدرك خالد بن سعيد ، وقص عليه أنباء المدد وحماسة أبي بكر لفتح الشام ، وغبطة أهل المدينة بانتصار إخوانهم على بني الأصفر . وفاضت نفس خالد بالمسرة ، فأمر جيشه أن يتجه للمسير حتى يكون له من فخار النصر ما يجعله في قتال الروم ندّاً لابن الوليد في قتال الفرس . وتقدم بالمسلمين ومعه الوليد بن عتبة يقابل جيشاً للروم على رأسه قائد

الأكبر باهان ، ونفسه تحدّثه بأن ينقضّ على هذا القائد كما انقضى ابن الوليد على هُرمز ، وأن يورده حتفًا كحتفه . وكيف لا يفعل وقد أدركه عكرمة وذو الكلاع فصار في قوة لا تثبت أمامها قوة ! .

ولم يكن جيش الروم قريباً منه . مع ذلك تراجع باهان به متجهًا نحو دمشق . وسار خالد في أثره يريد مرج الصفر بين واقوصة ودمشق ، ليتخذ هناك معسكره ومكان قيادته العامة . ولم يكن تراجع باهان إلا خدعة لاستدراج خصمه حتى يعرّى ظهره فيتمكن من حصاره ويحيّنه من خلفه ، وذلك ما حذر أبو بكر خالداً منه . لكن نشوة الظفر وحب الفخار أنسياه الحذر ودفعاه يُغِلّ السير ، حتى إذا كان على مقربة من مرج الصفر إلى الشرق من بحيرة طبرية ارتد باهان بجنوده وأحاط به وقطع عليه خط رجعتة . وصادف باهان سعيد بن خالد بن سعيد في فرقة من العسكر منعزلة عن المسلمين فقتلهم وقتل سعيداً في مقدمتهم . وبلغ خالد مقتل ابنه ، ورأى نفسه قد أحيط به ، فخرج هارباً في كتيبة من أصحابه على ظهور الخيل والإبل ، تاركاً وراءه جيش المسلمين يقوده عكرمة متقهقراً .

خدعة الروم
وفرار خالد بن
سعيد بعد مقتل
إبنه

ولم يقف خالد بن سعيد من فراره دون ذى المروة على مقربة من المدينة . وعرف أبو بكر فراره هزيمًا يريد مدينة الرسول ، فأبى ذلك عليه وبعث له بكتاب لقيه بذى المروة جاء فيه : « أقم مكانك . فلعمري إنك مقدم محجّام نجاء من الغمرات ، لا تخوضها إلى حق ولا تصبر عليه » . وأقام خالد بذى المروة في فلول الفارين معه حسيراً حزيناً لمقتل ابنه وللهزيمة التي حلت به . أما أبو بكر فكان يقول : « كان عمر وعلى أعلم بخالد مني ، ولو أطعتهما فيه اتقيته » .

أضعف فرار خالد بن سعيد من عزم أبي بكر فتح الشام ومن حماسه لهذا العزم ؟ كلا ! فقد جاءته الأنباء بأن عكرمة بن أبي جهل داور بجيوش المسلمين ، وداور معه ذو الكلاع ، فراجع بهم إلى حدود الشام ، وهناك تحصن ينتظر المدد . فليدعه ، وليكن هذا المدد من القوة بما يزيل كل أثر

أبو بكر يزداد
حماسة لفتح الشام

لهزيمة ابن سعيد ، وما يرد إلى المسلمين الإيمان بالنصر ، وما ينزل في قلوب الروم الخوف والهللع .

كان شرحبيل بن حسنة مع خالد بن الوليد بالعراق . وقد جاء في هذه الآونة إلى المدينة بأنباء النصر وبالسبي والأخماس ، فأمره أبو بكر أن يذهب إلى الشام مكان الوليد بن عتبة الذي باع مع خالد بن سعيد بما باع به . وجمع شرحبيل قوة من جيش ابن سعيد وابن عتبة وسار بها إلى عكرمة . ودعا أبو بكر يزيد بن أبي سفيان فأمره على جند عظيم جاءهم من أهل مكة ، ثم أرفده بأخيه معاوية ، وجعله على بقية الجيش الذي استدرجه خالد بن سعيد للغزو معه . وندب الخليفة جيشاً عظيماً جعل عليه أبا عبيدة بن الجراح وأمره على حمص . وكانت هذه الجيوش تُعسكر بالحرث ، فإذا آن لأحدها أن يسير خرج إليه الخليفة وودعه على النحو الذي ودع به جيش أسامة غداة بيعته . وانطلقت هذه الجيوش جميعاً في طريقها إلى الشام مجاهدة في سبيل الله .

وأنت تذكر أن أبا بكر أوصى أسامة حين ودعه وصية تسجل له في تاريخ الحروب بحروف من نور . كذلك فعل مع هذه الجيوش ، قال وهو يودعهم : « ألا إن لكل أمر جوامع ، فمن بلغها فهي حسبه . ومن عمل لله كفاه الله . عليكم بالجد والقصد فإن القصد أبلغ . ألا إنه لا دين لأحد لا إيمان له ، ولا أجر لمن لا حسبة له ، ولا عمل لمن لا نية له ألا وإن في كتاب الله من الثواب على الجهاد في سبيل الله لما ينبغي للمسلم أن يحب أن يُخصَّ به . هذه التجارة التي دل الله عليها ، ونجى بها من الخزي ، وألحق بها الكرامة في الدنيا والآخرة » .

وصيته حين توديع
الجيوش التي عبأها
لغزو الشام

وكان مما قاله ليزيد بن أبي سفيان : « إذا قدمت على جندك فأحسن صحبتهم وابدأهم بالخير وعِدْهم إياه . وإذا وعظتهم فأوجز ؛ فإن كثير الكلام ينسى بعضه بعضاً . . . وإذا قدم عليك رسل عدوك فأكرمهم وأقلل

لبثهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون به . . . وامنع مَن قبلك من محادثتهم ، وكن أنت المتولى لكلامهم . . . واسمر بالليل في أصحابك تأتلك الأخبار وتتكشف عندك الأسرار . . . وأصدق اللقاء ولا تجبن فيجبن الناس .»

المهاجرون
والأنصار
يسرون لفتح
الشام

واطمأن أبو بكر حين ودع هذه الجيوش جميعاً ورأى نصر الله منه قريباً . وكيف لا يطمئن وفي هذه الجيوش زهرة المسلمين مهاجريهم والأنصار ، وفيها ما يزيد على ألف من أصحاب رسول الله الذين سمعوا له وجاهدوا معه ، وفيها أهل بدر الذين قال فيهم رسول الله ينجي ربه : « اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد » ، والذين أمدهم الله بالملائكة ونزل فيهم قوله تعالى : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين » .

أين من هؤلاء جيش خالد بن الوليد الذي غزا العراق ومزق الفرس ! لقد تألف هذا الجيش من بقية قليلة من جيش اليمامة ، ثم كان أكثره ممن استنفرهم خالد من أهل البحرين وعمّان ومن قاتل أهل الردة وثبت على الإسلام في هذه النواحي . أفिकास أولئك إلى الذين شهدوا بدرًا وأُحُدًا وحُنينًا ، والذين أمدهم رسول الله في حياته بنفحة منه ! ! وهل يقاسون إلى الأبطال أمجاد مكة والمدينة والطائف ممن عركوا الحرب وعركتهم الحرب ! فإن يكن خالد قد غلب الفرس بعرب الجنوب ، فما أحرى عكرمة وأبا عبيدة وابن العاص ويزيد أن يقضوا بجيوش مكة والمدينة على الروم القضاء الحاسم ! .

وأبو بكر لم يبالغ حين بعث هذه الجيوش كلها إلى الشام بعد أن انتصر عسكره بالعراق . فلو أن أمر المسلمين هناك وقف عند هزيمة خالد بن سعيد لذهب نصرهم بالعراق بددا ، ولاقتحم الروم عليهم شبه الجزيرة ، ولوقف الإسلام من الأسدين فارس والروم موقفًا لا يرضاه الحق جل شأنه . وما كان ذلك ليحدث وأبو بكر في خلافة رسول الله ، وما كان ليحدث ولو لم يبق في القرى غيره ، على حد تعبيره رضى الله عنه عند اختلاف أصحابه معه عشية حروب الردة .

وظل أمراء الجند في مسيرتهم حتى نزلوا الشام . أما عمرو بن العاص فلم يتحرك جيشه من العربية حيث كان منذ أوفده أبو بكر . وأما أبو عبيدة فتخطى البلقاء إلى الجابية بعد أن أخضع من قاومه من عرب مآب وصالحهم . ولقد نزل شرحبيل الأردن ، ونزل يزيد بن أبي سفيان البلقاء ؛ وفي رواية أنه لقي قوة من الروم والبدو في دائن فتغلب عليها . ولقد اختلفت الروايات : ألقى جنود المسلمين حرباً في جنوب فلسطين ، أم تقدموا فيها فلم يجدوا من يواجههم . والراجح أنهم تقدموا حتى صاروا على مقربة من جيش عكرمة ، وأن الروم لم يواجهوهم بقواتهم ، بل تركوا أمرهم لرجال البادية ، وأن ما حدث من وقائع بين العرب والروم في جنوب فلسطين قد حدث من بعد في عهد عمر بن الخطاب .

على أن اضطراب الروايات ينتهي حين تتصل جيوش المسلمين بجيش عكرمة ؛ إذ يعسكر أبو عبيدة على طريق دمشق . ويعسكر شرحبيل في مرتفع بأعلى الغور فوق طبرية ونهر الأردن ، ويظل يزيد بالبلقاء مهدداً بـبصرى ، ويبقى عمرو بالعربية مهدداً حبرون . وفي هذه المواقع وقفت الجيوش يتداول أمراؤها الرأي ما يصنعون .

ذلك أن الروم لم يكثرثوا أول الأمر لهم ، بل خيّل إليهم أن هؤلاء العرب لن يتقدموا إلى أكثر مما تقدم محمد من قبل في غزوة تبوك ، وأنهم عائدون أدراجهم لا محالة . فلما هُزم خالد بن سعيد وفرّ من الميدان ازدادوا طمأنينة إلى ما توهموا ، وظنوا أن ما يترأى إليهم من أنباء المسلمين وتجهيزهم مدداً لعكرمة على حدود الشام لن يزعجهم ، ولن يكون مصيره إلا كـمـصير خالد بن سعيد . فلما رأوهم تقدموا إلى المواقع التي ذكرنا أفاقوا من سبائهم ورأوا الأمر أجلاً خطراً من أن يستهينوا به ، وأدركوا أنهم إن لم يواجهوه بكل قوتهم أصابهم ما أصاب فارس ، وفتح هؤلاء الغزاة المسلمون الشام كما فتحوا العراق . لذلك سير هرقل إليهم قوات عظيمة ، وقفت كل واحدة منها إزاء كل جيش من جيوش المسلمين ، حتى يشتغل بعضهم عن بعض فيسهل التغلب عليهم وتردهم من البلاد .

الروم يتجهزون
لمواجهة المسلمين

وتجربى الرواية فى أمر الجيوش من الجانبين بأن عدد المسلمين كان ثلاثين ألفاً أو نحوها ، وأن جيوش الروم بلغت عدتها أربعين ومئتين ألف . قيل إن جيش عكرمة كان ستة آلاف ، وإن الجيوش الثلاثة الأخرى بإمرة أبى عبيدة ويزيد وعمرو بن العاص كانت ترجع بين سبعة آلاف وثمانية آلاف لكل منها . أما جيوش الروم فكان أكبرها عدداً بإمرة تدارق (تيودوريك) أخى هرقل لأبيه وأمه ، وكانت عدته تسعين ألفاً ، وقد عسكر بإزاء عمرو ابن العاص . ووقف جيش عدته ستون ألفاً بإمرة الفيصار بن نسطوس بإزاء أبى عبيدة . أما شرجبيل بن حسنة فاستقبل الدراقص على قوة من الروم عدتها أربعون ألفاً واستقبل جرجة بن تدارق جيش يزيد بن أبى سفيان .

هرقل يتحصن
بمحصى ويتبع
أنباء الغزاة

رأى المسلمون هذه الجيوش فهابوها وتداولوا فى موقفهم منها . فهم لم يكونوا يتوقعون مقاومة منظمة هذا التنظيم . ثم إنهم علموا أن هرقل تحصن بخصص ، وأنه يتتبع أنباء الغزاة بعناية بالغة ، وأنه منذ علم بمقدم الجموع العربية إلى أراضي الإمبراطورية قد جعل كل همه إلى الاحتفاظ بالسلطان الذى كفله النصر على فارس له . أما وقد كان أخوه تدارق قائد الجيوش التى غلبت الأعاجم وعادت تتقدمها أعلام النصر ، فليكن قائد الحملة على العرب ليظهر أرض المعاد منهم ، وليستقى عليهم درساً لا ينسونه أبداً الدهر .

كتاب أبى بكر
لأمراء الجند أن
يجتمعوا عسكرياً
واحداً

هاب المسلمون جيوش الروم حين رأوها يخطئها العد ، ففزعوا بالكتب وبالرسل إلى عمرو بن العاص يلتمسون عنده رأى . ورأى عمرو أنهم لا يستطيعون لقاء الروم متفرقين فكاتبهم يقول : « إن رأى الاجتماع . وذلك أن مثلنا إذا اجتمع لم يغلب من قلة ، فأما إن تفرقنا لم نقيم كل فرقة لمن استقبلها لكثرة عدونا » . وجاءهم كتاب من أبى بكر بمثل رأى عمرو ، وفيه : « اجتمعوا عسكرياً واحداً ، وألقوا زحف المشركين بزحفكم فأنتم أعوان الله ، والله ناصر من نصره ، وخاذل من كفره . ولن يؤتى مثلكم من قلة ، وإنما يؤتى العشرة الآلاف والزيادة عليها بذنوبهم . فاحترسوا من الذنوب ، والله ناصركم » . واتعد المسلمون اليرموك على طريق دمشق ، واجتمعت قواتهم كلها على شاطئه

الأيسر . فلما رأى الروم ذلك جمعوا قواتهم على الشاطئ الأيمن للنهر وتولى تدارق قيادتها .

التقاء المسلمين والروم على اليرموك
ونهر اليرموك ينبع من جبال حوران . وينحدر سريع التيار بين آكام مختلفة الارتفاع إلى غور الأردن وإلى البحر الميت . وعلى ثلاثين أو أربعين ميلاً من ملتقى اليرموك بنهر الأردن تقع واقوصة في منبسط فسيح من الأرض تحيط به من ثلاث نواح جبال بالغة الارتفاع . وقد اختار الروم هذا المنبسط معسكراً لهم حين رأوه يتسع لجموعهم العظيمة . فلما قدموا إليه واستقروا به تخطى المسلمون النهر إلى ضفته اليمنى واختاروا منبسطاً آخر على الطريق المفتوح لجيش الروم ، فلم يبق للروم طريق إلا عليهم . ورأى عمرو بن العاص هذا الموقف ، ورأى الروم حُصرت بين الجبال ، فقال : « أيها الناس أبشروا ! حُصرت والله الروم ، وقلما جاء محصور بخير ! » .

عن أى شيء أسفر الموقف الجديدي ؟ ! أفهاجم المسلمون الروم في بطيحتهم فحصرهم فيه فقتلوا عليهم ؟ أفخرج الروم فلاقوا المسلمون فأتاح لهم تفوقهم في العدد الظفر بهم ؟ لا هذا ولا ذاك ؛ بل أقام المسلمون على طريق الروم ونخرجهم لا يقدر عليهم على شيء ، ولا يقدر الروم منهم على شيء . وإذا خرج الروم على الطريق ردهم المسلمون إلى بطيحتهم . وإذا غامر المسلمون بالهجوم لم يلبثوا أن تراجعوا مخافة أن يحصرهم الروم بينهم وأن يقتلوا عليهم ، وأقام هؤلاء وأولئك على هذه الحال شهرين كاملين أيقن المسلمون خلالها أنه لا بدّ لهم من مدد يعينهم ، فكتبوا إلى أبي بكر يصفون له الحال ويستمدونه ، حتى لا يظاوا الشهور ، فيسأم الجند ويضعف إيمانهم بالنصر وتذهب ريحهم .

أبو بكر يفتق صدره بموقف جوشه على اليرموك
وكان أبو بكر أشد من أمراء الجند بالشام ضجراً ؛ فلم يدُرْ بخلده أن يقف أبو عبيدة وزملاؤه هذا الموقف ، ولم يحسب أن البدرين الذين غلبوا على قلتهم أهل مكة من المشركين يطيقون هذا المقام بإزاء الروم لا يقتلون ولا يُقتلون . وطال تفكير الخليفة في هذا الأمر ، وجعل يشاور ابن الخطاب وعلى بن أبي طالب

وسائر أولى الرؤى المقيمين بالمدينة . وبينما هو يفكر انكشفت له الحقيقة جلية واضحة . إن المسلمين لم ينتصروا يوماً بكثرة عددهم ، وإنما انتصروا دائماً بمهارة القيادة ، وبقوة الإيمان . والإيمان لا ينقص جيوش الشام وفيها السابقون الأولون من أصحاب رسول الله مهاجريهم والأنصار ، وفيها أهل بدر الذين فتحوا مكة ومن انتصروا على أهل الردة . لا بد أن تكون العلة إذن في القيادة . فهذا الموقف يحتاج إلى القائد الجسور الذي لا يعرف الهوادة ولا الإحجام ولا يهاب الموت . وأبو عبيدة على مقدرته رجل رقيق القلب . وابن العاص على دهائه في السياسة هيئاًب غير مقدم . وعكرمة مداور مقدم إلا أنه تعوزه دقة التقدير . وسائر القواد لم يخوضوا بعد المعارك الكبرى ؛ ثم إن هؤلاء الأمراء جميعاً لا يقرون لواحد منهم بالتفوق على سائرهم تفوقاً يكفل بسلطانه وحدة القيادة . تكشف هذه الحقيقة لأبي بكر جليّة واضحة ، فقال لأصحابه : « والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد » .

خالد بن الوليد
يدعي من العراق
إلى الشام

لم يعترض أحد رأى الخليفة هذا ؛ فقد بلغ الموقف في الشام من الحرج أن ترددوا جميعاً في احتمال تبعته . ولعل منهم من رأى في تعريض خالد لهذا الموقف الدقيق ما يُستهين به من كبريائه بعد نصره المتصل في حروب الردة ، وبلوغه قمة النصر في العراق . وكتب أبو بكر إلى خالد بالخيرة يقول : « سر حتى تأتى جموع المسلمين باليرموك ؛ فإنهم قد شَجُّوا وأشَجُّوا^(١) . وإياك أن تعود لمثل ما فعلت ، فإنه لم يُشَجَّ الجُمُوع من الناس^(٢) بعون الله شجاك ، ولم ينزع الشَّجَّ من الناس نزعك . فليهنئك أبا سليمان النية والحُظوة . فأتمم يُتمِّم الله لك . ولا يدخلنك عجبٌ فتخسر وتُخذل . وإياك أن تدلَّ بعمل ؛ فإن الله عز وجل له المنُّ وهو وليُّ الجزاء » .

أى أثر ترك هذا الخطاب في نفس خالد ! إنه كان يرجو أن يظل بالعراق ضيق خالد بهذه الدعوة

(١) الشجاء هنا : الفصص . يريد أن المسلمين ضاقتوا بعلومهم وضيقوا عليه حتى كان بعضهم لبعض كالشجاء في الخلق .

(٢) من الناس : صفة لمخدوف هو فاعل « لم يشج » و « لم ينزع » . أى لم يشج أعداءه أحد من الناس كما تشجهم أنت ، ولم ينزع الشجاء من أوليائه أحد من الناس نزعك . وحذف الموصوف في مثل هذا جائز .

حتى يفتح المدائن عاصمة الفرس ويتربع فيها على عرش كسرى وخلفائه . ولم يخالجه في بلوغ هذا الغرض ريب . فقد سبر غور الفرس وعرف قوتهم . وفتح المدائن فخاراً لا فخار بعده . فما اليمامة وما الحيرة وما هُرْمُزُ وقواد فارس جميعاً بالقياس إلى العاصمة التي يتطلع إليها قيصر الروم ويتطلع إليها العالم من كل نواحيه ، وبالقياس إلى كسرى وإيوانه وأبهة ملكه ! لا مزية إذن في أن يكون خالد قد برم بكتاب أبي بكر وضاق به صدره . ولعله رأى فيه كيد عمر ابن الخطاب له . روى الطبري أنه قال بعد تلاوته : « هذا عمل الأعيسر ابن أم سخلّة - يعني عمر بن الخطاب - حسدني أن يكون فتح العراق على يدي » . بل لعله ظن أن عمر طمع في أن يجيء إلى العراق مكانه . وإن يكن هذا الظن قد دار بخاطره فلعله لم يكن مخطئاً ولا آثمًا فيه . فقد روى عن أبي بكر أنه قال وهو في مرضه الأخير : « وددتُ أني كنت إذ وجهت خالد بن الوليد إلى الشام كنت وجهت عمر بن الخطاب إلى العراق ، فكنت قد بسطت يدي كليهما في سبيل الله » .

ولقد توقع أبو بكر أن تدور مثل هذه الحواطر بنفس خالد فيكون لها أثر في تصرفه ، ولذلك قال له : « إياك أن تعود لمثل ما فعلت » ، يشير إلى حجه بغير استدلال ، وينبه إلى أن واجبه الأول أن ينفذ أمر الخليفة إليه ، وألا يقوم بعمل لا يرضاه . وأكبر الظن أن ما توقعه الخليفة من برم خالد بترك العراق هو الذي جعله يفرغ كتابه في هذه الصيغة وفيها ما فيها من تمليق خالد وكبريائه ، وفيها ما فيها من تخويفه الخسارة والخذلان إن دخله العجب أو دلَّ بعمله ؛ « فإن الله عز وجل له المن وهو ولي الجزاء » .

بل لقد أراد أبو بكر أن يزيل من نفس خالد كل مظنة ، فأمره أن يستخلف المشي بن حارثة على العراق في نصف الناس وأن يأخذ معه النصف ، ثم أضاف في ختام كتابه : « فإذا فتح الله عليكم فارددتهم إلى العراق وأنت معهم ، ثم أنت على عملك »^(١) . لا خوف إذن من أن يجيء إلى العراق عمر أو غير عمر ، فالمتنى هو الذي سيخلفه ، فإذا فتح الله الشام على خالد عاد إلى العراق .

كيف حجب
أبو بكر إليه
هذه المهمة

(١) وفي رواية : « فإذا فتح الله على المسلمين الشام فاربع إلى عملك بالعراق » .

ولم يكُ خالد في ريب من أن الله سيفتحه عليه . ولئن بلغه من أنباء المسلمين هناك ما بلغه ، لقد كان مطمئناً إلى أنه سيف الله وأنه لن يغلب ، فليمثل أمر أبي بكر وليذهب للقضاء الروم . و « إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا » ، ذلك قوله تعالى في المؤمنين . وليس كإيمان خالد لإيمان ، وليس كسيف الله سيف مؤمن .

ويوم يهزم خالد الروم فذلك يوم الفصل الأكبر . ويومئذ لا يقول ابن الخطاب مثل الذي قاله في أعقاب مقتل مالك بن نويرة ، وفي أعقاب غزوة اليمامة . ويومئذ لا يكون لطامع في العراق مطمع . بل يرجع هو إلى الحيرة فيتأهب لفتح المدائن وفضّس لبوان كسرى على من فيه ، ثم يسير غازياً أرض العجم ما شاء الله أن يسير .

على أن خالد أقدر ما سيواجهه بأرض الروم ، فأحضر أصحاب رسول الله جيش خالد للشام الذين كانوا معه بالعراق واستأثر بهم لنفسه ، وترك للمثنى مثل عددهم ممن لم يكن له مع الرسول صحبة . ونظر بعد ذلك فيمن بقي ، فاختر من كان قدم على النبي وافداً أو غير وافد وترك للمثنى مثل عددهم من أهل القناعات ، ثم قسم سائر الجند قسمين . فلما رأى المثنى صنيعة غضب وقال : « والله لا أقيم إلا على إنفاذ أمر أبي بكر كله في استصحاب نصف الصحابة أو بعض النصف ، وكيف تُعزّريني منهم ! والله ما أرجو النصر إلا بهم ! » . فلما رأى خالد ذلك منه تلكأ عليه بعض الشيء ، ثم عذره وأرضاه وأعاضه من الصحابة أبطالا مجريين .

مع هذا خشي خالد أن يُصيب المسلمين بالعراق شرّ بعد مغادرته إياهم ، فرد الضعفاء والنساء منهم إلى المدينة ، حتى لا يشغل المثنى بهم إذا أراد الفرس مناجزته . ولما اطمأن إلى مسيرتهم تجهز فيمن معه من الجند للسفر إلى الشام . وخرج المثنى في كتيبة من الجند فشيّعه إلى تخوم الصحراء .

أى طريق يسلك ليُسنى الروم وساوس الشيطان ؟ إن بينه وبين الشام أى طريق يسلكه خالد ؟
صحراء جرداء لا تطرقها قافلة ويضل في مفاوزها الدليل الخريت ! أيتخطى

البادية من الشمال بين عين التمر وما حاذاها من بلاد الشام ؟ ذلك أقصر الطرق خلال البادية . لكن قبائل العرب النازلة منه على تخوم الشام موالية كلها للروم ، ولقيصر ثم جند مقيمون قد يلتقونه فيقطعون عليه طريقه . أفينحدر إلى بلاد العرب ثم يأخذ الطريق التي سلكها عكرمة وأبو عبيدة وسائر الأمراء قباه ؟ إنه إن يفعل فلن يبلغ جيوش المسلمين إلا بعد أمد طويل . ماذا يصنع إذن حتى يتقى مقاومة العدو ويظهر طول الأمد ؟ ! إلى هذا انصرف تفكير القائد العبقري . وتفكير العباقرة لا يوجهه المنطق وإنما يهديه الإلهام ؛ فليس لنا معشر الناس إلا أن نسير وراء القائد الملهم لا نراجع منطق ولا نسأله عما يفعل . ووالنا نسأله أو نراجعه ! ألم يسر بنا من ظفر إلى ظفر ! لقد سحر ألبابنا وملك أفئدتنا من قبل حين وقفنا معه مواقف أرتنا الموت رأى العين ، ثم خرجنا وإياه من المعركة متوجين بأكاليل النصر . فلنلق إليه قيادنا مطمئنين ؛ فهو سيف الله ، والله ناصره لا محالة .

والواقع أن مسيرة خالد من العراق إلى الشام أدنى إلى القصص الروائي منها إلى الحقيقة الواقعة . ذلك أيسر ما يقال عن أشهر الروايات فيها وأكثرها قصداً . ولذلك يمر بعض المؤرخين بها لا يتفنون عندها ، ويكتفي بعضهم بالإشارة إليها ، ويقدمها ابن خلدون لقارئه بكلمة « ويقال » . ولم يفصلها أحد ما فصلها ابن قتيبة في بعض كتبه . ونقاد ابن قتيبة يذكرون عنه أنه مؤرخ أديب شديد الولع بالقصص . على أن الوقائع الأساسية في هذه الرواية مذكورة في تاريخ الطبري وفي ابن الأثير وفي أكثر الكتب . وقد يكون فيها ما يحير الأب ويذهل الذهن . لكن أعمال خالد ، عبقري الحرب وأكبر قائد عرفه العالم في عصره ، لا تخضع كلها للمقاييس المطردة في أمر غيره من القواد . فإذا أضفنا إلى ذلك ما ذكرنا غير مرة من اضطراب الروايات عن عهد أبي بكر ، قام هذا وذاك عذراً للمؤرخين جميعاً ، سواء منهم من يثبت هذه الرواية المشهورة ومن يتخطاها أو يبدى الريبة فيها .

القصة المشهورة
في اجتياز خالد
الصحراء إلى
الشام

وتذهب هذه الرواية إلى أن خالد لم ير اجتياز الصحراء من عين التمر إلى شمال الشام ، مع قصر هذا الطريق ، مخافة القبائل الموالية للروم والجيوش

الجائفة في هذا الجانب من إمبراطورية قيصر . لذلك انحدر بجيشه إلى دومة الجندل في طريقه الذي سلكه حين ذهب من الحيرة مدداً لعياض بن غنم^(١) . ومن دومة يسلك خالد طريق وادي سرحان ، حتى إذا بلغ قُراقرز أغار على أهلها من بني كلب . ولو أنه تابع مسيرته في طريق الوادي لبلغ بُصرى في أيام ، ولا تصل بجيش أبي عبيدة وسائر جيوش المسلمين على اليرموك . لكنه قدر أنه ربما لقي من جيوش الروم قبل بُصرى من يصده عن غايته أو يُطيل مكثه دونها . لذلك قال لأصحابه : « كيف لي بطريق أخرج فيه من وراء جموع الروم ؟ فإنني إن استقبلتها حبستني عن غياث المسلمين » . وأجابوه كلهم : « لا نعرف إلا طريقاً لا يحمل الجيوش وإنما يأخذهُ الفذ الراكب . فإياك أن تغرر بالمسلمين » . لكن خالداً كان قد عزم سلوك هذا الطريق ، فقام إلى أصحابه فقال لهم : « لا يَخْتَلِفُنْ هَدْيُكُمْ ، ولا يَضْعُفُنْ يَقِينُكُمْ . واعلموا أن المعونة تأتي على قدر النية ، والأجر على قدر الحسبة ، وأن المسلم لا ينبغي له أن يكثر ثلشيء يقع فيه مع معونة الله له » . وتحمس أصحابه حين سمعوا قوله هذا ، فكان ردهم عليه : « أنت رجل قد جمع الله لك الخير ، فشأنك » .

حديث رافع بن
عبدة الطائي

والتمس خالد دليلاً يسلك به هذه الطريق ، فعجى برافع بن عَمِيرَةَ الطائي ، فقال له : « انطلق بالناس » . قال رافع : « إنك لن تطيق ذلك بالخيال والأنقال . والله إن الراكب المفرد يخشى فيها على نفسه . إنها لخمس ليال لا يصاب فيها ماء » . وحقق إليه خالد وقال : « لا بد والله من ذلك ، فمر بأمرك » . وكان رافع قد سمع حديث خالد لأصحابه ورأى لإقراهم إياه ، وأيقن أن لا مفر من نفاذ أمره ، فقال : « استكثروا إذن من الماء . من استطاع منكم أن يُصِرَّ أذن ناقتة على ماء فليفعل ، فإنها الممالك إلا ما دفع الله » . وطلب إلى خالد أن يحيثوه بما استطاعوا من إبل سمان . فلما جاءوه بها عمد إليها فظمأها ، حتى إذا أجهدها عطشاً أورد لها الماء عللاً بعد نهل^(٢) . فلما امتلأت صر آذانها وشده مشاغلها لثلاث تجرّ . وانطلق خالد بن الوليد بالجيش يتقدمه رافع .

(١) راجع ص ٢٢٣ من هذا الكتاب .

(٢) اللل : الشربة الثانية . والنهل : الشربة الأولى .

وقضوا خمسة أيام يسيرون في وحشة الصحراء ووجدتها وكل اعتمادهم بعد الله على دليلهم ؛ ينزلون في كل يوم فيأكل الرجال ويشربون مما معهم من الماء ، ثم يشقون بطون عدد من هذه الإبل التي اتخذوها صهاريج ويخرجون الماء منها ويسقونه الخيل . فلما كان اليوم الخامس نادى خالد دليله : « ويحك يا رافع ! ما عندك ؟ » قال رافع : « خير . . . أدركتم الرىّ إن شاء الله ، وأنتم على الماء . » وكان رافع أرمم فأدار رأسه يمنة ويسرة ثم قال : « أيها الناس ، انظروا علمين كأنهما ثديان » . فلما أتوهما وقف عليهما وقال : « انظروا ، هل ترون شجيرة من عوسج كقعدة الرجل ؟ » قالوا : ما نراها . قال : « إنا لله وإنا إليه راجعون . هلكتم إذن والله وهلكتْ لا أبا لكم ! اضربوا يمنة ويسرة » . فنظروا فوجدوا الشجرة قد قطعت وبقيت منها بقية . فلما رآها المسلمون كبروا وكبر رافع ، ثم قال : « احفروا في أصلها » ، فحفروا فنبع الماء من عين فشرب الناس حتى رووا . فلما اطمأنوا إلى السلامة قال رافع : « والله ما وردت هذا الماء قط إلا مرة واحدة مع أبي وأنا غلام » .

خالد يبلغ الشام ويعسكر بجندته إلى جوار زملائه

أدرك خالد وجيشه الرىّ حين بلغوا هذا المكان ، وأدركوا عنده مفاتيح الشام . ودخل خالد سوى قبيل الصبح فأغار على أهلها من بهراء . وفزع الناس حين رأوا المسلمين ، ولم يطيقوا مقاومتهم فأذعنوا طوعاً أو كرهاً . وسلم أهل تدمر بعد مقاومة يسيرة . ولم ير خالد أن يهاجم دهمشق وهو إنما جاء مدداً لحيوش المسلمين المقيمة على اليرموك . فسلك غير بعيد طريق حوارين ، حتى إذا أتى قُصَم صالح أهلها قضاة ، ومنها انحدر إلى أذرعات ، وأغار على غسان بمرج راهط ، ثم سار حتى نزل على قناة بصرى وعليها أبو عبيدة بن الجراح وشرجيل ابن حسنة ويزيد بن أبي سفيان . وتقدمهم خالد فاقتحموا بصرى وفتحها الله عليهم . ثم ساروا جميعاً إلى فلسطين مدداً لعمر بن العاص بالعربات عند الغور . وعسكر خالد بجنوده إلى جوار زملائه ، وبذلك اكتمل جمع المسلمين على اليرموك .

هذه هي الرواية المشهورة عن سير خالد من العراق إلى الشام . وأنت ترى أنها أقرب إلى القصص الروائي وإن تضافرت روايات المؤرخين عليها . واجتياز

المفازة بدلالة رافع بن عميرة أعجب ما فيها . على أن هذا العجب لم يمنع من تصديقها ، أن كان لخالد ما هو أعجب منها ؛ فأنحداره من عين التمر لغياث عياض بن غنم أمام دومة بعض هذا العجب . وحجّة خالد في سرّ من الناس عجب أيضاً . وحروب خالد باليمامة وفتح العراق عجب كل العجب . وهو إنما كان يختار أقرب الطرق إلى الظفر وأدناها إلى بلوغ النصر . وهذه المفازة التي اجتازها قد بعدت به عن مخاطر أراد اتقاءها ، وأدنته من لقاء جيش المسلمين . فلا عجب أن تصدق الرواية عنها ، ولا عجب أن يتخذ خالد هذا الطريق طريقه ، وإن حيرّ ذلك ألبابنا وأذهل أذهاننا .

عدد القوات التي
سارت مع خالد
من العراق

أراد بعض المؤلفين الذين أقرأوا هذه الرواية أن ينفوا عنها كل ما يبعد بها عن مقتضى العقل . اختلف في عدد الجيش الذي سار به خالد من العراق ، فقليل كان تسعة آلاف ، وقيل ستة آلاف ، وذهب بعضهم إلى أنه ثمانمائة ، أو سبعمائة ، أو خمسمائة . وأصحاب الرواية الأولى يذكرون أن خالداً سار بنصف الجيش الذي كان بالعراق تنفيذاً لأمر أبي بكر ، وكان هذا الجيش ثمانية عشر ألفاً أو نحوها . أما الذين يذكرون أن هذا الجيش كان دون الألف فيؤيدون رأيهم بأن القصد من مسيرة خالد إلى الشام إنما كان لعبقريته في القيادة ؛ أما الجيوش التي كانت تواجه الروم فلم تكن قليلة العدد ، وكان المدد يجرى لها من المدينة متصلاً ؛ فمسيرة خالد في عدد قليل مقصودة حتى لا تحول ضخامة العدد بينه وبين السرعة في نجدة من رآهم الخليفة في حاجة إلى نجدة .

ويتوسط بعضهم فيذهب إلى أن خالداً فصل من العراق في النصف من جيشه ، فلما بلغ قُراقِر وعزم اجتياز المفازة سار خلالها في بضع مئات ، وتابع سائر الجيش مسيرته بوادي سرحان حتى اتصل بجيوش المسلمين عند بُصرى . وليس هذا الرأي بالمستحيل وإن اعترض عليه بأن مخافة خالد أن تستقبله جموع الروم فتحبسه عن غياث المسلمين تطعن على خالد أنه عرض القسم الأكبر من جيشه لأمر لم يرد أن يتعرض له هو ومن اختارهم للسير معه .

وأياً كان الرأي في مسيرة خالد وفي الجيش الذي صحبه من العراق فإنه الصديق أبو بكر

أدرك المسلمين باليرموك وقام معهم لقتال الروم . ولقد صادف مجيئه أن عزز
 هرقل جيشه بباهان القائد القادر الذي هزم خالد بن سعيد . واغتنب الروم
 بباهان اغتباط المسلمين بخالد بن الوليد . وأقام الجيشان يتحسّن كل منهما فرصة
 النزال يريدان موأنة لئيم له بها النصر على عدوه .

خالد وباهان
 يصلان إلى
 اليرموك في وقت
 واحد

والحق أنه كان موقفًا بالغًا غاية الدقة . ولم تكن كل دقته في فرق ما بين
 الجيشين في العدد ، إذ كان المسلمون لا يزيدون على أربعين ألفًا ، في حين كان
 الروم أربعين ومائتي ألف ؛ بل كانت دقته كذلك في تفوق عدّة الروم على
 عدّة المسلمين . لم يكن هذا التفوق مما نعهده بين الجيوش في عصرنا الحاضر ،
 فلم يكن الروم بأعلم من العرب بأساليب الحرب ؛ لكنه كان تفوقًا يضاف
 إلى العدد فيزيده بأسًا وإن لم يظهر له أثر طيلة الشهرين اللذين انقضيا منذ
 جمع المسلمون وجمع الروم قواتهم على اليرموك . وعلة ذلك أن المسلمين كانوا
 يتفوقون على الروم بقوتهم المعنوية . كانت جموع الروم خليطًا من البدو
 المقيمين بالشام ومن جيوش هرقل التي غزت الفرس من قبل . ولم تكن بين
 هؤلاء وأولئك رابطة تجمعهم ، ولم يكن لهم مثل أعلى يجاهدون في سبيله .
 أما المسلمون فكانوا جميعًا من العرب ، وكانوا جميعًا يؤمنون بأنهم في غزوهم
 الروم يجاهدون في سبيل الله حق جهاده ، فن استشهد منهم فله الجنة فيها نعيم
 مقيم ومغفرة من الله ورضوان ، ومن لم يؤت الشهادة كُتب له جهاده عند الله ،
 ثم كان له من مغنم الحرب ما يزيده حبًا فيها وإقبالًا عليها . ترى لأى القوتين
 في هذا الموقف يكون الغلب : قوة العدد أم قوة الإيمان ؟ ! قوة المادة أم قوة
 الروح ؟ ! .

وتعاقبت الأيام وانقضى أسبوع وأسبوعان وثلاثة أسابيع والجيشان في
 موقفهما لا تحين لأيهما فرصة النزال . كيف أطاق خالد بن الوليد هذا الموقف
 وما صبر قط لمثله من قبل ؟ أفراسته كثرة جيوش الروم فهابها كما هابها زملاؤه ؟
 أم كان يدرس الموقف ويفكر في أسباب النصر ؟ ! أم أن عوامل أخرى كان
 لها في نفسه من الأثر ما قعد به كل هذا الزمن عن القيام بهجوم ؟ كل ما تذكره
 الروايات أن جيش المسلمين لم يكن موحد القيادة ، وأن خالدًا جاء من العراق

مدداً لزملائه ولم يجئ أميراً عليهم . بل لقد كان الأذان للصلاة ينادى به في كل معسكر على حدة ، وكان كل أمير من أمراء الجند ينظم خطته بما يكفل عدم تراجعهم . لذلك لم يستطع خالد أن يقوم بهجوم وحده ، وليس في أمرته على أكثر تقدير غير تسعة الآلاف الذين جاءوا معه من العراق . وقد أدّى هذا التفرق في القيادة إلى هجمات من جانب الروم ردها المسلمون ثم قعد بهم تفرق القيادة عن القيام بمثلها .

ماذا يستطيع خالد أن يفعل في مثل هذا الموقف ؟ إن أبا بكر لم يولّه إمارة الجيش حين كتب إليه بالسير من العراق إلى الشام . فلو أنه طلب أن يتولاها لأوغر صدر زملائه ولأقام بالمدينة قيامة خصومه وعلى رأسهم عمر بن الخطاب . لكن البقاء في هذا الموقف على ضفة اليرموك يُزرى به ويذهب عزم المسلمين . والروم ينشطون كل يوم وينظمون صفوفهم ، وتدل أنبأهم على أنهم يتجهزون لموقعة حاسمة . وقد عرف أمراء الجند من زملاء خالد هذه الأنباء . أفلا يستطيع أن يُقنعهم برأيه في وحدة القيادة ؟ ! لكنه لا يثق بأحد منهم ما يثق بنفسه . وهو إن دعا إلى أبي عبيدة أو إلى عمرو مثلاً أغضب سائر الأمراء . فإذا عساه يصنع ؟ !

تواترت الأنباء بتجهز الروم وحماستهم لقتال المسلمين بعد أن جاءهم باهان بعدد كبير من القيسيين أقاموا شهراً يحرضونهم وينعون لهم النصرانية إذا لم يقض على هؤلاء العرب البُغاة القضاء الأخير . بل لقد ترامى إلى أمراء الجند على المسلمين أن الروم سينازلونهم في غدهم . وأن باهان صفهم للقتال صفّاً لم يسمع أحد من قبل بمثله . عند ذلك ريعوا واجتمعوا يتشاورون ما يصنعون .

وبدعوا الحديث عن كل أمير منهم ووجهته للقاء العدو . أما تعبئة الجيش فلم يتناولها البحث إذ كان كل أمير صاحب الرأي في صف جنوده . فلما آن لابن الوليد أن يتكلم حميد الله وأثنى عليه وقال : « إن هذا يوم من أيام الله لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي . أخلصوا جهادكم وأريدوا الله بعملكم ، فهذا يوم له ما بعده . ولا تقاتلوا قوماً على نظام وتعبئة وأنتم على تساند وانتشار فإن ذلك

جمود الموقف
وكيف الخروج
منه

خطاب خالد بن
الوليد في زملائه
عن الموقف

لا يحل ولا ينبغي . وإن من وراءكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا . فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذي ترون أنه الرأي من واليكم ومحبتة . أمسك الأمراء عن القول هنيهة بعد الذي سمعوا من خالد . إنه على حق . وآية ذلك بقاؤهم شهرين قبل مجيئه وشهراً بعده وهم لا يقدرّون من أمر الروم على شيء . وقد تجهز الروم فعبثوا ، ترى لو أنهم ظفروا بالمسلمين وردوهم ، فلمن تكون الإمارات التي وعد أبو بكر بها هؤلاء الأمراء ؟ لمن تكون حصص إذا لم يدركها أبو عبيدة ، ولمن تكون اللقاء إذا لم يُقيم بها يزيد ؟ ولمن تكون الأردن إذا جلا عنها شرحبيل ، والعربة إذا أخلاها ابن العاص ؟ وإذا ظفر الروم بالمسلمين فكيف يرجع هؤلاء الأمراء إلى المدينة وقد فصلوا عنها مدداً لعكرمة بعد أن أصاب خالد بن سعيد من خزي الهزيمة ما أصابه ؟ !

مرّ ذلك كله بخاطر الأمراء حين سمعوا خالداً ، فقالوا له بعد هنيهة : « هات ! فما الرأي ؟ » قال : « إن أبا بكر لم يبعثنا إلا وهو يرى أنا سنتياسر . ولو علم بالذي كان ويكون لقد صاحبكم . إن الذي أنتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشيه ، وأنفع للمشرّكين من أممادهم . ولقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم ، فالله الله ! فقد أفرد كل رجل منكم ببلد لا ينتقصه منه إن دان لغيره من الأمراء ، ولا يزيده عليه إن دانوا له . إن تأمير بعضكم لا ينقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله ، هلموا ! فإن هؤلاء قد تهيئوا ، وإن هذا يوم له ما بعده ؛ إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردّهم ، وإن هزمونا لم نُفلج بعدها . هلموا فانتعاور الإمارة ، فليكن بعضنا اليوم ، والآخر غداً ، والآخر بعد غد ، حتى تتأمروا كلكم ، ودعوني أأمر اليوم » .

خالد يتولى إمارة الجيش العامة أول يوم للمعركة

ولم يتردد القوم في إجابة خالد إلى ما طلب بعد أن سمعوا كلامه . وما لهم لا يؤمّرونه اليوم الأول وهذه المعركة لاريب تطول ، وإن هي إلا واحدة من المعارك التي تطاولت ثلاثة أشهر والتي توشك أن تمتد حتى يتداول كل واحد منهم إمارة الجيش مرات ! وهون عليهم ما بلغهم من تجهز الروم أن يدعوا خالداً يتلقى الصدمة الأولى لأنه قد عرض نفسه لها . وما كان لأحدهم أن ينكر مقدّره عليها وهو غازي اليمامة وفاتح العراق .

وكان خالد أثناء هذا الشهر الذي أقامه بالشام قد عرف من أسرار قيادة الروم ما طوع لعبقريته أن ترسم الخُطة للملاقاتهم والظفر بهم . لذلك عبأ الجيش فرقاً ، أو كراديس على تعبير المؤرخين ، كل كُردوس منها ألف رجل ، وجعل على كراديس القلب أبا عُبيدة ، وعلى كراديس الميسنة عمرو بن العاص ومعه شرحبيل بن حسنة ، وعلى كراديس الميسرة يزيد بن أبي سفيان ، وجعل على كل كردوس رجلاً من القادة الشجعان أمثال القعقاع وعكرمة وصفوان ابن أمية ومن إليهم . وهذه تعبئة لم تعبئها العرب من قبل ، وإنما سوغها خالد بقوله لأصحابه : « إن عدوكم قد كثر وطغى ، وليس أكثر في رأى العين من الكراديس » .

وعهد خالد إلى أبي سفيان في مهمة القاص ، فكان ينتقل بين الكراديس فيقول : « الله ، الله ! إنكم ذادة العرب وأنصار الإسلام ، وإنهم ذادة الروم وأنصار الشرك . اللهم إن هذا اليوم من أيامك ؟ أنزل نصرَك على عبادك ! » .

وسمع خالد رجلاً يقول : « ما أكثر الروم وأقل المسلمين ! » فغضب حين سمعها وصاح : « بل ما أقل الروم وأكثر المسلمين ! إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال . والله لوددت أن الأشقر يرى من تَوَجَّيه وأنهم أضعفوا في العدد » . والأشقر فرسه ، وكان حَتَفِي في مسيره بالمفازة . وانتشرت عبارات خالد هذه في المعسكر ، وجعل الجند يتناقضونها من كردوس إلى كردوس ، فتلهب النفوس حمية وتوقظ في القلوب الشوق إلى الاستشهاد . بل لقد تكررت على كل الألسنة كلمته : « إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان » . وذكروا جميعاً غزواته وذكروا قبلها غزوات الرسول . وكيف لا يذكرونها وبينهم ألف رجل من أصحاب رسول الله ، منهم مائة من أهل بدر ! . وخالد بن الوليد هذا ، أليس هو الذى دوخ الفرس وحطم جيوشهم ، وكانوا بالنسبة لجيشه بالعراق كجيوش الروم بالنسبة لهم عدداً ! النصر إذن آت لا محالة . وإن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم . وسرت إلى قلوب المسلمين قوة لم يكن لهم بمثلها عهد منذ نزلوا الشام .

إنما تكثر الجيوش
بالنصر وتقل
بالخذلان

فقد أيقنوا أن خالد آ أراد لهذا اليوم أن يكون يوم الفصل . وهم يعلمون أن خالدًا إذا أراد لم تردّه قوة عن عزمه . ثم لأنهم رأوا الروم تهيئوا من جانبيهم إلى موقعة حاسمة فليس إلى اتفائها سبيل . صدق إذن والله خالد : هذا يوم من أيام الله ، يستحب فيه الاستشهاد ، وتفتح فيه أبواب الجنة ، وتوهب فيه الحياة لمن حرص على الموت . لذلك تقدم القادة صفوفهم ، هذا يرتجز ، وذلك يرتجل ، والثالث يتمثل ، وكلهم ينتظر الأمر بالهجوم بصبر نافذ وعزم ثابت على النصر أو الموت .

اتصلت بالروم أنباء عن تجهز المسلمين كما اتصل بالمسلمين نبأ تجهزهم ، أن كان بعض البدو من تلك الأصقاع ينقلون الأنباء متعجسين بين العسكريين . وقد عرف خالد من هؤلاء البدو أسرار قيادة الروم ، كما عرف فزع بعض أمرائهم حين علموا بمقدمه من العراق . وكان جرّجة أكثر هؤلاء الأمراء فزعًا . ولعل جرّجة هذا كان عربيًا ، أو روميًا أقام بالشام السنين الطوال ، فعرف العربية وسمع بأنباء المسلمين . ولقد مال قلبه إلى خالد حين نقل له المتعجسون أنباء نصره ، وعرف خالد ذلك عنه . فلما صدرت أوامر باهان إلى جيوش الروم بالزحف على المسلمين كان جرّجة يجيشه في الطليعة ، فتلقاه خالد وفسح له ولعسكره طريقًا . وظن فيلق من الروم أن جرّجة في حاجة إلى المدد فانقضوا على المسلمين فأزاحوهم عن مواقعهم وحملوهم على التراجع .

غزوة اليرموك

كان عكرمة بن أبي جهل على كردوسه أمام فسطاط خالد بن الوليد . وقد رأى تسليم جرّجة وجنوده فاستراح له . فلما رأى هجمة فيلق الروم وتراجع المسلمين أمامهم ثار في عروقه دمه وصاح في وجه الروم : « قاتلتُ رسول الله في كل موطن وأفرتُ منكم اليوم ! » ، ثم انقلب إلى أصحابه ينادى : « من يبايع على الموت ؟ ! » ، وبايعه ضيرار بن الأزور والحارث بن هشام في أربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم بينهم عمرو بن عكرمة ولده . واندفع هؤلاء أربع المائة الذين بايعوا على الموت على فيلق الروم هجمة رجل واحد ، مستميتين في سبيل ربهم ، وقد تجلى لهم وجهه الأكرم ، وقد أضاء لهم بنوره سبيل الاستشهاد والجنة . وزلزلت الهجمة الروم ، وزادهم زلزالا أن انضم جرّجة وجنوده

الذين بايعوا
عكرمة على الموت

للمسلمين في مهاجمتهم ، مما ثبت في نفوسهم اليقين بغدر بني وطنهم وانضمامهم لأعدائهم .

ورأى خالد فيلق الروم يرتد فأمر الجيش كله بالتقدم ، فإذا الروم يلحقونه بهجوم ليس دون هجومه عنفاً . هنالك أيقن المسلمون أن لا مفر لهم من القضاء إلا بالنصر ، فازدادوا بالله إيماناً ، وزاد الإيمان هجومهم قوة ، واندفع ابن الوليد في مقدمتهم يهوى بسيفه على عدوه فيخطف أرواحهم خطفاً . وبلغت الحماسة بالمسلمين حتى شارك النساء الرجال ، فكانت لجويرية ابنة أبي سفيان مواقف تعيد إلى الذاكرة موقف أمها هند في غزوة أحد .

وقاتل الروم مستميتين ، واندفعوا يقتلون من المسلمين كل من وقع في يدهم ، ولذا ترجحت المعركة واستمر ترجحها طيلة النهار . ووقف عكرمة والذين بايعوه على الموت لا يتراجع أحد منهم قيد أنملة بعد أن وهب كل منهم لله نفسه ، وبذلك حملوا وطيس المعركة من بداءتها إلى منتهاها . فلما كانت الشمس في المغرب بدأت قوات الروم تهن ، وبدأ الإعياء على وجوه فرسانهم ، ورأى خالد أنهم يلتمسون إلى الهرب الوسيلة . أما الهاوية من ورائهم والمسلمون من أمامهم ، فليس لهم إلى مهرب من سبيل .

وقدر خالد أن فرارهم يزيد أصحابهم ضعفاً ، فأمر رجاله ففسحوا طريقاً يؤدي بهم إلى الوادي . ولم يلبث هؤلاء الفرسان حين رأوا وسيلة النجاة تهيأت لهم أن فروا هاربين وتفرقوا في البلاد . عند ذلك انقضَّ خالد بفرسانه ومشاته على مشاة الروم فاقتحموا عليهم خندقهم فترجعوا ؛ وكانت وراءهم هاوية الواقصة فتردوا فيها وكأنهم جدار دك من أساسه . وشدد المسلمون الضغط عليهم فجعلوا يتراجعون فيتردى في الهاوية منهم فريق بعد فريق . وظلوا كذلك يتلاحقون ، حتى قيل إنه قتل منهم يومئذ مائة ألف ، وقيل مائة وعشرون ألفاً .

وقُتل يومئذ تدارق أخو هيرقل ، كما قتل عدد كبير من أمراء الجيش على الروم . وكان الفيقار وطائفة معه من أشراف الروم قد نجوا من الموت .

استماتة الروم في القتال

الروم يفرون وقوادهم يقتلون

فلما رأوا ما حل بأصحابهم تجلّوا برانسهم ونكسوا رؤوسهم وجلسوا حيث كانوا فقتلوا ، وكان الموت منجاتهم من العار . أما باهان ففر ونجا ليقف أمام المسلمين من بعد في مواقع لا يكون حظه فيها خيراً من حظه في في اليرموك .

تمت هزيمة الروم ، فدخل المسلمون عسكرهم ، واستقر خالد في رواق تذارق ، وغنم المسلمون كل ما في عسكر الروم ، فكان نفلُ الفارس منه ألفاً وخمسة دراهم . ومن الرواق الذي أقام به شقيق قيصر خلال ثلاثة الأشهر التي انقضت منذ وقف المسلمون والروم وجها لوجه ، مدّ خالد بصره إلى الميدان الذي فر منه الروم فأصبح خلاء ليس لهم فيه نبأ ولا هسيس ، ثم رفعه إلى السماء شكراً لله على نعمائه .

خالد في رواق
تذارق

ولم يكن عدد القتلى من المسلمين في وقعة اليرموك قليلاً ، إذ بلغ ثلاثة الآلاف ، من بينهم عدد من كبار الصحابة والفرسان ذوى المكانة والبلاء . وكان عكرمة ابن أبى جهل وابنه عمرو قد أصابتهما الجراح من كل جانب أثناء المعركة . فلما أصبح القوم جئء بهما إلى خالد برواق تذارق ، فوضع رأس عكرمة على فخذه ورأس عمرو بن عكرمة على ساقه وجعل يمسح عن وجهيهما ويقطر في حلقيهما الماء حتى استشهدا . وأصيب عينا أبى سفيان بسهم أخرجه منها أبو حشمة .

عكرمة بن أبى
جهل وابنه بين
قتل المسلمين
باليرموك

قضت موقعة اليرموك على كل أمل للروم في استبقاء الشام . فلم يكدهم هزل يسمع بهزيمة جيشه حتى جلا عن معسكره بمحمض وجعلها بينه وبين المسلمين ، وأقام عليها أميراً كما أقام من قبل على دمشق أميراً . أما المسلمون فما لبثوا حين فرغوا من أمر اليرموك أن ساروا إلى أرض الأردن فطهروها من رافضة الروم ، ثم لاحقهم إلى دمشق وحاصروهم بها .

جلاء هرقل عن
حمص

وحصار دمشق وتغلّب المسلمين عليها وما تلا ذلك إلى أن تم فتح الشام قد حدث في خلافة عمر ، على رواية الطبرى ومن إليه .

لم نقف من قصصنا أنباء اليرموك عند نبأ تواترت روايته واختلف مع

ذلك فيه . ذلك النبأ أن محمّية بن زنيّم قدم بريداً من المدينة بعد ما بدأت
الموقعة ، فأخذه الفرسان وسألوه ما وراءه ، فأخبرهم بأن الأمداد في طريقها إليهم ؛
فجاءوا به إلى خالد فأسرّ إليه أن أبا بكر قبض ، ودفع إليه كتاباً أخذه
خالد فجعله في كتانته مخافة أن ينتشر الخبر في الجند . وكان هذا الكتاب
يحوى استخلاف عمر بن الخطاب وأمرًا بعزل خالد عن إمارة الجيش ، وبتأثيره
أبا عبيدة بن الجراح . فلما أتم خالد واجبه وظفر بالروم تمنى عن القيادة
وتولاها أبو عبيدة مكانه .

وفاة أبي بكر
واستخلاف عمر

عمر يعزل خالد
عن إمارة الجيش

هذا نبأ تختلف الروايات فيه مع تواتره . وليس يقع الخلاف على عزل
خالد ، فهذا أمر مسلم به ؛ إنما يقع على تصويره في هذه الصورة التي رويها .
فالأكثرون يؤيدونها ، وبعضهم يذكر أن الأمر بعزل خالد لم يسلم إليه ، وإنما
أخذه أبو عبيدة فأخفاه حتى تمت المعركة ؛ ولم يطالع به خالدًا حتى حاصروا
دمشق . ويذهب غير هؤلاء إلى أن أبا عبيدة أمسك عن ذكره حتى فتحت
دمشق ، فلما تم فتحها أظهر إمارته وعزل خالد .

وعزل ابن الخطاب خالدًا عن إمارة الجند بالشام على النحو الذي رواه
الطبري ومن إليه يثير الدهشة ؛ فلم يكن خالد أميراً على جيش بالشام غير جيشه
الذي جاء معه من العراق . ولم يكن أبو عبيدة في هذه الرواية أميراً إلا على
جيشه ، شأنه في ذلك شأن عمرو بن العاص ويزيد بن أبي سفيان وشريحبيل
ابن حسنة . وإنما قام خالد على إمارة الجيش عامة يوم اليرموك بالاتفاق بينه
وبين سائر القواد . ولو أن النصر لم يتم له في اليوم الأول لكانت القيادة لغيره
في اليوم الثاني ، ولغيرهما في اليوم الذي يليه . والدهشة لعزل ابن الخطاب خالدًا
تدعونا أن نتلمّس في غير رواية الطبري وأصحابه ما يزيلها .

الرواية الثانية
في فتح الشام

وسنرى أن الأزدي والواقدي والبلاذري يخالفون الطبري كذلك في الترتيب
التاريخي لوقائع الفتح في الشام ، ويختلفون على هذا الترتيب فيما بينهم . فقد
قبل إن أجنادين ودمشق وغيرهما كانت قبل اليرموك ، وقيل إن اليرموك كانت
آخر الوقائع . وسنقص هذه الروايات في إيجاز لا يحنى عليها ويصور ما تنطوي
عليه وما تتفق أو تختلف مع الطبري فيه .

هذه الروايات تذهب إلى أن الله عزم لأبي بكر فتح الشام بعد أن تمت حروب الردّة ولم يكن على تخومه من المسلمين أحد . ثم إنه أصبح يوماً ودعا إليه أهل الرأى بالمدينة وأفضى إليهم بما استقرّ عليه رأيه . فلما اطمأنوا إليه على ما ذكرنا في الفصل السابق ، بعث إلى أهل اليمن وإلى غيرهم من المسلمين يستنفرهم لغزو الروم بالشام . وفي انتظار مجيئهم جعل يُعِدّ جيوشه من أهل المدينة ومكة والطائف وما جاورها . وقد عيّن من هؤلاء أربعة ألوية جعل عليها يزيد بن أبي سفيان وأبا عبيدة بن الجراح ومُعَاذ بن جبل وشُرْحَبِيل بن حسنة . وفي رواية أنه عيّن لكل أمير من هؤلاء مِنطَقة من فلسطين أو الشام ، ثم تكون القيادة العامة على الجيوش لمن يقع القتال في مِنطَقتَه . وفي رواية أخرى أنه جعل أبا عبيدة أميراً على هذه الجيوش جميعاً ، وجعل يزيد بن أبي سفيان خلفه في الإمارة^(١) . وتمّ تجهيز هذه الجيوش للسير حين أقبل ذو الكتلّاع الحميري وسائر أمراء اليمن على قبائلهم من مَدْحِج وطيئ وأسد وغيرهم . هنالك ودّع أبو بكر يزيد بن أبي سفيان وجيشه إلى الشام وأردفه بزمعة بن الأسود وأوصاه بما سبق أن ذكرناه .

وضاقت المدينة بالقادمين من أرجاء شبه الجزيرة ، فخرج أبو بكر إلى ضيق المدينة
بجيوش المسلمين
إلى الشام
ثنية الرداع فوجّه الجيوش منها إلى الشام . وقد انضم خالد بن سعيد بن العاص إلى جيش أبي عبيدة الجراح مفضلاً لبيّاه على ابن عمه يزيد بن أبي سفيان ؛ لأنه أسبق في الإسلام ، ولأنه أمين الأمة على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم . وخرجت جيوش اليمن ومعها نساؤها وأبنائها تسير مع المهاجرين والأنصار فيمتلئ بهم فضاء الصحراء . وجاء إلى المدينة بعد مسيرهم جند من اليمن ومن سائر العرب بعثهم الخليفة في أثر من تقدّموهم لينضموا إلى أي الأمراء شاءوا .

وكان هِرَقْل بفلسطين حين بلغته أنباء المسلمين ومسيرتهم لغزو

(١) وفي رواية البلاذري أن أبا عبيدة استنقأ أبا بكر حين أراد أن يعقد له على لواء إلى الشام ، وأن عمر بن الخطاب هو الذي ولاه على الشام كله حين استخلف .

ببلاده عند ذلك جمع رموس المذن وحرّضهم على قتال هؤلاء « الحفّاة العُمرّة الجلياع » الذين خرجوا إلى بلادهم ، وقال لهم : « وأنا شائنخص عنكم وممدكم بالخيل والرجال . وقد أمّرت عليكم أمراء فاسمعوا لهم وأطيعوا » . ثم إنه خرج من فلسطين إلى دمشق فإلى حمص فإلى أنطاكية ، وجعل يحرض الناس ويقول لهم مثل ما قال لأهل فلسطين ، وأقام بأنطاكية يتخذ لمواجهة المسلمين عدّته .

وبلغ أبو عبيدة أرض الشام ماراً بوادي القرى وبالحِجر . فلما دخل مآب قاومه جند من الروم لم يلبث أن شتّتهم . ولما بلغ أبو عبيدة الجابية جاءته أنباء هرقل تصف تجهز الروم للقاء المسلمين بجيش لم يسمع بمثله عدداً وعدة . عند ذلك كتب إلى أبي بكر يستشير ويستمله . وكتب يزيد بن أبي سفيان كذلك يذكر أن انسحاب هرقل إلى أنطاكية آية خوفه وانزعاجه . ورضى أبو بكر عن كتاب يزيد وأجابه يشجعه . أما جوابه إلى أبي عبيدة فلم يخل من بعض اللوم . وفي الكتابين ذكر أبو بكر أنه ممدّ المسلمين بأضعاف ما يمدّ هرقل به أمراء جنده .

هل مكة وفتح
الشام

وكتب الخليفة إلى أهل مكة يشاورهم ، فغضب عمر ورأى في استشارتهم تسوية لهم بالسابقين الأولين من المسلمين . وعتب أهل مكة على ابن الخطاب ، وكان مما قاله عكرمة بن أبي جهل : « أما إنكم إن كنتم تجدون قبل اليوم في عداوتنا عقلاً فلستم اليوم بأشدّ على من ترك هذا الدين وعادى المسلمين منا » .

كانت العرب في هذه الأثناء تسئل من كل صوب وحدب إلى المدينة تريد أن يكون لها في غزو الشام نصيب . وجمعهم أبو بكر ، وجعل عمرو ابن العاص عليهم وعلى من جاء من أهل مكة . وسأل عمرو : « أأنت أنا الولي على الناس ؟ » وأجابه الخليفة : « أنت الولي على من معك من ها هنا . فإن جمعتكم حرب فأمركم أبو عبيدة بن الجراح » . ولما آن لعمر أن يسير توجه إلى عمر بن الخطاب فسأله أن يكلم أبا بكر ليجعله أميراً على المسلمين بالشام قال عمر : « لا أكذبك ، ما كنت لأكلمه في ذلك أبداً وأبو عبيدة

أفضل منزلة عندنا منك» . وألح ابن العاص يقول : « إنه لا ينقص أبا عبيدة شيئاً من فضله أن ألي عليه » . ولم يغير هذا الكلام من رأى ابن الخطاب ، بل أجابه : « ويحك يا عمرو ! إنك لتحب الإمارة . والله ما تطلب بهذه الرياسة إلا شرف الدنيا . فاتق الله يا عمرو ولا تطلب بشيء من سعيك إلا وجه الله . فإخرج إلى هذا الجيش ؛ فإنك إن لم تكن أميراً هذه المرة فما أسرع ما تكون إن شاء الله أميراً ليس فوقك أحد » . ورضى عمرو وسار بجيشه إلى الشام بعد أن ودّعه أبو بكر ونصح إليه .

وكتب أبو بكر إلى أبي عبيدة يستحثه على الغزو . لكن تقدّم المسلمين بالشام كان بطيئاً لم يغير من بطئه وصول الأمداد ثم وصول عمرو بن العاص إليهم . بل لقد ظل أبو عبيدة يكتب إلى الخليفة يذكر له : « إن الروم وأهل البلد ومن كان على دينهم من العرب قد اجتمعوا على حرب المسلمين » ويطلب إليه رأيه . عند ذلك ضاق أبو بكر ذرعاً ، فرأى أن يُنسى الروم وسأوس الشيطان بخالد بن الوليد ، فكتب إليه بالعراق يقول : « إذا جاءك كتابي هذا فدع العراق وخلف فيه أهله الذين قدِمَت عليهم وهم فيه ، وامض متخففاً في أهل القوة من أصحابك الذين قدِموا العراق معك من الجماعة وصحبوك من الطريق وقدِموا عليك من الحجاز حتى تأتى الشام فتلقى أبا عبيدة ابن الجراح ومن معه من المسلمين ، فإذا التقيتم فأنت أمير الجماعة والسلام عليك » .

أبو بكر يبعث
خالداً إلى العراق
وكتابه إليه في
ذلك

غضب خالد حين بلغه الخبر فقال قبل أن يقرأ كتاب الخليفة : « هذا عمل عمر . نفس على أن يفتح الله العراق على يدي » . فلما قرأ كتاب الخليفة ورآه قد ولّاه على أبي عبيدة وعلى الشام كله اطمأن وقال : « أمّا إذ ولّاني فإن في الشام خلفاً من العراق » .

يذهب المؤرخون الذين يروون الحوادث على هذا النحو إلى أن خالد كان بالحيرة ولم يكن قد فتح الأنبار ولا عين التمر حين جاءه كتاب أبي بكر . فلما تجهّز للخروج إلى الشام سار إليهما ففتحتهما وانحدر منهما إلى قراقر ،

ومن هناك اجتاز المفازة ودليله رافع بن عَمِيرَةَ الطائي حتى بلغ سُوًى من أرض الشام .

وفي هذه الأثناء كان أبو بكر قد كتب إلى أبي عبيدة يقول له : « أما بعد ، فإنني قد ولّيت خالد بن الوليد قتال الروم في الشام فلا تخالفه ، واسمع له وأطع أمره ، فإنني وليّته عليك وأنا أعلم أنك خير منه ، ولكن ظننت أن له فطنة في الحرب ليست لك . أراد الله بنا وبك سبيل الرشاد » . وكتب خالد إلى أبي عبيدة يقول له : « أما بعد ، فإنني أسأل الله لنا ولك الأمن يوم الخوف ، والعصمة في دار الدنيا . فقد أتاني كتاب خليفة رسول الله يأمرني بالمسير إلى الشام وبالمقام على جندها والتولي لأمرها . والله ما طلبت ذلك ولا أردته ولا كتبت إليه فيه . وأنت — رحمك الله — على حالك التي كنت بها لا يُعصى أمرك ، ولا يُخالف رأيك ، ولا يُقطع أمر دونك ، فإنك سيد من سادات المسلمين لا ينكر فضلك ، ولا يستغنى عن رأيك . ثم الله ما بنا وبك من نعمة الإحسان ، ورحمنا وإياك من عذاب النار . والسلام عليك ورحمة الله » .

كتاب خالد إلى
أبي عبيدة
ابن الجراح

وسار خالد من سُوًى إلى اللّوى ، ثم إلى قُصم حيث صالح بني مَشْجَعَةَ ، ومن هناك انحدر إلى الغُوَيْرِ وذات الصنمين حتى بلغ غُوطة دِمَشْقَ بعد أن بث الفزع والرعب حيث سار ، وبعد أن دانت له تدمير وصالحه^(١) أهلها .

ومن الغوطة سار خالد إلى ثَنِيَّةِ الْعُقَابِ يريد دمشق . وإنما سميت هذه الثنية « ثنية العقاب » بعد غارة خالد لأنه نشر بها العقاب راية رسول الله . وعلى ميل من الباب الشرقي لدمشق نزل ديراً عُرف بعده باسم دِيزِ خالد . ويروى أن أبا عبيدة أدركه هناك ، وأن أول حصار لدمشق بدأ يومئذ .

والراجح في الروايات جميعاً أن خالد لم يقم أمام دمشق ، بل تخطاها إلى قناة بُصْرَى حيث اجتمعت قوات المسلمين . وأما الروايتان صحّحت فقد نُسِئتا إلى المسلمين أن هرقل جمع جيشاً عظيماً بأجناديين ليهاجمهم ، فساروا لقتاله من

(١) وروى البلاذري أنه سار من تدمر إلى حواريين فمرج راحط ومنها إلى غوطة دمشق .

بُصرى، أو أنهم فكوا حصار دمشق وساروا لقتاله منها^(١). والتقى الروم والمسلمون بأجنادين قبل أربعة وعشرين يوماً من وفاة الصديق .

اجتماع المسلمين جميعاً بأجنادين
وبأجنادين اجتمع المسلمون جميعاً لإجابة لكتاب وجهه خالد إلى أمراء الجند : يزيد بن أبي سفيان ، وشرحبيل بن حسنة . وعمرو بن العاص . وعبأ خالد هذه الجنود فجعل أبا عبيدة على المشاة ، ومعاذ بن جبل على الميمنة ، وسعيد بن عامر بن حيزم الجُمُحَى على الميسرة، وسعيد بن زيد بن عمرو على الفرسان ، وطفق هو يحرض الناس متنقلاً بين الصفوف لا يستقر في مكان .

وبادر الروم المسلمين بالقتال . وكان خالد قد أمر رجاله أن يؤخروه إلى صلاة الظهر . ورأى سعيد بن زيد كثرة القتلى من المسلمين فنادى يستعجل المعركة . هنالك تقدم خالد الفرسان وأمرهم أن يحملوا معه ، ثم حمل الناس بأجمعهم ، فانهزم الروم وأنصارهم وقتلهم المسلمون كيف شاءوا وأصابوا عسكرهم وما فيه .

وارتدَّ خالد بالمسلمين فحاصروا دمشق ، فنزل هو دير خالد مما يلي الباب الشرقى ، ونزل أبو عبيدة على باب الجابية ، ونزل عمرو بن العاص على باب توما ، ونزل شرحبيل على باب الفراديس ، ونزل يزيد على الباب الصغير الذي يعرف بكيسان . وأحاط المسلمون بالمدينة وضيقوا عليها الحصار ، ولا يخامرهم الريب في أنها ستفتح لهم أبوابها وتسلمهم مفاتيحها .

وكتب أهل دمشق إلى هرقل يستنصرونه ويذكرون له تضيق المسلمين عليهم وشدتهم في محاصرتهم ، فأرسل هرقل إليهم جيشاً لقيه خالد والمسلمون

(١) وفي رواية الأزدى أن خالداً مر بدمشق ولم يقف عندها إلا ريثاً شئ هو وأبو عبيدة الغارات على النوبة وغير النوبة . فبينما هما كذلك إذ أتاهما النبأ أن صاحب حمص أقبل في جمع عظيم من الروم يريد أن يقتطع شرحبيل بن حسنة ببصري . ثم علم خالد وأبو عبيدة أن جموعاً عظيمة من الروم قد نزلت أجنادين وأن أهل البلد وجموعاً من العرب أسرعت إليهم ، فخرجوا عن دمشق يقصدان مواجهة هذا الجمع من الروم ، وكان أبو عبيدة على الساقة . وإنه ليسر إذ أدركه أهل دمشق يريدون قتاله ، فارتد خالد إليهم وقاتلهم ففروا راجعين يتحصنون بالمدينة ثم سار خالد وأبو عبيدة ومن معهما من سلمين إلى أجنادين .

بمَرْج الصُّنْفَر فهِزَمُوهُ فَارْتَدَّ مَدِينَةً ، وَعَادُوا إِلَى حِصَارِ دِمَشْق .

حصار دمشق
والدفاع عنها

وَدَافَعَ أَهْلُ دِمَشْقَ عَنْ مَدِينَتِهِمْ مَا اسْتَطَاعُوا . تَحَصَّنُوا بِأَسْوَارِهَا ، وَرَمَوْا الْمُسْلِمِينَ بِالنَّبْلِ مِنْ أَعْلَاهَا ، وَبِالْغَوَا فِي تَحَصُّنِ أَبْوَابِهَا ؛ لَكِنْ ذَلِكَ كُلُّهُ لَمْ يَصْدُقِ الْمُسْلِمِينَ عَنِ الشَّدَةِ فِي الْحِصَارِ . وَعَادَ أُمَرَاءُ دِمَشْقَ فَكَتَبُوا إِلَى هِرَقْلَ يَذْكُرُونَ أَنَّهُ إِنْ لَمْ يُنْجِدْهُمْ فَلَا سَبِيلَ لَهُمْ إِلَّا مَصَالِحَةُ عَدُوِّهِمْ . وَكَتَبَ هِرَقْلُ إِلَيْهِمْ بِمُخَرَّضِهِمْ وَيُسَجِّعُهُمْ وَيَذْكُرُ لَهُمْ أَنَّهُ مَرْسَلُ الْمَدَدِ وَرَاءَ رَسُولِهِ إِلَيْهِمْ . لَكِنْ الْمَدَدُ طَالَ غِيَابُهُ عَنْهُمْ ، فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ بَدٌّ مِنَ التَّسْلِيمِ .

صالح أهل دمشق
مع المسلمين

وَصَالِحُ أَهْلِ دِمَشْقَ الْمُسْلِمِينَ . تَجَرَّى بَعْضُ الرِّوَايَاتِ بِأَنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ صَالِحُ أَهْلِ دِمَشْقَ الْقُرَيْبِيِّينَ مِنْ بَابِ الْجَلَابِيَّةِ ، فَلَمَّا دَخَلَ الْمَدِينَةَ بَعْدَ تَوْقِيعِ الصَّاحِ كَانَ خَالِدٌ قَدْ فَتَحَ الْبَابَ الشَّرْقِيَّ عَنُودَ . وَالتَّقَى الْأَمِيرَانِ ، هَذَا يَقُولُ إِنَّهُ صَالِحُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ، وَهَذَا يَقُولُ إِنَّهُ فَتَحَهَا بِقُوَّةِ الْجُنْدِ ، ثُمَّ أُجِيزَ الصَّاحِ . وَتَجَرَّى بَعْضُ الرِّوَايَاتِ بِأَنَّ خَالِدًا هُوَ الَّذِي صَالِحُ أَهْلُ دِمَشْقَ الْقُرَيْبِيِّينَ مِنَ الْبَابِ الشَّرْقِيِّ ، وَأَنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ دَخَلَ مِنْ بَابِ الْجَلَابِيَّةِ عَنُودَ . وَالْمُتَّفَقُ عَلَيْهِ أَنَّ الْأَمْرَ انْتَهَى بِالصَّلَاحِ بَيْنَ الْقَرِيقَيْنِ .

وَالرِّوَايَاتُ تَجَرَّى كَذَلِكَ بِأَنَّ أَبَا بَكْرٍ قُبُضَ وَتَوَلَّى عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ أَمْرَ الْمُسْلِمِينَ وَجِيُوشَهُمْ لَا تَزَالُ عَلَى حِصَارِ دِمَشْقَ ، وَأَنَّ ابْنَ الْخَطَّابِ بَعَثَ إِلَى أَبِي عُبَيْدَةَ بِوَفَاةِ أَبِي بَكْرٍ وَبِوَلَايَتِهِ وَبِعِزْلِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ ، فَلَمْ يُفَضَّضْ أَبُو عُبَيْدَةَ إِلَى خَالِدٍ بَعْزَلُهُ حَتَّى فَتَحَتْ دِمَشْقَ أَبْوَابُهَا . وَقِيلَ بَلْ أَفْضَى إِلَيْهِ بِأَمْرِ الْعِزْلِ فَلَمْ يَغْيِرْ ذَلِكَ مِنْ نَشَاطِ خَالِدٍ ، وَأَنَّ خَالِدًا صَالِحُ أَهْلِ دِمَشْقَ حِينَ دَخَلَ أَبُو عُبَيْدَةَ مِنَ بَابِ الْجَلَابِيَّةِ عَنُودَ ، فَلَمَّا قِيلَ لِأَبِي عُبَيْدَةَ : وَاللَّهِ مَا خَالِدٌ بِأَمِيرٍ فَكَيْفَ يَجُوزُ صَلَاحُهُ ، قَالَ إِنَّهُ يُسَجِّزُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَدْنَاهُمْ ، وَأَجَازَ صَلَاحَهُ .

هَذِهِ رِوَايَةُ الْأَزْدِيِّ وَالْبَلَاذِرِيِّ وَالْوَاقِدِيِّ عَنْ فَتْحِ الشَّامِ أَوْجَزْنَا تَفَاصِيلَهَا وَلَمْ نُطَلِّ الْوُقُوفَ عِنْدَ اخْتِلَافِ الرِّوَايَاتِ فِيهَا . وَهِيَ تَخْتَلِفُ كَمَا رَأَيْتَ عَنْ رِوَايَةِ الطَّبْرِيِّ فِي التَّرْتِيبِ التَّارِيخِيِّ لِلْوُقُوعِ ، وَتَخْتَلِفُ كَذَلِكَ مَعَهُ فِي أَمْرِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ وَإِمَارَتِهِ عَلَى الْجَنْدِ وَعِزْلِهِ عَنْ هَذِهِ الْإِمَارَةِ .

عَلَى أَنَّ أَمْرَيْنِ أَسَاسِيَيْنِ لَا يَقَعُ عَلَيْهِمَا خِلَافٌ : أَوَّلُهُمَا أَنَّ أَبَا بَكْرٍ هُوَ الَّذِي

أبو بكر وابن الوليد ومكانهما في فتح العراق والشام

قرر غزو الشام كما قرر غزو العراق ، وهو الذي جيش الجيوش وسيّر الأمداد إليهما ، وأن ما تم للمسلمين من نصر على الروم وعلى الفرس في عهده كان أساس الإمبراطورية الإسلامية . والثاني أن سيف الله خالد بن الوليد كان القائد المظفر في فتح الشام ، كما كان القائد المظفر في فتح العراق ، وأن عزل عمر إياه عن إمارة الجند لم يغضب من مكانته ولا من عبقريته في الحرب ، هذه العبقرية التي عرفها رسول الله فيه فسمّاه سيف الله ، وأقرها له أبو بكر فقال : « ما كنت لأشيم سيفاً سله الله على الكافرين » .

تعذر التحقيق التاريخي لوقائع الفتح في الشام

أما اختلاف المؤرخين في ترتيب الوقائع فليس يسيراً لتحقيقه . لقد رأيت من رواية الطبري ومن إليه أن خالد بن سعيد ما لبث حين أمره أبو بكر بالتقدم في الشام أن اجتاز حدوده فانسحب الروم وأنصارهم من العرب أمامه دون قتال ، وأن باهان قائد الروم جعل يتراجع بجيوشه نحو دمشق فيتبعه خالد حتى كانا على مقربة من مرج الصفر ؛ هنالك ارتد باهان فأحاط به وقطع عليه خط رجعتة وقتل فرقة من عسكره فيها ابنه سعيد بن خالد بن سعيد . عند ذلك فر خالد في كتيبة من أصحابه حتى بلغ ذا المروة على مقربة من المدينة . أما سائر قوات المسلمين فتقهقر بها عكرمة بن أبي جهل إلى حدود الشام ، وهناك أقام حتى أمده أبو بكر بالأمراء والجيوش الذين تقدموا إلى اليرموك دون أن يلقوا الروم . وعسكر الروم على ضفة اليرموك الأخرى . ولم يقع بين القوتين قتال طيلة شهرين سُم الخليفة جمود الموقف أثناءهما فأمد المسلمين بخالد بن الوليد . وأقام خالد مع القوم حتى هزم جيوش هرقل هزيمة نكراء . ويوم تم لخالد هذا النصر قلم حميّة بن زئيم بريداً من المدينة يحمل النبأ بأن أبا بكر قبض وأن عمر استخلف وأنه عزل خالدًا عن إمارة الجيش .

هذه رواية الطبري ومن إليه . أما البلاذري ومن شاكله فيذكرون أن اليرموك حدثت في عهد عمر ، وهي في رأى بعضهم آخر الوقائع في فتح الشام ، كما يذكرون أن أبا بكر جعل أبا عبيدة أميراً على المسلمين لفتح الشام ، وأنه أمده بجيوش كان خالد بن سعيد في بعضها . وقد فتح أبو عبيدة الجابية ثم أبطأ في تقدمه وألح على الخليفة بالكتب يستمده ويذكر له من بأس الروم وقوتهم

ما جعل أبا بكر يوفد خالد بن الوليد من العراق أميراً على جيوش المسلمين بالشام ، ويعزل أبا عبيدة عن هذه الإمارة . وسار ابن الوليد حتى انضم إلى قوات المسلمين على قناة بصرى ، ومن هناك التقى المسلمون بقوات الروم العظيمة التي اجتمعت بأجنادين فغلبوها . ثم إنهم حاصروا دمشق وطال حصارهم إياها قبل أن تفتح أبوابها . ويوم فتحت هذه الأبواب جاء يريد المدينة بوفاة أبي بكر واستخلاف عمر وعزل خالد .

تبادل روايتي
الطبرى
والبلاذرى في
وقائع الفتح

أكانت اليرموك في عهد أبي بكر كرواية الطبرى ومن إليه ، أم في عهد عمر كرواية البلاذرى ومن شاكله ؟ ! ربما أيّد رأى الطبرى أن واقوصه الواقعة على اليرموك والتي حدثت المعركة عندها ، قريبة من بادية الشام ، ومن تخوم العرب ، ومن طريق وادى سرحان ، وأنها كانت لذلك أدنى الأرض إلى جيوش المسلمين حين التقائها بعد أن جاءت من المدينة تغزو هرقل وإمبراطوريته . وربما أيّد رواية البلاذرى ومن شاكله ما ذكره الطبرى نفسه من أن الروم تراجعوا منذ بدأت الحرب نحو دمشق ، مطمئنين إلى حصونها وإلى قوة المدن الحصينة المحيطة بها ، وأنهم أرادوا بتراجعهم أن يستدرجوا العرب إلى المواقع القوية ليقعوا بهم ويردوهم منهزمين إلى بلادهم فلا تحدثهم أنفسهم بالعود إلى غزو الشام مرة أخرى .

الرأى في عزل
ابن الخطاب
خالداً

من العسير ، والأمر ما ترى ، أن نقطع كيف كان ترتيب الوقائع في فتح الشام . أما عزل ابن الخطاب خالداً عن إمارة الجيش فالأمر فيه يسير . فالطبرى والبلاذرى والمؤرخون جميعاً متفقون على أن أبا بكر بعث خالداً من العراق إلى الشام لينسى الروم وسوس الشيطان ، وذلك بعد أن سُمّ جمود قوات المسلمين هناك . وإنما يقع الخلاف على مكان خالد من زملائه الأمراء : أذهب أميراً عليهم جميعاً ، أم ذهب أميراً على القوة التي فصل بها من العراق دون سواها ؟ فإذا انحسم هذا الخلاف تيسر لنا أن نفهم أمر ابن الخطاب بعزل خالد .

يذهب الطبرى ومن إليه إلى أن ابن الوليد ذهب إلى الشام أميراً على القوة التي فصل بها من العراق ، وأنه لم يتول الإمارة العامة إلا يوم اليرموك ،

وذلك حين اتفق مع زملائه أن يتعاوروا الإمارة بينهم ، وأن يتأمر هو اليوم الأول . أما البلاذرى ومن شاكلة فيذكرون أن أبا بكر بعثه أميراً على قوات المسلمين كلها بالشام ، ويثبتون نص الكتابين اللذين بعث بهما الخليفة إلى خالد وإلى أبي عبيدة متضمنين أمره هذا . ولسنا نتردد في الأخذ برواية البلاذرى . فليس طبيعياً أن تقف جيوش دولة بعضها إلى جانب بعض ولا تسند القيادة العامة على القوات كلها إلى أحد أمراء هذه الجيوش . والطبرى نفسه يثبت أن أبا بكر بعث إلى أمراء الجند بالشام أن يجتمعوا عسكرياً واحداً وأن يلقوا زحف المشركين بزحفهم . وهذا أمر لا سبيل إلى نفاذه إذا تفرقت القيادة . وقد أصدر الخليفة هذا الأمر قبل أن يبعث ابن الوليد إلى الشام . فلا بد أن إمارة الجيش العامة كانت لأبي عبيدة أو ليزيد بن أبي سفيان أو لغيرهما من سائر الأمراء . والراجح أنها كانت لأبي عبيدة وإن ذكر بعضهم أنه استغنى أبا بكر منها . أما وذلك ما لا نتردد في القطع به ، فلا شبهة في أن أبا بكر أوفد خالداً من العراق إلى الشام أميراً على جيوش المسلمين كلها ، على نحو ما رواه البلاذرى ومن شاكلة .

ولولا أن خالداً كان الأمير على جيوش المسلمين لما عزله عمر بن الخطاب عن هذه الإمارة أول ما استخلف . فالثابت في كتاب الطبرى وغيره من المؤرخين أن خالداً ظل بعد عزله هذا أميراً على القوات التى كان يباشر قيادتها ، وأنه ظل كذلك حتى عزله عمر عن إمارة قيسريين وعن عمله في الجيش ، وذلك في السنة السابعة عشرة من الهجرة ، وهى السنة الخامسة من خلافة عمر . فالعزل الأول كان إذن عن القيادة العامة ، أما العزل الذى حدث بعد ذلك بما يزيد على أربع سنوات فكان عن عمله كله .

هذا ما نقطع به ، وما لا شبهة عندنا فيه . وهو وحده الذى يفسر تصرف عمر أول ما استخلف . فلو أن خالداً كان أميراً على القوات التى فصل بها من العراق دون سواها لما احتاج عزله إلى أمر من الخليفة ، ولأسترد أبو عبيدة إمارته على جيوش المسلمين بعد يوم اليرموك في رواية الطبرى ، أو بعد دمشق في رواية البلاذرى .

وهذا اليوم الذى عزل ابن الخطاب فيه خالداً عن إمارة الجيش العامة
 إثر معركة من أكبر المعارك فى فتح الشام هو فى حياة خالد من أمجد أيامه .
 وليس يقف مجده فى ذلك اليوم عند انتصاره على عدوه ، فقد كان هذا النصر
 واحداً من عشرات . إنما أكبر مجده يومذاك أنه انتصر على نفسه ، فلم يضعف
 عزل الخليفة إياه من حماسته لله ولدين الله ، ولم ينهته من قوة بأسه وعظيم
 شعوره بواجبه ؛ فقد رضى إمارة أبى عبيدة وسلم بها طائعاً ، وسار على رأس
 لوائه يخوض غمار المعارك واحدة بعد أخرى فإذا هو هو ، وإذا النصر يسير فى
 ركابه ، وإذا المسلمون والروم يتحدثون بفعاله ، وكأنه القائد الأول ، وكأنه
 النصر تجسم رجلاً ، وكيف لا يكونه وهو سيف الله فلا غالب له ! .

لا جناح علينا ونحن نختم الآن حديث خالد فى عهد أبى بكر أن نقص
 رواية أثبتها الطبرى وأثبتها ابن الأثير . وإنما نقصها على علاقتها لا نحمل
 تبعاتها ولا نطلب إلى القارىء تصديقها . فقد ذكر أن جريرة القائد الروى خرج
 صباح يوم اليرموك حتى كان بين الجيشين ونادى : ليخرج إلى خالد . فخرج
 خالد حتى اختلف أعناق دابتيهما وقد أمن كل منهما صاحبه . عند ذلك قال
 جريرة : يا خالد اصدقنى ، ولا تكذبنى فإن الحر لا يكذب ، ولا تخادعنى
 فإن الكريم لا يخادع . هل أنزل الله على نبيكم سيفاً من السماء فأعطاكمه فلا
 تسله على قوم إلا هزمتهم ؟ وأجابه خالد بالنفى . فقال : فمى سميت سيف الله ؟
 وأجابه خالد فحدثه عن بعث الله رسوله ، وأن الله هداه للإيمان به والذود عن
 دينه ، ولذلك قال رسول الله له : « أنت سيف من سيوف الله سله الله على
 المشركين » . ودعا له بالنصر ، فسمى « سيف الله » بذلك . ثم دار بين الرجلين
 حوار حول رسالة محمد انتهى بإسلام جريرة وصلاته ركعتين وإلى قتاله فى صف
 خالد ومقتله مع المسلمين الذين قتلوا فى الموقعة .

قصص هذه الرواية على علاقتها لأنها تصور ما لخالد وعبقريته فى النفوس
 من أثر جعل الطبرى وابن الأثير وغيرهما من المؤرخين لا يرون بأساً فى تصديق
 كل ما يتصل بهذا القائد النابغة البطل صاحب المعجزات فى الحرب . وهو
 فى الحق جدير أن يبلغ إعجابنا به غاية ما نعجب ببطل من أبطال العالم فى

قصة جريرة
 وإسلامه

تاريخ العالم كله ، وإن لم يسوغ لنا الإعجاب أن نقبل إلا ما يثبت أمام النقد وما يقره المنطق السليم .

والآن ، وداعاً خالد ! وداعاً فاتح العراق وسورية ، وموطد القواعد من الإمبراطورية الإسلامية ! وداعاً سيف الله البتار ! ولعل الأقدار تجمعنا يوماً في عهد الفاروق عمر ! .

وداعاً موطد
القواعد من
الإمبراطورية
الإسلامية

الفصل الخامس عشر

المثنى فى العراق

ودع المثنى خالد بن الوليد حين سفره من العراق إلى الشام حتى تخوم البادية . فلما رجع إلى الحيرة بدأ ينظم الدفاع عن البلاد التي فتحها المسلمون بما بقى له من قوات بعد الذين ارتحلوا مع خالد . ولم يكن المثنى فى ريب من أن الفرس سيتحشرون به متى علموا بسفر خالد ، وأنهم سيحاولون طرده وطرده المسلمين من الحيرة ومن أرض العراق جميعاً .

والحق أنه كان فى موقف بالغ غاية الدقة ؛ فقد بطش خالد بالبدو المقيمين المثنى ودقة موقفه بجزيرة العراق بطشاً جعلهم جميعاً خصوماً للمسلمين ، يترصدون بهم الدوائر ويحرصون على مناصرة أعدائهم . وقد تنبه الفرس إلى أن دولتهم مؤذنة بالزوال إذا ظل هؤلاء العرب الغزاة فى العراق سلطان . وشعور خالد بن الوليد بدقة الموقف هو الذى دفعه فبعث بالنساء والصبيان والضعفاء من الرجال إلى المدينة قبل سفره إلى الشام . طبيعى أن يفكر المثنى فى هذا كله وأن يطول تفكيره فيه . فهو الذى دفع أبا بكر إلى غزو العراق ، وهو الذى تقدم خالداً والمسلمين جميعاً إلى مفاتيحه بالسير إلى دلتا النهرين . فليس من الهين على نفسه أن يهزم فى بلد كان الطليعة فى غزوه . وأشد من ذلك عليه أن تبلغ به الهزيمة حتى يحلوا عن هذا البلد بعد فتحه .

وزاد الموقف دقة أن هذا الاضطراب الذى ساد بلاط فارس سنوات متتالية . فقد اتفق أهل فارس فلكوا عليهم شهريران^(١) ابن أردشير بن سابور . فلما اطمأن له الأمر كان إجلاء المسلمين عن العراق أول ما استقر عليه عزمه . وما له ينتظر والفرصة سانحة وخالد بن الوليد غائب بالنصف من جيش هؤلاء الغزاة ! . لذلك وجه هُرمز جاذويه فى عشرة آلاف لمحاربة المثنى . وجعل هُرمز فى مقدمة جيشه فيلاً من قبيلة الحرب يخوف به المسلمين ويشتت صفوفهم .

(١) وقيل شهر بازان ، أو شهر بازار ، أو شهر براز .

وبلغت المنفى أنباء هذه التجهيز ، ثم بلغته أنباء تحرك هرمز وجيشه . أترأه ينتظر حتى يجيء إليه بالخير متخطياً حدود البلاد التي فتحتها المسلمون ؟ ! كلا ! بل خرج هو كذلك بجنوده وجعل أخويه المعنّى ومسعوداً على ميمنته وميسرته وسار حتى بلغ أطلال بابل . وإنه لفي مسيرته إذ جاءت رسالة من شيراز يقول فيها : « إني قد بعثت إليك جنداً من أهل فارس . وإنما هم رعاة الدجاج والخنزير ، ولست أقاتلك إلا بهم » . وتناول المنثى الرسالة وتلاها ، فلم يلبث أن رد عليها مع الرسول الذي جاء بها برسالة يقول فيها : « من المنثى إلى شهريران ، إنما أنت أحد رجلين ، إما باغ فلذلك شر لك وخير لنا ، وإما كاذب فأعظم الكذابين عقوبة وفضيحة عند الله وفي الناس الملوك . وأما الذي يدلنا عليه الرأي فإنكم إنما اضطررتم إليهم . فالحمد لله الذي رد كيدهم إلى رعاة الدجاج والخنزير » .

بُهِت أهل فارس حينما عرفوا رسالة المنثى وعرفوا مسيرته . فلم يكن أحد منهم يتوقع أن تكون في المسلمين هذه القوة بعد انصراف خالد عنهم ؛ بل لقد آخذ بعضهم ملكهم أن يخاطب قائد جيش باللهجة التي أفرغ فيها رسالته ، وقالوا له : « جرأت علينا عدونا بالذي كتبت به إليهم ؛ فإذا كاتبت أحداً فاستشر » .

عسكر المنثى بجيشه على مرتفع من أطلال بابل على خمسين ميلاً من المدائن ، وأقام بين شبكة من جداول تتصل بدجلة ينتظر هُرمز جاذويه وهجومه عليه . وأقبل هرمز بجيشه يتقدمه الفيل وكله الاطمئنان إلى أنه مشيت شمل المسلمين لا محالة . وسار الفيل يضرب بخرطومه يمناً ويسرة ، ويفرق صفوف المنثى ويوقع الرعب فيهم . وأيقن المنثى أن انتصاره رهن بالقضاء على الفيل ، فخرج في جماعة من رجاله فهاجموه فأصابوا منه مقتلاً فهوى جسمه على الأرض سريعاً ، هنالك التأمّت صفوف المسلمين وقويت روحهم ، فهاجموا الفرس فهزموهم شر هزيمة . واحتل فريق من رجال المنثى معقل الفرس وتعقب سائرهم المنهزمين حتى انتهوا بهم إلى أبواب المدائن .

قتل الفيل
وانتصار المسلمين

ونزلت أنباء الهزيمة بشيراز نزول الصاعقة فحُمّ فأت ، وأراد الفرس

عود الاضطراب
إلى بلاط فارس

أن يملكوا عليهم ابنة كسرى ليفرغوا إلى تنظيم شؤونهم مرة أخرى . ولم يُنفذ لها أمر فخلعت ، وخلفها على العرش سابور بن شهريران . واستوزر سابور الفرخزاد وأراد أن يزوجه آزرْمِيلِدخت ابنة كسرى ، فغضبت ألا يكون زوجها من بيت الملك ، وقالت لسابور : « يا بن عم ، أتزوجني عبدي ! » . لكن سابور لم يسمع لقرنها وأغلظ لها في الخطاب ، فاستعانت بـسِيَاوَحْش الرازي أحد فتاك الأعاجم . فلما كانت ليلة العرس ودخل الفرخزاد مخدع آزرْمِيلِدخت ثار به الفاتك فقتله ومن معه ، ثم سار بابنة كسرى وأعوانها إلى سابور فحاصروه ودخلوا عليه فقتلوه ، وجلست آزرْمِيلِدخت على العرش مكانه .

المثنى يستعين
الصدّيق بالتائبين
من أهل الردة

ترامت هذه الأنباء إلى المثنى فاطمأن ؛ وما خوفه من بلاط عاد إليه الاضطراب والغدر واختلاف الجالسين على العرش ! ! لكنه إن أمن يومه فالخدر يقتضيه الحساب لغده . وسار بجيشه يطارد الفرس حتى بلغ أبواب المدائن ، فهو يطمع في أن يفتحها . ولا بد له ليفتحها من مدد يقوى جيشه . وما كان أبو بكر ليمدّه وجيوش المسلمين كلها بالشام . لذلك كتب المثنى يخبر الصدّيق بانتصاره على الفرس ويستأذنه في الاستعانة بمن ظهرت توبتهم من أهل الردة . وإذ كان يعلم أن أبا بكر لا يطيب نفساً بهذا الرأي فقد أيده بأن التائبين من أهل الردة يطعمون في مغنم الغزو ، وأنه لا يرى أحداً أنشط إلى معاونته في محاربة فارس منهم . وفي انتظار المدد أقام يدبّر خطته . ويحكم تدبيره .

لكن انتظاره طال وأبطأ عليه رد الخليفة . هنالك انسحب في الجيش إلى أدنى أرض العراق من حدود البادية ، واستخلف بشير بن الخصاصية على من بالعراق من المسلمين ، وذهب بنفسه إلى المدينة يدافع عن رأيه . وألنى أبا بكر اشتد به المرض حتى أشقى على الموت . مع ذلك استقبله الخليفة وسمع إليه واقتنع برأيه وقال : علىّ بعمر ، وكان قد استخلفه ؛ فلما جاء قال له :

وصية أبي بكر
لعمر في أمر
العراق

« اسمع يا عمر ما أقول لك ، ثم اعمل به . إنى لأرجو أن أموت من يومى هذا . فإن مت فلا تُمسّين حتى تندب الناس مع المثنى . وإن تأخرت إلى الليل

فلا تُصَبِّحَنَّ حَتَّى تَتَدَبَّ النَّاسُ مَعَ الْمَشْنَى . وَلَا يَشْغَلَنَّكُمْ مَصِيبَةٌ وَإِنْ عَظُمَتْ
عَنْ أَمْرِ دِينِكُمْ وَوَصِيَّةِ رَبِّكُمْ . وَقَدْ رَأَيْتَنِي مُتَوَفَّى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
وَمَا صَنَعْتُ ، وَلَمْ يُصَبِّ الْخَلْقُ بِمِثْلِهِ . وَبِاللَّهِ لَوْ أَنَّنِي أَنَبِيٌّ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ وَأَمْرُ رَسُولِهِ
لَخَذَلْنَا وَلَعَاقَبْنَا فَاضْطَرَمَّتِ الْمَدِينَةُ نَارًا . وَإِنْ فَتَحَ اللَّهُ عَلَى أَمْرَاءِ الشَّامِ فَارْدُودٌ
أَصْحَابُ خَالِدٍ إِلَى الْعِرَاقِ فَإِنَّهُمْ أَهْلُهُ وَوَلَاةُ أَمْرِهِ وَحَدَهُ ، وَهُمْ أَهْلُ الضَّرَاقَةِ بِهِمْ
وَالْجُرَّاءَةِ عَلَيْهِمْ » .

وَوَعَدَ عُمَرُ أَنْ يَنْفُذَ أَمْرَ أَبِي بَكْرٍ . وَكَانَ يَقُولُ مِنْ بَعْدُ : « قَدْ عَلِمَ أَبُو بَكْرٍ
أَنَّهُ يَسُوعُنِي أَنْ أَؤَمِّرَ خَالِدًا ، فَلِهَذَا أَمَرَنِي أَنْ أَرُدَّ أَصْحَابَ خَالِدٍ وَتَرْكُ
ذِكْرِهِ مَعَهُمْ » .

وَعَادَ الْمَشْنَى إِلَى الْعِرَاقِ أَوَّلَ مَا اسْتَخْلَفَ عُمَرُ . وَرَفَعَ عُمَرُ الْحَظَرَ عَنْ عَادُوا
إِلَى الْإِسْلَامِ مِنَ الْمُرْتَدِّينَ لِيَنْهَضُوا إِلَى حَرْبِ فَارَسَ . وَمَا لَهُمْ لَا يَفْعَلُونَ وَقَدْ
فَتَحَ اللَّهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ! ثُمَّ مَا لَهُمْ لَا يَسَارِعُونَ إِلَى الْخَيْرَاتِ يَتَطَهَّرُونَ بِجِهَادِهِمْ مِنْ
حُبَّةٍ رَدَّتْهُمْ ، فَإِنْ اسْتَشْهَدُوا فَلَهُمُ الْجَنَّةُ ، وَإِنْ أَقَامُوا بَعْدَ النَّصْرِ فَلَهُمْ مِنَ
النَّوَى مَا يَجْعَلُ الْحَيَاةَ جَنَّةً أَمَامَهُمْ ! .

وَلَقَدْ اسْتَفْتَحَ عُمَرُ عَهْدَهُ بِمَتَابَعَةِ حُرُوبِ فَارَسَ ؛ فَكَانَ لَهُؤُلَاءِ الَّذِينَ عَادُوا
إِلَى الْإِسْلَامِ مِنْ حَسَنِ الْبَلَاءِ مَا أَرْجُو أَنْ أَقْصَى نَبَأُهُ فِي خِلَافَةِ الْفَارُوقِ .

الفصل السادس عشر

جمع للقرآن

يقنضينا الحديث عن جمع القرآن أن نعود بالذاكرة إلى غزوة اليمامة . فعلى أثرها بدأت فكرة هذا الجمع ، ثم نُفذت ، واستغرق التنفيذ ما بقي بعد اليمامة من خلافة الصديق . وفي رواية أنه استغرق زمناً من عهد عمر . ولأنما أرجأنا الحديث في هذا الموضوع لثلاث نقطع حديث الحرب والفتح ، وليكون حديثنا عن جمع القرآن متصلاً حتى وفاة أبي بكر .

غزوة اليمامة
وأثرها في حياة
المسلمين

كانت غزوة اليمامة أعظم الغزوات في حروب الردة ، كما كانت أجملها خطراً وأبعدها أثراً . قضى مقتل مُسَيْلِمَةَ بن حبيب قضاء حاسماً على المتنبئين في بلاد العرب ، وأذن عود بنى حنيفة إلى الإسلام بالقضاء على الردة بالبحرين . والقضاء على ردة البحرين هو الذي طوع للمثنى بن حارثة الشيباني أن يسير إلى مصب دجلة والفرات ، وأن يكون الطليعة الميمونة لفتح العراق وإقامة بناء الإمبراطورية الإسلامية . غزاة ذلك شأنها لم يخطئ خالد بن الوليد حين دفع إليها جيوش المسلمين يقتلون ويقتلون ويقضون على مسيلمة وأصحابه عند احتمائهم بحديقة الموت ، ولم يبالغ المهاجرون والأنصار حين اندفعوا إلى وطيسها مستميتين يبتغون الشهادة . استشهد من المسلمين يومئذ مائتان وألف ، بينهم تسعة وثلاثون من كبار الصحابة ومن حفاظ القرآن .

وقد جزع أهل المدينة لمن استشهد من المسلمين باليمامة واشتد حزنهم ، وإن اختلفت البواعث لهذا الحزن والجزع . فأواصر القرى وروابط الود والصداقة وتقدير ما كان لكبار الصحابة وحفاظ القرآن الذين استشهدوا من مكانة سامية عند الرسول عليه السلام ، كل هذه كانت دوافع تحز في النفوس . لقي عمر بن الخطاب ابنه عبد الله بعد أن أبلى في اليمامة أحسن البلاء . وكان عمر شديد الجزع لمقتل أخيه زيد بها ، فكان أول ما واجه به ابنه ما أسلفنا ذكره من قوله : « ما جاء بك وقد هلك زيد ! . ألا وارىت وجهك عني ! » وكان

جواب عبد الله : « سأل الله الشهادة فأعطيتها ، وجهدت أن تساق إلى فلم أعطيها » .

على أن جزع ابن الخطاب لمقتل أخيه زيد وأصحابه الذين استشهدوا باليماة لم يثنه عن التفكير في أمر خطير ، هو لا ريب أجل الأمور في حياة الإسلام والمسلمين خطراً . لقد استشهد من حفاظ القرآن في هذه الغزاة من استشهد . واليماة ليست إلا واحدة من الغزوات التي واجهت المسلمين بعد وفاة الرسول . فما عسى أن يكون الأمر إذا تلاحت الغزوات فقتل فيها من الحفاظ مثل من قتل باليماة ؟ ! فكر عمر في هذا وطال تفكيره . فلما استقر به الرأي ذهب إلى أبي بكر وهو بمجلسه من المسجد فقال له : « إن القتل قد استحرّ يوم اليماة بالناس . وإني أخشى أن يستحرّ القتل بالقراء في المواطن فيذهب كثير من القرآن إلا أن تجمعوه . وإني لأرى أن تجمع القرآن » (١) .

لم يكن أبو بكر قد فكر في هذا الأمر . لذلك لم يلبث حين سمعه أن قال : « كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ! » . عند ذلك دار بين الرجلين حوار طويل لم يورث المؤرخون تفصيله . واقتنع أبو بكر بعد هذا الحوار برأى عمر ، فدعا زيدا بن ثابت . جاء في البخاري عن زيد بن ثابت أنه قال : « أرسل إلى أبو بكر مقتل أهل اليماة وعنده عمر . فقال أبو بكر : إن عمر أتاني فقال إن القتل استحرّ يوم اليماة بالناس وإني أخشى أن يستحرّ القتل بالقراء في المواطن فيذهب كثير من القرآن إلا أن تجمعوه . وإني لأرى أن تجمع القرآن . قال أبو بكر : فقلت لعمر : كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ؟ فقال : هو والله خير . فلم يزل يراجعني حتى شرح الله لي ذلك صدرى ورأيت الذي رأى عمر . قال زيد : وعنده عمر جالس لا يتكلم ، فقال لي أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل ولا نتهمك ، كنت تكتب الوحي لرسول الله (ص) ، فتتبع القرآن فاجمعه . فوالله لو كلفني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ »

رواية البخاري
عما دار بين أبي
بكر وعمر وزيد
ابن ثابت

(١) بين الروايات التي أوردت عبارة عمر خلاف في اللفظ ولكنها متفقة كلها في المعنى . ومن هذه الروايات أنه قال : « إن القتل قد استحرّ بقراء القرآن يوم اليماة ، وإني أخشى أن يستحرّ القتل بالقراء في المواطن كلها فيذهب قرآن كثير ، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن » .

مما أمرني به من جمع القرآن . قلت : كيف تفعلان شيئاً لم يفعله رسول الله (ص) ؟ فقال أبو بكر : هو والله خير . فلم أزل أراجع حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبي بكر وعمر ، فقامت فتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف والعُسب^(١) وصدور الرجال ، حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع خزيمة الأنصاري لم أجدهما مع غيره : « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ . فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ » .

فلما نسختنا الصحف في المصاحف فقدت آية من سورة الأحزاب ، كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأها لم أجدها مع أحد إلا مع خزيمة الأنصاري الذي جعل رسول الله شهادته بشهادة رجلين : « مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رَجُلٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ . فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ » فألحقتهما في سورتها . فكانت الصحف التي اجتمع فيها القرآن عند أبي بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حتى توفاه الله ، ثم عند حفصة بنت عمر .

هذا حديث زيد بن ثابت فيما رواه البخاري . وقد أجمعت الروايات على صحته . وذكر القرطبي أن زيدا جمع القرآن غير مرتب السور بعد تعب شديد ، وأن الصحف حفظت بعد جمعها عند أبي بكر ، ثم عند عمر ، ثم عند حفصة أم المؤمنين .

الروايات عن
جمع عمر وعثمان
القرآن

وتذهب رواية إلى أن عمر بن الخطاب أول من جمع القرآن في المصحف^(٢) . ذلك أنه سأل يوماً عن آية من كتاب الله ، ف قيل كانت مع فلان فقتل يوم اليمامة . فقال إنا لله ! وأمر بالقرآن فجمع . وأصحاب الرواية المتواترة يردون هذا القول بأن عمر كان أول من رأى جمع القرآن لأنه أشار على أبي بكر بذلك وأقنعه به ، أما الجمع فتم في عهد الصديق . وهذا الرأي هو الصحيح . يؤيد

(١) العُسب : جمع عسيب . وهو هنا : ما لم يثبت عليه الخوص من جريد النخل .

(٢) راجع صفحة ٢٠ من كتاب المصاحف لابن أبي داود ، وصحة ٥٩ من كتاب

الإتقان في علوم القرآن للسيوطي .

ذلك ما روى عن عليّ بن أبي طالب أنه قال : « رحمة الله على أبي بكر ! كان أعظم الناس أجراً في جمع المصاحف . وهو أول من جمع بين اللوحين » . وقد تواترت بذلك شهادة عدد كبير من أصحاب رسول الله .

والذين قالوا إن عمر أول من جمع القرآن يذكرون أنه حين أراد أن يجمعه قام في الناس فقال : « من كان تلقى من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً فليأتنا به » . وكانوا كتبوا ما تلقوه من ذلك في الصحف والألواح والعُسب . وكان عمر لا يقبل من أحد شيئاً حتى يشهد عليه شاهدان . وقتل وهو يجمع ذلك إليه ؛ فقام عثمان بن عفان فقال ما قال عمر وصنع صنيعة ، وعهد إلى زيد بن ثابت بجمع القرآن ، وضم إليه نفرأ من الحفاظ وقال لهم : « إذا اختلفتم فاكتبوا لغة مُضَرَّ فإن القرآن نزل على رجل من مضر » .

أما والثابت المقطوع به أن أبا بكر هو الذي أُرِى بجمع القرآن بعد حواره مع ابن الخطاب ، فيجمل بي قبل أن أفصل كيف كان هذا الجمع أن أقف عند قول الصديق : « كيف أفعَل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم » . فقد نزل الوحي بالقرآن على رسول الله خلال ثلاث وعشرين سنة ، منذ بعثه الله نبياً وهو بمكة إلى أن قبضه إليه وهو بالمدينة . وكان الوحي ينزل ببعض الآيات أحياناً ، وبالسورة كاملة أحياناً أخرى . ولقد كان أول ما نزل من الوحي قوله تعالى : « إقرأ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » .

هل جمعت
الآيات سوراً في
حياة رسول الله

أما بقية هذه السورة على ما نتلوها اليوم في المصاحف فنزلت بعد ذلك ، وبعد أن نزل غيرها من الوحي قبل نزولها . أفيعنى قول أبي بكر وقول زيد بن ثابت من بعده « كيف أفعَل شيئاً لم يفعله رسول الله ؟ » أن القرآن بقي إلى وفاة الرسول لم يجمع سوراً ، ولم ينتظم كتاباً ، فبقيت الآيات التي نزلت فُردى لم تضم إلى غيرها على الصورة التي نراها اليوم بها ، فلما كان الجمع رتبت السور ونظمت في كتاب ؟ .

هذا ما يقول به بعض المؤرخين ، وترجحه طائفة من المستشرقين . بل لقد نسب إلى زيد بن ثابت أنه قال : « قُبِضَ النبيّ ولم يكن القرآن جمع في

رأى لبعض
المؤرخين يؤيده
المستشرقون

شيء». والمستشرق الإنجليزى سير وليم موريسوق هذا القول فى مقدمة كتابه عن سيرة الرسول حجة من الحجج على الدقة والصدق فى جمع القرآن فيقول : « إن القرآن بمحتوياته ونظامه ينطق فى قوة بدقة جمعه ؛ فقد ضمت الأجزاء المختلفة بعضها إلى بعض ببساطة تامة لا تعمل ولا تكلف فيها . وهذا الجمع لا أثر فيه ليد تحاول المهارة أو التنسيق . وهو يشهد بإيمان الجامع وإخلاصه لما يجمع ؛ فهو لم يجرؤ على أكثر من تناول هذه الآيات المقدسة ووضع بعضها إلى جانب بعض ». والمستشرقون المؤيدون لهذا رأى يؤخذون زيد بن ثابت والذين عاونوه فى جمع القرآن بأنهم لم يراعوا فى ترتيب القرآن أوقات نزوله ولم يقدموا ما نزل منه بمكة على ما نزل منه بالمدينة ، بل وضعوا آيات مدنية خلال السور المكية دون أن يقتضيهـم المقام هذا الصنيع . ولو أنهم راعوا الدقة التاريخية فى الترتيب لكان ذلك أدنى فى نظر هؤلاء المستشرقين إلى التحقيق العلمى ، وأجدى فى كتابة السيرة وفى تتبع أحوال النـبى العربى من يوم بعثه إلى يوم وفاته .

ويزيد المستشرقون أن جامعى القرآن لم يعنوا كذلك بتأليف آياته حسب موضوعاتها . فأنت ترى فى السورة الواحدة شؤناً مختلفة من القصص والتاريخ ، ومن الإيمان والعبادات ، ومن الأحكام التشريعية ، ومن قواعد الخلق . وأنت ترى الموضوع الواحد من هذه الشؤون جميعاً مذكوراً فى سور مختلفة على صور تتقارب أو تتفاوت فى اللفظ وفى قوة العبارة . أما وقد كان الجامعون أحراراً فى ترتيب الآيات فى السور فهم جديرون ، فى رأى هؤلاء المستشرقين ، بالتأريب من الناحية العلمية ؛ لأنهم لم يراعوا الموضوعات ، وكان حقاً عليهم أن يراعوها وبخاصة لأنهم لم يتقيدوا بمواقيت الوحي ونزوله .

نقد هذا رأى والدليل على أن القرآن جمع سوراً فى عهد الرسول

هذه ملاحظات يبيدها المستشرقون على جمع القرآن مستندين فيها إلى قول أبى بكر : « كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ » . وهم مخطئون فى تحميل عبارة أبى بكر هذا المعنى ، وفى ظنهم أن الآيات ظلت مبعثرة منذ نزولها إلى أن جمعت فى عهد الخليفة الأول ، ثم فى عهد عثمان . فالأمر الذى لا ريبه فيه أن الآيات قد جمعت سوراً فى عهد رسول الله وبتوقيفه .

ولقد كان مالك يقول: «إنما أُلِّفَ القرآن على ما كانوا يسمعون من رسول الله صلى الله عليه وسلم». وكان عبد الله بن مسعود يقول: قرأت من في رسول الله صلى الله عليه وسلم بضعا وسبعين سورة. وقرأت عليه من البقرة إلى قوله تعالى: «إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين».

والذين جمعوا القرآن في عهد الرسول تلقيناً منه ولقد قرأ زيد بن ثابت القرآن كله على رسول الله. وفي مسلم والبخاري عن أنس بن مالك أنه قال: «جَمَعَ القرآن على عهد النبي صلى الله عليه وسلم أربعة كلهم من الأنصار: أبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد». وقول أنس لا يراد به أن هؤلاء الأربعة هم الذين حفظوا القرآن في عهد النبي دون سواهم. يقول القرطبي: «فقد ثبت بالطرق المتواترة أنه جمع القرآن عثمان، وعلي، وتميم الداري، وعُباد بن الصامت، وعبد الله بن عمرو ابن العاص، فقول أنس: لم يجمع القرآن غير أربعة، يحتمل أنه لم يجمع القرآن وأخذه تلقيناً من رسول الله صلى الله عليه وسلم غير تلك الجماعة؛ فإن أكثرهم أخذ بعضهم عنه وبعضه عن غيره. وقد تظاهرت الروايات بأن الأئمة الأربعة جمعوا القرآن على عهد النبي صلى الله عليه وسلم لأجل سبقهم إلى الإسلام، وإعظام الرسول صلى الله عليه وسلم لهم».

وروايات السلف متواترة على أن رسول الله كان يعرض القرآن على جبريل في كل عام مرة، فلما كان العام الذي قبض فيه عرضه عليه مرتين. ومن هذا العرض في عام الوفاة عرف عبد الله بن عباس ما نسخ من القرآن وما بُدِّل.

وما ورد في سيرة النبي يؤيد الروايات التي قلّمنا. من ذلك ما روى عن إسلام عمر بن الخطاب بعد عشر سنين أو نحوها من بعث محمد. فقد هال عمر ما أحدثه الدين الجديد من فُرقة بين أهل مكة اضطرت كثيرين منهم أن يهاجروا إلى الحبشة، فرأى أن يقتل محمداً لتعود إلى قريش وحدتها. فلما ذكر له نعيم بن عبد الله أن فاطمة أخت عمر وزوجها سعيد بن زيد أسلما ذهب إليهما ودخل البيت عليهما، فسمع عندهما من يقرأ القرآن، فبطش بهما حتى شجّ أخته، وندم لما صنع، وطلب إليهما أن تعطيه الصحيفة التي كانا يقرءون

قراءة عمر بن الخطاب سورة طه في صحيفة يوم إسلامه

فإذا بها سورة طه . فلما قرأها أخذته إعجازها وجلالها وسمو الدعوة التي تدعو إليها ، فذهب إلى محمد فأسلم بين يديه .

لم تكن الصحيفة التي سجّلت سورة طه إلا واحدة من صحف كثيرة كانت متداولة بين أيدي الذين أسلموا من أهل مكة سجّلت سوراً أخرى من القرآن . ولقد ظل رسول الله بين المسلمين بمكة وبالمدينة ثلاث عشرة سنة بعد إسلام عمر ، كان يقول خلالها لأصحابه : « لا تكتبوا عني شيئاً سوى القرآن ، فمن كتب عني شيئاً سوى القرآن فليمحّهُ » . وكان طبيعياً أن يكتب الصحابة كل ما يستطيعون كتابته من القرآن لتلاوته في الصلاة ، ولعرفة أحكام الدين الذي يؤمنون به . وكان يكتبه الذين يوفدهم النبي إلى القبائل لتعليم أهلها القرآن وتنقيهم في الدين . وهم لم يكونوا يكتبونه آيات منقطعة ، بل سوراً متصلة بمليها رسول الله .

ونصوص القرآن تؤيد ما سبق . من ذلك قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الْمَزْمِلُ نَصِصِ الْقُرْآنَ تَوْيِدَ جَمِيعِهِ سَوْرًا فِي عَهْدِ الرَّسُولِ قَمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ، نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ، أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا » .

وآيات المزمّل هذه نزلت في الفترة الأولى من بعث الرسول . فطالبه النبي فيها أن يقوم الليل يرتل القرآن ترجح أن الآيات لم تكن مبعثرة من غير ترتيب ، وتؤكد ما قلنا من أن ما كان يوحى إلى النبي متصلاً بوحى سبق إليه كان الوحي يلحقه به . وذلك قولهم إن جبريل قال للنبي حين أوحى إليه قوله تعالى « وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » : « يا محمد ضعها في رأس ثمانين مائتين من البقرة » .

ولقد تكرّر في القرآن نعتُه بأنه الكتاب . وسورة البقرة أولى سور القرآن بعد الفاتحة تبدأ بقوله تعالى : « الَمْ . ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ » . وهذا المعنى وارد في مواضع كثيرة من سور مختلفة . والكتاب هو ما كتب منسّقاً . وقد كتب القرآن في عهد النبي كما أسلفنا من قول أنس بن مالك

وقول غيره من أصحاب رسول الله . بل إن زيد بن ثابت نفسه ، وهو الذى قال كما قلنا : « قبض النبي صلى الله عليه وسلم ولم يكن القرآن جمع فى شيء » قد قال : « كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم نؤلف القرآن من الرقاع » ، يريد بذلك تأليف ما نزل من الآيات المتفرقة فى سورها وجمعها فيها بإشارة رسول الله . وكثيراً ما كان رسول الله يتلو فى الصلاة وفى غير الصلاة سوراً كاملة منها البقرة وآل عمران والنساء والأعراف والجن والنجم والرحمن والقمح وغيرها . وهذا كله صريح فى الدلالة على أن ترتيب الآيات فى السور قد تم بتوقيف النبي ، وأنه قبض وهذا الجمع تام معروف للمسلمين ، ثابت فى صدور القراء والحفاظ .

رسول الله يتلو
الصلاة سوراً
كامله

ولقد رأيت كثيرين من الصحابة جمعوا القرآن على عهد النبي ، منهم أربعة جمعوه بإملائه . واتفاق المؤرخين منعقد على أن ترتيب الآيات فى السور كان واحداً فى كل المصاحف التى جمعت قبل وفاة الرسول ، وفى المصاحف التى جمعت عقب وفاته وقبل أن يأمر أبو بكر بجمع القرآن . أما ترتيب السور والابتداء بالفاتحة فالبقرة فالآل عمران فالنساء فالمائدة والانتهاى بالمعوذتين ، فذلك ما اختلف فيه ، وما قيل إن رسول الله تركه كله أو بعضه لأئمته .

ماذا أراد أبو بكر إذن بقوله ردّاً على عمر حين أشار عليه أن يجمع القرآن : « كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ! » . وما هى الحجج التى شرحت صدر أبى بكر ثم صدر زيد بن ثابت لجمع القرآن والأخذ برأى ابن الخطاب ؟ .

لما تمت البيعة لأبى بكر لزم على بن أبى طالب بيته ، وتحدث الناس إلى أبى بكر فى أمره ، فأرسل إليه يقول : « أكرهت بيعتى ففعدت عني ؟ ! » فكان جواب على : « لا والله ، ولكن رأيت كتاب الله يزداد فيه ، فحدثت نفسى ألا ألبس ردائى إلا للصلاة حتى أجمعه »^(١).

على بن أبى طالب
وجمع القرآن

(١) قول على « رأيت كتاب الله يزداد فيه » أورده السيوطى بإسناده فى كتاب الإتقان . وقد اقتصر كثير من المؤلفين فيما رويوا عن على أنه قال : آليت ألا ألبس ردائى إلا للصلاة حتى أجمع =

السبب في تردد
أبي بكر في جمع
القرآن أول
ما عرض عمر
عليه جمعه

ولم يكن على^١ وحده هو الذي دأب على جمع القرآن بعد وفاة الرسول ، بل دأب على ذلك كثيرون جعلوا يتلقونه عن يطمئنون إليهم من أصحاب رسول الله . وكما حمد أبو بكر لعلي بن أبي طالب حديثه عن جمع القرآن حمد لغيره من المسلمين سعيهم في جمعه ورأى في عملهم تأسيساً بالسابقين الأولين الذين جمعوه في عهد رسول الله . ولم يدُرْ بخاطره أن يصد أحداً دون هذا العمل الجليل ، مطمئناً إلى أن الله نزل الذكر وهو حافظه ، وإلى أن المسلمين لن تحدث أحداً منهم نفسه بأن يدخل عليه ما ليس منه . فإذا أقدم أحد على ما قاله علي بن أبي طالب من زيادة على القرآن ردّ الله كيده في نحره ، ورد الصالحون من المسلمين كلام الله إلى مواضعه . وذلك كان سبب ترده حين عرض عليه عمر أن يجمع القرآن . فقد كانت سنته ألا يصنع إلا ما كان يصنع رسول الله ، وألا يدع شيئاً كان رسول الله يصنعه . أما وقد ترك رسول الله كتابة القرآن للمسلمين ، وقد كتب بعضهم القرآن بإملائه عليه السلام ، ونقل آخرون عن هؤلاء الكاتبين وعين ذاكرتهم القرآن ، فليجر الأمر في خلافته كما جرى في عهد الرسول ، وليمسك خليفته فلا يُقدم على ما لم يقم هو به .

حجة عمر التي
شرحت صدر
أبي بكر لجمع
القرآن

كانت هذه حجة أبي بكر وحجة زيد بن ثابت ، فلما راجع عمر الخليفة عدل عن رأيه . ولئن لم يورد المؤرخون تفصيل ما دار بين الرجلين من حوار ، لأن فيما أورده الرواة عن تاريخ القرآن لما يُفصح لنا عن حجة عمر وما يؤيدها ويجلو لنا اقتناع أبي بكر وزيد بن ثابت بها .

روى الترمذي قال : « لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل فقال : يا جبريل إني بعثت إلى أمة أمية منهم العجوز والشيخ الكبير والغلام والبحارية والرجل الذي لا يقرأ كتاباً قط . فقال لي : يا محمد ، إن القرآن أنزل على سبعة أحرف^(١) . وقد اختلف العلماء في المراد بالأحرف السبعة وأوردوا فيها خمسة

أنزل القرآن على
سبعة أحرف

= القرآن . ورواية ابن أبي داود في كتاب المصاحف أن أبا بكر أرسل إلى علي بعد أيام يقول : أكرهت إمارتي يا أبا الحسن ؟ قال : لا والله ، إلا أني أقسمت ألا ارتدي بردائي إلا لجمعة ، فبايعه ثم رجع . ويضيف ابن أبي داود . وإنما روا : حتى أجمع القرآن ، يعني أتم حفظه ؛ فإنه يقال فلدى حفظ القرآن قد جمع القرآن .

(١) راجع الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ، جزء أول ، ص ٣٦ وما بعدها .

الصديق أبو بكر

وثلاثين قولاً ؛ من هذه الأقوال أنه رخص للمسلمين أول العهد بالإسلام أن يحلوا المترادف محل بعضه إلا أن يخلطوا آية رحمة بآية عذاب ، أو آية عذاب بآية رحمة . وذلك في نحو هلُم وتعال وأقبل وأسرع وعجل . وعن أبي بن كعب أنه كان يقرأ « للذين آمنوا انظرونا » : « للذين آمنوا أمهلونا » ، « للذين آمنوا آخرونا » ، « للذين آمنوا ارقبونا » وكان يقرأ « كلما أضاء لهم مشوا فيه » : « مروا فيه » ، « سعوا فيه » . ذلك أن أهل القبائل كان يُعجزهم أن يأخذوا القرآن على غير لغاتهم ، ولو راموا ذلك لم يتهياً لهم إلا بمشقة عظيمة ، فوسَّع لهم في اختلاف الألفاظ إذا كان المعنى متفقاً . فلما كثر اتصالهم برسول الله حفظوا القرآن بألفاظه ولم يسعهم أن يقرعوا بخلافها . وفي رأى أن الإباحة في هذا كانت مطلقة أول العهد ثم نسخت .

الأقوال في
الأحرف التي نزل
عليها القرآن

صحيح أن بعض الأقوال في تأويل نزول القرآن على سبعة أحرف تخالف هذا القول ، فيذهب بعضها إلى أن في القرآن سبع لغات هي لغات العرب كلها وأن هذه اللغات متفرقة فيه ، أو أن هذه اللغات السبع في مصر . ويذهب بعض آخر إلى أن سبعة الأحرف تتصل بوجوه الاختلاف في القراءة ، أو تتصل بمعاني كتاب الله . لكن هذه الأقوال لا تنفي القول الأول ، على الأقل أول ما بدأ الإسلام ينتشر في القبائل . ويذكر بعضهم أن الأمر ظل كذلك سنين متعاقبة ، أو إلى أن قبض النبي ؛ لكنهم يقيّدونه بأن ذلك كان بالوحي لا بالاختيار . يقول القرطبي : « إنما وقعت الإباحة في الحروف السبعة للنبي صلى الله عليه وسلم ليوسع بها على أمته ، فأقرأ مرة لأبي بما عارضه به جبريل ، ومرة لابن مسعود بما عارضه به أيضاً . وعلى هذا يحمل قول أنس حين قرأ : « إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَصْوَبُ قِيلًا » . فقليل له إنما نقرأ : « وأقوم قيلاً » ، فقل أنس : « وأصوب قيلاً وأقوم قيلاً وأهياً واحداً » . فإنما معنى هذا أنها مروية عن النبي صلى الله عليه وسلم . وإلا فلو كان هذا لأحد من الناس أن يضعه لبطل معنى قوله تعالى : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » .

قراءات الصحابة
وعرضها على
رسول الله

الذين احتكوا
إلى رسول الله
تخلّفهم في القراءة

روى البخارى ومسلم وغيرهما عن عمر بن الخطاب أنه قال : « سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرؤها ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرأنيها ، فكذبت أن أعجل عليه ثم أمهلت حتى انصرف ثم لبثته بردائه ، فجئت به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرأنيها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أرسله ، اقرأ ؛ فقرأ القراءة التي سمعته يقرأ ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هكذا أنزلت . ثم قال لي : اقرأ ، فقرأت ، فقال : هكذا أنزلت إن هذا القرآن على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسر منه » .

وأضاف القرطبي قصة أبي بن كعب إذ سمع رجلين بالمسجد يقرآن آيات بعينها في الصلاة ، كل يقرأ غير قراءة صاحبه وغير قراءة أبي ، فإمب بهما إلى رسول الله فحسّن النبي قراءتهم جميعاً . قال أبي : « فسقط في نفسي من التكذيب ولا إذ كنت في الجاهلية ، فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم ما قد غشيتني ، ضرب في صدري فقبضت عرقاً ، وكأنما أنظر إلى الله تعالى فرقاً ، فقال : يا أبي ، أرسل إلى أن أقرأ القرآن على حرف ، فرددت إليه أن هوّن على أمي ، فرد إلى الثانية أقرأه على حرفين ، فرددت إليه أن هوّن على أمي ، فرد إلى الثالثة أقرأه على سبعة أحرف » .

نشأ عن ذلك خلاف في بعض الألفاظ مما دون أو حفظ في عهد رسول الله . روى ابن أبي داود في كتاب المصاحف أن عمر بن الخطاب كان يقرأ : « صراط . من أذعمت عليهم غير المغضوب عليهم وغير الضالين » ، في حين يقرأ غيره : « صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » ، وأنه رضى الله عنه قرأ : « ألم . الله لا إله إلا هو الحي القيوم » بدل « القيوم » . وكان علي بن أبي طالب يقرأ : « آمن الرسول بما أنزل إليه وامن المؤمنون كل آمن بالله » بدل « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله »^(١) . وكان أبي بن كعب

يقرأ : « فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فآتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ فَرِيضَةً » بدل « فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فآتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ فَرِيضَةً »^(١) ، وأثبت أبي بن كعب في جمعه القرآن نصوصاً تخالف في بعض لفظها مصحف عثمان . من ذلك « فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مُّتَتَابِعَاتٍ » في كفارة اليمين بدل « فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ »^(٢).

وشأن عبد الله بن مسعود كشأن أبي بن كعب في قراءته وفي مصحفه . فقد روى أنه كان يقرأ « وَالْعَصْرِ ، إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ، وَإِنَّهُ فِيهِ إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ » . فيضيف « وَإِنَّهُ فِيهِ إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ » ويحذف « وَتَوَّصُوا بِالْحَقِّ » الوسطى قبل « وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ » كما ثبت في مصحف عثمان . وكان يقرأ : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ نَمْلَةٍ » بدل « إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ »^(٣) ، وكان يقرأ : « وَتَزِدُوا وَخَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى » بدل « وَتَزِدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى »^(٤) .

وقد أورد ابن أبي داود تفصيل هذا الخلاف في الألفاظ ونسبه إلى أصحابه ومنهم عائشة أم المؤمنين . فقد روى أنه كان مكتوباً في مصحفها : « حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى و صلاة العصر » بإضافة « و صلاة العصر » إلى ما في مصحف عثمان . وذكر عن ابن يونس مولى عائشة أنه قال : كتبت لعائشة مصحفاً فقالت : إذا مررت بآية الصلاة فلا تكتبها حتى أملئها عليك ، فأملتها على : « حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى و صلاة العصر » . وقد وردت مثل هذه الرواية عن هذه الآية في مصحف حفصة وفي مصحف أم سلمة زوجي النبي . وقيل بل أملت أم سلمة : « حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى صلاة العصر » .

سورة العصر
في مصحف عائشة
أم المؤمنين

أنت لا ريب قد رأيت مما قدمنا أن الاختلاف في القراءات وفي مصاحف الصحابة لم يعدد الألفاظ ، وأنه لم يجعل من نهى أمراً ، ولا من أمر نهياً ،

(١) س ٢٤٤ . (٢) س ٨٩٢٥ .

(٣) س ٤٠٤ . (٤) س ١٩٧٢٢ .

ولا من آية رحمة آية عذاب ، ولا من آية عذاب آية رحمة ، والشأن كذلك في كل ما روى عن قراءات الصحابة وعن مصاحفهم ومصاحف التابعين . ولقد قدم المستشرق « آرثر جفرى » لكتاب المصاحف لابن أبى داود وأورد كل ما روى عن هذا الاختلاف في القراءات والمصاحف ، فلم يزد الأمر على ما قدمت من الأمثلة . وعلة ذلك راجعة إلى ما ذكرنا عن الحديث : « أنزل القرآن على سبعة أحرف » .

وما كان الخلاف ليزيد على هذا في حياة الذين تلقوا القرآن عن رسول الله فكتبوه أو وعته صدورهم في تقديس لكلام الله وإيمان به يحولان دون الزيادة فيه أو النقص منه أو تحريفه . لكن هؤلاء القراء رجال كتب عليهم الموت كما كتب على الذين من قبلهم . ولقد استحر القتل في طائفة منهم في حياة النبي بئر معونة ، ثم استحر القتل فيهم في اليمامة . فإذا ذهب أكثرهم أو ذهبوا جميعاً لم يكن عجباً أن يقوم من يزيد في القرآن أو ينقص منه ، ومن يحرف كلام الله عن مواضعه . ثم لا عجب أن يختلف الناس على هذا وأن ينتهى اختلافهم إلى الثورة يصلّى المسلمون ناراها ويصيب الإسلام منها ضررٌ كبير .

الذين ارتدوا
وزعموا أنهم
يزيفون الوحي

كان لعمر ولأبى بكر ولزيد بن ثابت مما حدث في بلاد العرب نذير يعظهم أن يتقوا هذا اليوم . فقد ارتد في حياة الرسول بعض الذين أسلموا وكانوا يكتبون الوحي ، ثم زعموا أنهم كانوا يزيفون ما يكتبون ويلقونه على المسلمين زائفاً . وروايات المنافقين وما كانوا يصنعون من ذلك ومن مثله واردة في كتب السيرة . وفي قصة مسيلمة بعض هذا النذير . فهو إنما استغلظ أمره بعد أن ذهب نهار الرجال بن عنفوة من قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمامة يُقرىء أهلها القرآن ويفقههم في الدين ، فلم يلبث حين رأى السواد من أهل اليمامة يتبع مسيلمة أن أقر بنبوته ، وشهد بأن محمداً يقول إن مسيلمة قد أشرك في الرسالة معه . وكان نهار فقيهاً يتلو على الملائكة القرآن الذى أوحى إلى محمد ويقص عليهم تعاليمه ويفقههم في دينه . هذا وما حدث من مثله إثر وفاة الرسول ، إذ نجم النفاق واشترأت الأعناق ، يشهد بما لحجة عمر في جمع القرآن بعد اليمامة من قوة تذهب بكل تردد .

وماذا بعد في جمع القرآن مما لم يصنعه رسول الله حتى يتردد أبو بكر أو يتردد زيد بن ثابت بسببه ١٢ لقد أمر عليه السلام أن يكتب الوحي وأن تكتب الآيات مرتبة في السور . وما منعه أن يأمر بجمع القرآن قبل أن يختاره الله إليه إلا أن الوحي كان يتتابع وأن بعض الآيات كانت تُنسخ . أما وقد قُبض فأنتهى نزول الوحي وتم كتاب الله وكل دينه ، فالخير في أن يجمع القرآن حتى لا يتعرض لما خشى على بن أبي طالب أن يتعرض له من زيادة فيه أو نقص منه ، وبخاصة بعد أن قُتل من القراء باليسامة من قُتل ؛ ويخشى أن يقتل منهم آخرون في مواطن غير اليمامة .

أحسب هذه وأمثالها من الحجج هي ما ساقه عمر حين ناقش أبا بكر في جمع القرآن . وهي كما ترى حجج تحسم كل ريبة وتقطع بما في الجمع من خير للإسلام والمسلمين . لهذا اقتنع أبو بكر برأى عمر ، ثم اقتنع به زيد بن ثابت (١) .

ويجمل بي قبل أن أفصل ما حدث بعد اجتماع الصديق والفاروق وكتاب الوحي لرسول الله أن أذكر أن ما حدث في عهد عثمان قد أيد ما رآه عمر من جمع القرآن ودل على صدق نظره فيه . فقد اتسعت رقعة الفتح في عهد عمر وعثمان . وكان أصحاب رسول الله يقرءون القرآن ويعلمونه من أسلم من أهل البلاد المفتوحة ؛ فاختلف الناس في القراءة وعظم اختلافهم وتشبهتهم ؛ حتى إن الرجل ليقول لصاحبه : إن قرأتني خير من قرأتك ، وأفضل من قرأتك . وبلغ الأمر من ذلك حتى كاد يكون فتنة . اختلفوا وتنازعوا ، وأظهر بعضهم لإكفار بعض والبراءة منه وتلاعنوا ، ورأى حذيفة بن اليمان خلافتهم وتلاعنهم إذ كان يقاتل مع المسلمين على أرمينية وأذربيجان ، ففرع وكرّ راجعاً إلى المدينة ودخل على عثمان قبل أن يدخل إلى بيته ، فقال له : أدرك هذه الأمة قبل أن تهلك . قال عثمان : فيماذا ؟ قال : في كتاب الله . إني حضرت هذه الغزوة وقد

جمع القرآن أيام
عثمان وسببه

(١) يذكر أبو عبد الله الزنجاني في كتابه تاريخ القرآن (طبع في مصر في سنة ١٩٣٥ م) أن « التأمل الصادق والشواهد يعطى أن اقتراح عمر جمع القرآن إنما كان لجمعه في الورق ، حتى إن الصحابة لشدة احتياطهم وخضوعهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم خافوا أن يكون ذلك من البدع » .

جمعت ناساً من العراق والشام والحجاز ، ثم وصف له ما تقدم من اختلافهم في القراءة ، وأردف : وإني أخشى عليهم أن يختلفوا في كتابهم كما اختلف اليهود والنصارى^(١). ورأى عثمان الخطر ، فجمع الناس فعرض عليهم الأمر ، فسألوه رأيه فقال : الرأي عندي أن يجتمع الناس على قراءة ؛ فإنكم إذا اختلفتم اليوم كان من بعدكم أشد اختلافاً : وأقره أهل الرأي ، فأرسل إلى حفصة يسألها أن ترسل إليه مصحف أبي بكر لنسخه في المصاحف . وكان ذلك أول ما حدث في جمع مصحف عثمان وتوحيد قراءة القرآن .

هذا الخلاف في عهد عثمان بالغ الدلالة على أن عمر كان صادق النظر حين أشار على أبي بكر بجمع القرآن . وقد اتخذ عثمان مصحف أبي بكر إماماً لهم في توحيد القراءة . فلو أن أبا بكر لم يجمع القرآن لتفاقم الخلاف ، ولأصاب المسلمين من ذلك شرٌ أنجاهم عمل الصديق منه . من ثم لم يغلُ على بن أبي طالب حين قال : « أعظم الناس أجراً في المصاحف أبو بكر ، رحمة الله على أبي بكر ، هو أول من جمع بين اللوحين » .

شرح الله صدر أبي بكر بجمع القرآن بعد حوارهِ مع عمر ، فعهد إلى زيد ابن ثابت أن يتبعه فيجمعه . روى أن عبد الله بن مسعود غضب لذلك وقال : يا معشر المسلمين ! أعزلٌ عن نسخ المصاحف ويتولاه رجل والله لقد أسامت وإنه لفي صلب رجل كافراً ! يريد زيد بن ثابت . وقد نسب هذا القول إلى ابن مسعود حين أمر عثمان زيداً بجمع القرآن وأردفه بمن أردفه بهم من الصحابة . ولعل عبد الله غضب في المرتين لما ذكره القرطبي حين قال : « قال أبو بكر

(١) وفي رواية أثبتها ابن أبي داود في كتاب المصاحف بإسناد مختلف أن عبد الله بن مسعود كان يقرأ في المسجد ، فجاء حذيفة فقال : يقول أهل الكوفة قراءة عبد الله بن مسعود ويقول أهل البصرة قراءة أبي موسى الأشعري . والله لئن قدمت على أمير المؤمنين لأمرته أن يفرقها . فرد عليه ابن مسعود . أما والله لئن فعلت ليفرقنك الله في غير ماء . وروى أن حذيفة قالها في غير حضرة عبد الله بن مسعود ، ثم اجتمع عبد الله وحذيفة وأبو موسى فوق بيت أبي موسى فقال عبد الله لحذيفة : أما إنه قد بلغني أنك صاحب الحديث - يعني قوله أما والله أن لو قد أتيت أمير المؤمنين لقد أمرته يفرق هذه المصاحف . وأجابه حذيفة : أجل ! كرهت أن يقال قراءة فلان ، فيختلفوا كما اختلف أهل الكتاب .

غضب ابن مسعود
لعزله عن جمع
القرآن

الأنباري : ولم يكن الاختيار لزيد من جهة أبي بكر وعثمان على عبد الله بن مسعود في جمع القرآن ، وعبد الله أفضل من زيد وأقدم في الإسلام وأكثر سوابق وأعظم فضائل ، إلا لأن زيدا كان أحفظ للقرآن من عبد الله . وهذه العبارة ترجح غضب ابن مسعود في المرتين .

وقد بلغ غضب ابن مسعود لهذا الأمر أمداً بعيداً ، حتى كان يقول : « لقد قرأت من في رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعين سورة وإن لزيد بن ثابت ذؤابتين يلعب مع الصبيان » . بل لقد حرّض أهل العراق في عهد عثمان على ألا يعاونوا في هذا العمل ، وكان يقول لهم : « إني غالبٌ مصحفى ، فمن استطاع منكم أن يغُلَّ مصحفاً فليفعل ؛ فإن الله يقول : « وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غُلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » . وخطب الناس يوماً فقال : « وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غُلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » . غُلُّوا مصاحفكم . وكيف تأمروني أن أقرأ على قراءة زيد بن ثابت وقد قرأت من في رسول الله صلى الله عليه وسلم بضعةً وسبعين سورة وإن زيد بن ثابت ليمأتى مع الغلمان له ذؤابتان . والله ما نزل القرآن إلا وأنا أعلم متى وفي أى شيء نزل . ما أحدٌ أعلم بكتاب الله مني . وما أنا بخيركم ولو أعلم أحداً أعلم بكتاب الله مني تُسْبِلُ غَضَبِيهِ الْإِبِلَ لِأُتَيْتَهُ » .

كره رجال أفاضل من أصحاب النبي مقالة ابن مسعود ، ورأوا فيها تحريضاً على الفتنة لا مسوّغ له . روى عن أبي الدرداء أنه قال : « كنا نعد عبد الله حناناً فما باله يُؤائب الأمراء » . صحيح أن عبد الله بن مسعود بدرى زيد بن ثابت ليس بدرياً . ولعبد الله سابقة في الإسلام على زيد وعلى أبيه ثابت بن زيد وهو قد تلقى عن رسول الله نيفاً وسبعين سورة من القرآن ، لكن زيدا كان كاتب رسول الله ، وقد تلقى عنه القرآن كله إلى وفاته . يقول القرطبي : « الشائع الذائع المتعالم عند أهل الرواية والنقل أن عبد الله بن مسعود تعلم بقية القرآن بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد قال بعض الأئمة : مات عبد الله بن مسعود قبل أن يختم القرآن » . وقد جاء مصحف ابن مسعود خلواً من المعوذين .

سقنا حديث عبد الله بن مسعود وغضبه حُجَّةً على حسن اختيار أبي بكر

زيد بن ثابت بجمع القرآن . وذلك قول الصديق لزيد بعد أن أقنعه برأى عمر : « إنك رجل شاب عاقل ولا نتهمك . كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتتبع القرآن فأجمعه » . ويضيف القرطبي على العبارة التي نقلناها في تفصيل زيد على عبد الله قول أبي بكر الأنباري : « إن زيدا كان أحفظ للقرآن من عبد الله إذ وعاه كله ورسول الله حتى ، والذي حفظ منه عبد الله في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم نيف وسبعون سورة ، ثم تعلم الباقي بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم . فالذي ختم القرآن وحفظه ورسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أول بجمع المصحف وأحق بالإيثار والاختيار » .

ولعل أبا بكر قد اختار زيدا وآثره على غيره من أصحاب رسول الله لأنه شاب ، فهو أقدر على العمل منهم ، وهو لشبابه أقل تعصباً لرأيه واعتزازاً بعلمه وذلك يدعو إلى الاستماع لكبار الصحابة من القراء والحفاظ ، والتدقيق في الجمع دون إيثار لما حفظه هو ، وإن كان المتواتر أنه حضر العرضة الأخيرة للقرآن حين عرضه رسول الله على جبريل للمرة الثانية في السنة التي كانت فيها وفاته .

كيف أثبت زيد
القرآن في مصحفه

شعر زيد بجسامة التبعة التي ألقاها الخليفة على عاتقه وقد رها قد رها ، وذلك قوله : « فوالله لو كلفني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن » . وكيف لا يشعر بجسامة التبعة وهو يعلم أن أبا بكر يحفظ القرآن ، وعمر يحفظه ، وعليّ يحفظه ، وعثمان يحفظه ، وكبار الصحابة يحفظونه أو يحفظون منه أجزاء كثيرة . بل إن أربعة قد تلقوا القرآن عن رسول الله وكتبوه مرتب الآيات في السور ، وكتب غيرهم ، ومنهم عبد الله بن مسعود ، مصاحف بعضها كامل وبعضها غير كامل ، وهؤلاء جميعاً رقباء عليه يحاسبونه أدق الحساب .

والرقابة الكبرى ! رقابة صاحب القرآن من أوحاه إلى رسوله ، أعظم من كل رقابة . وهي التي جعلت زيدا يشعر بأن نقل جبل من الجبال أيسر مما كلفه الخليفة إياه . وإيمان زيد بن ثابت بأن الله رقيب عليه في جمع كلامه جل شأنه هو الذي سما به ليقدر ما لهذا الأمر من جلال ، وليبذل فيه كل جهد ويستنهين بكل مشقة ، وألا يدخر وسعاً في جمع كل ما سطر القرآن

فيه من الرقاق والأكتاف واللخاف^(١) والعُسب ومن صدور الرجال ، وفي موازنة ذلك كله بعضه ببعض ، وموازنته بما حفظ هو عن رسول الله في السنة الأخيرة من حياته ، والوصول من الجمع إلى الغاية التي يبتغيها خليفة رسول الله والتي ترضى الله ورسوله . بذلك صار هذا المصحف المجموع إماماً استراح إليه المسلمون . فلما أراد عثمان توحيد القراءات جعله إمامه .

ولست في حاجة إلى القول بأن زيداً لم يثبت القرآن في مصحفه على تاريخ نزوله بعد أن رُتبت الآيات في السور بأمر رسول الله ، فوضع بعض ما نزل منها بالمدينة في السور المكية . إنما تتبع زيد السور كما رتبها رسول الله ، ثم نسخها في الورق أو في الأديم ، فلما تم له نسخها كانت عند أبي بكر ، ثم عند عمر ، ثم عند حفصة .

أية طريقة اتبع زيد في الجمع ؟ تستطيع أن تقول في غير تردد إنه اتبع طريقة التحقيق العلمي المألوفة في عهدنا الحاضر . وقد اتبع هذه الطريقة بدقة دونها كل دقة . فقد طلب أبو بكر إلى كل من عنده من القرآن شيء مكتوب أن يحى به إلى زيد ، وإلى كل من يحفظ القرآن أن يُدلى إليه بما يحفظه . واجتمع لزيد من الرقاق والعظام وجريد النخل ورقيق الحجارة وكل ما كتب أصحاب رسول الله القرآن عليه الشيء الكثير . عند ذلك جعل يرتبه ويوازنه ويستشهد عليه ، ولا يثبت آية إلا إذا اطمأن إلى إثباتها كما أوحيت إلى رسول الله روى أن عمر بن الخطاب قرأ : « وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ » ، برفع كلمة « الأنصار » ومن غير واو العطف بينها وبين « الذين » ، فقال له زيد بن ثابت : « وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ » . واختلفا . فدعا عمر أبي بن كعب وسأله عن ذلك فأقر قراءة زيد . وايزيل كل ريبة من نفس عمر قال : « والله ، أقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت تبمع الحنطة » . فاذكر عمر وقال : نعم ! وتابع أبيا وأقر قراءة زيد . وكذلك كان يصنع زيد كلما خالفه من الصحابة أحد ، وكلما وجد في المكتوب في

طريقة زيد في الجمع هي الطريقة العلمية المألوفة اليوم

(١) اللخاف : حجارة بيض عريضة رقاق .

الرقاع والعظام وغيرها خلافاً ، يستشهد ويستقصى ، ولا يمنعه من ذلك أنه يحفظ القرآن ، وأنه حضر قراءة رسول الله إياه قبيل وفاته . وهذا الخلاف على حرف الواو في الآية السابقة يدل على مبلغ هذه الدقة ، ويشهد بأن زيد لم يضمن بمجهود في التيام بالعمل العظيم الذي عهد فيه أبو بكر إليه .

وقد كانت هذه الدقة في جمع القرآن متصلة بإيمان زيد بالله . فالقرآن كلام الله جل شأنه . فكل تهاون في أمره أو إغفال للدقة في جمعه وزر ما كان أحرص زيدا في حسن إسلامه ، وجميل صحبته لرسول الله أن يتنزه عنه . ولقد شهد المنصفون من المستشرقين جميعاً بهذه الدقة ، حتى يقول سير ولیم مویر : « والأرجح أن العالم كله ليس فيه كتاب غير القرآن ظل اثني عشر قرناً كاملاً بنص هذا مبلغ صفائه ودقته »^(١).

نظام تتابع السور
في المصحف

على أن زيد لم يأخذ مع الدقة في جمع السور مرتبة الآيات بتنسيق السور في المصحف واحدة تلو الأخرى ، وإنما كان التنسيق على النحو الذي نعرفه اليوم في عهد عثمان . وقد اختلف فيما كان منه في عهد النبي ؛ قال بعضهم : إنه صلى الله عليه وسلم تركه لأمنه ، وقال بعض : بل ذكر الرسول نظام التتابع لبعض السور وترك بعضها . وقال غيرهم : بل ذكر نظامها جميعاً . ذكر ابن وهب في جامعہ قال : سمعت ساجان بن بلال يقول سمعت ربيعة يسأل : لم قُدمت البقرة وآل عمران وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة وإنما نزلنا بالمدينة ؟ فقال ربيعة : « قد قدّمنا وألّف القرآن على علم من ألّفه . وقد اجتمعوا على العلم بذلك ، فهذا مما ننهي إليه ، ولا نسأل عنه » . وقال قوم من أهل العلم : إن تأليف سور القرآن على ما هو عليه في مصحفنا كان عن توقيف من النبي صلى الله عليه وسلم . وأما ما روى من اختلاف مصحف أبي وعليّ وعبد الله ، فإنما كان

(١) طعن الرافضة على جمع القرآن واحتجوا بقول زيد بن ثابت : وجدت آيتين من سورة التوبة مع خزيمية الأنصاري لم أجدهما مع غيره « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » إلى آخر السورة . وبأنهم وجدوا آية من سورة الأحزاب « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه إلخ » مع خزيمية كذلك . وهذا الاعتراض ساقط لأن زيد بن ثابت كان يحفظ هذه الآيات ، وقد وافق الصحابة خزيمية على أنهم سمعوا من رسول الله . هذا على أنها من أسلوب القرآن ونسجه ، وأنها متصلة تمام الاتصال بسياق القول . ما وهذه الأسانيد كلها متواترة مجمعة فاعتراض الرافضة غير ناهض .

قبل العرض الأخير ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم رتب لهم تأليف السور بعد أن لم يكن فعل ذلك^(١).

يخالف بعضهم هذا الرأي ، ويرى أن ترتيب السور لم يكن بتوقيف من رسول الله ، ويحتج بأن علي بن أبي طالب لم يجمع مصحفه إلا بعد وفاته صلى الله عليه وسلم ، وكذلك فعل عبد الله بن عباس . فلو أن رسول الله قد رتب السور لكان علي وابن عباس أجدر بأن يصنعا ذلك وأن يرتباها كما أمر رسول الله . ولم يرتب زيد بن ثابت السور حين جمع القرآن في عهد أبي بكر . فترتيب السور قد كان كله أو بعضه اجتهاداً من الصحابة ولم يكن مما أمر به رسول الله^(٢) ،

والرأي بأنه صلى الله عليه وسلم لم يرتب السور كلها أو بعضها ووكل أمر ذلك إلى الأمة بعده يأخذ به كثيرون^(٣). روى عن ابن عباس أنه قال : « قلت لعثمان : ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المئين فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتوهما في السبع الطوال ؟ فقال عثمان : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم تنزل عليه السورة ذات العدد ، فكان إذا نزل عليه شيء دعا بعض من كان يكتب فيقول : ضعوا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا ، وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة . وكانت براءة من آخر القرآن نزولاً ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها ، فظننت أنها منها ، فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا أنها منها ، فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ، ووضعتهما في السبع الطوال » .

لم يكن القول في ترتيب السور في المصحف مما يدخل في نطاق هذا الفصل وإنما أدى إليه الاستطراد إيضاحاً لقول القرطبي عن زيد بن ثابت وجمعه القرآن في عهد أبي بكر : « جمعه غير مرتب السور بعد تعب شديد ، رضى الله عنه » .

(١) راجع ص ٥٢ من الجزء الأول من تفسير القرطبي « الجامع لأحكام القرآن » .

(٢) راجع تاريخ القرآن لأبي عبد الله الزنجاني ، ص ٤٧ - ٥٨ .

(٣) راجع الإتيان في علوم القرآن للسيوطي ، ج ١ ، ص ١٣ - ١٤ .

متى أتم زيد جمع
القرآن

أتم زيد جمع القرآن في عهد أبي بكر أم استغرق عمله هذا زمناً من عهد عمر ؟ ذلك أمر اختلف فيه . وقد رأينا في رواية البخاري أن الصحف التي جمع زيد فيها القرآن كانت عند أبي بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حتى توفاه الله ، ثم عند حفصة بنت عمر أم المؤمنين . وهذا القول يؤدي إلى أن الجمع تم في عهد أبي بكر ويذهب بعض الرواة إلى أن الجمع استغرق زمناً من عهد عمر . وليس يتيسر القطع بأى الروايتين أصح ، وإن أمكن التوفيق بينهما بأن زيداً أتم جانِباً كبيراً من الجمع في عهد أبي بكر وجعل صحف هذا الجانب عند الخليفة ، وقُبِضَ الصدِّيق فأخذ عمر ما كان عنده من هذه الصحف فلما أتم زيد جمع ما بقي من القرآن أضيفت صحفه إلى الصحف الأولى ثم كانت كلها عند عمر . وهذه الصحف هي التي كانت المصحف الإمام في عهد عثمان وهي التي نزلوها اليوم ، وسيتلوها من بعدنا من المسلمين وغير المسلمين حتى يوم الدين .

كان أبو بكر
أعظم الناس أجراً
في جمع المصاحف

« رحمة الله على أبي بكر ! كان أعظم الناس أجراً في جمع المصاحف » ، كذلك قال علي بن أبي طالب ، وذلك ما يقوله كل مسلم . ولقد طالما سألت نفسي وأنا أكتب هذا الكتاب : أى أعمال الصدِّيق أعظم : قضاؤه على الردة والمرتدين في بلاد العرب ، أم فتحه العراق والشام وتعهيده بذلك للإمبراطورية الإسلامية العظيمة التي حملت عبء الحضارة الإنسانية قروناً متعاقبة ، أم جمعه القرآن كتاب الله إلى رسوله محمد النبي الأُمِّي هدى ورحمة للعالمين ؟ طالما سألت نفسي وفكرت أتلَمَّسُ الجواب . ولم أتردد قط في الإجابة . فجمع القرآن أعظم أعمال أبي بكر لا ريب ، وأكثرها بركة على الإسلام والمسلمين والناس أجمعين . لقد اضمحلت جزيرة العرب وتقلصت منها أسباب القوة والحياة بعد عهد نبي أمية . وقد تداعت الإمبراطورية الإسلامية وخضع المسلمون في أرجاء الأرض لغير المسلمين ولسلاطين حكمهم . ولقد نسي الناس هذه الإمبراطورية وكادوا ينسون بلاد العرب . ولو لا مناسك الحج لضممت شبه الجزيرة إلى مجاهل الأرض فلا يصل إليها إلا المستكشفون . أما كتاب الله الكريم فإنه خالد باق على الدهر ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من عزيز حكيم .

جميع القرآن أعظم
ما تم في عهد
أبي بكر

ولا يحسبن أحد أنى بما أذكر من ذلك أهون من أمر حروب الردة أو من أمر الإمبراطورية الإسلامية . فكل من هذين الأمرين عظيم أى عظيم ، وكل عمل منهما كاف وحده ليخلد حياة من يقوم به . ولو أن أبا بكر وقف من خلافته عنه القضاء على الردة لشهد الناس جميعاً له بعظمة ما قام به وبجلاله . ولو أنه لم يصنع أكثر من أن وضع القواعد للإمبراطورية الإسلامية لأقروا كلهم له بالعظمة وخلود الذكر على صفحات الدهر . فإذا حفل عهده بهذين الأمرين البالغين كل هذا الجلال وكل هذه العظمة ، ثم كان فيه جميع القرآن ، وهو أبى منهما جميعاً وأعظم ، فذلك الخلد الذى لا يخلد بعده ، والرضا من الله لا يؤتاه إلا الصديقون الذين سما إيمانهم فيسر الله لهم كل عظيم وهياً لهم من أمرهم رشداً .

رحم الله أبا بكر ، وأجزل له الأجر ، إنه كان من عباده المخلصين .

الفصل السابع عشر

حكومة أبي بكر

لما بويج أبو بكر خاطبه رجل من المسلمين بقوله : « يا خليفة الله » ، فلم يدعه أبو بكر يمضي في حديثه ، بل قال له : « لست بخليفة الله ولكني خليفة رسول الله » .

كيف تصور
أبو بكر الخلافة

هذه عبارة أوردتها المؤرخون حجة على تواضع أبي بكر وصدق تقديره . وهي في رأيي تستوقف النظر لمعنى أعمق في دلالة من هذا المعنى المتصل بشخص أبي بكر وخلفه ، ذلك ما فيها من قوة الإبانة عن تصور المسلمين الأولين لفكرة الحكم . فقد خلت قرون قبل عهد رسول الله ، وتعاقبت قرون بعده ، قام أثناءها في كثير من الأمم ملوك وحكام زعم دعائهم وزعموا لأنفسهم أنهم خلفاء الله على الأرض ، وأن لهم بذلك قدسية ليست لغيرهم من الناس . كذلك كان الأمر في مصر أيام الفراعنة الأولين ، ومن هؤلاء الفراعنة من كان يقول لقومه : « أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى » . وكان سواد المصريين في ذلك العهد يؤمنون بما للملوكهم من صفات الربوبية ، ثم تزيدهم دعايات الكهنة إيماناً بهذه الصفات . وكذلك كان الأمر في آشور وإيران والهند وغيرها من الأمم التي عاصرت الفراعنة . وكان أكثر الملوك تواضعاً في ذلك العهد أولئك الذين يرون أنفسهم خلفاء الله على الأرض .

ولقد قام في عصور أوربا الوسطى دعاة من العلماء زعموا للملوك حقاً مقدساً مستمداً من الله يجعل لهم على الناس سلطاناً لا يعرف حداً ، وعدوهم لذلك خلفاءه جل شأنه ، فكانت كلماتهم منزلة كالوحي ، وكان حكمهم كحكم الله لا مرد له . وظلت هذه الآراء مقبولة في أوربا إلى القرن الخامس عشر الميلادي ، وإلى القرن السابع عشر في بعض الأمم . ولم تستطع الشعوب أن تغلب عليها ، مع انتشار العلم وتقدم الحضارة ، إلا بالثورات العنيفة ذهبت

ففيها الألوف وعشرات الألوف من الأرواح ضحايا للمبادئ التي ثارت لها ،
مبادئ الحرية والإخاء والمساواة بين الناس .

هذه المبادئ التي سادت العالم دهرًا طويلا ، والتي كانت تسود أوروبا إلى
عهد قريب منا ، هي التي أنكرها أبو بكر بقوله : « لست خليفة الله ولكني
خليفة رسول الله » .

هو خليفة رسول
الله في قيادة
المسلمين
وسياستهم فقط

ولم يرد أبو بكر بأنه خليفة رسول الله إلا أنه خلفه صلى الله عليه وسلم على
قيادة المسلمين وسياسة أمورهم في حدود ما أمر الله به وما نهى عنه . أما
ما اختص الله به رسوله فيما وراء ذلك فلم يدُرْ بخاطر الصديق أنه خليفة فيه .
وكيف يدور ذلك بخاطره ورسول الله خاتم الأنبياء والمرسلين ، لا يخلفه في
نبوته أحد ، ولا في رسالته أحد ! ! اصطفاه الله وأنزل عليه الكتاب بالحق
فأكمل للمؤمنين دينهم وأتم عليهم نعمته . وهذا ما خطب به أبو بكر لأتباعه
إذ قال : « إني وليت هذا الأمر وأنا له كاره . والله لوددت أن بعضكم كفانيه .
ألا وإنكم إن كلفتموني أن أعمل فيكم بمثل عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم
لم أقم به . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عبداً أكرمه الله بالوحي وعصمه
به . ألا وإنما أنا بشر ولست بخير من أحد منكم . فراعوني ، فإن رأيتموني
استقيمت فاتبعوني ، وإن رأيتموني زغت فقوموني » . وقد رأيت أبا بكر
كيف قاتل الذين ادَّعوا النبوة ، والذين ارتدوا عن دين الله وعن الإيمان به
وبرسوله ، وكيف كان صليباً في حرب هؤلاء جميعاً ، حتى ردهم إلى الهدى
ودين الحق .

وهو خليفة باختيار
المسلمين ورضاهم

ولقد تولى أبو بكر قيادة المسلمين وسياسة أمورهم بعد رسول الله باختيار
المسلمين ورضاهم . لم يبعثه الله خليفة عليهم كما بعث محمداً رسولاً إليهم ،
ولم يجعل له فضلاً على أحد منهم إلا بالتقوى . وهو لم يكن يرى لنفسه حقاً في
حكم المسلمين إلا في حدود كتاب الله وسنة رسوله . وذلك قوله رضي الله عنه حين
خطب الناس يوم يبعثه : « أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيته فلا طاعة
لي عليكم » .

ولقد خالف عمر بن الخطاب أبا بكر ، فلم يتخذ لنفسه لقباً خليفة

رسول الله ، بل طلب إلى الناس فلقبوه : أمير المؤمنين . ذلك أنه أراد اتقاء التكرار في تلقيبه خليفة خليفة رسول الله . وهو تكرار يطول إلى غير حد بتعاقب الخلفاء . فلو أنه لُقِّب خليفة خليفة رسول الله للقب عثمان من بعده خليفة خليفة خليفة رسول الله ، ولكان على بن أبي طالب خليفة خليفة خليفة رسول الله .

لماذا اتخذ عمر بن الخطاب لقب أمير المؤمنين

واتخاذ عمر لقب أمير المؤمنين اتقاء لهذا التكرار يجعل عبارة أبي بكر ، لست خليفة الله ولكني خليفة رسول الله ، أكثر قوة في دلالتها وإبانة عن المعنى الذى قصده الصديق منها ، ويشهد بأنه قصد معناها اللغوى من حيث تعاقب الزمن . فهو الرجل الذى خلف رسول الله على سياسة المسلمين بعد وفاته . ولو أن لقب الخليفة أريد به يومئذ غير هذا المعنى اللغوى للقب عمر كما لقب أبو بكر خليفة رسول الله ، ولما اقتضى الأمر تغيير هذا اللقب بلقب أمير المؤمنين :

ولعل سبباً آخر دعا عمر لیتخذ إمارة المؤمنين لقباً له ؛ ذلك أنه رأى نظام الحكم تطور في بلاد العرب وفي البلاد التي تم فتحها في عهد أبي بكر ، مع بقاء هذا الحكم في حدود ما أمر الله به وما نهى عنه . وكان هذا التطور سريعاً في شبه الجزيرة وفيما وراءها سرعة أذهلت العالم وأدهشت المؤرخين . ولم يكن في كتاب الله ولا في سنة رسوله تفصيل لنظام الحكم كيف يكون ، وإن جعل الكتاب الشورى أساس الحكم ، فقال تعالى مخاطباً نبيه : « وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ » ، وقال « وَأْمُرْهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ » .

فلم يكن لعمر بدٌّ من أن يَسْئُرَ في تفصيل هذا النظام بما يتفق واتساع رقعة الفتح ، وما يكفل طمأنينة المحكومين ، شأنه في ذلك شأن أمير الجيوش إذ يصفّنها وينظم تعبئتها بما يقتضى به تطور المعارك وما يقتضيه موقف جنوده وموقف خصومه ، غير مقيد برأي سلف ما دام في طاعة الله متأسياً برسوله .

العلاقات السياسية بين بلاد العرب إلى عهد رسول الله

وأنت إذا رجعت البصر إلى هذا التطور السريع ازدادت إعجاباً بأبي بكر وبمقدرته على مواجهته في لين ومرونة كانا مصدر قوته والسبب في نجاح سياسته . كانت بلاد العرب إلى عهد الرسول موزعة بين حياة الحضر وحياة البادية ،

مقسمة بين شتى الأديان ، يكاد شمالها وجنوبها لا يتعارفان . كانت اليمن خاضعة لسلطان فارس ، تتجاور فيها المسيحية واليهودية وعبادة الأصنام ، وتتكلم لغة حمير التي تختلف في لهجتها عن لغة قريش كافة ، وعن لغة مُضَرَّ خاصة . ثم إن اليمن كانت مستقر حضارة تعاقبت على الأجيال . أما الحجاز فكان أدنى إلى البداوة ، وكانت مدنه ، مكة ويثرب والطائف تستقل كل واحدة بنفسها وبنظامها ، كاستقلال كل قبيلة من قبائلها بنفسها وبنظامها ، ولا يحول هذا الاستقلال دون تجاور اليهودية والوثنية بيثرب ، ولا دون تجاور تجاور النصرانية والوثنية بمكة . فلما انتشرت دعوة النّبي العربي إلى التوحيد في أرجاء شبه الجزيرة وأذن الله لدينه القيم أن يعم ربوعها ، خاضت اليمن نير الفرس ، وبقيت مستقلة بنفسها وبنظامها كما كانت من قبل ؛ وكذلك بقيت سائر مدن الحجاز وقبائله مع إسلامها لله وللدين الذي أوحاه إلى رسوله . بذلك أصبحت بلاد العرب أشبه بعصبة أُمّ عربية تجمع بينها عقيدة واحدة ، تدين كلها برسالة محمد وتؤمن بتعاليمه ، ثم لا تنزل من استقلالها عن شيء إلا إيتاء الزكاة أداء لفرض الله وقياماً بركن من أركان دينه الذي آمنت به .

على أن هذه الوحدة الدينية كانت بدء تطور في نظام البلاد السياسي لم يُلْقِ العرب بالهم إليه . لقد تحالفت القبائل والمدن على أن تدفع عن حرية العقيدة وتقاتل المشركين الذين يصدّون عن سبيل الله . فلما سار جيش المدينة تحت راية الرسول ليغزو مكة بعثت القبائل من سُلَيْمٍ ومُزَيْنَةٍ وَغُطَفَانٍ وغيرها من انضم إلى المهاجرين والأنصار لفتح البلاد الحرام . وفتحت مكة أبوابها وأسلم أهلها ، فسار أبناؤها مع جيش الرسول إلى حُنَيْنٍ والطائف . ثم إن رسول الله كان يبعث عمّالَه إلى البلاد التي تدين بالإسلام ليعلموا الناس القرآن ويفقهوهم في الدين . وهؤلاء العمال هم الذين كانوا ينظمون الزكاة وتحصيلها فيرسلونها إلى المدينة أو يوزعونها بين الفقراء من أهل البلاد التي دخلت في دين الله . طبيعى أن يحدث ما صاحب الانقلاب الديني من هذه الأحداث تطوراً في النظام السياسي يميل ببلاد العرب إلى وحدة لم تألفها من قبل . لكن أهل هذه البلاد في اليمن وفي غير اليمن لم يقادروا لهذا التطور ، ولم يدر بخاد أحد

كانت الوحدة الدينية بدء تطور في نظام العرب السياسي

منهم أن يكون له بعد رسول الله أثر ، بل كان ظنهم أن هذه التعاليم التي يذيعها رسول الله بينهم ستصبح أصيلة فيهم ، ثم يعودون إلى حالهم السياسية الأولى ، وتظل كل أمة وكل قبيلة منهم مستقلة بنفسها وبنظامها كما كانت من قبل .

وهذا هو السبب في ثورة تلك البلاد إثر وفاة الرسول ، وفيما ترتب على ذلك من حروب الردة . فقد أراد أبو بكر أن تظل هذه البلاد كما كانت في عهد الرسول ، وأرادت هذه البلاد أن تسترد حريتها السياسية كاملة ، وكان لأبي بكر من إيمانه بالله ورسوله أبانغ العذر عن الإصرار على أن يؤدي من أسلم كل ما فرض الله بما كان يؤدي لرسول الله . وكانت هذه البلاد ترى لنفسها حقاً في الاستقلال وتقرير المصير كحق أهل المدينة ، وتأتي لذلك أن يفرض المهاجرون والأنصار رأيهم عليها بعد أن لم يبق بينهم رسول الله يوحى إليه فيؤمن الناس بكلمته لأنها كلمة الله جل شأنه .

بيعة أبي بكر ودلالاتها في تطور النظام السياسي

وما حدث من بيعة أبي بكر بالمدينة جدير بأن يقف نظرنّا كما وقف نظر العرب في ذلك العهد . فما بال المهاجرين والأنصار قد امتأثروا باختيار الخليفة دون سائر العرب ؟ وما دلالة ذلك في تطور النظام السياسي يومئذ ؟ أتأراه استأثروا باختيار أبي بكر لأنهم رأوا في سبقهم إلى الإسلام وفي تقدّمهم الصفوف للدفاع عنه ما يجعلهم أصحاب الأمر في شؤون العرب ، وما يقدمهم في ولاية السلطان عليهم ؟ ! لعلك تذكر اعتراض عمر بن الخطاب على أبي بكر حين أرسل إلى أهل مكة يشاورهم في فتح الشام ويستمدّهم إليه ، بعد أن قاتل أهل مكة المرتدين كما قاتلهم المهاجرون والأنصار . ثم لعلك تذكر كلمة سهيل بن عمرو لعمر في هذا المقام وإجابة عمر إياه . فقد قال سهيل : « ألسنا إخوانكم في الإسلام وبنى أبيكم في النسب ! أفئتنكم أن كان الله قدّم لكم في هذا الأمر قدماً صالحاً لم نؤت مثله قاطعو أرحامنا ومستهيئون بمحقنا ! » . وكان جواب عمر : « إني والله ما قلت ما باغكم إلا نصيحة لمن سبقكم بالإسلام وتحرياً للعدل فيما بينكم وبين من هو أفضل منكم من المسلمين » . فإن يكن ذلك رأى عمر ومن وافقه في أمر مكة وأهلها فما أحراه أن يكون رأيهم في أمر سائر العرب . أما كلمة سهيل فصريحة في إنكار رأى عمر ، وفي تمسك أهل مكة بما لهم من

حق في المشورة يعدل ما لأهل المدينة فيها .

هذا الحوار واضح الدلالة في تصوير العوامل التي كانت تتجاذب لتكثيف النظام السياسي في الدولة الناشئة . فلئن قضت ضرورة المحافظة على كيان الدولة أن يسارع المهاجرون والأنصار بالمدينة إلى اختيار الخليفة ومبايعته ، لقد انقضت هذه الضرورة أول ما تمت بيعة أبي بكر واطمأن المسلمون لها ، ولقد أقامت مكة والطائف على الإسلام وشاركنا في حروب الردة ، وصار لهما بذلك من حق الرأي في الحكم ما لأهل المدينة . أف يكون سبق المهاجرين والأنصار إلى الإسلام سبباً في تقدمهم على جميع المسلمين ومسوغاً لاستئثارهم بالأمر على العرب كلها ؟ ذلك ما رآه ابن الخطاب ، مستنداً إلى ما دار في سقيفة بني ساعدة من حوار بين المهاجرين والأنصار . أما أهل مكة فبرموا به ، وأنكره باسمهم عكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو .

العوامل التي كانت تتجاذب لتكثيف النظام في الدولة الناشئة

لم يذهب أبو بكر في هذا الأمر إلى المدى الذي ذهب إليه عمر ، مع أنه في سقيفة بني ساعدة ، هو الذي أيد بحجته البالغة حق المهاجرين في الإمارة لسبقهم الأنصار إلى الإسلام واحتملهم الأذى في سبيله . ذلك أنه رأى سائر الذين أقاموا على إسلامهم من غير أهل المدينة قد شاركوا في حروب الردة ، وذهب منهم من ذهب لغزو العراق ؛ فمن العدل أن يكون لهم ما لأهل المدينة من حق في الرأي والمشورة . لهذا دعا أهل مكة يشاورهم في غزو الشام ويستمدهم إليه ، كما أنه سوى في قسمة الذهب الذي كان يحىء من المنجم الذي فتح على مقربة من المدينة في عهده بين المسلمين . فلما قيل له في تفضيل السابقين إلى الإسلام كان جوابه : « إنما أسلموا لله ووجب أجركم عليه ، يُوفيهـم ذلك في الآخرة ؛ وإنما هذه الدنيا بلاغ » . وبهذا التصرف الحكيم مهد للتطور السياسي في بلاد العرب في لين ومرونة .

أبو بكر يذهب في هذا الأمر غير مذهب عمر

وقد تجدد الخلاف على هذا الرأي في عهد عمر فأصر على رأيه الأول فيه ، مخالفاً مذهب الصديق وسياسته . ثم إنه حاول في آخر عهده أن يعود إلى رأي سلفه فعاجلته المنية دون أن يتم ما عزم .

أدت سياسة الصديق إلى تطور العرب نحو الوحدة السياسية ، وجعلتهم

ينظرون إلى المدينة على أنها عاصمة دولتهم ومصدر سياستهم . لذلك اتجهت أنظارهم إليها فانضووا تحت سلطانها واستظلوا برأيها .

ما لون هذا السلطان ؟ أكان ثيئقراطياً (دينياً) ، أم أرستقراطياً (حكم الخاصة) ، أم ديمقراطياً (حكم الشعب) (١) ؟

لقد رأينا أنه لم يكن من نوع السلطان الدينى الذى عرفته مصر الفرعنة ، ولا الذى عرفته عصور أوربا الوسطى . لم يكن أبو بكر يستمد سلطة الحكم من الله ، بل من الذين بايعوه . وقد انقضى نزول الوحي منذ اختار الله رسوله إليه ، وبقي كتاب الله بين المسلمين هدى لهم جميعاً ، وحجة عليهم جميعاً ؛ فهو ميثاقهم الذى آمنوا به وارتضوه ، وهو دستور الحكم ، يسير الحاكم فى حدوده لا يتعداه . فإن فعل وجبت طاعته ، وإلا فلا طاعة له على مسلم . هذه الصورة الدقيقة للحكم الإسلامى تنأى به عن الفكرة الثيئقراطية . فهو كما ترى حكم مقيد لا سبيل للقائم به إلى السلطان المطلق . وفى طبيعة الحكم

(١) لست أدعى أن كلمة (الحكومة الدينية) تؤدى معنى الحكومة « الثيئقراطية » أداء دقيقاً . والأمر كذلك فى كلمتى « حكم الخاصة » و « حكم الشعب » من حيث دقة أدائهما لمعنى الأرستقراطية والديمقراطية . وعدم الدقة أكثر وضوحاً فى هذا العصر الذى تطورت فيه نظم الحكم وتعددت ، فالحكومة اللادينية توصف بها اليوم كل حكومة لا تعرف بطبقة الكهنة أو القساوسة من رجال الدين ولا تقرر للدولة ديناً رسمياً . أما غير هذه الحكومة اللادينية فيعرف بوجود هذه الطبقات ويقرر ديناً رسمياً للدولة ، وإن كان النظام الذى يقوم على أساسه مدنياً بحتاً ، ينص على حرية العقيدة ويقررها بأوسع معانيها . وهذه الحكومة ليست فى شيء من الحكومة الثيئقراطية . فالحاكم الثيئقراطى يستمد سلطانه من الله كما يستمد منه العصمة . وذلك كان شأن الفرعنة ومن شاكلهم ، وشأن ملوك أوربا إلى القرن الخامس عشر على ما بينا فى أول هذا الفصل . وهذا نظام لم يبق له فى عالمنا المتحضر وجود . أما الأرستقراطية فكانت طائفة الأشراف أو النبلاء ، وإن شئت فكانت طائفة رؤساء القبائل والعشائر التى ألغت الغزو والسلب . وقد آل أمر هذه الطائفة زمناً إلى أبناء هؤلاء النبلاء ؛ ثم نافسهم فى الشرف والنبل غيرهم ، فصار الناس يتحدثون عن أرستقراطية المال وأربابه ، وعن أرستقراطية الثقافة ، حتى لم يبق لهذه الكلمة اليوم معناها القديم . أما الديمقراطية فقد تطورت فى صور شتى من عهد أثينا القديم إلى أن سادت فى عهدنا الحاضر ، والعالم اليوم يتخلى أزمة مبعثها نظام الحكم ، تدافع الديمقراطية فيه عن كيانها ؛ وتحاول نظم أخرى أن تحل محلها .

ولعل القارئ يرى فى تصويرنا حكومة أبى بكر ، من حيث انطباقها على إحدى هذه الصور واقترابها منها أو ابتعادها عنها ، ما يؤدى المعنى الذى قصدنا إليه والصورة التى تحرينا رصفها .

الحكم الإسلامى
ليس ثيئقراطياً

التيقراطي أن يكون مطلقاً لا يعرف قيلاً إلا هوى الحاكم وحرصه على الاحتفاظ بسلطانه . وهذا الحرص هو مصدر الزعم بأن إرادة هذا الحاكم التيقراطي من إرادة الله ، وأنها لذلك هي القانون ، بل هي فوق القانون ؛ بيد صاحبها كل شيء ؛ بيده العذاب والرحمة ، والشقاء والنعمة ، والحياة والموت . شتان ما بين هذا وبين تقييد الحاكم بمشاورة الشعب ، وبما أنزل الله في كتابه .

فالحكم الإسلامي
مقيّد بإرادة
الشعب بما أمر
الله به وما نهى عنه

ويذهب قوم إلى أن التقييد بما أنزل الله في كتابه يُهدر إرادة الشعب ويقضى عايتها ، ويحول دون تطور التشريع مع تطورها ، وأنه يجعل الحكومة الإسلامية ثيوقراطية في أسوأ وجوهها . وهذا الاعتراض لا مسوغ له . فما ورد في القرآن من التشريع لا يعدو المبادئ العامة التي تقررها قواعد العدل مصورة في مثلها الأعلى . أما ما جاء فيه من تفصيل لبعض هذه المبادئ العامة فإنما يتناول أموراً بذاتها محصورة العدد . والمبادئ العامة التي قررها القرآن ضرورية لحياة الجماعة الحرة ، فالخروج عايتها يفسد هذه الحياة . وقد ثبت على التاريخ أن ما يخالف هذه المبادئ قد استحال قيامه في البلاد التي تلائم بين حرية الفرد ونظام الجماعة ، والتي تقر لذلك نظام الأسرة والملك والميراث ، ثم تفرض قدرّاً من الاشتراكية يقتضيه تضامن الجماعة ، وتدعو إليه مبادئ الرحمة الإنسانية التي تعد في الإسلام قاعدة مقررّة لا كمالاً نفسياً وكفى .

ولو أن تحديد ما جاء في كتاب الله ترك لطائفة خصّصت به ، كما خصت طائفة الكهنة في بعض الأديان بإعلان إرادة الله ، لكان للخوف من إهدار إرادة الشعب موضع . أما والإسلام يأبى هذا التخصيص ويجعل الناس سواء في الحرص على إدراك ما أمر الله به وما نهى عنه ، وفي محاسبة الحاكم على تصرفاته ، فالفكرة التيقراطية في الحكم الإسلامي منتفية لا وجود لها على الإطلاق .

والحكم الإسلامي
خاضع لرقابة
المسلمين جميعاً

وهذا الحكم الإسلامي المقيد خاضع لرقابة المسلمين جميعاً . لكل فرد منهم أن يحاسب القائم به ، وليس لطائفة أن تستأثر لنفسها من أمور الحكم بما تمتاز به على غيرها من الطوائف . وقد رأيت في تصرف أبي بكر شدة الحرص على التقييد بكتاب الله والتأسي برسوله في التنزه عن كل مطامع الدنيا ، ثقة منه بأن من ساس أمور الناس فأفاد لنفسه منها ، كان ظالماً لنفسه وللناس .

ولقد بلغ أبو بكر من هذا التنزه حداً يحسبه أهل جيلنا معناً في المبالغة .
لم تغير الخلافة ولا غيرت الإمارة على المؤمنين من حياته ، ولم تنتقل به من داره
إلى دار غيرها . وقد نسي منذ تولى أمور المساهمين نفسه ونسى أهله وأبناءه ،
وتجرد لله تجرداً مطاقاً ؛ وأوجب على نفسه أن يشعر بضعف الضعيف وحاجة
المحتاج ، تحقيقاً لمعنى الإخاء في أسنى صوره ، وإيداناً بأنه ليس له في الحياة
هوى ، وأنه يقدر لذلك على أن يقيم بين الناس عدلاً منزهاً لا يعرف محاباة ،
وإنما يعرف حدود الله في أن يعيش الناس جميعاً في ظل عدله ، جل شأنه ،
آمنين مطمئنين .

والحكومة
الإسلامية
ليست
ارستقراطية

حكومة ذلك شأنها ، لم تعرف السلطان المطاق ولم يكن للكهنة وجود
فيها ، لا يمكن أن تكون ثيوقراطية الارن . وهي لم تكن أرستقراطية ، ولم يكن
استئثار المهاجرين والأنصار باختيار الخليفة من الأرستقراطية في شيء . فقد
كان هؤلاء رجالاً من طبقات شتى . وهم إنما استأنروا بالأمر صوتاً للنظام
القائم ودفاعاً عنه . ثم لأنهم كانوا طبقة مؤثرة تزول بزوال أفرادها . لا يرثها
أحد ، ولا تقوم مقامها طبقة أخرى . بل لقد نازعهم أهل مكة سبق كما رأيت .
وولاية بنى أمية ثم بنى العباس أمر المسلمين من بعد شاهد قوى على أن الفكرة
الأرستقراطية لم يكن لها بين المسلمين الأولين وجود .

حكومة أبي بكر
حكومة شورى

وإنما كانت حكومة أبي بكر حكومة شورى في منشئها وفي نزعها وبواع
الصديق بالانتخاب العام ، وبواع لصفاته الذاتية ولكانته من رسول الله ،
لا لأسرته ولا لعصبية قبيلته . ولم يطالب أبو بكر البيعة لنفسه ، بل كان يرشح
عمر بن الخطاب وأبا عبيدة بن الجراح ليبايع المسلمون أيهما شاعوا ، وكان
يرشحهما والأنصار ينازعون المهاجرين الأمر ويتهمونهم بأنهم يريدون غصبه
منهم . ولقد تم ذلك كله في اجتماع عام ، هو اجتماع السقيفة ، أُلقيت فيه
الخطب ، وكانت فيه المداورات الانتخابية أبرع ما تكون . فلما أقبل الناس
على البيعة لم يكن المهاجرون أسبق إليها من الأنصار ، وكان عمر وأبو عبيدة أول
من مهد لها ثم أتتها .

هذه بيعة أنشأتها الشورى ؛ فليس انتخاب رئيس الجمهورية في فرنسا ،

بل في أمريكا ، بأكثر حرية منها . فلما تولى أبو بكر الحكم كانت أول خطبة له موطدة أسس الشورى مُثبتة قواعدها . ألم يقل للناس لأثر بيعته العامة : « لقد وليتُ عليكم ولست بخيركم . فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني » ؟ أو لم يقل لهم : « أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم ! » . هذا لإقرار صريح بحق الرأي العام في مراقبته وإرشاده ، وبحق الناس في العصيان إذا عصى الخليفة الله وصدق عن أمره . والنتيجة المنطقية لتقرير مبدأ العصيان هي الإقرار للعصاة بحقهم في عزل من عصوه . ولا نحسب معنى أبلغ في تقرير مبادئ الشورى من هذا المعنى .

ومع أن الحرب امتدت طيلة عهد أبي بكر كما رأيت ، لقد قام حكمه على الشورى في الجليل والصغير من شؤونه . فهو لم يكن بيت في أمر قبل أن يشاور الناس فيه ، ولم يكن يميز طائفة من الناس على طائفة في القضاء أو في العطاء . وهو لم يعرف من أبهة الملك ومن جاه السلطان ما عرف أهل الملك والسلطان في أمم العالم جميعاً . وكان المسلمون أمامه سواء ، وللمدين يدخلون في الإسلام من غير أهلهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم . وإنما أبقى الصدّيق على الذين ارتدوا ثم عادوا إلى الإسلام أن يشتركوا في قتال الفرس لأنه حرص على أمن الدولة وسلامتها ؛ فلما زالت مخاوفه أوصى عمر أن يمسك المثنى بهم في حروب العراق .

بذلك مهد أبو بكر للتطور الذي أشرنا إليه في نظام الحكم ، وهى الأسباب
حكومة أبي بكر
تمهد لوحدة
العرب السياسية
لوحدة بلاد العرب السياسية بعد أن تمت لها وحدتها الدينية . وكانت مرونة
أبي بكر وكان حكمه من أقوى العوامل في التمهيد لهذه الوحدة السياسية . وقد
رأيت كيف عفا عن زعماء النافرين باليمن وغير اليمن من البلاد التي ارتدت
في سبيل استقلالها . عفا عن قُرّة بن هبيرة ، وعن عمرو بن معدى كرب ،
وعن الأشعث بن قيس ، وعن غيرهم من سادات العرب ، فكان عفوه عنهم
بعد الذي أبداه من الحزم والشدّة مع غيرهم داعياً لهم ولأقوامهم أن يرتبطوا
بالمدينة في وحدة لا تنفصم عُرّاه . وزادت الشورى التي أقام عليها أبو بكر
حكمه هذه الوحدة قوة ، وزاد فتح العراق وفتح الشام جميع العرب عليها حرصاً .
وكان طبيعياً أن يقوم الحكم في ذلك العهد على أساس الشورى ، فقد نشأ

الإسلام في بلاد العرب ، وكان كتابه عربيًّا ، وكان رسول الله به عربيًّا ، وكانت بلاد العرب تعيش يومئذ في نظام بلغت الحرية فيه أقصى مداها . ذلك أن الحرية كانت أعز شيء على العربي ، بدويًّا كان أو حضريًّا . وفكرة المساواة متأصلة في النفس البدوية ، كذلك كانت ولن تزال . وقد زادت تعاليم الإسلام هذه الفكرة قوة إذ سمت بها إلى المساواة التامة أمام الخالق البارئ المعز المذل ، لا يتفاضل الناس أمامه جل شأنه إلا بأعمالهم ، ولا فضل لعربي على عجمي منهم إلا بالتقوى . فأما الإخاء الذي يَتِمُّ مع الحرية والمساواة شعار الحكيم الشعبي في عصرنا فقد بلغ به الإسلام مبلغًا ما أشده وضوحًا في قول رسول الله « لا يكمل إيمان أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » . لا غرو ، وهذه تعاليم الإسلام التي نشرها رسول الله بين الناس والتي تتفق مع أكرم ما في النفس العربية من سجايا ، أن تتوحد الوحدة العربية حول هذا النظام الذي ثبت أبو بكر قواعده ، وأن تؤدي سرعة التطور إلى تماسك هذه الوحدة وإلى استقرارها .

الإمبراطورية
الإسلامية
والأساس الذي
تقوم عليه

وقد امتدت حكومة أبي بكر إلى ما وراء بلاد العرب ، ومهدت للإمبراطورية الإسلامية المترامية الأطراف . أفكان ذلك مصادفة محضة تضافرت العوامل على نجاحها ، أم أن التطور الذي صورناه وأدى الإسلام الناشئ إليه قد حتم هذا الفتح ، وبلغ به مداه حين بلغت الإمبراطورية الإسلامية مداها ؟

لا أتردد في القول بأن هذا التطور كان محتمًّا ؛ لأن تعاليم الإسلام تنطوي بطبيعتها عليه . فالإسلام في جوهره إمبراطوري ، كما أنه في جوهره شعبي ، وإن اختلفت الفكرة الإمبراطورية فيه عن الفكرة الإمبراطورية في عهدنا الحاضر في أسسها وفي غاياتها .

ويرجع الخلاف إلى أن الإسلام يدعو إلى حرية العقيدة . ويفرض على المؤمنين به أن يدافعوا عنها بأموالهم وأنفسهم . وهو إذ يدعو إلى هذه الحرية في العقيدة لا يفرض على الناس أن يدينوا به على كره منهم ، فلا إكراه في الدين ، وإنما يريد لكل إنسان حرية النظر والتقدير حتى يستمع إلى القول فيتبع أحسنه . وهو مطمئن إلى أن الناس متى عرفوا تعاليمه اتبعوه لأنه يدعو إلى ما يرضاه العقل وما يتفق مع الفطرة السليمة في الإنسان .

حرية العقيدة
هي هذا الأساس

وحرية العقيدة كانت ولا تزال في حاجة إلى الدفاع عنها وإلى الاستشهاد في سبيلها . فالظالمون لا يطبقونها ، بل يمتنونها أشد المقت . والذين يريدون أن يستغلوا الشعوب يزينون للشعوب أسوأ ما في عقائدهم وأشدّه فساداً ؛ وهم لذلك لُدُّ في خصومة الأحرار المصلحين . أما والإسلام يريد الإصلاح ما استطاع ، يقيمه على أساس من الرأى الحر يقتنع به صاحبه فيؤمن به ، وللناس بعد ذلك أن يكتفوا مصالحهم في هذه الحياة كما يرون لأنهم أعلم بأمور دنياهم ؛ فالفكرة الإمبراطورية في الإسلام إنسانية روحية ، غايتها الأولى تحرير العقل إلى حيث يسمو على كل ضغط وكل اضطهاد .

والحمجة القاطعة على ذلك أن المسلمين لم يفرضوا دينهم على البلاد التي فتحوها ، ولم يكرهوا الناس يوماً حتى يكونوا مؤمنين . بل إنهم كانوا إذا فتحوا بلاداً أباحوا لأهلها حرية العقيدة . فن أسلم فله ما للمسلمين وعليه ما عليهم ، ومن أثر ديناً غير الإسلام أدى الجزية . ولم تكن الجزية مغرمًا يفرض أية ذلة أو خضوع ، وإنما كانت تقابل الزكاة المفروضة بحكم الدين على المسلمين ، لإقامة نظام الدولة والدفاع عن كيائها . ولقد رأيت فيما عقده المسلمون من معاهدات الصلح مع أهل العراق وأهل الشام أن الجزية كانت تؤدي لقاء دفاع المسلمين عن أموال من لم يسلموا ، وعن حريتهم في عقيدتهم وإقامة شعائر دينهم . ولذلك كانت هذه المعاهدات تنص على حماية بيوتهم ، وكنائسهم ، ومعابدهم ، وأجبارهم ، ورهبانهم . فإذا لم يقيم المسلمون بالتزاماتهم المفروضة في الصلح أعفى غير المسلمين من دفع الجزية بحكم العهود وبنصها الصريح .

اختلاف
الإمبراطورية
الإسلامية عن
الإمبراطوريات
الأخرى في غرضها
وجوهرها

إمبراطورية تقوم على هذه الأسس تختلف أغراضها عن أغراض الإمبراطورية كما فهمها الرومان ، وكما نفهمها في العصر الحاضر ، اختلافًا جوهريًا . فهي لا تجعل خضوع الناس للعرب أو لشعب بذاته غايتها ، وإنما غايتها الأولى أن يعيش الناس أحراراً ، وأن تربط بينهم أواصر الرحمة والمودة والعدل ، وأن يكون للأمم المفتوحة من ذلك مالئمة الفاتحة وكما يقوم الحكم في عهد الإسلام على أساس الشورى ، يجب أن يقوم في كل أمة فتحها المسلمون على أساس الشورى . وأهل الأمم يتدعون بالحقوق التي يتمتع بها العرب ؛

من أسلم فإله ما للعرب المسلمين وعاليه ما عاينهم ، ومن لم يسلم فإله ما للعرب غير المسلمين وعليه ما عليهم . فالذين احتفظوا بنصرانيتهم من أهل العراق أو من أهل الشام ، مثلهم كمثل الذين احتفظوا بنصرانيتهم في نجران وفي غير نجران من بلاد العرب . وإنما يربط بين هذه البلاد التي تدين بالإسلام رباط واحد ، ذلك رباط التوحيد والدعوة إليه والدفاع عن حرية هذه الدعوة . أما فيما وراء ذلك فأمر البلاد التي تؤلف الإمبراطورية الإسلامية كأمر بلاد العرب في عهد الرسول ؛ عصبه أم تسعى لغرض إنساني بالغ غاية السمو ، تتجاهد في سبيله ، وتعمل لإعلاء كلمته . وسبيلها إلى هذه الغاية الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن » « فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَلَنَا يَهْتَدِ لِنَهْتَدِ بِهِ ، وَمَنْ ضَلَّ فَلَنَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ » .

السبب في ترك
الحكم في عهد
أبي بكر بدون
تنظيم

لم ينفصح الأمد لأبي بكر حتى يقيم على هذا الأساس نظاماً للحكم في البلاد التي فتحها المسلمون في عهده . وقد ترك خالد بن الوليد لأهل المدن المفتوحة في العراق أن يتولوا إدارتها ، في حين احتفظ المسلمون بسياسة الدولة وتوجيه شؤونها العامة . ولم يكن ذلك تنظيمًا للحكم ، وإنما كان ضرورة قضت بها الخُطَطُ الحربية في وقت كان القتال ناشباً فيه بين المسلمين والفرس ، فكان الأمر فيه للقيادة العسكرية .

وكان شأن الشام حين الفتح كشأن العراق . ولقد كان الحكم على أساس الشورى جديداً بين الشعوب التي فتحها المسلمون ، كما كان الإسلام جديداً بين الأديان التي أحاطت بشبه الجزيرة من كل جانب . وإنما كان حكم الفرد مطابقاً في ذلك العهد ، وكان الرهبان والكهنة وسائر رجال الدين يؤيدون هذا الحكم المطاقي ، ويخلعون على أصحابه قدسية رهيبة تنخلع القلوب من هيبتها ، ويختر الناس سجداً أمامها . لذلك لم يلبث الناس حين رأوا هذا الحكم الجديد قائماً على الإنصاف والعدل ، متحرراً لإرادة الشعب في حدود ما أمر الله به وما نهى عنه ، أن أقبلوا عليه ورحبوا بأهله ؛ فكان إقبالهم سبباً من أسباب النصر الذي أفاءه الله على المسلمين ، فد إمبراطوريتهم في سنوات محدودة لتحل محل الإمبراطوريتين الرومية والفارسية ، ولتتخطى حدودهما إلى الهند شرقاً وإلى شمال

إفريقية غرباً ، فتنشر حيثما ذهبت لواء الحق والعدل والإيمان الصادق ، وتقرر مبادئ الحرية والإخاء والمساواة في أسمى صورها وأجدرها بالإنسانية الطامحة إلى الكمال .

لم ينفسح الأمد لأبي بكر كي يقيم نظاماً للحكم في البلاد التي فتحها المسلمون لعهد . ولم ينفسح له الأمد كذلك كي يقيم نظاماً ثابتاً للحكم في بلاد العرب نفسها . وكل ما تلوته في هذا الكتاب من خطب الخليفة الأول ، ومن تصرفاته في إقامة عمر بن الخطاب على القضاء ، وعثمان بن عفان وزيد ابن ثابت على الرسائل ، يشهد بأن الفكرة الإسلامية في نظام الحكم كانت إلى يومئذ في طور الاستجنان ، واضحة الأساس في كتاب الله وفي سنة رسوله ، مبهمة التفاصيل فلا يستطيع أحد أن يذكر عنها ما يستطيع أن يذكره عن الحكومة الإسلامية في العهد الأموي أو في العهد العباسي ، بل في عهد عمر وفي عهد عثمان . وذلك طبيعي في حكومة ألفت الأقدار عليها أن تكون حكومة انتقال من عهد إلى عهد جديد يختلف عن سابقه كل الاختلاف في لون الحضارة ، وفي العقيدة ، وفي طرائق التفكير ، وفي كل ما يتصل بنظم الحياة .

بقاء الحكم في عهد أبي بكر قائماً على الأسس العربية لعهد النبي

وهو طبيعي كذلك في عهد نضال وحرب ، حكومته أدنى إلى الحكومة العسكرية منها إلى الحكومة المدنية ، فالنظم المدنية تتفصل حين الحرب وتكاد تتفانى أمام النظم العسكرية ، وذلك في البلاد التي استوت النظم المدنية فيها أمداً طويلاً وأجيالاً متعاقبة . ما بالاك وبلاد العرب لم يستقر فيها نظام مدني ثابت موحد قبل الإسلام ! لا جرم في هذه الحال أن تطغى نظم الحرب والجهاد متسلطة على كل النظم ، وأن تتأثر الحياة المدنية بتطورات الحرب أبلغ التأثير .

تأثر الحكم بحال الحرب التي كانت ناشئة طيلة عهد أبي بكر

فإذا ذكرت أن هذه الحرب كانت حرباً أهلية في العام الأول من حكم أبي بكر ، وأنها كانت قائمة من أجل الحكم ونظامه ، ثم ذكرت أن مواجهة الفرس في العراق بدأت والحرب الأهلية ما تزال قائمة ، وأن مواجهة الروم في الشام كانت وحرب العراق في أدق أدوارها ، أيقنت أن التفكير في تنظيم حكم مستقر واضح التفاصيل لم يكن أمراً ميسوراً ، وأن أبا بكر كان في شغل بمواجهة الأسدين . فارس والروم عن كل أمر سوى ما يحقق للمسلمين اجتماع

الكلمة فيما بينهم والظفر بعدو الله وعدوهم .

وكان نظام هذه الحكومة العسكرية أدنى إلى البداوة التي سادت بلاد العرب وقبائلها من قبل عهد الرسول . لم يكن هناك جيش نظامي ، بل كانت الفروسية تجعل من كل عربي جندياً . فإذا دقت طبول الحرب ، ونادى المنادى للقتال ، خرجت القبائل والقرى وعلى رأس كل جماعة زعيمها . وقد رأيت كيف خرج العرب من أهل الجنوب حين دعوا لقتال الروم في الشام ومعهم نساؤهم وأبنائهم ، ومعهم ميرتهم وذخيرتهم ، لا يكلفون الحكومة المركزية شيئاً ، ويعتمدون في معاشهم على ما يغنمون في الحرب .

فقد كانوا يُسفلون أربعة أخماس الغنائم حين الحرب ، ويرسل الخمس إلى الخليفة ليرده على بيت المال ، ولينظم به الشؤون العامة القليلة التي يتولاها بصورة مباشرة . وكانت رعاية الفقراء من أهل المدينة ومن الوافدين عليها في مقدمة ما ينفق الخليفة هذا الخمس فيه . وكان أبو بكر حريصاً على أن يوزع الغنائم على هؤلاء وعلى كل ذي حق في بيت المال أول ما ترد إليه . لذلك كان بيت مال المسلمين في بيته بالسُّنح ، فاما انتقل إلى المدينة نقله معه . وقيل له في ذلك وطلب بعضهم إليه أن يجعل عليه حراساً وخزنة فأبى ، لأنه لم يكن يحتفظ فيه بما يستوجب الحراسة ، ولم يكن يخزن ما يخشى عليه عدوان المعتدين .

تطور الحكومة
الإسلامية على
ذلك في عهد
الصديق

فهذه الصورة من حكومة أبي بكر تشهد بأنها كانت أدنى إلى بساطة البداوة ، وأنها كانت عربية صرفة ، لم تتأثر في قایل ولا كثير بالنظم التي كانت قائمة ذلك العصر في بلاد الروم أو في بلاد الفرس . وهي مع هذه البساطة الحلقة القوية التي ربطت بين عهد الرسالة وعهد الإمبراطورية . واتصالها الزماني الوثيق بعهد الرسالة جعلها به أشبه . فلم يكن أبو بكر يصنع شيئاً كان رسول الله يدعه ، ولم يكن يدع شيئاً كان رسول الله يصنعه . لكنه لم يجمد مع ذلك جمود المقلدين ، بل فتح له تأسيسه برسول الله باب الاجتهاد في سياسة المسلمين واسعاً ، فهداه اجتهاده إلى أن فتح الله له العراق والشام ، ثم مهد للحكومة العرب الموحدة أن تقوم من بعده على أساس من الشورى في حدود ما أمر الله به وما نهى عنه . لم يتزمت في أمر ولم يُفَرِّط ، وإنما اهتدى بنور الله لمصلحة عباد

الله ، فكان أكثر ما هداه الصراط المستقيم لإيمانه بأنه مُحاسب أمام الله ، كما أنه محاسب أمام عباده ، والله شديد الحساب .

مرت الحكومة الإسلامية من بعد أبي بكر في أطوار شتى . فقد بدأ ابن الخطاب ينشئ الديوان في عهده ، متخذاً من نظام الحكم في فارس وفي الروم مثلاً ينسج عليه مع اعتصامه بكتاب الله وحدوده . ثم دنا عهد عثمان من الحكم المطلق دنواً لا يتفق وتقاليد العرب ؛ فكان ذلك مقدمة الثورة التي انتهت إلى مقتله . وانقلبت إمارة المؤمنين في عهد الأمويين ملكاً عضوضاً ، يتوارثه أهل البيت المالك . وكذلك كان الأمر في عهد العباسيين . وفي أثناء هذه الأطوار كانت يد الأعاجم من الفرس والروم ذات أثر ، لعاه كان خفياً في عهد عمر وعثمان ، ثم بدأ يظهر واضحاً بعض الشيء في عهد الأمويين ، ليتجلى من بعد ذلك صريحاً كل الصراحة في عهد بني العباس .

وفي هذه الأثناء كان علماء المسلمين ، وجلهم من الأعاجم ، يضعون نظام الحكم القواعد والتفاصيل يردونها إلى كتاب الله وسنة رسوله . وكان الخلاف يقع بين هؤلاء العلماء على هذا النظام ، فتقوم الثورات بسببه فتطيح بالحاكم حيناً ، وتُقمَّع بيد البأس والبطش فيستقر الأمر لصاحب السلطان حيناً آخر . ما أعظم الفرق بين حكومة أبي بكر في بساطتها العربية المتأثرة بحياة البادية ، وبين هذه الحكومات الأموية والعباسية التي وجدت من العلماء والفقهاء مَنْ شرع لها النظم المفصلة ، والقواعد المترامية الأطراف !

كان إيمان أبي بكر بأنه محاسب أمام الله وأمام الناس هو الذي هداه سبيله . وخشية هذا الحساب جعلته لا يُقدم على أمر ولا يحجم عنه ، حتى يشاور وروءى في المشورة ويستخير الله ، فإذا خار له صبح عزمه ، فكان الحزم الذي لا يعرف التردد ولا الهوادة ، لا يُعرض عليه أمر للمسلمين حتى يحسمه برأى قاطع . وقد رأيت ما كان من ذلك طيابة عهده ، ثم رأيت كيف استمع في مرضه للمثنى الشيباني حين جاء إليه من العراق يشير باستعمال الذين عادوا إلى الإسلام بعد ردتهم في حرب فارس ، وكيف أوصى عمر أن يمد

المنى بهؤلاء ليسيروا إلى الميدان معه . وفي هذا المرض كان الصديق أكثر ما يكون في أمور المسلمين تفكيراً ، وأشد ما يكون على وحدتهم حرصاً ، وأعظم ما يكون من خلافهم إشفاقاً . لذلك أوصى ، فكانت وصيته آخر عمل له في الحكم بخير الإسلام وخبير المسلمين .

الفصل الثامن عشر

مرض أبي بكر ووفاته

قضى أبو بكر على ردة العرب وعلى الثورة التي اندلعت إثر وفاة الرسول بسبب هذه الردة فأشعلت شبه الجزيرة نارا . ثم إنه فتح العراق . وأوشكت جيوشه أن تدخل المدائن عاصمة فارس ، كما تقدم في فتح الشام وسائر النصر أعلامه فيها إلى دمشق . وبينما تبهر هذه الانتصارات أنظار العالم إذا أبو بكر يقيم الحكم في البلاد العربية المتحدة على أساس الشورى ، وإذا هو يجمع كتاب الله ، فيقر له الجميع بأنه أعظم المسلمين أجراً في جمعه بين اللوحين . هذه أعمال ضخمة عظيمة أقرت الدين الحنيف في منزل الوحي ، ومهدت لإقامة الإمبراطورية الإسلامية ولانتشار هذا الدين الحنيف فيها ، ولقيام الحكم بين أهلها على أساس متين من الإنصاف والعدل . وكان ذلك كله في سنتين وثلاثة أشهر .

ما تم في خلافة
أبي بكر

أليست هذه بعض معجزات التاريخ ١٩ في سنتين وثلاثة أشهر تطمئن أمة نائرة وتصبح أمة متحدة قوية مرهوبة الكلمة عزيزة الجانب ، حتى لتغزو الإمبراطوريتين العظيمتين اللتين تحكمان العالم وتوجهان حضارته ، لتنهض بعبد الحضارة في العالم قروناً بعد ذلك . هذا أمر لم يسجل التاريخ مثله ، فلا عجب أن يقتضى من أبي بكر مجهوداً تنوء به العصبية أولو القوة . أما وقد تخطى أبو بكر الستين يوم بويح ، فطبيعى أن يهيبض هذا المجهود قوته وأن يعجل به إلى لقاء ربه .

ولعلك بعد الذى تلوته من تفصيل هذه الأعمال الجسام أن تتقدر هذا المجهود وما كان له من أثر . بل لعلك قد رأيت أن هذا المجهود لا يمكن أن ينهض به رجل إلا إذا أوتى من توفيق الله ومعونته ما لا يؤتا إلا الصديقون . وهذا ما آمن به أبو بكر ، ولهذا نقش على خاتمه : « نعم القادر الله » .

الزعم بأنه مات
مسموماً

عجلت عظمة المجهود وتقدم السن وفاة الخليفة الأول ، وإن جرت رواية أبو بكر الصديق

في تعامل وفاته بأن اليهود دسوا له السم في طعام تناول منه عتاب بن أسيد معه ، كما تناول منه الحارث بن كلدة لقيات ثم كف ، وأن هذا السم كان بطيء الأثر يقتل بعد عام من تناوله ، ولذلك مات عتاب بمكة في اليوم الذي قبض فيه أبو بكر بالمدينة . وهذه الرواية لم تؤيد بسند جدير بالثقة . وما يزيد من تهافتها أن أبا بكر لم يكن بينه وبين اليهود في خلافته نزاع ، وأن اليهود جلوا منذ عهد رسول الله عن المدينة .

رواية عائشة في مرضه وفاته والرواية الراجحة في مرض أبي بكر وفاته تسند إلى ابنته أم المؤمنين عائشة وإلى ابنه عبد الرحمن ، قالوا : كان أول ما بدأ مرض أبي بكر أنه اغتسل في يوم بارد فحسّ خمسة عشر يوماً لا يخرج إلى الصلاة ؛ وكان يأمر عمر ابن الخطاب أن يصلي بالناس .

على أن أبا بكر لم يفتأ في الأسبوعين اللذين قضاهما في مرضه إلى وفاته دائم التفكير في شؤون المسلمين ، دائم الحساب لنفسه عما قدم مذ تولى أمرهم . فقد كان قويّ الشعور منذ مرض بأن أجله جاء ، وأنه ملاق ربه . وقد كان مغتبطاً لذلك مطمئناً له ، لأنه كان في السن التي اختار فيها رسول الله الرفيق الأعلى ، ولأنه كان يشعر بأنه أدى الله حقه . قيل له يوماً : لو أرسلت إلى الطبيب ! فكان جوابه : قد رأي . قيل : فما قال لك ؟ قال : إني أفعل ما أشاء . يشير إلى أنه وكل الأمر لله ، وأنه سعيد بقضاء الله ، وأن أكبر همه أن يضمه الله إليه .

تفكير أبي بكر في مصير المسلمين بعده وأكثر ما شغل به أبو بكر أثناء مرضه لإشفاقه من مصير المسلمين بعده . لقد ذكر اختلاف المهاجرين والأنصار بسقيفة بني ساعدة حين مات النبي ، وذكر ما كان يوشك أن يحدث بين القوم لولا أن جمع الله كلمتهم على بيعته . ولئن اختلفوا حين وفاته ليكون اختلافهم أجسم خطراً . فلم يبق الأمر دائراً بين المهاجرين والأنصار دون سائر العرب ، بل لقد جاهد العرب جميعاً ولا يزالون يجاهدون في العراق والشام ، ويواجهون فارس والروم . فإذا قبض واختلفوا لم يقف خلافهم في حدود سقيفة بني ساعدة ، بل يتخطاها إلى مكة والطائف ، وقد ينتقل إلى اليمن ، وعند ذلك تعود الثورة تتلظى في بلاد العرب . وهي

إن عادت لم يكن مدارها ركناً من أركان الدين ، بل السلطان وولاية الأمر .
واختلاف الناس على أمور الدنيا أشد إثارة للشر وإطارة لنار الفتنة . وما أجسم
الخطر من ذلك على الإسلام والمسلمين في وقت يواجهون فيه الأسدين فارس
والروم ! فكيف يتلافى أبو بكر هذا الخطر ، وكيف يجنب المسلمين ما ينشأ
عن الفتنة من شرٍّ مستطير ؟

لماذا استخلف
أبو بكر على حين
لم يستخلف
رسول الله

فكر في هذا أثناء مرضه وطال فيه تفكيره . وألهمه الله الرأي وعزم له
فلم يتردد . لا سبيل إلى ملافاة ما يشفق منه إلا أن يستخلف من يقوم بالأمر
من بعده ، وأن يجمع كلمة المسلمين عليه . هذا أمر لم يصنعه رسول الله ؛ فقد
قبض ولم يستخلف . ولكن ذلك كانت فيه لله حكمة ، وحكمته ألا يظن
الناس أن من استخلفه رسول الله قد استمد الأمر على المسلمين من عند الله ،
فأصبح خليفة الله . وقد أراد الله من فضله أن يجمع كلمة المسلمين من بعده على
أبي بكر وأن يهيئ له من التوفيق ما رأيت . فأما إن استخلف أبو بكر فإنما يستخلف
برأيه ، وبإرادة المسلمين . ولن يكون لخليفته على المسلمين إلا ما كان
لأبي بكر ، ولن تكون حكومته إلا كما كانت حكومة أبي بكر .

مشاورته أولى
الرأي في استخلاف
عمر بن الخطاب

من ذا تراه يستخلف ؟ لقد عجم عيدان من حوله من أولى الرأي جميعاً
في عهد النبي ، وقد عجم عيدانهم مدة خلافته . وهو اليوم أشد ثقة بأن عمر
ابن الخطاب خير من يع خلفه . لكنه إن فرض ذلك على المسلمين فقد يثقل
أمره عليهم ، وقد يبرمون به . لذلك دعا عبد الرحمن بن عوف وقال له : أخبرني
عن عمر بن الخطاب . قال عبد الرحمن : ما تسألني عن أمر إلا وأنت أعلمنا
به . قال أبو بكر : وإن . فقال عبد الرحمن : يا خليفة رسول الله ، هو والله
أفضل من رأيك فيه من رجل ، ولكن فيه غلظة . قال أبو بكر : ذلك لأنه يراني
رقيقاً ، ولو أفضى الأمر إليه لترك كثيراً مما هو عليه . ويا أبا محمد قدر رفقته
فرأيت أنه إذا غضبت على الرجل في الشيء أراني الرضا عنه ، وإذا لبت له
أراني الشدة عليه . وسكت هنيهة ثم قال : لا تذكر يا أبا محمد مما قلت لك
شيئاً .

ودعا الصديق عثمان بن عفان بعد عبد الرحمن بن عوف ، وقال له :

يا أبا عبد الله أخبرني عن عمر . قال عثمان : أنت أخبر به . فقال : على ذلك يا أبا عبد الله ! قال عثمان : اللهم علمي به أن سريره خير من علانيته ، وأنه ليس فينا مثله . قال أبو بكر ؛ يرحمك الله يا أبا عبد الله ! والله لو تركته ما عدوتك ! لا تذكرن مما قلت لك ولا مما دعوتك له شيئاً .

ولم يكتف أبو بكر بمشاورة عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان ، بل شاور كذلك سعيد بن زيد وأسيد بن حضير وغيرهما من المهاجرين والأنصار . وسمع بعض أصحاب النبي بمشاورات أبي بكر وأنه يريد استخلاف عمر ، فأشفقوا من شدة ابن الخطاب وغلظته أن يفرق ذلك كلمة المسلمين ، فاجتمع رأيهم على أن يهيبوا بأبي بكر ليرجع عن عزه . واستأذنوا فدخلوا عليه ، فقال طلحة ابن عبيد الله : « ما أنت قائل لربك إذا سألك عن استخلافك عمرأ علينا ، وقد رأيت ما يلقى الناس منه وأنت معه ، فكيف به إذا خلا بهم بعد لقاءك ربك ؟ » . هنالك غضب أبو بكر وصاح بقومه والمرض يهزه : أجلسوني ! فلما أجلسوه وجّه الحديث إلى القوم الذين دخلوا عليه فقال : « أبالله تخوفوني ! خاب من تزود من أمركم بظلم ! أقول ؛ اللهم استخلفت على أهلك خير أهلك » ، ثم اتجه إلى طلحة فقال له : « أبلغ عني ما قلت لك من وراءك » .

اعتراض
المعارضين على
استخلاف عمر

واضطجع أبو بكر وقد هدّه هذا الحوار ، فانصرف عنه القوم لم يبق منهم إلا عبد الرحمن بن عوف ، وقيل بل خرج عبد الرحمن معهم ثم عاد إليه صبح اليوم التالي ، وقال يحميه وقد جلس إلى جانب سريره : « أصبحت والحمد لله بارئاً » . قال أبو بكر . « أترأه ؟ » . قال : نعم ! فسكت أبو بكر وسكت عبد الرحمن هنيهة ثم تحدث الصديق وكأنما عنّاه ما حدث بالأمس : « إني ولّيت أمركم خيركم في نفسي ، فكلكم وريم أنفه من ذلك يريد أن يكون الأمر له دوني » . واستطرد في حديث أحس معه عبد الرحمن بما يغص نفس الخليفة من ألم لحديث القوم ، فقال له : « خفّض عليك رحمتك الله فإن هذا يهيبك . إنما الناس في أمرك بين رجلين ؛ إما رجل رأى ما رأيت فهو معك ، وإما رجل خالفك فهو مشير عليك . وصاحبك كما تحب ، ولا نعلمك أردت إلا خيراً ،

ولم تزل صالحاً مصلحاً .

كتاب أبي بكر
باستخلاف عمر

واطمان أبو بكر إلى استخلاف عمر ، فدعا عثمان بن عفان ، وكان يكتب له فقال له اكتب ، وأملاه : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما عهد أبو بكر ابن أبي قحافة في آخر عهده بالدنيا خارجاً منها وعند أول عهده بالآخرة داخلها فيها ، حيث يؤمن الكافر ، ويوقن الفاجر ، ويصدق الكاذب . إني استخلفت عليكم بعدى عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا . وإني لم آله ورسوله ودينه ونفسي وإياكم خيراً . فإن عدل فذلك ظني به وعلمي فيه ، وإن بدّل فلكل امرئ ما اكتسب من الإنثم . والخير أردت ، ولا أعلم الغيب . وسيعلم الذين ظلموا أيّ متقلب ينقلبون . والسلام عليكم ورحمة الله » . ثم ختم الكتاب .

وتذهب بعض الروايات إلى أن أبا بكر أملى عثمان حتى إذا بلغ « إني استخلفت عليكم » أغشى عليه قبل أن يملأ اسم عمر بن الخطاب ، فكتب عثمان في غيبوبة أبي بكر « إني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ولم آلكم خيراً » ثم أفاق أبو بكر فقال : اقرأ على ، فقرأ عليه فكبر أبو بكر وقال : « أراك خفت أن يختلف الناس إن اختلفت نفسي في غشيتي » ! . قال عثمان : « نعم » وأقر الصديق ما كتب ، وقال له : « جزاك الله خيراً عن الإسلام وأهله » !

خشى أبو بكر مع ذلك كله أن يختلف الناس من بعده ، فأشرف من حجرة بداره على الناس بالمسجد وامرأته أسماء بنت عميس ممسكته موشومة اليدين ، وقال يخاطب من بالمسجد جميعاً : « أترضون بمن أستخلف عليكم ، فإنني والله ما ألوت من جهد الرأي ولا وليت ذا قرابة ، وإني قد استخلفت عمر ابن الخطاب ، فاسمعوا له وأطيعوا » : فقالوا . « سمعنا وأطعنا » .

وصية أبي بكر
لعمر بن الخطاب

وفي بعض الروايات أن عثمان خرج إلى الناس بعد أن أملى عليه أبو بكر وصيته وختمها ، فأبرز لهم الكتاب مختماً وقال لهم : أتبايعون لمن في هذا الكتاب ؟ قالوا : نعم ، وبايعوا ابن الخطاب . فلما بايع الناس دعا أبو بكر

عمر فأوصاه بما أوصاه به ، على تعبير ابن سعد في الطبقات (١) .

وإذ فرغ أبو بكر من استخلاف عمر واطمأنت نفسه على مصير المسلمين من بعده جعل يحاسب نفسه على ما قدم . روى عن عبد الرحمن بن عوف أنه كان يهون على أبي بكر عِلَّتُهُ وما يدور بخاطره من أمر المسلمين ، ويذكر له أنه لا يأسى على شيء من الدنيا ، فقال أبو بكر : « أَجَلٌ لِي لا آسى على شيء من الدنيا إلا على ثلاث فعلتُهن وددتُ أني تركتُهن ، وثلاث تركتُهن وددتُ أني فعلتُهن ، وثلاث وددتُ أني سألتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهن . فأما الثلاث اللاتي وددتُ أني تركتُهن ، فوددتُ أني لم أكشف بيت فاطمة عن شيء وإن كانوا قد غلَّقوه على الحرب (٢) . ووددتُ أني لم

الصديق يحاسب نفسه على ما فعل وما ترك وما نسي أن يسأل عنه رسول الله

(١) أوردت بعض الروايات نص هذه الوصية ، وهو ما يأتي : « إني مستخلفك من بعدي وموصيك بتقوى الله . إن الله عملاً بالليل لا يقبله بالنهار ، وعملاً بالنهار لا يقبله بالليل . وإنه لا تقبل نافلة حتى تؤدي الفريضة . فإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق في الدنيا وثقله عليهم . وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يكون ثقيلاً . وإنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل وخفته عليهم . وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يكون خفيفاً . إن الله ذكر أهل الجنة فذكرهم بأحسن أعمالهم وتجاوز عن سيئاتهم ، فإذا ذكرهم قلت إني أخاف ألا أكون من هؤلاء . وذكر أهل النار فذكرهم بأسوأ أعمالهم ولم يذكر حسناتهم ، فإذا ذكرتهم قلت إني لأرجو ألا أكون من هؤلاء . وذكر آية الرحمة مع آية العذاب ليكون العبد راغباً راهباً ، لا يتمنى على الله غير الحق ولا يلقي بيده إلى الهلكة . فإذا حفظت وصيتي فلا يكن غائب أحب إليك من الموت وهو آتيك ، وإن ضيقت وصيتي لم يكن غائب أبغض إليك من الموت ولست بمعجز الله » . وقيل إن عمر لما خرج من عند أبي بكر رفع اليق يديه وقال : « اللهم إني لم أرد بذلك إلا صلاحهم وخفت عليهم الفتنة فعملت فيهم بما أنت به أعلم ، واجتهدت لهم رأياً فوليت عليهم خيراً وأقوامهم عليهم وأحرصهم على ما أرشدهم . وقد حضروا من أمرك ما حضر فأخلفني فيهم ، فهم عبادك ونواصيهم بيدك . أصلح اللهم واليهم ، واجعله من خلفائك الراشدين ، وأصلح له رعيته » ! .

وليس يسيراً علينا أن نثبت من صحة الرواية في الوصية ولا في الدعاء . بل لعل لمن شاء أن يرتاب في نسبة بعض ما انطوى عليه إلى الصديق رضي الله عنه . وحسبنا أن نذكر عبارته الأخيرة في الوصية : « اجعله من خلفائك الراشدين » ونذكر إلى جانبها إنكاره على من دعاه « خليفة الله » وقوله : ولكني خليفة رسول الله ، لتبين وجه الحجة لمن يرتاب . فإذا أضفت إلى ذلك ما في تاريخ أبي بكر من اختلاف الروايات ومن ضعفها كان حقاً علينا أن نتلقى ما يروى عنه في شيء كثير من الخبر .

(٢) لا يذكر الذين يتكرون تخلف على عن البيعة هذه العبارة . ولا يذكر بعض الرواة ما يقال من أن أبا بكر ود أن يسأل رسول الله في أمور منها هل للأَنْصَار حق في ولاية الأمر .

أكن حرق الفجاءة السلمي وأنى كنت قتلته سريحا^(١) أو خليته نجيحاً .
 ووددت أنى يوم سقيفة بنى ساعدة كنت قدفت الأمر فى عنق أحد الرجلين
 — يريد عمراً وأبا عبيدة — فكان أحدهما أميراً وكنت وزيراً . وأما اللاتى تركتهن ،
 فوددت أنى يوم أتيت بالأشعث بن قيس أسيراً كنت ضربت عنقه فإنه تخيل
 إلى أنه لا يرى شراً إلا أعان عليه . ووددت أنى حين سيرت خالد بن الوليد إلى
 أهل الردة كنت أقمت بذى القصة ، فإن ظفر المسلمون ظفروا ، وإن هزموا
 كنت بصدد لقاء أو مدد . ووددت أنى كنت إذ وجهت خالد بن الوليد إلى
 الشام كنت وجهت عمر بن الخطاب إلى العراق ، فكنت قد بسطت يدي
 كليهما فى سبيل الله — ومد يديه . ووددت أنى كنت سألت رسول الله صلى الله
 عليه وسلم لمن هذا الأمر فلا ينازعه أحد . ووددت أنى كنت سألته : هل
 للأنصار فى هذا الأمر نصيب ؟ ووددت أنى كنت سألته عن ميراث ابنة الأخ
 والعمة فإن فى نفسى منهما شيئاً » .

لم يكن ذلك كل ما اختلجت به نفس أبى بكر وما دار بخاطره أثناء
 مرضه . فأنت تذكر أنه قد ترك التجارة ليفرغ لما يُصلح شؤون المسلمين ،
 وأن أصحابه جعلوا له من بيت المال ما يُصلح به نفسه وعياله . فلما رأى أنه
 مشف على الموت لم تطب نفسه بما أخذ من بيت المال ، بل قال : « ردوا ما عندنا
 من مال المسلمين فإنى لم أصب من هذا المال شيئاً ، وإن أرضى التى بمكان
 كذا وكذا للمسلمين بما أصبت من أموالهم » . واستخلص عمر ثمن هذه الأرض
 ورده على بيت المال تنفيذاً لأمر أبى بكر ، وجعل يقول : « يرحم الله أباً بكر !
 لقد أحب ألا يدع لأحد بعده مقالا ! » .

نزول أبى بكر
 للمسلمين عما أخذ
 من بيت مال
 المسلمين

وفى رواية أن عمر قال هذه العبارة لأهل أبى بكر حين أبلغوه مشيئته
 فى هذا الأمر ثم أردفها بقوله : « وأنا والى الأمر من بعده ، وقد رددتها
 عليكم » .

وتجربى رواية ثالثة بأن أباً بكر توفى وليس عنده دينار ولا درهم ،

(١) السريح ، السهل ، أو العجلة .

ولإنما ترك عبداً كان يحمل صبياناه ، وناضحاً يسقى^(١) بستاناً له ، وقطيفة قيمتها خمسة دراهم ، وقد أمر بحملها إلى عمر بعد أن يُفرغ منه . فلما حملت إلى عمر بكى وقال : « لقد أتعب أبو بكر من بعده تعباً شديداً ! » .

ولسنا نثق بصحة هذه الرواية وإن كانت البيئات قائمة على أن أبا بكر إن كان قد ترك شيئاً بعده فإنما ترك غير كثير . فقد أوصى بخمس ماله وقال : « آخذ من مالى ما آخذ الله من فىء المسلمين » ، أو قال : « لى من مالى ما رضى ربه من الغنيمة » . ولعل بعضهم ودّ لو أن أبا بكر أوصى بأكثر من الخمس ، فأجابه : « لأن أوصى بالخمسة أحب إلى من أن أوصى بالربع ، ولأن أوصى بالربع أحب إلى من أن أوصى بالثلث ، ومن أوصى بالثلث فلم يترك شيئاً » . فلو أن أبا بكر لم تكن له تركة وصح ما روى عن عائشة أنها قالت : « ما ترك أبو بكر ديناراً ولا درهماً ضرب الله سكتته » ، لما أوصى بالخمسة ؛ ولا بما دون الخمس ؛ فإنما يوصى من يملك شيئاً وإن قلّ .

وكان أبو بكر قد وهب لعائشة أرضاً بالعالية ، كان النبيّ أعطاه إياها ، فأصلحها وغرس فيها ثم جعلها لابنته أم المؤمنين . فلما حضر وعائشة تمرضه جلس فشهّد ثم قال : « يا بنية ، إن أحب الناس غنى إلى بعدى أنت ، وإن أعز الناس فقراً على بعدى أنت . وإني كنت نحلّتك أرضى التى تعلمين ، وأنا أحب أن تربيها على فيكون ذلك قسمة بين ولدى على كتاب الله ؛ فإنما هو مال الوارث ، وهما أخواك وأختاك » . ولم يكن لعائشة غير أخت واحدة ، فسألت أباهما فى ذلك فقال : « ذو بطن ابنة خارجة فإني أظنها جارية » .

أبو بكر يسترد ما وهب لعائشة ابنته ليكون قسمة بين ولديه وبنتيه

فكّر أبو بكر أثناء مرضه فيمن يخلّقه على المسلمين ، وفكر فى رد المال الذى جعلوه له حين خلافته ، وفكر فيما يوصى به من تركته ، ونكر فيما كان نحاه ابنته عائشة ليرده على ورثته . فكر فى هذا كله شديد الحرص على أن يدع هذه الدنيا بريئاً ، وعلى أن يلقى الله وقد ألقى عن نفسه كل ما يخشى أن يؤاخذ به . فلما اطمأن إلى ذلك بدأ يفكر فى الموت وفى الأهبة له ، فأوصى أن

(١) الناضح : البعير أو الثور أو الحمار الذى يستقى عليه الماء . وفى بعض الروايات لقحة « بدل » ناضح « والقحة : الناقة القريبة العهد بالتاج .

يَكْفَنُ فِي ثَوْبَيْنِ لَهُ كَانَ يَلْبَسُهُمَا وَقَالَ : « كَفَنُونِي فِيهِمَا فَإِنِ الْحَيَّ أَحْجَجَ لِلْجَدِيدِ مِنَ الْمَيِّتِ » (١). وَأَوْصَى أَنْ تَغْسَلَهُ امْرَأَتُهُ أَسْمَاءُ بِنْتُ عَمِيْسَ ، فَإِنِ لَمْ تَسْتَطِعْ اسْتَعَانَتْ بِعَبْدِ الرَّحْمَنِ ابْنِهِ . وَإِنَّهُ لَنِي شُغْلٌ بِهَذِهِ الْأُمُورِ إِذْ أَقْبَلَ الْمُثْنَى مِنَ الْعِرَاقِ فَأُذِنَ الصَّدِيقُ لَهُ ، فَلَمَّا طَلَبَ مِنْهُ أَنْ يُسَمِّدَهُ بِمَنْ عَادَ إِلَى الْإِسْلَامِ مِنْ أَهْلِ الرَّدَةِ أَوْصَى عُمَرُ أَنْ يَفْعَلَ وَأَلَّا يُشْغَلَ بِوَفَاتِهِ عَنْ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ .

وَبَدَأَ أَبُو بَكْرٍ يِعَالِجُ سَكْرَاتِ الْمَوْتِ وَعَائِشَةُ ابْنَتُهُ إِلَى جَانِبِهِ ، فَلَمَّا رَأَتْهُ كَذَلِكَ تَمَثَّلَتْ بِهَذَا الْبَيْتِ مِنْ قَوْلِ حَاتِمٍ :

لَعَمْرُكَ مَا يُغْنِي الثَّرَاءُ عَنِ الْفَقْرِ
إِذَا حَشَرَجَتْ يَوْمًا وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ
فَنَظَرَ الصَّدِيقُ إِلَيْهَا كَالْغَضَبَانِ ثُمَّ قَالَ : لَيْسَ كَذَلِكَ يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ ،
وَلَكِنْ : « وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ » .
وَلَمَّا ثَقُلَ جَالَسَتْ عِنْدَ رَأْسِهِ وَتَمَثَّلَتْ :

وَكُلَّ ذِي إِبِلٍ مُورِوثُ وَكُلَّ ذِي سَلْبٍ مُسْلُوبُ
وَكُلَّ ذِي غَيْبَةٍ يُوُوبُ وَغَائِبُ الْمَوْتِ لَا يُوُوبُ

وَقِيلَ إِنَّ أَبَا بَكْرٍ هُوَ الَّذِي تَمَثَّلَ بِهِذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ ، وَأَنْ آخَرُ مَا تَكَلَّمَ بِهِ
« رَبِّ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقِّقْنِي بِالصَّالِحِينَ » .

وَقَبَضَ أَبُو بَكْرٍ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ لِاحْدَى وَعِشْرِينَ لَيْلَةً خَلَّتْ مِنْ شَهْرِ
جُمَادَى الْآخِرَةِ لِلْسَّنَةِ الثَّلَاثَةِ عَشْرَةَ لِلْهِجْرَةِ (٢٢ أَوْغُسْطُسُ سَنَةِ ٦٣٤ م) ، وَهُوَ
فِي الثَّلَاثَةِ وَالسِّتِينَ مِنْ عُمُرِهِ . تَوَفَّى مَسَاءً بَعْدَ مَا غَابَتِ الشَّمْسُ ، وَدُفِنَ لَيْلًا ،
وَتَوَلَّتْ زَوْجُهُ أَسْمَاءُ بِنْتُ عَمِيْسَ غَسَلَهُ وَعَاوَنَهَا ابْنُهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ إِذْ كَانَ يَصُبُّ

(١) كَثُرَتْ الرِّوَايَاتُ فِي وَصِيَةِ أَبِي بَكْرٍ بِتَكْفِينِهِ ، وَكُلُّهَا مَعَ ذَلِكَ مَنْشُوبَةٌ لِعَائِشَةَ ، فَهِيَ
أَنَّهُ كَانَ عَلَيْهِ ثَوْبٌ فَقَالَ : إِذَا أَنَا مِتُّ فَاغْسِلُوا ثَوْبِي هَذَا وَضَمُّوا إِلَيْهِ ثَوْبَيْنِ جَدِيدَيْنِ وَكَفَنُونِي
فِي ثَلَاثَةِ أَثْوَابٍ قَالَتْ عَائِشَةُ : أَلَا نَجْعَلُهَا جَدِّدًا كُلَّهَا ؟ فَقَالَ : لَا ! إِنَّمَا هِيَ لِلْمَهَلَةِ ، الْحَيُّ أَحَقُّ
بِالْجَدِيدِ مِنَ الْمَيِّتِ . وَمِنْهَا أَنَّ أَبَا بَكْرٍ سَأَلَ عَائِشَةَ فِي كَيْفِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ،
قَالَتْ : فِي ثَلَاثَةِ أَثْوَابٍ . قَالَ اغْسِلُوا ثَوْبِي هَذَيْنِ وَابْتِاعُوا لِي ثَوْبًا آخَرَ . قَالَتْ : يَا أَبَتِ إِنَّا
مُوسِرُونَ . قَالَ : أَيْ بَنِيَّةُ ! الْحَيُّ أَحَقُّ بِالْجَدِيدِ مِنَ الْمَيِّتِ ، وَإِنَّمَا هِيَ لِلْمَهَلَةِ وَالصَّدِيدِ . وَثُمَّ رَوَايَاتُ
أُخْرَى أَوْرَدَهَا ابْنُ سَعْدٍ فِي الطَّبَقَاتِ . (الْمَهَلَةُ ، مِثْلَةُ الْمَيِّمِ : التَّيِّجِ وَالصَّدِيدِ) .

الماء . ثم إنه حمّله على السرير الذى حُمِّل عليه رسول الله إلى المسجد ليدفن كما أوصى إلى جواره صلى الله عليه وسلم فى بيت عائشة .

ووضع الجثمان فى المسجد بين القبر والمنبر ، وتولى عمر صلاة الجنازة فكبّر أربعاً ، ثم نُقِلَ الجثمان إلى القبر ودخل معه عمر وعثمان وطلحة وعبد الرحمن ابن أبي بكر . وأراد عبد الله بن أبي بكر أن يدخل ، فقال له عمر : « كُفيت » . ودفن أبو بكر فى حفرة حُفرت له إلى جنب النّبي ، وجعل رأسه إلى كتف رسول الله ، وألصق اللحد باللحد . فلما أهالوا عليه التراب خرجوا وقد دعوا خليل رسول الله وصفيّه بعد أن جمع بينهما الموت ، فدعوا أقرب الناس إلى قلب رسول الله وأحبهم إليه وآثرهم عنده ، وأشدهم إيماناً بالله ورسوله . وقد ارتجّت المدينة لوفاة أبي بكر ، وتولّى الناس دهش كدهشهم يوم قبض رسول الله ، وأقبل علىّ بن أبي طالب مسرعاً باكياً حتى وقف بالباب فقال :

« رحمك الله يا أبا بكر ! كنت والله أول القوم إسلاماً ، وأخلصهم إيماناً ، وأشدهم يقيناً ، وأعظمهم غنى ، وأحفظهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحدهم على الإسلام ، وأحماهم عن أهله ، وأنسبهم برسول الله خُلُقاً وفضلاً وهديّاً وسمّاً ، فجزاك الله عن الإسلام وعن رسول الله وعن المسلمين خيراً . صدّقت رسول الله حين كذّبه الناس ، وواسيته حين بخلوا ، وقمت معه حين قعدوا ، وسمّاك الله فى كتابه صدّيقاً فقال : « والَّذِي جَاءَ بِالصُّدُقِ وَصَدَّقَ بِهِ » . يريد محمداً ويريدك . كنت والله للإسلام حصناً ، وللكافرين ناكباً . ولم تَضِلْ حُجَّتَكَ ، ولم تضعف بصيرتك ، ولم تجبُنْ نفسك ، كالجبل لا تحركه العواصف ، ولا تزيله القواصف . كنت كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ضعيفاً فى بدنك ، قوياً فى دينك ، متواضعاً فى نفسك ، عظيماً عند الله ، جليلاً فى الأرض ، كبيراً عند المؤمنين . لم يكن لأحد عندك مطمع ولا هوى ؛ فالضعيف عندك قوى ، والقوى عندك ضعيف ، حتى تأخذ الحق من القوى ، وتأخذه للضعيف . فلا حرمنّا الله أجرك ، ولا أضلنا بعدك ! » .

تأبين على بن أبي طالب أبا بكر

تأبين عائشة
أم المؤمنين
أباها

وَأَبَتْهُ ابْنَتُهُ عَائِشَةُ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَتْ : « نَصَرَ اللَّهُ يَا أَبْتَ وَجْهَكَ ،
وَشَكَرَ لَكَ صَالِحَ سَعْيِكَ ؛ فَقَدْ كُنْتَ لِلدُّنْيَا مَذْلاً بِإِدْبَارِكَ عَنْهَا ، وَلِلْآخِرَةِ مَعِزّاً
بِإِقْبَالِكَ عَلَيْهَا . وَلَئِنْ كَانَ أَعْظَمُ الْمَصَائِبِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
رِزْقُكَ ، وَأَكْبَرُ الْأَحْدَاثِ بَعْدَهُ فَقَدْ كُنْتَ ، إِنْ كَتَابَ اللَّهُ عِزَّ وَجْهِ لِيَعِيدُنَا
بِالصَّبْرِ عَنْكَ حَسَنَ الْعَوَظِ . وَأَنَا مَتَنَجِّزَةٌ مِنْ اللَّهِ مَوْعِدُهُ فَيْكَ بِالصَّبْرِ عَنْكَ ،
وَمُسْتَعِينَةٌ كَثْرَةَ الْاسْتِغْفَارِ لَكَ . فَسَلِمَ اللَّهُ عَلَيْكَ ، تَوَدِّعُ غَيْرَ قَالِيَةِ لِحْيَاتِكَ ،
وَلَا زَارِيَةٍ عَلَى الْقَضَاءِ فَيْكَ » .

تأبين عمر
ابن الخطاب

وَكَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ أَوْجَزَ فِي الْقَوْلِ ، وَكَأَنَّمَا عَقَدَ الرِّزْقَ لِسَانَهُ . قَالَ حِينَ
دَخَلَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ بَعْدَ مَوْتِهِ : « يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ ! لَقَدْ كَلَّفْتَ الْقَوْمَ بَعْدَكَ
تَعَبًا وَلَيْتَنَهُمْ نَصَبًا . فَهِيَاهُ مِنْ شَقِّ غُيَّابِكَ ، فَكَيْفَ لِلْحَاقِّ بُكَ » .
وَتَدَاوَلَتْ أَنْبَاءُ الْوَفَاةِ حَوَاضِرَ الْعَرَبِ وَبَوَادِيهَا ، فَهَزَّتْ كُلُّ نَفْسٍ وَأَسْبَلَتْ
الدَّمْعُ مِنْ كُلِّ عَيْنٍ ؛ وَاضْطَرَبَ أَهْلُ مَكَّةَ لِسَاعِهَا ، وَبَلَغَ اضْطِرَابُهُمْ سَمْعَ
أَبِي قُحَافَةَ فَسَأَلَ : مَا هَذَا ؟ قِيلَ : تُوُفِيَ ابْنُكَ . قَالَ : رِزْقُ جَلِيلٍ ! مَنْ قَامَ
بِالْأَمْرِ بَعْدَهُ ؟ قَالُوا : عُمَرُ . فَقَالَ : صَاحِبِهِ ، وَلَمْ يَزِدْ . وَأَرَادُوا أَنْ يَرُدُّوا عَلَيْهِ
حَقَّهُ مِمَّا تَرَكَ أَبُو بَكْرٍ فَأَبَى وَقَالَ : بَنُوهُ أَحَقُّ بِهِ . وَمَا كَانَ لِهَذَا الشَّيْخِ الْفَانِي
بَعْدَ هَذَا الرِّزْقِ الْجَسِيمِ إِلَّا أَنْ يَلْحَقَ ابْنُهُ فِي جَوَارِ اللَّهِ ، فَتُوُفِيَ بَعْدَ سِتَّةِ أَشْهُرٍ
مِنْ وَفَاتِهِ .

أَفْتَدَلَ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ الْوَجِيزَةُ الَّتِي نَطَقَ بِهَا أَبُو قُحَافَةَ عَلَى أَنَّهُ كَانَ أَجْمَلَ
الْعَرَبِ صَبْرًا لِقَضَاءِ اللَّهِ فِي خَلِيفَةِ رَسُولِ اللَّهِ ؟ ! أَمْ أَنْ جَزَعَهُ لَوْفَاةِ ابْنِهِ هُوَ الَّذِي
أُسْكَنَتْهُ ، كَمَا أَنَّهُ هُوَ الَّذِي عَجَلَ بِهِ إِلَى لِقَاءِ رَبِّهِ ؟ ! مَا نَحْسِبُ أَبًا يَتَجَسَّأَدُ
لِلْمَصَابِ فِي ابْنِهِ إِلَّا تَجَسَّمَا ، وَلَئِنْ تَقَدَّمتْ بِهِ السَّنُ وَأَدْرَكَهُ الْهَرَمُ . لِذَلِكَ
كَانَ حُزْنُ أَبِي قُحَافَةَ غَيْرَ حُزْنِ سَائِرِ الْعَرَبِ . لَقَدْ حُزِنَ الْعَرَبُ إِشْفَاقًا مِمَّا
يُخْبِئُهُ الْغَيْبُ ، بَعْدَ أَنْ غَيَّبُوا فِي التَّرَابِ رِجَالًا كَانَ الْبِرُّ بِهِمْ ، وَالْعُطْفَ عَلَيْهِمْ ،
وَالْإِنْكَارَ الذَّاتِ فِي سَبِيلِهِمْ ، وَكَانَ إِلَى ذَلِكَ مُوَفِّقًا كُلَّ التَّوْفِيقِ فِي وِلَايَةِ أَمْرِهِمْ
وَسِيَاسَةِ دَوْلَتِهِمْ . أَمَّا أَبُو قُحَافَةَ فَحُزِنَ لِأَنَّهُ أَعَزَّ أَجْوَاءَ نَفْسِهِ عَلَيْهِ ذَهَبُ ، فَانْهَدَ
رُكْنُهُ وَتَدَاعَتْ حَيَاتُهُ .

وفدح الخطب أم المؤمنين عائشة ، فأقامت النوح على أبيها وشاركتها
أخته أم فروة وزوجاته أسماء بنت عميس وحبيبة ابنة حارثة ومن اجتمع إليهن
من نساء المدينة . فلما بلغ عمر ما يصنعن جاء إلى بيت عائشة ونهاهن عن النواح
فلم ينتهين . فقال هشام بن الوليد : ادخل عليهن فأخرج إلى أم فروة
ابنة أبي قحافة أخت أبي بكر . وسمعت عائشة قول عمر فقالت لهشام : إني
أخرج عليك بيتي . قال عمر : ادخل فقد أذنت لك . ودخل هشام فأخرج
أم فروة إلى عمر ، فعلاها بالدرة فضربها ضربات وهو يقول : تُردن أن
يعذب أبو بكر ببكائك ! إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الميت
يعذب ببكاء أهله عليه » . وتفرق النوائح حين رأين ما أصاب أم فروة ، ولم
تستطع عائشة أن تحول بين عمر وما أراد .

ولعل عمر قد أزعجه هذا النوح لشدة جزعه على أبي بكر . فليس أوجع
لنفوسنا من نوح النسوة على ميت نحبه ويحز الألم في قلوبنا لفراقه . وحق لعمر
ولكل مسلم أن يشتد يومئذ جزعه . بل إننا اليوم لنشاركهم في حزنهم
وفيما كان من مخاوفهم ، مع علمنا بما أفاء الله على المسلمين في عهد عمر من
نصر ، وما أراد من فضله أن يتوج به سياسة أبي بكر من نجاح وفوز . فلم
يمر الإسلام منذ هاجر النبي إلى المدينة بمثل ما مر به في عهد الصديق من
محنة ، ولم تسم نفوس المسلمين فوق البأس والضراء وحين البأس سموها بفضل
إيمانه وعزمه . لقد امتحن الله المؤمنين في خلافته فأحسنوا البلاء ، واجتاز الدين
الناشئ بفضل إيمان الخليفة وعزمه مناطق الأعراف ، صلباً قوياً الحياة ،
كفيلاً بأن يظل العالم بلواء التقدم والحرية ، وأن يرفعه إلى حضارة سامية هي
وحدها الجديرة بالإنسانية . وقد كانت روح أبي بكر من مصادر هذه القوة .
أفكان الإسلام لا يزال في حاجة إلى فيضها ؟ أم أنه قد تخطى خلال هاتين
الستين وثلاثة الأشهر مناطق الخطر ، فأن له أن يمتد في طمأنينة وأمن ، وأن
يمد إلى الإنسانية المضطربة يوم ذاك يد النجدة ليُقرّ بينها الإخاء والسلام ! ! .

لعلنا لا ندري ماذا كان يحدث لو لم يستخلف أبو بكر عمر ، ولو لم
يخرج على ما أخذ به نفسه ، ولم يصنع ما لم يصنعه رسول الله . فقد كان هذا

العمل الأخير في حياة الصديق حلقة قوية في السلسلة التي رفعت الإسلام مكاناً علياً ، والتي أراد الله أن يتم بها كلمته ويتنصر دينه . تُرى لو أن أبا بكر اختار عثمان أفكان الإسلام ينتشر ما انتشر في عهد عمر ، ثم يزداد في عهد خليفته انتشاره ؟ ! أم أن اختيار عمر كان توفيقاً من الله للصديق فكان الفارق بطل الموقف ورجل الساعة ؟ ! .

لا غناء اليوم في أن نعرض لهذا الأمر بحكم . لكن الذي لا مرية فيه أن رحم الله أبا بكر لا غناء اليوم في أن نعرض لهذا الأمر بحكم . لكن الذي لا مرية فيه أن رحم الله أبا بكر وعمر كانا يتفقان في جوهر النفس على تباين مظاهرها لينا وشدة . صَفَّى الإيمان بالله نفسيهما فتزَهَّتا وطهرتا وسمتا فوق خباثت الدنيا وتجردتا لله ، فكانتا العدل والرحمة والإيثار والحرص على أن ينتصر الحق وتعلو كلمة الله . بذلك كان استخلاف عمر عملاً صالحاً أراد الله به أن يُعزِّز دينه ، وأن يُقر به في الأرض كلمة الحق ، وأن يعلى به منار البِرِّ والتقوى . رحم الله أبا بكر ورضى عنه وألحقه بالصالحين ! .

خاتمة

التنقل المحتوم
للحضارة

ذكرت في تقديم هذا الكتاب أن عهد أبي بكر له ذاتيته الخاصة وتكوينه التام ، وأنه ينطوى على عظمة نفسية تثير الدهشة ، بل الإعجاب والإجلال . ولعل القارئ الذى بلغ من تلاوة الكتاب هذه الخاتمة ، ووقف على ما تمَّ خلال هذا العهد القصير من جليل الأعمال ، يرى رأى فيما ذكرت ، ويقف لذلك معى ملياً يستخلص من هذا العهد عبرته البالغة ، ليرى كيف تنتقل حضارة الأمم من حال إلى حال بتفاعل عناصر الاجتماع خلال الأجيال والعصور ، فإذا جاء الأجل الذى خطه القدر فى لوحه لم يكن من هذا الانتقال بدءاً ، ولم تستطع قوة فى العالم أن تقف فى سبيله أو تحول دونه .

مكانة فارس
والروم من عالم
يومئذ

إمبراطوريتان عظيمتان تمثل إحداهما حضارة الغرب ومقوماتها من عقائد ونظم ومن فن وعلم وتفكير ، وتمثل الأخرى حضارة الشرق ومقوماتها من عقائد ونظم ومن فن وعلم وتفكير . يمثل الروم حضارة اللاتين واليونان والفينيقيين والفراعنة . وتمثل فارس حضارة إيران والهند ومذاهب الشرق الأقصى مجتمعة . تمتد الأولى من أواسط أوروبا بل من غربها الأقصى إلى شرق بحر الروم ثم تتخطاه لتقف عند بادية الشام . وتمتد الأخرى من أواسط آسيا بل من شرقها الأقصى إلى حوض دجلة والفرات ، ثم تتخطاه لتقف عند بادية الشام . وهذه البادية التى تلتقى عندها الحضارتان تمتد بينهما جدداء إلا من قبائل نزلت من شبه جزيرة العرب ، تنتقل فى أرجائها ثم تأوى إلى الروم أو إلى الفرس حيثما يطيب لها العيش ، كما كانت تنتقل فى أرجاء شبه الجزيرة ثم تأوى حيثما يطيب لها المرعى . والإمبراطوريتان تقتتلان فتبهران الأنظار بقوتيهما وعظمتيهما ، لا يسكنن تعاقب القرون من حداثتهما ، ولا تجدان فى غير الحروب وسيلة لإرواء ظمئيهما إلى المجد ، واستكمال حظيهما من الترف والنعيم .

أفأعوزت إحداهما أسباب العيش فكان ذلك سبب ما اتصل بينهما من

حروب أفنت كليهما فيها على القرون ما لا يحصى من مهج ، وبيعت فيها الأرواح ببيع السماح ؟ كلا ! بل كانت الإمبراطوريتان مترعيتين بخيرات البلاد التي تحكمانيها . كانت الروم تنعم بما تغل مصر وسائر ممتلكات قيصر من زراعة وما تنتج من صناعة ، وبما كان لمصر وسائر بلاد الإمبراطورية من تراث ضخم في العلم والأدب والفن . وكانت فارس تنعم بخيرات البلاد الخاضعة لسلطان كسرى ، والتي كانت تمدّها بكل ثمراتها . لكن كل واحدة من الدولتين كانت تزعم لنفسها حقاً في المتاع من نعم الحياة بما لا ينعم به غيرها ، ولا ترى لذلك بأساً بأن تغصب غيرها ما في يده من أسباب هذا المتاع . أليست لها القوة وفي متناولها أسباب البطش ؟ ! وحق القوة بعض ما آمنت وتؤمن به الإنسانية أمماً وأفراداً . ألا يرى أحدنا مواد الترف حاجات ماسة لا غنى له عنها ، ثم لا يغير من رأيه هذا ألا يجد جاره الكفاف لنفسه ولذويه ! . والقوانين تُشرّع دفاعاً عن حق القوة . ذلك بأن القوة هي قوام القانون تنفذه وتازم الناس احترامه . فباسم القانون ينال القوى ما يراه حاجة ماسة لحياته . وباسم القانون وباسم الحضارة تثير الدول الحروب لتبلغ من أسباب الترف ما يكفل المستوى الذي تراه لاثقاً لمكانتها بين سائر الأمم .

الحرب وحق
القوة

لهذا ظلت الإمبراطوريتان تقتتلان سبعة قرون متوالية ، فتهران العالم بقوة بأسهما وسمو حضارتهما . يحالف النصر إحداهما ، ويحالف الثانية تارة أخرى ، فلا تنهيه الهزيمة من هيبة أيهما ؛ لأن الأمم الصغيرة من حولهما كانت ترى دورة الدوائر بينهما ، وترى مغلوب اليوم منهما غالباً غداً ، فتحسب أن القدر فرضهما على الوجود فرضاً ، وأنهما من القوى الثابتة في دورة الكون كالشمس والقمر والكواكب سواء .

وبينما لا تعرف الأمم إلا اسميهما ، ولا تتحدث إلا بفعلهما ، إذا أمة تنهض من حيث لم يكن أحد يتوقع أن تنهض . وأنّى لشبه جزيرة العرب ببواديها الماحلة وصحاريها الجرداء أن تبعث أمة أو تنشئ دولة ! وأنّى لقبائل هذه البادية ، وكل ما تعتمد عليه في حياتها الغزو والسلب ، أن تفكر في حضارة بله أن تقيمها ! ! لقد كان كسرى فارس يسميهم رعاة الإبل والغنم ، وكان قيصر

نهض الأمة
العربية وتغلّبها
على فارس والروم

الروم يصنفهم بالحفاة العبرة الجياع . أفن هؤلاء الرعاة الحفاة تنهض أمة يعبا بها الروم أو يهتم لها الفرس ! .

مع ذلك نهضت هذه الأمة ، فواجهت الأسدين فارس والروم ، وحاربتهمما وتغلبت عليهما . وقد رأيت من خلال هذا الكتاب أن العرب لم يتغلبوا على الأسدين بتفوق في العدد أو في العدد ، وإنما تغلبوا بالعقيدة الثابتة والإيمان الذي لا يتزعزع . وبهذا الغلب نشأت الإمبراطورية الإسلامية التي حملت عبء الحضارة في العالم عشرة قرون تباعاً ، والتي نشرت الإسلام في أنحاء الإمبراطوريتين وفيما وراءهما : في الهند والصين والتركستان وغيرها من ممالك آسيا ، وفي مصر وما وراءها إلى المحيط الأطلنطي من بلاد إفريقية ، وفي عاصمة قسطنطين وفي روسيا وأسبانيا وغيرها من أمم أوروبا .

كيف حدثت
هذه المعجزة

كيف حدثت هذه المعجزة ؟ ! كيف تغلب العرب مع قلة عددهم ، وضعف حضارتهم ، وتأخر علومهم وفنونهم ، على الفرس وعلى الروم ولهم من العدد ومن الحضارة ومن العلوم والفنون ما لا يزال التاريخ يحدّث عنه في إكبار أى إكبار ؟ ! أهى المصادفة التى لا تفسير لها من سنن الكون ؟ ! كلا ! فلو أن ما حدث فى عهد أبى بكر أثمرته المصادفة لما كتب له أن يبقى وأن يتصل على الزمان ، ولوقف الفرس والروم فى وجه العرب فردوهم على أعقابهم . لكن ما حدث فى عهد عمر وعثمان من توغل العرب فى أراضى الإمبراطوريتين العظيمتين والقضاء عليهما ، لا يدع مجالاً للريب فى أن ما حدث كان حتمياً قضت به سنن الكون ، ولذلك اطردها فكانت الحضارة الإسلامية ثمرته . وما كانت المصادفة لتتمخض عن مثل هذه الحضارة التى ازدهرت فى ظل لوائها كل مقومات الحضارة ، فقد اجتمع للحضارة الإسلامية من العلم والأدب والفن وسائر ألوان الثقافة ما حل فى العالم محل الثقافة اليونانية بعلمها وأدبها وفننها وتفكيرها ، وذلك بعد أن كانت اليونان واثرة مصر وأشور والحضارة الإنسانية الأولى جميعاً . لا مفرّ إذن من أن نتلمس لهذه الظاهرة الكونية العظيمة تفسيراً من سنن الكون يكشف لنا عن السر فى قيام هذه الحضارة ، وامتداد سلطاتها فى العالم ، واستقرارها فيه دهرًا طويلاً .

ومن سنن الكون أن الأمم والحضارات يصيبها الهـَرَمُ على نحو ما يصيب الأفراد . فإذا هـَرِمَت وشاخت دب الفساد إلى كيائها ، فأدى إلى انحلالها ، وإلى قيام أمة شابة وحضارة شابة مقامها .

عوامل الفساد
في حياة فارس

أشرت غير مرة في غضون هذا الكتاب إلى عوامل الفساد والاضطراب التي كانت تظهر الحين بعد الحين في فارس وفي الروم . وقد استفحات هذه العوامل في القرن السادس المسيحي واشتد خطرهما ، فكان من أثرهما في فارس أن اضطرب بلاطها ، وانتشرت الدسائس في جوها ، وتنازع الطامعون في عرشها ، واتخذ بعضهم الغدر سلاحه لتولى أمورهما . بذلك فسد الرأس ، فامتد الفساد منه إلى ما دونه ، فكثرت مذاهبها وأحزابها ، وتبلبلت عقائد الناس فيها ، فانكمشوا يتوفرون على رزقهم يكثرونه ، ويلتمسون النبل والجاه عن طريقه . هذا إلى أن الطوائف في فارس كانت كثيرة العدد كثيرة المطامع ؛ تريد الحكم تستذل به رقاب السواد ، وتبلغ باستغلاله كل ما تصبو إليه من أسباب النعمة والمتاع . لذلك انحلت العصبية القومية في الفرس ، وانهارت القوة المعنوية في نفوسهم ، وتدهور مثلهم الأعلى إلى حيث لا يعدو مُتَع الحياة ولينها . طبعيٌّ وذلك شأنها أن يتداعى ركنها ، وأن تضعف مقاومتها ، وبخاصة إذا واجهتها قوة تسمو على الحياة وتتخذ المثل الأعلى شعارها .

وفي حياة الروم ولم يكن أثر هذه العوامل في الإمبراطورية الرومية دونه في فارس . فقد نجمت الثورات فيها لأسباب تتصل بالنزاع بين الفرق المسيحية حينئذ ، وبالنزاع على العرش حينئذ آخر ، فكان ذلك سبب تدهورها وانحلالها . ومع أن جُسُتِنْيَان استطاع أن يردَّ إليها أعظم الاعتبار في نظر العالم يومئذ ، بجلال حكمته ونزاهة عدله وقوة بأسه ، فقد كانت عوامل الانحلال أعمق أثراً من أن يتلافها خلفاؤه ولم يكونوا في مثل حكمته وبأسه . فلما كان أول القرن السابع المسيحي تولى فوكاس عرش الإمبراطورية وساسها بيد من حديد . عند ذلك قام هِرَقْلُ حاكم إفريقيا الرومية بالثورة عليه ، ثم انتهى به الأمر إلى الظفر به وقتله واعتلاء العرش مكانه . وكان الفرس قد غلبوا الروم في نهاية عهد فوكاس وبدء عهد هرقل فلما حانت الفرصة أخذ هرقل بالتأثر منهم ، فحاربهم وغلبهم

ووطد بذلك سلطانه في الإمبراطورية ، حتى لقد خيّل إلى الناس جميعاً أن عهد جستنيان عائد لاحتمال . ثم إنه حاول أن يزيد سلطانه تثبيتاً بالقضاء على أسباب الضعف الناشئة عن اختلاف الفرق الدينية في أرجاء ملكه ، وذلك بتوحيد المذهب المسيحي وفرضه على الناس في جميع أنحاء الإمبراطورية . وليتم غرضه بطش بخصوص المذهب الرسمي في مصر وفي غير مصر ؛ فكان ذلك سبباً في قيام الثورات واندلاع لهيبها ، ثم كان سبباً في ازدياد الضعف الذي حاول هرقل أن يُخلص الإمبراطورية منه^(١) .

كانت هذه العوامل تنخر في عظام الإمبراطوريتين العظيمتين وتنحدر بهما سراعاً إلى مهاوى الشيخوخة . فكان من مقتضيات سنن الكون أن تقوم أمة شابة مقامهما ، توجه العالم وتكيف مصايره . والنجاح مكفول لهذه الأمة ما حملت إلى العالم رسالة يشوق الناس سماعها ، ويرون فيها ما ينقذهم من شرور طالما ناعوا بها ورزحوا تحت أعبائها .

ما كان عالم يومئذ
يتطلع إليه

لم يكن عالم يومئذ يشقى بأسباب الحياة المادية؛ فلم يكن همه الأول رفع مستوى العيش . إنما كانت تُعوز الطمأنينة إلى الحياة والمتاع بالحرية فيها . فقد كان الناس لا يتحركون ولا يسكنون أحراراً في حركتهم وفي سكنهم ، بل كانت العقائد والقوانين السائدة يومئذ تكبلهم بقيود شلت حركتهم وأهدرت حريتهم . لم تقف هذه العقائد والقوانين عند المبادئ العامة التي تكفل للفرد حريته في خل النظام ، وتكفل بذلك للجماعة أن تطوّر إلى ناحية الكمال بجهود أفرادها الأحرار وجماعاتها الطائفة ، بل دخلت القيود مع الفرد دارة وميخدعه ، وآذته في يقظته وفي نومه ، فشلت نشاطه وتفكيره ، وجعلت التحايل وسيلته إلى اتقاء الأذى والفرار من البطش ، وإلى اهتبال الرزق من كل طريق ، والتوسل بسعته وبسطته إلى مكان النبيل والجاه ، نبل البطش وجاه الجبروت . وحيثما قُضى على النشاط الحر للعقل الإنساني ، فذلك النذير بانحلال الأمة وتدهورها ، وبديبب الشيخوخة إلى كيانه .

فالحرية العقلية هي التي طوعت للإنسان منذ أقدم العصور أن ينظر وأن

(١) راجع كتاب فتح العرب لمصر ، الفصل الأول والفصل الثالث عشر .

يلاحظ وأن يعلم وأن يبتكر . أسلافنا الأولون الذين عاشوا في الغابات وحاربوا الحيوان ، إنما استطاعوا محاربته يوم هدتهم حرية الغريزة إلى ابتكار الأدوات التي استعملوها في حروبهم في العصر الحجري والعصور التي تلتها . فلما أقامت الجماعة الإنسانية الأولى على ضفاف النيل وعزنت الزراعة ، ثم عرفت حياة الاستقرار والحضارة أدركت بفطرتها أن لا مفر لها من نظام يكفل لها الأمن وحرية العمل ، وأن لا مفر لنظامها من قواعد ثابتة يراها الجميع ويحترمونها . ولقد هدتهم فطرة الاجتماع الغريزية في الإنسان إلى تجسيد هذه القواعد ، وتقديس ما ظنوه آلهتهم التي ترعاها وتحميها . ثم ما لبثت هذه الجماعة الأولى ، حين سما تفكير الموهوبين من أبنائها إلى ما فوق الغريزة الفطرية ، أن قدّرت معاني العدل والحرية والكرامة الإنسانية . بذلك استيقظ الضمير ، ففتحت للإنسان أبواب التفكير ، فاهتدى من سبيلها إلى العلم وإلى الأدب والفن ، كشف له أسرارها من اختاراتهم الأقدار لمعالجتها ووهبت لهم هبتها . وظل التطور الإنساني يتقدم في هذه الناحية حيناً ويتراجع حيناً آخر في جـزـرٍ ومدٍ . وفي كل حين كانت حرية العقل آية تقدم الإنسان ، وجموده آية -تراجعه . فإذا تحرر العقل استطاع بقوة تفكيره أن يتحكم أو بقدر في قوى الطبيعة . وأن يسخرها لأغراض الإنسان ، وأن يفيد بذلك من هذا التحكم جديداً أرقيه . وإذا جمد العقل وقف تقدم الإنسانية ، فاكتفت بغريزة حفظ النوع تستعجن في كنفها حتى تبتئسها الحرية العقلية إلى التقدم كرة أخرى .

لم يكن بدُّ ، وقد جمدت الإمبراطوريتان فارس والروم ذنب الفساد في كيانهما ، من أمة جديدة تنهض فتدفع العالم إلى الأمام . ترى في أية أمة تستكنُّ هذه القوة الدافعة ، ومتى يتاح لها أن تظهر ؟ ! ذلك أمر كتبه القدر في لوحه ، أو هو ، على تعبيرنا العالمي في هذا العصر ، أمر ثابت في دورة الزمان والمكان للجماعة الإنسانية ثبوت كسوف الشمس وخسوف القمر وظهور المسدّات في دورة الفلك . وقد شاءت الأقدار فألقت على الأمة العربية في

(١) راجع كتاب « فجر الضمير » The Dawn of Conscience تأليف برستد وترجمة الأستاذ سليم حسن .

شبه الجزيرة عبء النهوض بالحضارة المتداعية ، وبعث الحياة في شتى نواحيها . ولهذا اصطفى الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم ، فأوحى إليه دين الحق يبلغه للناس ويدعو إليه بالحجة والموعظة الحسنة ، عن طريق النظر في الكون ، نظراً حراً من قيود الوثنية والمجوسية ومن الجدل العقيم الذي هوت إليه المذاهب المتصارعة في بلاد الروم . وقد حوربت هذه الدعوة في منبتها حرباً اتصلت على السنين ، فلم تعرف هودة ولا صلحاً ، حتى نصر الله دينه وأتم كلمته . وإنما أراد الله لهذه الدعوة أن تنتصر ببساطتها وصفائها وسموها بالكرامة الإنسانية وبالعقل الإنساني إلى المكان اللائق بهما . وبانتصارها قضى على الوثنية في شبه الجزيرة كلها قبل أن يختار رسول الله ما عند الله .

أما وقد قضت الدعوة إلى التوحيد وإلى مبادئ العدل وسمو الخلق على كل ما يخالفها ، فلم يكن لزعماء الردة في بلاد العرب أن يحاولوا إعادة الوثنية . وإنما حاول هؤلاء الزعماء استغلال التوحيد والمبادئ المترتبة عليه لينتشر سلطانهم وتعظم فائدتهم في تجارة الحياة . ولهم من العذر عن ذلك أننا معشر الناس لما نبلغ من سمو الإدراك ما يجعلنا نقيم الحد الفاصل بين الحق لذاته ، والمنافع المادية التي نجنيها من استغلال اسمه والتذرع لخداع الناس بسلطانه . والناس يرون الحق فيبههم لآلاؤه ، ويعششون دون استجلائه في جلال كماله ؛ لأن الضمير الإنساني لا يزال في طفولته ، والنفس الإنسانية لا يزال جوهرها العلوي يختلط بجواهر النقص التي تغشى عليه وتفسد حكمه .

لذلك يؤذى الناس من يدعونهم إلى الحق . ويحتمل الدعاة الصادقون هذا الأذى راضية نفوسهم ما أدى احتمالهم إلى ذبوع الحق وانتشار كآبهم . وكلما علا صوت الحق اشتد في حربه من يخشونه على بسطة رزقهم وسلطان بأسهم . ذلك هو النزاع الذي اتصل على الزمان بين المنافع العاجلة والمبادئ الخالدة ، والذي جعل الحرب مسوغة للقضاء على الباطل ورد كيده إلى نحره .

والضمير الإنساني لا يزال قريباً من طوره الذي كان عليه في القرن السادس المسيحي . فهو لم يشب بعد عن الطوق . لذلك لا تفتأ الحرب تشب لأغراض دون ما قامت حروب الردة وحروب الفتح في العراق والشام لتحقيقه . ترتفع

قيام النبي العربي
في شبه الجزيرة

لماذا يؤذى الناس
من يدعونهم إلى
الحق ؟

طفولة الضمير
الإنساني وآثارها

الصبيحة للحرية والعدل والإخاء ، فيلقى الناس ' بكل سمعهم للمنادى بها ،
ويبدلون حياتهم فداء لها ، وتدوى آلات الدمار لنصرتها .. فإذا وضعت الحرب
أوزارها ، توقع الناس أن تظلمهم المبادئ التي قاتلوا في سبيلها . لكن ما تحقق
من هذه المبادئ لم يزد يوماً على طيف تتبدى وراءه حقيقة نحيفة هي على
نحافتها مبهمة غير واضحة المعالم . ومن ثم بقيت الشرور التي شكها الناس منها تثقل
حتى اليوم كواهلهم ، ولم تفد مبادئ الحرية والعدل والإخاء من تضحيات
الإنسانية إلا قليلاً . أما الثمرة الكبرى للحروب الطاحنة فقد آل معظمها إلى
الذين يؤمنون بحق الجسد في النعمة والمتاع ، والذين يبتغون الجاه والمال ويكثرزون
الذهب والفضة ، ولا يرون بأساً في أن يرووا غلَّتْهم للمتاع وظمأهم للمال بما
أريق من دماء الإنسانية ، وما بذل من مهج وأرواح فداء للعدل والإخاء
والحرية .

وسبب ذلك ما قدمنا من أن الضمير الإنساني لا يزال أدنى إلى الطفولة .
والطفولة كثيرة العثرات . لكن عثرات الطفل لم تصده يوماً عن أن يعود فيمشي
ليعثر من جديد .

وهذه العثرات هي التي تعامه كيف يحفظ توازنه حتى تصل به إلى أن
يسير مستقيماً سوى القامة ، يسرع الخطأ إلى فتوة الشباب ثم إلى حكمة
الرجولة . ولعل عثرة قاسية تكسب الناشئ على وجهه تكون أجدى عليه وأقوى
أثراً في تقويم سيرته . ولقد كانت كبوة فارس والروم من العثرات القاسية التي
صادفت الإنسانية ! لذلك كان قيام الإسلام ونهوض الإمبراطورية الإسلامية
من أقوى البواعث على تقدم الضمير الإنساني إلى ناحية نضجه .

وآية ذلك أن الإسلام إنما استرعى سمع الناس فدانوا به لأنه يصور مشكل
الإنسانية الأعلى ، ويسمو بالحرية وبالكرامة الإنسانية إلى أرفع الذُّرَا . فهو
لا يجعل للناس إلهاً غير الله ، هم عباده وحده جل شأنه ، لا يملك لهم أحد غيره
نفعاً ولا ضرراً ، ولا مثوبة ولا عقاباً . وما يصيبهم في هذه الحياة أو يصيبون
فيها يجزيهم الله عنه الجزاء الأوفى . فليعملوا لآذن مطمئنين إلى حریتهم ،
لا يريدون إلا وجهه . فإذا أصابهم ظالم بمكروه فالويل لظالمهم من ربه . وإذا

استرعى الإسلام
سمع الناس ؟

رأوا منكراً فليزيلاوه ، وليعلموا أن الله من ورائهم محيط .

لماذا اصطفى الله
نبيه من شبه
الجزيرة ؟

لماذا كتب القدر الحكيم منذ الأزل في لوحه ، فاصطفى الله نبيه الكريم
من شبه جزيرة العرب دون غيرها من أرجاء العالم ؟ ! .

ليس في مقدورنا ، ولا في مقدور غيرنا ، أن يقطع برأى حاسم في الجواب
عن هذا السؤال . فنحن جميعاً لم نؤت من العلم إلا قليلاً . لكن ذلك لا يمنعنا
من تلمّس سنن الكون والاجتهاد لإدراك ما يقع بمشيئة الله فيه . وما يقع في
حياة الإنسانية وجماعاتها يخضع لهذه السنن الثابتة كما يخضع لها سائر ما في
الكون مما برأ الله . فمن الحق علينا أن نحاول تفسير الظواهر الاجتماعية على
ضوء هذه السنن ، وإن كنا لا نطمح اليوم ، وعلمنا الإنسانى كما هو ، في أن
نعرف ما يطويه غيب المستقبل للجماعات الإنسانية على النحو الذى نستطيع
أن نعرف به ما سيكون من أمر الأفلاك ودوراتها .

والذى يهديننا إليه الاجتهاد جواباً عن هذا السؤال أن حضارة العالم
استقرت في الأجيال الأولى من حياة الإنسانية ، وإلى القرن السادس المسيحى ،
في مصر وأشور واليونان ورومية ، ثم امتدت منها إلى ما وراءها ؛ وأن العقل
الإنسانى بلغ من النضج في هذه المناطق ما لم يبلغه في غيرها ، مما يسّر للضمير
الإنسانى أن يستيقظ فيها ويزغ فجره . ولذلك وجّهت الإمبراطوريتان فارس
والروم مصاير العالم في ذلك العهد ، ونهضتا بعبء الحضارة فيه . فلما آن لهما
الإمبراطوريتان أن تهرما كانت شبه جزيرة العرب هى المنطقة المستقلة
عنهما ، المتصلة مع ذلك بهما ، المتداخلة فيهما . ومهما يكن من أمر هذا
الهَرَم الذى أصابهما ، فالدعوة إلى المثل الأعلى أدنى إلى أن تستجاب فيهما ، وأن
تمتد منهما إلى ما وراءهما . هذه كلها أحداث كتبت منذ الأزل في لوح القدر ،
فلا غرو أن يكتب معها منذ الأزل أن يقوم الداعى إلى المثل الأعلى في أدنى
الأرض من الإمبراطوريتين وأكثرهما مع ذلك استقلالاً عنهما . فالاستقلال هو
الكفيل بحرية العقل ، وبأن يستجيب الناس آخر الأمر للدعوة إلى الحق .

وكذلك اصطفى الله للقيام بهذه الدعوة نبيّه من أهل شبه الجزيرة ، ومن

بلد هو أكثر بلاد شبه الجزيرة استقلالاً ، وأوفر هذه البلاد لذلك العهد
عزة وكرامة .

ودعا محمد قومه إلى التوحيد وإلى المبادئ التي يتمحق بها مثل الإنسانية
الأعلى ، ثم بلغ دعوته إلى عاهلى الإمبراطوريتين فارس والروم ودعاهما إلى
ما جاء به من الحق . وبذلك أقام الحد الفاصل بين الحق والباطل ، وحذّر
الناس حين دعاهم إلى الحق ممن يخادعون الناس باسمه ، ثم ترك من بعده أصحابه
الذين عزّروه في حياته ونصروه ، والذين أدركوا ما جاء به وامثلوه .

أبو بكر ونضج ضميره
وأنت قد رأيت كيف بلغ أبو بكر من سمو الإدراك لهذه المبادئ ما مكّنه
من أن يقيم في نفسه الحد بين الحق لذاته والمنافع العاجلة التي يسعى إليها
من يخادعون الناس باسم الحق ؛ ورأيت كيف أصرّ على أن ينصر الحق لذاته
ولو قام لنصرته وحده . وإذا بلغ سمو الإدراك من نفّس هذا المبلغ ، فذلك
الدليل على نضج ضمير غاية النضج . ولو أن الإنسانية كلّها بلغت يوماً هذا
النضج لما شبت الحرب بين بنيها ، ولاستجاب الله دعوة الدين يدعونه عند بيته
الحرم : « ربّنا أنت السلام ومنك السلام ، أحيانا ربنا بالسلام ! » .

لا يزال الأمد بعيداً بيننا وبين اليوم الذي تستجاب فيه هذه الدعوة .
فالناس لا يزالون إذا دعوا بالحكمة والموعظة الحسنة إلى غير ما وجدوا عليه
آباءهم جعلوا أصابعهم في آذانهم ، وأخذتهم العزة بالإثم ، وأبوا أن يجادلوا
بالتى هي أحسن ، وحسبوا أن القوة الغاشمة تخفت صوت الحق . ذلك أن
ضميرهم لا يزال في طفولته . والطفل يحسب أنه كلما ضج وعلا ضجيجيه
خضع أبواه لرغائبه وأهوائه . فإذا رأى أبويه يهذبانه ولا يزعجهما ضجيجيه
أذعن وسكن . وذلك ما صنع أبو بكر مع أهل الردّة حين ضجوا وحاولوا
المقاومة . أخذهم بما يجب أن يؤخذوا به ، ففضى على مقاومتهم وعلى
ضجيجهم .

وشاءت الأقدار أن تمهّد لانتشار الإسلام في فارس والروم بانتشار العرب
في بادية الشام ؛ فقد يسّروا لأهل شبه الجزيرة أن ينفذوا إليهم ، وأن يتخطوهم

لغزو الفرس على شاطئ دجلة والفرات وما وراءهما ، ولغزو الروم في الشام وفي مصر إلى السودان .

أنت ترى من ذلك كله أن المعجزة التي حدثت في عهد أبي بكر لم تكن ثمرة المصادفة ، وإنما كانت أمراً محتوماً قضت به سنن الكون التي لا تبدل لها . فلو أن شبه الجزيرة لم تكن تجاور الشام والعراق ، ولو أن اللغة العربية لم تكن لغة القبائل التي استقرت ببادية الشام منذ قرون ، ولو أن الله لم يصطف نبيه في ذلك العهد الذي اشتهر فيه ظمأ العالم لسماع كلمة الحق والاهتداء بنوره ، لو أن ذلك كله لم يكن بلحرت المقادير بغير ما جرت ، ولكان تاريخ الإنسانية غير ما نعرف اليوم ، ولما حلت الحضارة الإسلامية محل حضارة فارس والروم ، بل لاتخذت الحضارة أطواراً أخرى غير التي عرفنا من يومئذ إلى عصرنا الحاضر .

إبراز الأقدار
ملكات الرجال

وإذ شاعت الأقدار أن تتم على الأرض مثل هذه المعجزة مهتدت لها بما رأيت ، وهيات لها أسباب الفوز ، فأبرزت من ملكات الرجال ومواهبهم ما يخطون به في صحف الكون مشيئة القدير الحكيم . لقد رأيت ما صنعه أبو بكر وخالد بن الوليد وعمر بن الخطاب وأمراء الجند المسلمين ، ورأيت كيف اضطلعوا لذلك العهد بأعباء ما كانوا ليضطلعوا بمثلها لولا أن أراد ربك لهذه المعجزة أن تتم وفقاً لسنة . فلولا هذه المشيئة لظل أبو بكر تاجراً ينمو ربحه ويكثر ماله ، ثم تنطوي صفحته ولم تزد مكانته في قومه على زعامة قبيلة تيم بن مرة ، وعلى احتمال الديات والمغارم . ولولا هذه المشيئة لظل خالد بن الوليد فارس بنى مخزوم وفارس قریش ، ولما سما اسمه فاقترن على التاريخ بأسماء الإسكندر الأكبر ، ويوليوس قيصر ، وهانيبال ، وجنكيزخان ، وناپليون ، ولولاها لما أصبح اسم الفاروق عمر بن الخطاب علماً للعدل والرحمة والبأس مجتمعة . فإذا نحن أرخنا اليوم لهم وأشدنا بفعالهم ، وقرننا سمو الدعوة للحق إلى اسم القائد العبقري وجعلنا منهما وحدة على الزمان ، لم نعد بذلك أن نرسم صورة من مشيئة القدر والعوامل التي تهيات لتنفيذها ، والتي أدت إلى انتقال الحضارة هذا الانتقال الذي مهد لعهد جديد في حياة العالم .

الإسلام يدعو
للمثل الأعلى
والسلام

أما وقد ذكرت القائد العبقري خالد بن الوليد، فلأقف الآن وقفة قصيرة أتناول مسألة تناولتها في « حياة محمد ». لكنني أتناولا هنا من غير الناحية التي تناولتها هناك . لقد طالما تحدّث من شاء عن انتشار الإسلام بالسيف . وقد بيّنت في « حياة محمد » أن القرآن ينكر حرب الاعتداء في مواضع كثيرة منه . يقول تعالى : « وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ » . ويقول : « فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ » . وهو يدعو إلى الصلح والصفح والتسامح دعوته لحرية الرأي ولدفاع المؤمن عن عقيدته إن حاول غيره أن يفتنه عنها .

فكيف دفع
أبو بكر المسلمين
للحرب

هذه مبادئ ثابتة في الإسلام يصور بها المثل الأعلى ويدعو الناس إليه . فما بال أبي بكر دفع المسلمين لحرب الردّة وفتح العراق والشام ؟ وما بال أمراء المؤمنين بعده نهجوا في هذا الأمر نهجه وساروا فيه سيرته ؟ لقد كان الصديق أكثر المسلمين اتصالا بالنبيّ وامتنالا لما أمر الله به ونهى عنه . أفلا ينهض ذلك دليلا على أن الإسلام ، وإن أقر مبادئ الرحمة والتسامح والصفح ، لم ينكر على الدعاة إليه أن ينشروه ببطش القوة ! ولذلك غزوا البلاد وحكموها ودعوا أهلها إلى دينهم .

الصديق ينفذ
ما جاء في كتاب
الله

لا شك أن الصديق قد نفّذ في حروب الردّة ما جاء في كتاب الله من قوله تعالى في سورة براءة : « فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ ، فَقَاتِلُوا أَتِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ » . وهو لم يعد ما أمر الله به حين وافق على غزو العراق وغزو الشام . وليس معنى ذلك أن هذا الغزو هو المثل الأعلى الذي دعا الإسلام إليه وجعل السلام غايته ، وإنما معناه أن ما حدث منه هو بعض إملاء الغرائز الإنسانية في ذلك الطور من طفولة الضمير الإنساني ، كما أنه بعض إملاء هذه الغرائز في عصرنا الحاضر حيث الضمير الإنساني لا يزال يتدرّج إلى الصبّا ، فله من الصبا طيشه ونزواته .

وإملاء الغرائز كثيراً ما أدى إلى عثرات كعثرات الطفل في سيره ، ترهقه وتؤله ، ثم تنتهى به ليسير مستقيماً سوى القامة يسرع الخطأ إلى فتوة الشباب وحكمة الرجولة .

الإسلام يقدر
الواقع من غرائز
الإنسانية

والإسلام لم يغفل ، حين صور المثل الأعلى للإنسانية ، أن بلوغ الغاية من هذا المثل إنما يكون حين يبلغ الضمير الإنسانى نُضْجَه . وذلك لا يتم إلا أن تتعاقب عثرات الأجيال ومئاتها حثيثة السعى إليه كما تدركه . لذلك قدر الإسلام الواقع من أمر الإنسانية وما تمليه عليها غرائزها ، ورسم السبيل التي تسلكها لتقرب رويداً رويداً من غايتها . وكما أنك إذ تُربى ولدك ليبلغ ما تريده له من كمال الجسم والعقل لا تَحْمِلْهُ على أن يسير سيرة الرجال ، بل تُرضى أهواء طفولته وصباه حيناً وتكبح هذه الأهواء حيناً آخر ، وكما أنك تصادف أثناء ذلك من صلابة الطفولة والصبا ما قد يقف تقدم ولدك تارة ، وتصادف من مرونته وذكائه ما يسرع بتقدمه تارة أخرى ؛ فإذا رأيته صلباً لم تكسره ، بل لنت له لثلين صلابته ، وإذا رأيته متقدماً أغريته ليتابع تقدمه ويزداد إسرعه فيه ، وربما دعاه هذا الإسراع إلى وقفات تجنى عليه وتؤذيه ؛ كذلك رأى الإسلام أن يساير الضمير الإنسانى في تدرجه من الطفولة إلى الصبا ، وجعل تهذيب هذا الضمير غايته الأولى ، كما جعلت أنت تهذيب طفلك غايتك الأولى . وهو لذلك يساير الغرائز ليقوّمها . يلين لها حيناً ويقسو بها حيناً ، جاعلاً همه دائماً أن يتجه بها إلى الناحية التي تدينها من الغاية التي أَرادها ، والمثل الأعلى الذي صور له .

والضمير الإنسانى يحمّد أحياناً حتى تخاله ارتد عن تقدمه ، ويسرع السير أحياناً أخرى لإسراعاً يخشى معه العثار . وسيره قد يقف وقد يتغير اتجاهه فإذا القوى التي تدفعه إلى التقدم تضطرب بين أرجاء العالم المختلفة . وذلك ما حدث حين جمعت الأمم الإسلامية وجمدت المبادئ التي دعا الإسلام إليها ، لكن الجمود والوقفة ليسا في طبيعة الحياة ، لذلك يخفيان دائماً عوامل اندفاع تستكن دونهما ، ثم لا تلبث أن تظهر فإذا الإنسانية تستأنف تقدمها .

وهذا التقدم هو الذى يجعلنا نؤمن بأن الضمير الإنسانى لا بدّ له يوماً من أن يبلغ الغاية من النضج . وإن اقتضى ذلك أن تتعاقب عليه مئات الأجيال . فإذا بلغ هذه الغاية بلغ المثل الأعلى كما صورّه الإسلام . عند ذلك يُظِلُّ الأرضَ سلامُ الله ، ويستجيب الله دعاء من يدعونه عند بيته المحرّم : « ربّنا منك السلام وإليك السلام ، أحيينّا ربّنا بالسلام » .

يجب أن يسمع الناس جميعاً دعوة الحق فى مختلف أرجاء الأرض خلال تعاقب الأجيال ليتقدّم الضمير الإنسانى رويداً رويداً إلى النضج . ولن يبلغ النضج مداه حتى يعم الإنسانية كلها . فأما إن نضج الضمير فى ناحية من العالم ثم ظلت غرائز الطفولة ونزوات الصبا تحركه فى سائر الأرجاء ، فسيتقى لسلطان هذه الغرائز والنزوات من الحكم ما يديم النزاع ويديم الحرب ، وما يقتضى قوّادماً عباقره من أمثال خالد بن الوليد أن يكونوا الأداة لتهديب الشذوذ فى كل ناحية لم ينضج فيها الضمير ؛ شأنهم فى ذلك المربى إذ يهذب شذوذ تلاميذه .

وإنا لنسجل فى كثير من الغبطة والرضا خطوات تقدمها ضمير الإنسانية من الطفولة إلى الصبا ، لا يصدّنا عن ذلك ضيق هذه الخطوات واضطرابها . ولقد كان للإسلام فى هذا التقدم أعظم الأثر . وسيكون له مثل هذا الأثر من بعد حتى تتم كلمة ربك ويؤمن الناس بالمثل الأعلى فى مشارق الأرض ومغاربها .

أثر الإسلام فى
تقدم الضمير
الإنسانى

ويسرنى وأنا بصدد هذا التسجيل أن أثبت هنا كلمة للكاتب الإنجليزى الكبير بيرنارد شو تؤيد رأى . قال :

« لقد كان دين محمد موضع تقديرى السامى دائماً لما ينطوى عليه من حيوية مدهشة ؛ لأنه ، على ما يلوح لى ، هو الدين الوحيد الذى له ملكة الهضم لأطوار الحياة المختلفة ، والذى يستطيع لذلك أن يجذب إليه كل جيل من الناس .

« لا مزية فى أن العالم يعلّق على نبوءات كبار الرجال قيمة كبيرة . وقد

تنبأت بأن دين محمد سيكون مقبولا لدى أوربا غداً ، وهو قد بدأ يكون مقبولا لديها اليوم .

« لقد عمد رجال الإكليروس في العصور الوسطى إلى تصوير الإسلام في أحلك الألوان ؛ وذلك بسبب الجهل أو بسبب التعصب الذميم . والواقع أنهم كانوا يسرفون في كراهية محمد وكراهية دينه ويعدونه خصمًا للمسيح . أما أنا فأرى واجباً أن يدعى محمد منقذ الإنسانية . وأعتقد أن رجلاً مثله إذا تولى زعامة العالم الحديث ، نجح في حل مشكلاته ، وأحل في العالم السلام والسعادة . وما أشد حاجة العالم اليوم إليهما ! »

« لقد أدرك مفكرون منصفون قاموا في القرن التاسع عشر ما لدين محمد من قيمة ذاتية . من هؤلاء كارليل ، وجوته ، وچييون . بذلك حدث تحول صالح في موقف أوربا من الإسلام . وقد تقدمت أوربا تقدماً كبيراً في هذا القرن المئتم للعشرين ، فبدأت تحب عقيدة محمد . ولعلها تذهب في القرن التالي أبعد من ذلك فتعترف بجدوى هذه العقيدة لحل مشاكلها .

« وقد دان كثيرون من قوى ومن أهل أوربا بدين محمد في الوقت الحاضر . وهذا يجعلنا قادرين على أن نقول إن تحول أوربا إلى الإسلام قد بدأ » (١) .

زعماء العالم
الحديث يرددون
مثل الإسلام
الأعلى .

هذه الكلمات التي نقلت إلى العربية من عشر سنوات خلت تؤيد ما قدمت . وما نحن أولاء نسمع اليوم من زعماء العالم عبارات تردد مشكلاً الإسلام الأعلى وتدعو إليه وتستهين بالحرب في سبيله . ولا تزال الإنسانية تضطرب في هذه السبيل خلال طوفان جارف من الآلام والتضحيات والدموع . وهي تبذل اليوم منها أضعاف ما بذلت مجتمعاً على القرون التي خلت . أفقد لها أن تبلغ ما طالما أمّلت بلوغه ، وأن تعيش في ظلال الحرية والمحبة والسلام ؟ أفيكون النظام الجديد الذي يتحدث زعماء العالم اليوم عنه محققاً حرية الشعوب ، كما حققت الثورات فيما مضى حرية الأفراد ؟ وهل يؤدي ذلك إلى أن يتحرر الجميع صدقاً من قيود الخوف والفاقة ، وأن يتعاونوا تعاوناً خالصاً لوجه الله

يسعد به الناس في مختلف أرجاء العالم ؟ هذا أمل عذب ما أحبه إلى كل نفس ، وأقربه من كل قلب ؟ وما أشد الناس حرصاً على أن يتم فتمم به على الأرض كلمة الحق والسلام ! .

وتحقيق هذا الأمل رهن بأن يبلغ الضمير الإنسانى نضجه . ترى هل كتب القدر الرحيم في لوحه أن تتمخض الآلام والضحايا التى احتملها العالم في هذا القرن المم للعشرين عن هذا النضج ؟ ! لا ريب عندى في أن الإنسانية ستخطو في هذه السبيل خطوة إن لم نستطع اليوم أن نقدر مداها فن حققنا على كل حال أن نغبط بها ، وأن نرجو بعدها خطوات أفسح منها . فالعالم اليوم تتقارب أجزاؤه ، وتتزايد وسائل الاتصال بين أبنائه . كانت الصحافة تعدّ في القرن الماضى أعظم قوة لتيسير التفاهم بين الناس ، ثم كانت صحافة أمريكا لا تصل إلى هذا الشرق العربى قبل أسابيع من ظهورها . أما ما يجرى اليوم في العالم فيتلقيه الناس في مختلف أرجائه بسرعة البرق على موج الأثير عن طريق الإذاعة . وهذه الإذاعة المشغولة اليوم بأنباء الحرب وأهوالها ودعاياتها ستشغل غداً بالدعوة إلى السلم وإلى السمو الإنسانى وتصور الوسيلة التى تهى أسبابهما . وقد تهدّبت هذه الدعوة الضمير وتقربته من النضج ، وتجعله الحكم العدل المنزه عن الهوى ، والذي يستطيع لذلك أن يجنب الإنسانية الحرب ، فيجنبها الضحايا والآلام والدماء والدموع .

متى يبرز فجر هذا اليوم ومتى تشرق شمسُه ؟ إنا نراه بعيداً ، ويراه الله قريباً . فيومٌ عند ربك كألف سنة مما تعدون . وذلك اليوم الذى تشرق فيه الشمس على الإنسانية وقد نضج ضميرها ، هو اليوم الذى تبلغ فيه الكمال ، ويصبح فيه المثل الأعلى حقيقة واقعة . ويومئذ يصفو جوهر النفس من كل ما يخالطه من شوائب النقص ، فتسمو على إملاء الغرائز الدنيا ، وتمثل مبادئ العدل والرحمة والبر والتقوى في نقائها وطهرها ، ثم تصبح سر حياتها ، فإذا مرّ بها طيف يخالفها لفظته وعدته دخيلاً عليها وعرضاً يؤذيها ويتلفها . عند ذلك يكمل إيمان الناس جميعاً ، فيحب كل منهم لأخيه ما يحب لنفسه ، وينظر كل منهم نظرة الإشفاق والتألم لكل من تبدو في نيّاته أو أعماله شائبة من

أثرة أو نزوة من هوى ، ويرون واجباً عليهم أن يلتمسوا له الطب وأن يسعفوه بالدواء ؛ فإن برىء فذاك ، وإلا عزلوه عنهم اتقاء عدواه ، ورجاء أن يسمع أثناء العزلة صوت الحكمة . فإذا سمّعه برىء وعاد إلى الناس وقد صار مثلهم ، وأصبح ضميره قاضيةً الذي يحاسبه وينصف منه من ترد بخاطره خصومتهم ، وأصبحت نفسه التي برأت فلم تعد أمارة بالسوء هي التي تجعل الناس جميعاً أحب إليه من نفسه ، وأثر عنده منها .

ويومئذ يصبح ضمير الإنسانية ميزان العدل بالقسطاس المستقيم ، فلا تكون أمة خيراً من أمة ، ولا جنس خيراً من جنس ، ولا لون خيراً من لون ، بل تكون الأمم كالأفراد أخوة يربط بينها العدل والرحمة ويدعوانها للتعاون على البر والتقوى ، ويجعلان الأمم الصغيرة أثر عند الأمم الكبيرة من نفسها ، والأمم الضعيفة والأمم القوية سواء في السعى إلى الخير ابتغاء وجه الله وحده .

حكم أبناؤنا علينا
وعلى عهد أبي بكر

ويومئذ ينظر أبناؤنا مطمئنين من عالمهم السعيد إلى عالمنا الذي انطوى في صحف الماضي وطوانا معه . أتراهم يتحدثون بينهم مشفقين مما احتمل هؤلاء الآباء بحكم غرائزهم وشهواتهم ، باسمين سخراً من هذه الشهوات والغرائز ، ومن إذعان الناس لها وإسلامهم لحكمها ؟ ! أم تراهم ينصفوننا ، والضمير الناضج منصف بطبعه ، فيقدرون أن غرائزنا وشهواتنا وآلامنا وضحايانا هي التي أدت بهم إلى ما ينعمون به من سلام وسعادة ؟ ! ما تراهم إلا منصفين : وما تراهم ، إذا قرّ نظرهم خلال هذا الماضي عند عهد أبي بكر ورأوا ما تم في خلافته القصيرة الأمد من جلائل الأعمال ألا يقولون : رحم الله الصديق صفيّ النبي وخليله ! لقد كان ضعيفاً في بدنه ، قوياً في إيمانه . وقد دفع العالم بقوة هذا الإيمان دفعة نشرت فيه لواء الحق وأقرت كلمته . والكلمة الطيبة كالشجرة الطيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها . والذين جاهدوا مؤمنين لإقرار كلمة الحق لهم عند ربهم جزاء الصديقين ، وحسن أولئك رفيقاً .

ستكون هذه كلمتهم . فهي كلمة التاريخ المنصف . ونحن نقولها اليوم وسيقولها من بعدنا أبداً الدهر . ومن أحسن قولاً ممن جعل الحق حجته ، والإنصاف غايته ! .

تقدير وشكر

الآن وقد أراد الله للطبعة الأولى من هذا الكتاب أن تتم ، فمن الحق على أن أقدر معاونة الذين عاونوني أثناء كتابته ، وأثناء طبعه ، وأن أشكر لهم هذه المعاونة أصدق الشكر .

لقد كتبت فصول هذا الكتاب بين شهر سبتمبر سنة ١٩٣٩ وشهر يونيو سنة ١٩٤٠ في الفترة التي انقضت بين وزارتي المغفور لهما محمد محمود « باشا » ، وحسن صبرى « باشا » . وكنت إذا فرغت من كتابة بعض فصوله دفعتها إلى الأستاذ سيد نوفل فأملأها على لبيب أفندى فكرى إبراهيم فكتبها على الآلة الكاتبة .

ثم إن الأحوال حالت دون مراجعة الكتاب وتهذيبه إلى شهر مارس سنة ١٩٤٢ . فلما تيسر لى من الفراغ ما مكنى من إعادة النظر فيه جعلت أراجع ما كتبت . وفي منتصف يوليو دفعت ما أتممت مراجعته إلى مطبعة مصر وطلبت لإليها أن تتخذ من كتابى « حياة محمد » نموذجاً للطبع فى القطع والطريقة ، ونصحت الفصول التي رأيتها فى حاجة إلى التنقيح ، ثم دفعتها من جديد إلى الأستاذ سيد نوفل فأملأها على الآلة الكاتبة .

قد عاوننى الأستاذ سيد كذلك فى تصحيح تعجارب الطبع وأبدى لى أثناءها - كما أبدى لى أثناء إملاء الكتاب ملاحظات ذات قيمة . فله عن ملاحظاته ومعاونته وإخلاصه فيهما أجزل الشكر وأصدق .

ومنذ بدأت أطبع الكتاب تولى الأستاذ عبد الرحيم محمود من أمره مثل ما تولاه من أمر « حياة محمد » و « فى منزل الوحي » من قبل ، فجعل همه مع دقة التصحيح إلى الدقة اللغوية والتدقيق فى ضبط النصوص والأعلام والألفاظ التى تحتاج إلى الضبط . والأستاذ عبد الرحيم حجة ثقة يعتمد عليه . وقد بذل من الجهد فيما تولاه ما أشكره اليوم له ، كما شكرته من قبل ، مقدراً صدق مودته وإخلاصه لعمله .

وما دمت بصدد التصحيح فلست أنسى جهد الأستاذ الشاعر محمود أبو الوفا
والأستاذ علي فوده ، فهو جهد جدير بالثناء .

أما الفهارس فوضعها الأستاذان الشيخ محمد البرهامي منصور والشيخ أحمد
عبد العليم البردوني ، فلهما خالص الشكر .

ولست في حاجة إلى التنويه بعناية مطبعة مصر بدقة الطبع وجماله ،
فالكتاب بين يدي القارئ شهيد عليهما . وأحسب القارئ يشاركني في شكرها
على ما بذلت من عناية دونها كل عناية .

والحمد الأكبر والثناء الأجل لله جل شأنه ، منه الهدى ، وبه التوفيق ،
ولإليه يرجع الأمر كله .

محمد حسين هيكل

فهارس الكتاب :

فهرس الأعلام

(١)	
آزاد - امرأة شهر بن بازان : ٨٠ ، ١٦٧	ابن وهب (عبد الله) : ٢٩٩
آزاذبه : ٢١٤ ، ٢١٥	ابن يونس (مولى عائشة) : ٢٩٢
آزرميدخت ابنة كسرى : ٢٧٩	ابنة الجودي بن ربيعة : ٢٢٤
أبرهة : ٢٠٧	ابنة بجاعة : ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٧٧ ، ١٩٩
ابن أبي داود (عبد الله بن سليمان السجستاني) :	ابنة النعمان بن الجون (أسماء) : ١٧٧
٢٨٣ ، ٢٨٩ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣	أبو بكر الأنباري : ٢٩٦ ، ٢٩٧
٢٩٥	أبو حشمة (الحارثي الأنصاري) : ٢٦٤
ابن الأثير (أبو الحسين علي بن محمد) : ٢٢٢ ،	أبو حذيفة بن عتبة : ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٥٠
٨٠ ، ١١٨ ، ١٦٦ ، ٢٠٠ ، ٢٠٤ ،	أبو الحسن البصري : ٢٠٩
٢١٣ ، ٢٣٠ ، ٢٣٥ ، ٢٤٠ ،	أبو الدرداء (عويمر) : ٢٩٦
٢٤٤ ، ٢٥٤ ، ٢٧٥	أبو ذر الغفاري : ٦٣
ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد الحضرمي) :	أبو زيد (سعد بن عبيد) : ٢٨٦
٢٠٤ ، ٢٣٠ ، ٢٣٥ ، ٢٤٠ ،	أبوسفيان (بن حرب) : ٦٦ ، ١٠٩ ،
٢٤٤ ، ٢٥٤	٢٦١ ، ٢٦٤ ،
ابن خلكان (أبو العباس أحمد بن محمد) :	أبوشجرة بن عبد العزيز السلمى : ١٢٠ ،
١٣٥	١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٣٥
ابن الدغنة (ربيعة) : ٣٤	أبو عبد الله الزنجاني : ٢٩٤ ، ٣٠٠
ابن رسته (أبو علي أحمد بن عمر) : ١٨٨	أبو عبيدة بن الجراح : ٢٣ ، ٣٠ ، ٥٤ ،
ابن رشد (أبو الوليد محمد بن أحمد) : ٢٢٥	٥٥ ، ٥٩ - ٦١ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ١٩٥
ابن سعد (أبو عبد الله محمد بن سعد) :	٢٣٣ ، ٢٤١ ، ٢٤٦ - ٢٥١ ، ٢٥٤
٥٤ ، ٣٢٩ ، ٣٢٦	٢٥٦ ، ٢٥٩ - ٢٦١ ،
ابن سلام = محمد بن سلام	٢٧٥ - ٣١١ ، ٣٢٧
ابن سينا (أبو علي الحسين بن عبد الله) : ٢٢٥	أبو القاسم الفرجي (الأصمغاني) (علي بن الحسين) :
ابن عباد = سعد بن عباد	١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦
ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم) :	أبو قبايس = النعمان بن المنذر
٦٤ ، ٢٥٤	أبو قتادة الأنصاري : ١٣٤ ، ١٣٦ ، ١٣٧
ابن هشام (أبو محمد عبد الملك) : ٢٩ ،	١٣٨ ، ١٤١
٣٢ ، ٣٧	أبو قحافة عثمان بن عامر (والد أبي بكر) :
	٢٨ ، ٣٣١
	أبوليل (بن فديكي) : ٢٢٧

١٤١ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥٣ ،
 ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٧٧ ، ١٩٩
 أم الخير سلمى بنت صخر بن عامر : ٢٨
 أم رومان، بنت عامر بن عويمر : ٢٨ ، ٣٩
 أم زبل، سلمى بنت مالك : ١٢٠ ، ١٢٣ -
 ١٢٥ ، ١٣٢ ، ١٤٤ ، ١٥٣
 أم سلمة أم المؤمنين (بنت أبي أمية) ١٧٤ ،
 ٢٩٢
 أم فروة (بنت أبي قحافة) أخت الصديق :
 ١٧٤ ، ١٧٧ ، ٣٣٢
 أم قرفة فاطمة بنت بدر : ١٢٤ ، ١٢٥
 أم كلثوم بنت أبي بكر : ٣٨
 امرؤ القيس بن حجر الكندي : ٢٧
 أنس بن مالك : ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٩٠
 أنوشجان : ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨
 أوس بن خزيمة : ١٣٠
 إياس بن قبيصة : ١٩١ ، ٢١٥ ، ٢١٧
 الأيهم الثاني : ١٩٢

(ب)

بازان الفارسي : ١٨ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٨٤
 ٨٥ ، ١٦٧ ، ١٧٣ ، ١٩٧
 باهان قائد الروم : ٢٤٥ ، ٢٥٨ - ٢٥٩ ،
 ٢٦٢ ، ٢٦٤ ، ٢٧٢
 بهوفن : ٢٢٥
 البخاري (أبو عبد الله محمد بن إسماعيل) :
 ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٦ ، ٣٠١
 بختنصر الثاني : ١٨٣
 بدهان عامل القوس : ٧٤ ، ٧٦ ، ٧٧ ،
 ١٢٨ ، ١٦٠
 البراء بن عازب : ٦٣
 البراء بن مالك : ١٤٣ ، ١٤٩ ، ١٥١ ،
 ١٥٢
 برفاردشو : ٣٤٨ ، ٣٤٩

أبومسلم اغراساني : ٦٧
 أبوموسى الأشعري : ٢٩٥
 أبوهريزة : ١٦٣
 أبي بن كعب : ٦٣ ، ٢٣٣ ، ٢٨٦ ،
 ٢٩٠ - ٢٩٢ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩
 أحمد أمين : ١٨٨
 أحمد عبد العليم البردوني : ٣٥٤
 الإدريسي (أبو عبد الله محمد بن محمد) : ٢٣
 أذينة بن السمين : ١٨٤ ، ١٨٥
 أرثر جفري : ٢٩٣
 الأزدي (أبو إسماعيل محمد بن عبد الله) :
 ٢٠٤ ، ٢٣٠ ، ٢٣٥ ، ٢٤٠ ، ٢٤٤ ،
 ٢٦٥ ، ٢٧٠ ، ٢٧١
 أسامة بن زيد : ١٨ ، ٤٩ ، ٥٥ ، ٦٨ ،
 ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٧ ، ٩٦ ، ٩٩ -
 ١٠٢ ، ١٠٥ ، ١١١ ، ٢٣٧ ، ٢٤٦
 إسرائيل : ٥٣
 الإسكندر الأكبر : ١٠٨ ، ١٨٤ ، ٣٤٥
 أسماء بنت أبي بكر ذات النطاقين : ٢٨
 أسماء بنت عيسى : ٢٨ ، ٣٢٥ ، ٣٢٩ ،
 ٣٣٢
 الأسود بن عتبة الغنوي ذو الحمار : ١٤ ،
 ٧٢ ، ٧٥ - ٨٦ ، ٩٥ ، ١٠٢ ،
 ١٠٥ ، ١١٣ - ١١٥ ، ١٦٧ - ١٧٠ ،
 ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٩٥
 أسيد بن حضير : ٦٠ ، ٣٢٤
 الأشعث بن قيس : ١٠٦ ، ١٧٤ - ١٧٦ ،
 ٣١٢ ، ٣٢٧
 الأشقر : ٢٦١
 الأعشى ميمون بن قيس : ١٩١ ، ١٩٢
 الأعيسر بن أم سخله = عمر بن الخطاب
 الأقرع بن حابس : ٢٢٠ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦
 أكيدر بن عبد الملك الكندي : ١٥٩ ، ٢٢٣
 أم تميم ليلى (بنت المهلب) زوجة مالك
 ابن نؤيرة : ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٩ -

جذيمة الأبرش : ١٨٥ ، ١٨٤ ، ١٣٩

١٨٦

جذيمة الوضاح = جذيمة الأبرش

جرعة بن قلدا : ٢٤٩ ، ٢٦٢ ، ٢٧٥

جرير بن عبد الله : ٢٣٥

جستنيان : ١٨٩ ، ١٩٠ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩

جستين الثاني : ١٨٩

جشنس : ١٦٩ ، ١٧٠

جمفر بن أبي طالب : ٨٧ ، ٩٢ ، ١٠٨

جندب بن عمرو الدوسي : ٢٣٩

جندل : ٢١٣

جنكيز خان : ١٠٨ ، ٣٤٥

جوتة : ٣٤٩

الجودي بن ربيعة : ٢٢٣ ، ٢٢٤

جويرة ابنة أبي سفيان : ٢٦٣

جيون : ٣٤٩

جيفر (بن الجلتني) : ١٦٥ ، ١٦٦

(ح)

حابس بن سعد الطائي : ٢٣٩

حاتم (الطائي) : ٣٢٩

الحارث الأعرج = الحارث بن جبلة

الحارث بن جبلة الغساني : ١٨٩ ، ١٩٠

الحارث بن كللة : ٣٢٢

الحارث بن هشام : ٢٦٢

الحارث الوهاب = الحارث بن جبلة

الحباب بن المنذر بن الجموح : ٥٨ ، ٥٩

٦٠

حبال بن خويلد = حبال بن سلمة

حبال بن سلمة بن خويلد : ١١٨

حبيبة بنت خارجة : ٢٨ ، ٣٨ ، ١٠٧

٣٣٢

حذيفة بن محسن التللفاني : ١٠٦ ، ١٤٤

١٦٦ ، ١٦٥

حذيفة بن اليمان : ٢٩٤ ، ٢٩٥

برستد : ٣٤٠

بشير بن الخصاصية : ٢٧٩

بشير بن سعد : ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٥

بقيلة = عمرو بن عبد المسيح بقيلة

البلادري (أحمد بن يحيى) : ٢٢ ، ٢٠٤

٢١٧ ، ٢٣٠ ، ٢٤٠ ، ٢٤٤ ، ٢٦٥

٢٦٦ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ - ٢٧٤

بلال الحبشي : ٣٢ ، ٤٦

بهرام جور (بن يزجرد) : ١٨٦ ، ١٨٧

٢١٩

بهرجان الفارسي : ١٩١

بهم بن جاذويه : ٢٠٩ ، ٢١١ ، ٢١٢

٢١٤

(ت)

تبع الأول : ١٨٤

تذارق - أخو هرقل : ٢٤٩ ، ٢٦٣

الترملي (أبو عبد محمد بن عيسى) : ٢٨٩

تيم الداري : ٢٨٦

(ث)

ثابت بن أقرم الأنصاري : ١١٨ ، ١١٩

ثابت بن زيد : ٢٩٦

ثابت بن قيس : ١٤٣ ، ١٤٩

ثمامة بن أثال : ١٦٢

(ج)

جaban : ٢١١

الجارود بن المملع العيني : ١٦١ ، ١٦٢

١٦٣

جبريل عليه السلام : ١١٨ ، ٢٨٦

٢٨٧ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩٧

جبلة بن الأيهم : ١٩١ ، ١٩٢

(د)

داؤويه الفارسي: ٧٩ ، ٨٠ ، ١٦٨ - ١٧٠
 ١٧٢ ، ١٩١
 دحية الكلبي : ٩٣
 الدراقص : ٢٤٩

(ذ)

ذات النطاقين = أسماء بنت أبي بكر
 ذوالتاج = لقيط بن مالك
 ذوالخمار = الأسود بن عتبة الغنوي
 ذوالكلاع الحميري : ١٦٩ ، ٢٣٩ ،
 ٢٤١ ، ٢٤٤ - ٢٤٥ ، ٢٦٦

(ر)

رافع بن عميرة الطائي : ٢٥٥ - ٢٥٧ ،
 ٢٦٩
 ربيعة (ربيعة الرأي بن أبي عبد الرحمن) :
 ٢٩٩
 رحمان ايماة = مسيلة بن حبيب
 رحمان ابن = الأسود الغنوي
 رفاثيل : ٢٢٥
 رقيق العظم : ٢٥
 الرقاش أخت جذيمة : ١٨٤
 رقية بنت علي بن أبي طالب : ٢٢٧

(ز)

الزياد : ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦
 الزيرقان بن بدر : ١٠٠ ، ٢٢١
 الزبير بن العوام بن العاص : ٣٠ ، ٦٣ ،
 ٦٤ ، ٦٦ ، ٩٧ ، ١٠٧ ، ٢٢٣ ،
 ٢٣٧
 زردشت : ١٨٨
 زمعة بن الأسود : ٢٦٦

حسان بن ثابت : ١٩٢

الحسن بن أبي الحسن البصري : ٣٧

حسن صبري باشا : ٣٥٣

الحطيم بن نسيعة : ١٠٦ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ،
 ١٦٤

حفصة (ابنة عمر بن الخطاب أم المؤمنين) :
 ٤٦ ، ٢٨٣ ، ٢٩٢ ، ٢٩٥ ، ٢٩٨

٣٠١

حليمة بنت الحارث : ١٩٠

حمزة بن عبد المطلب سيد الشهداء : ٣١ ،

٣٤ ، ٣٥ ، ١٥٢

حيرى بن أكال : ٢١٧

حيى بن أخطب : ٤٤

(خ)

خارجية بن زيد : ٣٨

خالد بن سعيد بن العاص : ٦٣ ، ٧٧ ،

١٠٦ ، ٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ -

٢٤٨ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ ، ٢٦٦ ، ٢٧٢

خالد بن الوليد : ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٧ ، ٤٣ ،

٨٧ ، ١٠٥ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ،

١١٦ - ١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٣٢ -

١٤١ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٦ - ١٥١ ،

١٥٣ - ١٥٩ ، ١٦٢ ، ١٧١ ،

١٧٧ ، ١٩٤ ، ١٩٩ - ٢٣٢ ،

٢٣٥ ، ٢٣٧ - ٢٤٠ ، ٢٤٢ ،

٢٤٤ ، ٢٤٥ - ٢٤٧ ، ٢٥١ - ٢٦٦

٢٦٨ - ٢٧٨ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٣١٥

٣٢٧ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦

خديجة بنت خويلد (أم المؤمنين) : ١٨ ،

٢٩

خريص : ٢١٧

خزيمة الأنصاري : ٢٨٣ ، ٢٩٩

الخنساء الشاعرة (بنت عمر) : ١٢٣

سيد ذوقل : ٣٥٣
سيرين - أبو محمد بن سيرين : ٢٢٢
السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن) : ٢٨٣
٢٨٨ ، ٣٠٠

(ش)

شرحيل بن حسنة : ١٠٥ ، ١٤٤ ، ١٤٦
١٦٦ ، ٢٤٦ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ،
٢٥٦ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٥ ،
٢٦٦ ، ٢٧٠

شرحيل بن مسيلة : ١٤٨ ، ١٥٤
شريك بن عمرو : ١٩٠
شقران مولى الرسول : ٨٩
شكسبير : ٢٢٥
شهر بن باذان : ٧٧ - ٧٩ ، ١٦٧ ،
١٦٨ ، ١٧٣
شهر يازار = شهريران
شهر باذان = شهريران
شهر يراز = شهريران
شهر يزان بن أردشير بن ساپور : ٢٧٧ ،
٢٧٨
شوق (أحمد شوق بك) : ٢٢٥
شويل : ٢١٧ ، ٢١٨
شيرزاد الفارسي : ٢٢٠
شيرويه بن كسرى : ٧٦ ، ٢١٩

(ص)

صابحة بنت ربيعة بن بجير التتلي : ٢٢٧
صخر (بن عمرو أخو الخنساء) : ١٢٣
صفوان بن أمية : ١٠٠ ، ٢٦١
صلوبا بن نسطونا : ٢١٨ ، ٢١٩

(ض)

ضرار بن الأزور : ١١٥ ، ٢٦٢

زياد بن لبيد : ١٧٣ - ١٧٥ ، ١٧٧
زيد بن ثابت : ١٩٥ ، ٢٣٣ ، ٢٨٢ -
٢٨٦ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٣ - ٣٠١
٣١٦
زيد بن حارثة : ١٨ ، ٨٧ ، ٩٢ ، ١٠٨
١٢٤

زيد بن الخطاب : ١٣٩ ، ١٤٣ ، ١٤٩
١٥٥ ، ١٥٦ ، ٢٨١ ، ٢٨٢

(س)

سابور بن شهريران : ٢٧٩
سابور عامل الفرس : ١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٨٧
سارية بن عامر : ١٤٧
سالم مولى أبي حذيفة : ١٤٨ ، ١٥٠
سجاح بنت الحارث : ٧٢ ، ١٢٧ -
١٣٢ ، ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٤٤ ، ١٩٧ ،
٢٢١
سعد بن أبي وقاص : ٣٠ ، ٢٣٣
سعد بن عباد سيد الخزرج : ٥١ - ٥٥ ،
٥٧ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٣ ،
سعد بن معاذ : ٤١
سعيد بن خالد بن سعيد : ٢٤٥ ، ٢٧٢
سعيد بن زيد بن عمرو : ٦٥ ، ٢٧٠ ،
٢٨٦ ، ٣٢٤
سعيد بن عامر بن حزم الجمحي : ٢٧٠ .
سلمان الفارسي : ١٨ ، ٦٣
سلمة بن خويلد : ١١٨
سلمة بن عمير الحنفي : ١٥٤
سلم حسن : ٣٤٠
سليمان بن بلال : ٢٩٩
سليمان (البناء) : ١٨٦ ، ٢١٦
سهيل بن عمرو : ٧١ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨
سويد بن قطبة الذهلي : ٢٠٤ ، ٢٠٦
سويد بن مقرن الأرمي : ١٠٦
سياوخش الرازي : ٢٧٩

٢٣٤ ، ٢٣٩ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ،

٣٢٦

عبد الرحيم محمود : ٣٥٣

عبد بن عوف الحميري : ٢٠٤

عبد بن غوث = عبد بن عوف

عبد الله بن أبي بكر : ٢٨ ، ٣٣٠

عبد الله بن أبي قحافة = أبو بكر الصديق

عبد الله بن راحة : ٨٧ ، ٩٢ ، ١٠٨

عبد الله بن عباس : ٢٨٦ ، ٣٠٠

عبد الله بن عمر بن الخطاب : ١٥٣ ، ١٥٥

٢٨١

عبد الله بن عمرو بن العاص : ٢٨٦

عبد الله بن محمد : ٥٣

عبد الله بن مسعود : ٩٧ ، ١٠٠ ، ٢٨٦

٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٥ - ٢٩٧ ، ٢٩٩

عبد الوهاب النجار : ٢٦

عبد = الأسود النسي

عبيد الأبرص : ١٩٠

عتاب بن أسيد : ٧١ ، ١٩٥ ، ٣٢٢

عتيبة بن النحاس : ١٦٥

عثمان بن أبي العاص : ٧١

عثمان بن عفان : ١٥ ، ٣٠ ، ٣٥ ، ٦١ ،

٦٩ ، ١٩٥ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٧

٢٤١ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٩٢

٢٩٤ - ٣٠٥ ، ٣١٦ ، ٣١٨ ، ٣٢٣

٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٣٠ ، ٣٣٣ ، ٣٣٧

عدنان (جد النبي عليه السلام) : ٢٧

علي بن حاتم الطائي : ١٠٠ ، ١١٦ -

١١٨ ، ١٢١ ، ١٤٤ ، ٢٠٥

علي بن ربيعة : ١٨٤

علي بن زيد : ١٨٦

علي بن علي : ٢١٧

عرفجة بن هرثة البارق : ١٠٦ ، ١٤٤ ،

١٦٦

العزى (صنم) : ١٠٩

عفيف بن المنذر : ١٦٤

(ط)

الظاهر بن أبي هالة : ١٦٨ ، ١٧١ ،

الطبري (محمد بن جرير) : ٢٢ ، ٥٩ ،

٦٥ ، ٧٦ ، ٨٠ ، ١١٨ ، ١٣٤ ، ١٤٦ ،

١٥٦ ، ١٨٣ ، ٢٠٠ ، ٢٠٤ ،

٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢٣٠ ، ٢٣٥ ، ٢٤٠ ،

٢٤٤ ، ٢٥٢ ، ٢٥٤ ، ٢٦٤ ،

٢٦٥ - ٢٧١ ، ٢٧٥

طريقة بن حاجز : ١٢٣

طلحة بن عبيد الله : ٣٠ ، ٩٧ ، ١٠٧ ،

٢٣٣ ، ٢٣٧ ، ٣٢٤ ، ٣٣٠

طليحة بن خويلد الأسدي : ٧٢ ، ٧٥ ،

٨٣ - ٨٦ ، ٩٥ ، ٩٩ ، ١٠٢ ،

١٠٣ ، ١٠٥ ، ١١٣ - ١٢٢ ،

١٢٤ ، ١٢٦ - ١٢٩ ، ١٣٢ ، ١٤٤

١٥٣ ، ١٩٥

طليحة النمرى : ١٤٦

(ع)

عاصم بن عدي : ٥٥

عاصم (بن عمرو التميمي) : ٢٢٤

عامر بن فهيرة : ٣٢

عائشة أم المؤمنين : ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٩ ،

٤٦ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٥٤ ، ١٢٤ ،

٢٩٢ ، ٣٢٢ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣١ ،

٣٣٢

عباد (بن الجندى) : ١٦٦

عبادة بن الصامت : ٢٨٦

العباس بن عبد المطلب : ١٦ ، ٦١ ، ٦٣ ،

٦٦ ، ٦٧

عبد الأسود العجلى : ٢١١

عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق : ٢٨ ،

١٥١ ، ١٥٣ ، ٣٢٢ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ،

عبد الرحمن بن عوف : ٣٠ ، ٩١ ، ٢٣٣

٣١٨ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ - ٣٣٣

٣٣٧ ، ٣٤٥

عمرو بن علي بن أبي طالب : ٢٢٧

عمرو أبو النصر : ٢٥

عمرو الأصغر : ١٩١

عمرو بن حزم : ٧٧

عمرو بن العاص : ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٢٢ ،

١٤٦ ، ١٦٥ ، ٢٤٤ ، ٢٤٧ - ٢٥١

٢٥٦ ، ٢٥٩ - ٢٦١ ، ٢٦٥ ، ٢٦٧

٢٦٨ ، ٢٧٠

عمرو بن عبد المسيح : ٢١٧

عمرو بن علي : ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦

٢١٧

عمرو بن عكرمة بن أبي جهل : ٢٦٢ ، ٢٦٤

عمرو بن معديكرب الزبيدي : ١٠٥ ، ١٦٨

١٧١ - ١٧٣ ، ٣١٢

عمرو بن هند : ١٩٠

عمير الصحابي : ٢٢١

العتسي = الأسود بن عتبة العتسي

عويم بن ساعدة : ٥٥

عويم بن الكاهل الأسلمي : ٢٢٣

عياض = عباد

عياض بن غنم : ٢٠٠ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ،

٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢ - ٢٢٧ ، ٢٣٣

٢٣٥ ، ٢٥٥ ، ٢٥٧

عبيدة بن حصن الفزاري : ٩٥ ، ١١٣ ،

١١٥ ، ١١٧ - ١١٩ ، ١٢١ - ١٢٣

١٢٥ - ١٢٧ ، ١٢٩

(ف)

فاطمة (بنت الخطاب) : ٢٨٦

فاطمة (الزهراء بنت الرسول) : ٦٥ ،

٦٧ ، ٩٠

فالريان : ١٨٤

عقة بن أبي عقة : ٢٢١ ، ٢٢٦

عكاشة بن حصن : ١١٧ ، ١١٩ ، ١٧٣

عكرمة بن أبي جهل : ١٠٥ ، ١٠٨ ، ١٤٠

١٤٤ - ١٤٦ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٧١ -

١٧٣ ، ١٧٥ - ١٧٨ ، ١٩٤ ، ٢٣٣

٢٤٠ ، ٢٤٤ - ٢٤٩ ، ٢٥١ ، ٢٥٤

٢٦٠ - ٢٦٤ ، ٢٦٧ ، ٢٧٢ ، ٣٠٨

العله بن الحضرمي : ١٠٦ ، ١٦١ - ١٦٥

١٩٦

علقمة بن علاثة : ١٢٣

علقمة الفحل : ١٩٠ ، ١٩٢

علي بن أبي طالب : ٣٦ ، ٣٨ ، ٤٥٠ ، ٤٤٧

٥٤ ، ٦١ ، ٦٣ - ٦٩ ، ٨٩ ، ٩٠

٩٧ ، ١٠٧ ، ٢٢٧ ، ٢٣٣ ، ٢٣٧ ،

٢٤١ ، ٢٤٥ ، ٢٥٠ ، ٢٨٤ ، ٢٨٦ ، ٢٨٨

٢٨٩ ، ٢٩١ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٧

٢٩٩ - ٣٠١ ، ٣٠٥ ، ٣٢٦ ، ٣٣٠

علي فودة : ٣٥٤

عمار بن ياسر : ٦٣

عمر بن الخطاب : ٩ ، ١١ - ١٥ ، ١٨ ،

٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٣١ ، ٣٤ ،

٣٥ ، ٣٨ ، ٤٢ - ٤٤ ، ٤٦ ، ٤٩ ،

٥٠ - ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٨ - ٦٤ ،

٦٩ ، ٧١ ، ٨٨ - ٩٢ ، ٩٦ ، ٩٩ ،

١٠٧ ، ١١٤ ، ١١٩ ، ١٢٤ ، ١٣٤

١٣٧ - ١٤٠ ، ١٥٦ ، ١٦٥ ، ١٧١

١٧٢ ، ١٧٧ ، ١٩١ ، ١٩٥ ، ٢٠٤ ،

٢٠٦ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٣٠

٢٣٣ - ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤١ ،

٢٤٥ ، ٢٤٨ ، ٢٥٠ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣

٢٥٩ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨

٢٧١ ، ٢٧٢ - ٢٧٥ ، ٢٨٠ - ٢٨٤

٢٨٦ - ٢٨٩ ، ٢٩١ ، ٢٩٣ - ٢٩٥

٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٣٠١ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥

٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٦

٢٦٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٤ ، ٢٥٢ ، ٢٤٣
٣٣٦

(ك)

كارليل : ٣٤٩
كرامة بنت عبد المسيح : ٢١٨ ، ٢١٧
كسرى أبرويز : ١٩١ ، ١٩٣ ، ٢٠٨
٢٢٨ ، ٢١٩ ، ٢١٥ ، ٢١٠ ، ٢٠٩
٢٣٦ ، ٢٥٢ ، ٢٣٢ ، ٢٣٠
كسرى أردشير (ابن شيرويه) : ٢٠٥ ،
٢١٥ ، ٢١٤ ، ٢١١ ، ٢٠٧
كسرى بن أردشير بن سابور ذو الأكتاف :
١٨٧

كسرى أنزو شروان : ١٨٩ ، ١٩٠
كسرى عاهل القرس : ٧٦ ، ١٢٨ ، ١٦٠
كوسان دهرسفال : ٢٥ ، ١٩٠
كيخسرو : ١٨٣

(ل)

ليبي فكري إبراهيم : ٣٥٣
لقيط بن مالك الأزدي ذواتاج : ٧٢ ، ٨٣
١٠٦ ، ١٦٥ ، ١٦٦
اللات (صنم) : ١٠٩
ليلي = أم تميم

(م)

الآب ماريني : ٢٥
مارية ذات القرطين : ١٨٩
مالك بن أنس : ٢٨٦
مالك بن حذيفة : ١٢٥
مالك بن قيس : ٢١١
مالك بن نويرة : ١٠٥ ، ١١٦ ، ١٢٧ -
١٤٢ ، ١٤٤ ، ١٥٦ ، ٢٢٦ ، ٢٣٧
٢٥٣

الفجاءة إياس بن عبد ياليل السلي : ١٢٠ ،
١٢٣ ، ١٣٥ ، ٣٢٧
الفرخزاد : ٢٧٩
الفضل بن العباس : ٤٧ ، ٦٣
فكا - المستشرق : ٩٣
فناص (اليهودي) : ٣٩ ، ٤٠
فوكاس إمبراطور الروم : ١٩٣ ، ٣٣٨
فيروز الديلمي : ٧٦ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١
١٦٧ - ١٧١ ، ١٧٣ ، ١٧٧
الفيثار بن فسطوس : ٢٤٩ ، ٢٦٣
فيليب الروماني : ١٨٣ ، ١٨٤

(ق)

قارن بن قريانس : ٢٠٧ ، ٢٠٨
قباذ : ١٨٩ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨
قتيلة بنت عبد العزى : ٢٨
القرطبي (أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري) :
٢٨٣ ، ٢٨٦ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩١
٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٣٠٠
قرة بن هيرة : ١٢٠ - ١٢٣ ، ١٣٥ ،
٣١٢
قسطنطين : ١٨٧ ، ٣٣٧
قصير بن عمرو : ١٨٥
القمعاق بن عمرو التميمي : ١٢٣ ، ٢٠٣
٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢٢٠ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧
٢٦١
القيس بن عاصم المتقري : ١٦٢ ، ١٦٤ ،
١٩٦
قيس بن عبد يغوث بن مكشوح المرادي :
٧٦ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ١٠٥ ، ١٦٨ ،
١٦٩ - ١٧٣
قيس بن مكشوح المرادي = قيس بن عبد يغوث
قيس بن هيرة المرادي : ٢٣٩
قيصر الروم : ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ،

محمود أبو الوفا : ٣٥٤
 محمية بن زعيم : ٢٦٥ ، ٢٧٢
 مزدك : ١٨٨
 ممرق الكلبى : ١٦٨
 مسعود بن حارثة : ٢٧٨
 المسمونى (أبو الحسين على بن الحسين)
 ١٨٣ ، ١٩١
 مسلم (ابن الحجاج القشيري) : ٢٨٦
 المسيح (عليه السلام) : ٣٤٩
 مسيلمة بن حبيب (الكذاب) : ١٣ ،
 ٧٢ ، ٧٥ ، ٧٧ ، ٨٢ ، ٨٦ ، ٩٥ ،
 ٩٩ ، ١٠٢ ، ١٠٥ ، ١١٣ ، ١١٥ ،
 ١٢٠ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٤٠ ، ١٤٧
 ١٤٩ ، ١٥٣ ، ١٥٦ ، ١٦٢ ، ١٦٦
 ١٩٤ ، ١٩٥ ، ٢٨١ ، ٢٩٣
 معاذ بن جبل : ٧٧ ، ٨١ ، ٨٥ ، ٢٣٣ ،
 ٢٦٦ ، ٢٧٠ ، ٢٨٦
 معاوية بن أبي سفيان : ٦١ ، ٦٧ ، ٦٩ ،
 ١٣١ ، ٢٤٦
 المعرى (أبو العلام) : ٢٢٥
 معقل بن مقرن المزني : ٣٠٦
 المعل التيمي : ٢٧
 معن بن حاذر السلمي : ١٠٦
 المعنى بن حارثة : ٢٠٦ ، ٢٧٨
 المغيرة بن شعبة : ٦٣
 المقداد بن عمرو : ٦٣
 المنخل الشكري : ١٩١
 المنذر الأكبر : ١٨٧
 المنذر الثالث بن ماء السماء : ٢٧ ، ١٨٩ ،
 ١٩٠
 المنذر بن ساوى العبدى : ١٦١
 المنذر بن النعمان بن المنذر الغرور : ١٦٢ ،
 ١٨٩
 المهاجر بن أبي أمية المخزومي : ١٠٥ ، ١٤٤
 ١٦٧ ، ١٧٢ ، ١٧٨ ، ١٩٤ ، ٢٣٣
 ٢٤١

ماني : ١٨٨
 ماوية بنت الأرقم بن الحارث : ١٨٩
 المتجرودة : ١٩١
 متمم بن نويرة : ١٣٠ ، ١٣٦ ، ١٣٨ ،
 ١٣٩
 المثني بن حارثة الشيباني : ٢٣ ، ١٦٥ ،
 ١٩٦ - ٢٠٨ ، ٢٣١ ، ٢٤٠ ، ٢٥٢
 ٢٥٣ ، ٢٧٧ - ٢٨١ ، ٣١٢ ، ٣١٨
 ٣٢٩ ، ٣١٩
 مجاعة بن مرارة : ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥٢ -
 ١٥٦ ، ١٧٧ ، ١٩٩
 محكم بن الطفيل : ١٥١ ، ١٥٣
 محمد (عليه السلام) : ٩ ، ١٠ ، ١١ ،
 ١٣ ، ١٤ ، ١٦ ، ١٧ ، ٢١ ، ٢٣ ،
 ٢٥ ، ٢٧ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٥٧ ، ٥٩ ،
 ٧٠ ، ٧١ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٩٠ ، ٩٢ ،
 ٩٦ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٢ ،
 ١١٥ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ،
 ١٢٩ ، ١٣٢ ، ١٣٥ ، ١٤٣ ،
 ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٦١ ، ١٦٢ ،
 ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٨ ، ١٨٥ ،
 ١٩١ - ١٩٥ ، ٢٠٤ ، ٢١٨ ، ٢٢٣ ،
 ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٣١ ، ٢٣٣ - ٢٣٧ ،
 ٢٤١ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٥٣ ، ٢٦١ ،
 ٢٦٢ ، ٢٦٦ ، ٢٧٥ ، ٢٨٠ -
 ٢٨٢ ، ٢٨٤ ، ٢٨٦ ، ٢٩١ ،
 ٢٩٣ ، ٢٩٦ - ٣٠١ ، ٣٠٣ ، ٣٠٧ ،
 ٣١٢ ، ٣١٥ - ٣١٧ ، ٣٢١ - ٣٢٣ ،
 ٣٢٦ - ٣٢٨ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ،
 ٣٤١ ، ٣٤٤ ، ٣٤٦ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩
 ٣٥١
 محمد بن أبي بكر : ٢٨
 محمد البرهامي منصور : ٣٥٤
 محمد الحضرى بك : ٢٥
 محمد بن سلام أبو عبد الله : ١٣٥ ، ١٣٦
 محمد محمود باشا : ٣٥٣

مهران بن بهرام جور : ٢٢١
موسى بن عمران (عليه السلام) : ٤٩

(ن)

الناطقة الذبياني : ١٩٠ - ١٩٢
نابليون : ١٠٨ ، ٣٤٥
نصير أبو موسى بن نصير : ٢٢٢
النعمان بن بشير : ٥٩
النعمان بن الجون : ١٧٧ ، ١٧٨
النعمان بن عوف الشيباني : ٢٢٧
النعمان بن مقرن : ٩٨
النعمان بن المنذر الرابع أبو قابوس : ١٨٦ ،
١٩١ ، ٢١٥ ، ٢١٦
النعمان السادس بن الحارث الأصغر أبو كرب :
١٩١
نعم بن عبد الله : ٢٨٦
نهار الرجال (الرجال) بن عنقوة : ٨٢ ،
١٤٥ ، ١٤٨ ، ٢٩٣
النوار - امرأة طليحة : ١١٨

(هـ)

هاشم جد النبي : ٢٧
هافى بن قبيصة : ١٩١
هانبيال : ١٠٨ ، ٣٤٥
الهلذيل : ٢٢١
هرقل : ٨٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ١٩٣ ، ١٩٧
٢٣١ ، ٢٣٣ ، ٢٤٣ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩
٢٥٨ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٦ ،

٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٣
٣٣٨
هرمز جاذويه : ٢٧٧ ، ٢٧٨
هرمز (عظيم الفرس) : ٢٠٠ ، ٢٠٤ -
٢٠٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤٥ ، ٢٥٢
هشام بن حكيم : ٢٩١
هشام بن الوليد : ٣٣٢
هند (ابنة عتبة بن ربيعة) : ٢٦٣

(و)

الواقدي (محمد بن عمر) : ٢٣٠ ، ٢٤٠ ،
٢٤٤ ، ٢٦٥ ، ٢٧١
وبر بن يحيى : ٧٨
وحشى الحبشى (مولى جبير بن مطعم) : ١٥٢
وكيع بن مالك : ١٣٠ ، ١٣٢
الوليد بن عقبة : ٢٢٢ ، ٢٤٤ ، ٢٤٦
وليم ميور : ٢٥ ، ٢٨٥ ، ٢٩٩

(ي)

يزدجرد : ١٨٦ ، ١٨٧
يزيد بن أبي سفيان : ٢٤١ ، ٢٤٦ - ٢٤٩ ،
٢٥٦ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٥ - ٢٦٧
٢٧٠ ، ٢٧٤
اليحقوي (أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر) :
٦٣ ، ٧٣ ، ٧٥ ، ٨٠ ، ١٣٥
يوسف (عليه السلام) : ٤٦
يوليوس قيصر : ١٠٨ ، ٣٤٥
يونس (النحوى) : ١٣٦

فهرس الأمم والقبائل

٣٠٨ ، ٣١١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٤ ، ٣٢٦

٣٢٧

أهل أبي بكر : ٣٢٧

أهل الأيلة : ٢٠٤

أهل آليس : ٢١٨

أهل أوربا : ٣٤٩

أهل البحرين : ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٨٢ ،

٢٤٧

أهل بدر : ١٤٣ ، ٢٣٣ ، ٢٤٧ ،

٢٦١ ، ٢٥٠

أهل البزاةة : ١٢١

أهل البصرة : ٢٩٥

أهل البيت : ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ٨٩ ،

١٤٥

أهل تلمر : ٢٥٦ ، ٢٦٩

أهل الحجاز : ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٤ ، ١٩٧ ،

١٩٨

أهل حضرموت : ١٧٣ ، ١٨٢

أهل الحيرة : ١٨٨ ، ٢١٥ - ٢١٧ ، ٢٢٠ ،

٢٢٦

أهل دمشق : ٢٧٠ ، ٢٧١

أهل دومة : ٢٢٤

أهل ذى القصة : ٩٨

أهل الرينة : ١٠١

أهل الردة : ١٤٣ ، ١٤٤

أهل السقيفة : ٥٧

أهل الشام : ١٧٩ ، ١٨٤ ، ٢٤٣ ، ٢١٤

٣١٥

أهل شبه الجزيرة = العرب

(١)

آل عبد مناف : ٦٦

آل المنذر بن ساوى العبدى : ١٦٢

الأبناء (طائفة فارس اليمن) : ١٦١ ، ١٦٢ ،

١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٩ - ١٧١

الأرثوذكس : ٢٤٣

الأزد : ٥٣ ، ١٦٦ ، ١٧٩ ، ١٨٢ ،

١٨٤ ، ٢٣٩

أسد = بنو أسد

أسلم : ٧٢

أشجع : ٧٢

الأشعريون : ١٦٨

الأشوريون : ١٧٩ ، ١٩٨

أصحاب أحد : ٨٨

الأعاجم = القريس

الأعراب = العرب

الإكليروس : ٣٤٩

الأمويون = بنو أمية

الأنصار : ١٦ ، ١٨ ، ٣٨ ، ٣٩ ،

٥١ ، ٥٢ ، ٥٥ - ٦٥ ، ٦٨ ، ٦٩ ،

٧١ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٨٧ - ٨٩ ،

٩٢ ، ٩٣ ، ١٠٢ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ،

١٠٨ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١٢٠ ،

١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٤٣ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ،

١٥٢ ، ١٥٥ ، ٢٠٤ ، ٢٣٣ ، ٢٣١ ،

٢٤٠ ، ٢٤٧ ، ٢٥١ ، ٢٦٦ ، ٢٨١ ،

٢٨٦ ، ٢٩٨ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ،

١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١١٣ ، ١١٥
 ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢١ ، ١٣٢ ،
 ١٥٣ ، ١٥٩ ، ٢٦٦
 بنو الأصفر = الروم : ٢٣٤ ، ٢٣٩ ،
 ٢٤٤
 بنو أمية : ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٣٠١ ،
 ٣١١ ، ٣١٨
 بنو بجرية : ٢٣١
 بنو بكر : ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٥ ، ١١٣ ،
 ١٦١ ، ٢٣١
 بنو بكر بن وائل : ١٩١ ، ١٩٦ ، ٢٠٩ ،
 ٢١١ ، ٢١٥
 بنو تغلب : ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٨٢ ،
 ١٩٧ ، ٢٢١ ، ٢٢٦ - ٢٢٨ ، ٢٣١
 بنو تميم : ٧٢ ، ١٠٠ ، ١٠٥ ، ١٢٧ ،
 ١٢٩ - ١٣٢ ، ١٣٥ ، ١٤٤ ،
 ١٤٧ ، ١٥٣ ، ١٥٩ ، ١٩٧
 بنو ثعلبة : ١٠٢
 بنو جفنة : ١٨٥
 بنو الحارث : ٣٨
 بنو حمير : ١٠٦ ، ١٦٦ ، ١٧٠ ، ١٧١ ،
 ٣٠٦
 بنو حنظلة : ١٢٧
 بنو حنيفة : ٧٥ ، ٧٦ ، ٨٢ ، ٩٥
 ١٠٥ ، ١٣١ ، ١٤٠ ، ١٤٣ -
 ١٤٥ ، ١٤٧ - ١٥٥ ، ١٦٢ ، ١٨٢
 ٢٨١
 بنو خزاعة : ٧٢
 بنو خولان : ١٧٠
 بنو ذبيان : ٧٢ ، ٩٥ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٠ -
 ١٠٢ ، ١٠٥ ، ١١٣ ، ١١٥ ، ١١٦
 بنو ربيعة : ١٢٨ ، ١٤٦ ، ١٦١ ، ٢٠٤ ،
 ٢٣٤

أهل الطائف : ٧٣ ، ٢٦٦
 أهل العراق : ١٧٩ ، ٢٢٦ ، ٢٩٦ ،
 ٣١٤ ، ٣١٥
 أهل عمان : ١٤٤ ، ١٨٢ ، ٢٤٧
 أهل عين التمر : ٢٢١
 أهل فلسطين : ٢٣٣ ، ٢٦٧
 أهل الكوفة : ٢٩٥
 أهل المدينة : ١٤ ، ٣٦ ، ٥١ ، ٥٢ ،
 ٥٩ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٩٣ ،
 ٩٥ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٦ ، ١٨١ ،
 ١٩٣ ، ٢٠٧ ، ٢٤٤ ، ٢٦٦ ، ٢٧١ ،
 ٢٨١ - ٣٠٨ ، ٣١٧
 أهل مكة : ١٦ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٣ ،
 ٣٥ ، ٣٩ ، ٥١ ، ٧١ - ٧٣ ،
 ٨٤ ، ٩٨ ، ١٨١ ، ١٩٣ ، ٢٤٠ ، ٢٤٦ ،
 ٢٥٠ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ،
 ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣١١ ، ٣٣١
 أهل مهرة : ١٤٤ ، ١٦٧
 أهل نجران : ٧٧
 أهل النجير : ١٧٥
 أهل يثرب = أهل المدينة
 أهل الجلمة : ٨٢ ، ١٣٠ ، ١٤٥ ، ١٤٩ ،
 ٢٨٢ ، ٢٩٣
 أهل اليمن : ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٧ - ٧٨ ،
 ٨٤ ، ١٤٤ ، ١٦٢ ، ١٧٢ ، ١٨٢ ،
 ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٦٦ ،
 الأوس : ٣٩ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٧ ، ٦٠
 زياد : ١٢٨ ، ١٩٧ ، ٢٢١ ، ٢٢٨ ،
 ٢٣١
 (ب)
 بلى : ٧٢
 بنو أسد : ٧٢ ، ٧٥ ، ٨٣ ، ٨٥ ، ٩٥

٢٣١

بنوهاشم : ٣٢ ، ٦٣ - ٦٩

بنو يربوع : ١٢٧ - ١٢٩ ، ١٣٣

بهراء : ٢٢٣ ، ٢٤٢ ، ٢٥٦

(ت)

تنوخ : ١٨٢ ، ٢٤٢

تيم بن مرة بن كعب : ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٤٥

(ث)

ثقيف : ٤٤ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٨٤ ، ٩٥

٩٦

(ج)

جديلة : ١١٧

جذام : ١٨٤ ، ٢٤٢

جهينة : ٧٢

(ح)

حميرالين : ١٦٦ ، ١٦٩ ، ١٧٢ ، ١٨٢

٣٠٦

(خ)

الخزرج : ٣٨ ، ٣٩ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٥٤

٥٧ ، ٥٩ ، ٦٠

(د)

دارم : ١٢٧

(ر)

الرافضة : ٢٩٩

رافضة الروم : ٢٦٤

بنو زبيد : ١٧١

بنو سليم : ١٠٦ ، ١١٣ ، ١٢١ ، ١٢٣

١٢٤ ، ٢٣٦ ، ٣٠٦

بنو السمينع : ١٨٣ ، ١٨٥

بنو شيبان : ١٢٨ ، ١٩٧

بنو عامر : ١٢١ - ١٢٣ ، ١٢٧ ، ١٤٧

بنو العباس : ٦٦ ، ٦٧ ، ٣١١ ، ٣١٨

بنو عبد الدار : ٢٧

بنو عبد القيس : ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٦

بنو عبد مناف : ٢٧ ، ٢٤١

بنو عجل : ٢١٣

بنو عدوان : ٢٣١

بنو عدرة : ٢٣١

بنو عقيل بن ربيعة : ١٧١

بنو عك بن عدنان : ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧١

بنو عمرو بن معاوية : ١٧٤ ، ١٧٦

بنو العنبر : ١٢٧

بنو غسان : ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٥

١٨٧ - ١٩٢ ، ٢٢٣ ، ٢٣١ ، ٢٤٢

٢٥٦ ، ٢٤٢

بنو فزارة : ٧٢ ، ٩٧ ، ١١٣ ، ١١٧ ، ١١٩

١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٤

بنو قريظة : ١١٧

بنو قيس بن ثعلبة : ١٠٦ ، ١٦٢

بنو قينقاع : ٤٣

بنو كلب : ١١٩ ، ١٢٣ ، ١٨٢ ، ٢٢٣

٢٢٤ ، ٢٤٢ ، ٢٥٥

بنو كنانة : ٧٢ ، ٩٧ ، ١٣٤

بنو مالك : ١٢٧

بنو مخزوم : ٢٧ ، ٣٤٥

بنو مشجعة : ٢٦٩

بنو المنذر : ١٩٠

بنو نصر : ١٨٥ ، ١٨٦

بنو النمر : ١٢٨ ، ١٩٧ ، ٢٢١ ، ٢٢٨

ربيعه = بنوربيعة

الروم : ١٢ ، ١٩ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٤٠
 ، ٤٥ ، ٤٩ ، ٧٣ ، ٧٥ ، ٧٦ ،
 ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٢ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤
 ٩٦ ، ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٦
 ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٦
 ٢٠١ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠
 ٢٣٦ ، ٢٣٩ ، ٢٤١ ، ٢٥٥ ، ٢٥٧ -
 ٢٦٤ ، ٢٦٧ - ٢٧٠ ، ٢٧٢ ،
 ٢٧٣ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٨ ، ٣٢٢
 ٣٢٣ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ،
 ٣٤٠ ، ٣٤٢ ، ٣٤٥

(س)

السكاسك : ١٧٣

السكون : ١٧٣ ، ١٧٤

(ط)

الطائيون : ١١٨ ، ٢١٤ ، ٢١٥
 طي : ١٠٠ ، ١١٣ ، ١١٥ ، ١١٦ ،
 ١١٧ ، ١١٨ ، ١٢١ ، ١٢٤ ، ٢٣٩
 ٢٦٦

(ع)

عاملة : ١٨٤

العباسيون = بنو العباس

عيس : ٧٢ ، ٩٥ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٠ - ١٠٢

١٠٥ ، ١١٣ ، ١١٥ ، ١١٦

العجم = الفرس

العرب : ١٠ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٧ ، ١٩

٢٠ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٤٥ - ٤٧

٥٠ ، ٥٢ ، ٥٦ ، ٥٨ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٥

٦٨ - ٧٦ ، ٧٩ ، ٨٥ - ٨٧ ، ٨٩

٩٢ - ٩٥ ، ٩٩ ، ١٠٢ ، ١٠٩

١١٥ ، ١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٢٦ ، ١٢٧

١٣٠ ، ١٣٥ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٧

١٥٦ ، ١٦٠ ، ١٦٣ ، ١٧١ ، ١٧٣

١٧٤ ، ١٧٧ ، ١٧٩ - ١٨٠ ، ١٨٣

١٨٤ ، ١٨٨ - ١٩٥ ، ١٩٧ - ١٩٩

٢٠٣ ، ٢٠٥ ، ٢٠٧ ، ٢٠٩ - ٢١٢

٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢٢١ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨

٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦

٢٣٨ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩

٢٥٤ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦١ ، ٢٦٧

٢٦٨ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٧

٢٧٧ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣١٢ ، ٣٢٢

٣١٤ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣٢١ ، ٣٢٢

٣٣١ ، ٣٣٧ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤

عرب الحيرة : ١٨٨

عرب سوريا : ١٩٠

عرب الشام : ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٨

١٩١ ، ١٩٢ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٤٣

عرب العراق : ١٨٥ ، ١٨٨ ، ١٩٠ ،

١٩٢ ، ١٩٩ ، ٢١١ ، ٢٢١ ، ٢٣٠

عرب مآب : ٢٤٨

عرب اليمن : ١٦٩

(غ)

النسائيون = بنو غسان

غطفان : ٧٢ ، ٩٥ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٢

١١٣ ، ١١٥ ، ١٢١ ، ١٢٤ ، ١٣٢

٣٠٦

غفار : ٧٢

الغوث : ١١٧

(ف)

الفراعنة : ٣٣٥

الفرس : ١٢ ، ١٩ ، ٢٥ ، ٤٠ ،

٤٥ ، ٦٧ ، ٧٣ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧

٧٨ ، ٧٩ ، ٨١ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٦

(ل)

اللاتين = الروم

لحم : ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٩٢ ، ١٩١ ، ١٨٩ ، ١٩٧ ، ٢٠٠ ، ٢١٤ ، ٢٣١ ، ٢٤٢

(م)

المجوس = الفرس

مذبح : ٧٧ ، ٧٨ ، ٢٣٩ ، ٢٦٦

مزينة : ٧٢ : ٣٠٦

المستشرقون : ١٣ ، ٢٢ ، ٢٥ ، ٣٣ ، ٧٧ ، ٨٥ ، ٩٣ ، ١٦٣ ، ٢٨٥

٢٩٩

المصريون : ٣٠٣

مصر : ١٥ ، ١٤٦ ، ٢٠٤ ، ٢٣٤

٢٨٤ ، ٢٩٠ ، ٣٠٦

المهاجرون : ١٦ ، ١٨ ، ٣٤ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٤٦ ، ٥١ ، ٥٩ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٤ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ١٠٢ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١٢٠ ، ١٣٣ ، ١٤٣ ، ١٤٨ ، ١٥٥ ، ٢٠٤ ، ٢٣٣ ، ٢٤٠ ، ٢٤٧ ، ٢٥١ ، ٢٦٦ ، ٢٨١ ، ٢٩٨ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٢٢ ، ٣١١ ، ٣٠٨ ، ٣٢٤

(ن)

النخع : ١٧٢

النصارى : ٤٥ ، ٨٩ ، ٩٤ ، ١٢٨ ، ١٧٢ ، ١٩٣ ، ١٩٦ ، ٢١١ ، ٢٣١ ، ٢٩٥

نصارى العرب : ٢١١

٩٣ ، ١٢٨ ، ١٦٠ ، ١٦٥ ، ١٦٩

١٧٣ ، ١٨٠ ، ١٨٣ ، ١٨٧ - ١٩٣

١٩٦ ، ١٩٩ ، ٢٠١ ، ٢٠٣ - ٢٠٨

٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١٢ ، ٢١٤ ، ٢١٥

٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢١ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣١ - ٢٣٣

٢٣٨ ، ٢٤٢ - ٢٤٤ ، ٢٤٧ - ٢٤٨

٢٤٩ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٨ ، ٢٦١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٧ - ٢٧٩ ، ٣٠٦

٣١٢ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٨ ، ٣٢٢ ، ٣٣٥ ، ٣٣٨ ، ٣٣٧

فرس العراق : ٢٣٠

الفينيقيون : ١٧٩ ، ٣٣٥

(ق)

قريش : ١٢ ، ١٣ ، ١٦ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٢ ، ٣٣ - ٣٦ ، ٤٢ - ٤٤ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٢ ، ٦٨ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٨٢ ، ٩٥ ، ١٠٨ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١٢٦ ، ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٤٤ ، ١٤٧ ، ١٨٨ ، ٢٨٦ ، ٣٠٦ ، ٣٤٥

قضاة : ٩٢ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٤٦ ، ١٨٢ ، ٢٤٤ ، ٢٥٦

القوط : ١٨٩

قيس : ١١٨ ، ١٢١

(ك)

الكاثوليك : ٢٤٣

كندة : ١٠٦ ، ١٥٩ - ١٦١ ، ١٦٧ ، ١٧٣ - ١٧٥ ، ١٧٧ ، ٢٤٠ ، ٢٤٤ ، ٢٤١

كهلان اليمنى : ١٨٢

(٤)

اليهود : ١٢ ، ٣٩ ، ٤٣ - ٤٥ ، ٥٣ ،

٥٤ ، ٧٣ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ٩٢ ، ٩٣ ،

٩٤ ، ١٢٨ ، ١٩٣ ، ٢٣١ ، ٢٩٥ ،

٣٢٢

اليمنيون = أهل اليمن

اليونان : ١٨٨ ، ٢٢٥ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧ ،

(٥)

ممدان : ١٦٨

الهند : ٢٠٥

هوازن : ١٠٦ ، ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ،

هذيل : ٢٢٦

فهرس الأماكن

إنجلترا : ٢٥
الأندلس : ٢٢٢ ، ٩
الأنسر : ١١٧
إنطاكية : ٢٦٧
أور : ١٩٨
أوربا : ٣٠٤ ، ٣٠٣ ، ١٠ ، ٩
٣٤٩ ، ٣٣٧ ، ٣٣٥ ، ٣٠٩
أوربا الوسطى : ٣٠٩ ، ٣٠٣
إيران : ٣٣٥ ، ٣٠٣
إيطاليا : ٢٥
إيوان كسرى : ٢٥٣

(ب)

با توماء : ٢٧٠
باب الجابية : ٢٧١ ، ٢٧٠
باب الفرديس : ٢٧٠
بابل : ٢٧٨ ، ١٩٨
بادية السماوة : ٢٢٣ ، ١٧٩
بانقيا : ٢١٩
البحر الأحمر : ١٥٩
بحر الروم (البحر الأبيض المتوسط) : ٣٣٥
البحر الميت : ٢٥٠ ، ٢٤٣
البحرين : ١٤٧ ، ١٠٦ ، ٧٧ ، ٧٤
١٥٩ - ١٨٤ ، ١٨٢ ، ١٦٦
٢٨١ ، ٢٠٠ ، ١٩٩ ، ١٩٧ ، ١٩٦
بحيرة طبرية : ٢٤٥
بلد : ١٤٣ ، ١٠٨ ، ١٠٢ ، ٤٣ ، ٤٢
٢٤٧
برج بابل : ١٩٨

(١)

آبل : ٩٢ ، ٩١
أسبانيا : ٣٣٧
آسيا : ٣٣٧ ، ٣٣٥ ، ٢٠١ ، ١٠٤٩
الأبرق : ١٠٥ ، ١٠١ ، ٩٧
الأبله : ٣١١ ، ٢٠٦ ، ٢٠٤
أبين : ١٧٢
أثينا : ٣٠٩
أجأ : ١١٦
أجنادين : ٢٧٣ ، ٢٧٠ ، ٢٦٩ ، ٢٦٥
أحد : ٢٦٣ ، ٢٤٧ ، ٨٨ ، ٤٣
الأحساء : ٧٧
أذربيجان : ٢٩٤
أذرعان : ٢٥٦
الأردن : ٢٦٠ ، ٢٤٨ ، ٢٤٤ ، ٢٦٤
أرض المعاد : ٢٤٩
أرمينية : ٢٩٤ ، ١٨٥
أشور : ٣٤٣ ، ٣٣٧ ، ٣٠٣
الأعلااب : ١٦٩
أفريقية : ٣٣٧ ، ٣١٦ ، ١٠ ، ٩ ، ٣٣٨
ألمانيا : ٢٥
أليس : ٢١١
٢٣٩ ، ٢١٥ -
أم القرى = مكة
أمريكا : ٣٥٠ ، ٣١٢
أفغيشيا : ٢١٥ ، ٢١٣ ، ٢١٢
الأنبار : ٢٢٤ - ٢٢١ ، ٢٢٠ ، ١٨٣
٢٦٨ ، ٢٤٢ ، ٢٣٠

بيت أبي موسى الأشعري : ٢٩٥
 بيت بني هاشم : ٦٧
 البيت الحرام = المسجد الحرام
 بيت عائشة : ٤٦ - ٤٩ ، ٥٤ ، ٦٢ ،
 ٣٣٠ ، ٣٣٢
 البيت العتيق = المسجد الحرام
 بيت علي : ٦٤
 بيت فاطمة : ٣٢٦
 بيت المقدس : ٣٣ ، ٨٢ ، ١٩٣
 بئر معونة : ٢٩٣
 بيعة حصن عين التمر : ٢٢٢
 بين النهرين : ٢٣١

(ت)

تبوك : ٨٢ ، ٨٧ ، ١٧٤ ، ٢٢٣
 ٢٤٨
 تدمر : ١٩٢ ، ٢٦٩
 التركستان : ٣٣٧
 تهامة : ١٦٨
 تهامة اليمن : ١٠٦
 تونس : ١٠
 تيماء : ٤٤ ، ٨٧ ، ٩٣ ، ٢٣٣
 ٢٣٥ ، ٢٤١ - ٢٤٣

(ث)

ثغر كاظمة : ٢٠٤
 ثنية العقاب : ٢٦٩
 ثنية الوداع : ٢٦٦
 ثنية الإمامة : ١٤٧

(ج)

الجابية : ١٩٢ ، ٢٤٨ ، ٢٦٧ ، ٢٧٢
 جبال حوران : ٢٥٠
 جبل خولان : ١٧٠

البرازخة : ١٠٥ ، ١١٣ ، ١١٥ - ١١٨ ،
 ١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٢٦ ، ١٣٢ ، ١٣٣
 بزنطية = القسطنطينية
 بسما : ٢١٩
 البصرة : ٢٠٦ ، ٢٢٢
 بصرى : ٢٤٨ ، ٢٥٥ ، ٢٥٧ ، ٢٧٠
 البطاح : ١٠٥ ، ١٢٦ ، ١٣٢ ، ١٣٣
 ١٤٠ - ١٤٣
 بغداد : ١٩١
 بلاد الحجاز = الحجاز
 بلاد الروم = الروم
 بلاد الشام = الشام

بلاد العرب : ١٢ ، ١٤ ، ٢٣ ، ٢٨ ،
 ٤٥ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٦٨ ، ٧١
 ٧٣ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٢ ، ٨٣
 ٨٥ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ١٠١
 ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١١٠ ، ١١٣ ،
 ١١٩ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ،
 ١٣٩ ، ١٤١ ، ١٤٣ ، ١٤٦ ، ١٤٧
 ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ،
 ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٨
 ١٧٣ ، ١٧٥ ، ١٧٧ - ١٧٩ ،
 ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٥ ، ١٨٦
 ١٩٠ ، ١٩٢ - ١٩٧ ، ٢٠٥ -
 ٢٠٨ ، ٢١١ ، ٢١٤ ، ٢١٨ ، ٢١٩
 ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٩ ، ٢٣١ - ٢٣٣
 ٢٣٦ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤١ ، ٢٤٤
 ٢٤٧ ، ٢٥٤ ، ٢٦٦ ، ٢٨١ ،
 ٢٩٣ ، ٣٠١ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ،
 ٣٠٨ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٥ - ٣١٧
 ٣٢٢ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٤١ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤

بلاد فارس = فارس

بلاد الفرس = فارس

بلاد قضاة : ٩١

بلاد مذحج : ٧٧

البلقاء : ٨٨ ، ٩٢ ، ٩٤ ، ٢٤٨ ، ٢٦٠

الحفير : ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٨ - ٢١١ ،
٢١٤
حمراء الأسد : ١٦
حمص : ٢٤٦ ، ٢٤٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦٤ ،
٢٦٧ ، ٢٧٠
حنين : ١٦ ، ٥١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٨٨ ،
١٢٧ ، ٢٤٧ ، ٣٠٦
حوارين : ٢٥٦ ، ٢٦٩
الحيرة : ٤٥ ، ١٨٠ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ،
١٨٦ ، ١٨٨ ، ١٩٠ ، ١٩٢ ، ٢٠٠ ،
٢٠٣ ، ٢٠٩ ، ٢١١ ، ٢١٢ ،
٢١٤ - ٢٢٥ ، ٢٢٢ ، ٢٣٠ ،
٢٣٢ ، ٢٣٥ ، ٢٤٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ،
٢٥٣ ، ٢٦٨ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨

(خ)

خليج عدن : ١٤٧ ، ١٥٩ ، ١٨٥ ،
١٩٧
خليج العقبة : ١٧٩
خليج فارس : ٨١ ، ١٢٧ ، ١٥٩ ،
١٦١ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٧٩ ، ١٨٢ ،
١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٠٤ ،
٢٠٩ ، ٢١٩
الخنافس : ٢٢٦
خنلق سابور : ١٨٦
الخورنق : ١٨٦ ، ٢١٥ ، ٢١٦
خير : ٤٤ ، ٦٧ ، ٩٣ ، ١١٦

(د)

دائن : ٢٤٨
دار أبي أيوب الأنصاري : ٣٩
دار أبي بكر : ٣٦ ، ٥٦ ، ١٠٧ ، ٢٣٦ ،
٣١٧
دارخارجة بن زيد : ٣٩

الجرف : ٤٦ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ١٠١ ، ٢٤٦ ،
الجزائر : ١٠
جزيرة ما بين النهرين = جزيرة العراق .
جزيرة دارين : ١٦٤
جزيرة العراق : ٢٠٩ ، ٢١٤ ، ٢٧٧
جزيرة العرب = بلاد العرب
الجسر الأعظم : ٢٠٨ ، ٢٠٩
جلق : ١٩٢
جواثي : ١٦٢
الجوف : ١٧٩
جولان : ١٩٢

(ح)

حبرون : ٢٤٨
الحبشة : ٣٤ ، ٣٦ ، ٧٣ ، ٢٨٦
الحجاز : ٧٦ - ١٣٧ ، ١٤٨ ، ١٦٠ ،
١٧١ ، ١٧٩ - ١٨٢ ، ٢٦٨ ، ٢٩٥ ،
٣٠٦
الحجر : ٣٢ ، ٢٦٧
الحديبية : ٤٤
حديقة الرحمن = حديقة الموت
حديقة الموت : ١٥١ - ١٥٣ ، ١٥٥ ،
٢٨١
حراء : ٣٠
حصن دومة : ٢٢٤
حصن عين التمر : ٢٢١
حصن المرأة : ٢٠٦
حصن النجير : ١٧٥
حصن اليمامة : ١٥٣
الخصيد : ٢٢٦
حضر موت : ٧٤ ، ٧٧ ، ٨٣ ، ١٠٦ ،
١٤٤ ، ١٤٧ ، ١٥٩ - ١٦١ ،
١٦٧ ، ١٧٣ - ١٧٥ ، ١٧٧ ، ١٨٢ ،
١٨٥ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٤

٣١٧ ، ٣٣٨ ، ٣٤٠ ، ٣٤١

٣٤٣ - ٣٤٥

رومية : ٣٤٣

(س)

الساحل : ١٦٩ ، ١٧٥

سد مأرب : ١٧٩ ، ١٨١ ، ١٨٢

السدير : ١٨٦

سقيفة بني ساعدة : ٥٤٤٥٢ - ٥٦ ، ٦٠ -

٦٣ ، ٦٩ ، ٨٧ ، ١٠٦ ، ٣٠٨ ،

٣١١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٧

سميراء : ١١٣ ، ١١٥

السنح : ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٩ ، ١٠٧ ، ١١٦

٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٣١٧

السند : ٢٠٤

السودان : ٣٤٥

سورية : ١٠ ، ٢٧٦

سوى : ٢٥٦ ، ٢٦٩

(ش)

الشام : ١٢ ، ١٥ ، ١٧ ، ٢٢ ، ٢٣

٢٩ ، ٣٣ ، ٤٦ ، ٧٣ ، ٩٤ ، ١٠٦

١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٤ ، ١١٩ ، ١٢٣

١٣٨ ، ١٥٦ ، ١٧٧ ، ١٧٩ - ١٩٣

١٩٨ ، ٢٠١ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥

٢٢٧ ، ٢٣٠ - ٢٣٩ ، ٢٤٨

٢٥١ ، ٢٥٤ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ -

٢٥٩ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٤ - ٢٦٩

٢٧١ - ٢٧٤ ، ٢٧٧ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠

٢٩٥ ، ٣٠١ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣١٢

٣١٥ - ٣١٧ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٧

٣٣٥ ، ٣٤١ ، ٣٤٤ - ٣٤٦

شبه الجزيرة = بلاد العرب

الشجرة (شجرة الرضوان) : ١٦

دارسعد بن عباد : ٥٢

دارفاطمة بنت الرسول : ٦٣

دارالندوة : ٢٧ ، ٣٦

الداروم : ٨٨ ، ٩٢

دارين : ١٦٤ ، ١٦٥

دبا : ١٦٦ ، ١٦٧

دجلة : ١٩١ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ،

٢٠٨ ، ٢١٩ ، ٢٣٣ ، ٢٧٨ ، ٢٨١

٣٣٥ ، ٣٤٥

دستجرد : ١٩٧

دمشق : ٢٣ ، ١٩٢ ، ٢١٧ ، ٢٤٥ ،

٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٦ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥

٢٦٧ ، ٢٦٩ - ٢٧٤ ، ٣٢١

الدهناء : ١٦٠ ، ١٦٢ ، ١٦٤

دومة (دومة عين اثمر) : ٢٢٤

دومة الجندل : ٩٤ ، ١٥٩ ، ١٧٩ ،

٢٠٠ ، ٢٠٣ ، ٢١٩ ، ٢٢٢ - ٢٢٧

٢٢٩ ، ٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ٢٤٠ ، ٢٥٥

٣٢٤

دير خالد : ٢٦٩ ، ٢٧٠

(ذ)

ذات الصنمين : ٢٦٩

ذوحسا : ٩٧ ، ٩٨

ذوقار : ١٩١ ، ٢١٥

ذوالقصة : ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٠ ، ١٠١ ،

١٠٥ ، ١١٥ ، ٣٢٧

ذوالمرورة : ٢٤٥ ، ٢٧٢

(ر)

الربذة : ٩٧ ، ١٠١ ، ١٠٥

الربع الخالي : ١٦٠

رواق نذارق : ٢٦٤

روسيا : ٣٣٧

الروم : ١٠٠ - ١٠٢ ، ١٠٩ ، ١١٦ ،

٢٨٠ ، ٢٧٩ ، ٢٧٧ ، ٢٧٦ ، ٢٧٤
 ، ٣٠٨ ، ٣٠١ ، ٢٩٥ ، ٢٨١
 ٣٢٢ ، ٣٢١ ، ٣١٨ - ٣١٥ ، ٣١٢
 ٣٤٦ ، ٣٤٥ ، ٣٤١ ، ٣٢٩ ، ٣٢٧

العراق العربي : ٢٣٣ ، ٢٣١

العربيات : ٢٥٦

العربة : ٢٦٠ ، ٢٤٨

عرق الذهب : ٢٣٦

عقرباء : ١٩٩ ، ١٦١ ، ١٤٧ ، ١٠٥

المقيق : ٢١٥

عمان : ١٢٢ ، ١٠٦ ، ٨٣ ، ٧٢

١٤٧ ، ١٥٧ ، ١٥٩ - ١٦١ ،

١٨٢ ، ١٦٦ ، ١٦٥

عين التمر : ٢٢٠ - ٢٢٤ ، ٢٣٠ ، ٢٤٢

٢٦٨ ، ٢٥٧ ، ٢٥٤

(غ)

غارثور : ٣٦ - ٣٨ ، ٦٠ ، ٦٢

الغور (غور فلسطين) : ٢٤٨ ، ٢٥٦

غور الأردن : ٢٥٠

غوطة دمشق : ٢٦٩ ، ٢٧٠

الغوير : ٢٦٩

(ف)

فارس : ١٢ ، ٤٥ ، ٦٧ ، ٧٦ ، ٧٨ ،

٨٣ ، ١٠٩ ، ١٢٧ ، ١٤٧ ، ١٦٠ -

١٦٢ ، ١٦٥ ، ١٨٢ ، ١٨٤ - ١٨٧

١٨٩ - ١٩١ ، ١٩٣ ، ١٩٦ ،

٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٩ ، ٢١٠

٢١١ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ،

٢٢٢ ، ٢٢٧ ، ٢٣٠ ، ٢٣٣ ، ٢٣٥

٢٣٦ ، ٢٤٧ - ٢٤٩ ، ٢٥٢ ، ٢٧٧

٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٣٠٦ ، ٣١٦ -

(ص)

صحار : ١٦٦

صحراء النفود = بادية السماوة

الصفاء : ٥٢

صنعاء : ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ١٦٧ -

١٧٧ ، ١٧٥

الصين : ٩ ، ٣٣٧ .

صبيد : ١٧٥

(ط)

الطائف : ٣٥ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٥١ ، ٧١ -

٧٣ ، ٧٥ ، ٧٧ ، ٧٩ ، ٨٣ ،

٨٤ ، ٨٥ ، ٩٦ ، ١٠٢ ، ١٤٧ ،

١٥٩ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧٢ ، ٢٣٥

٢٤٧ ، ٢٦٦ ، ٣٠٦ ، ٣٢٢

طبرية : ٢٤٨

طرابلس : ١٠

طريق الأخشاب : ١٦٩

(ع)

العالية : ٣٢٨

عدن : ٧٧ ، ٧٩ ، ١٦١ ، ١٧٠ ، ١٧٥

١٧٨

العراق : ١٠ ، ١٥ ، ١٢ ، ١٧ ، ٢٢ ،

٢٣ ، ٦٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٤ ،

١١٩ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٥٦ ، ١٥٩

١٦٥ ، ١٧٧ ، ١٧٩ - ١٩٣ ، ١٩٧

٢٠٧ - ٢١٠ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٧

٢٢١ - ٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢٢٩

٢٣٠ - ٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ٢٣٨ - ٢٤٢

٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٥١ - ٢٥٤ ، ٢٥٦

٢٦٢ ، ٢٦٥ ، ٢٦٨ ، ٢٧٢ -

الكواظم : ٢٠٥

كيسان : ٢٧٠

(ل)

اللوى : ٢٦٩

(م)

مآب : ٢٦٧

مأرب : ١٧٨ ، ١٧٥

المحيط الأطلنطي : ٣٣٧

المداخن : ١٧٩ ، ١٨٤ ، ١٩١ ، ١٩٣

١٩٧ ، ١٩٩ ، ٢١٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٩

٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٣٠ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣

٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٣٢١

المدينة : ٩ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ٢٣

٢٨ ، ٣٢ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ٣٩

٤١ ، ٤٣ - ٤٦ ، ٤٩ ، ٥٢ - ٥٦

٦٨ ، ٦٩ ، ٧١ - ٧٥ ، ٧٧ ، ٧٨

٨١ ، ٨٦ ، ٨٧ - ٩٣ ، ٩٥ ، ١٠٣

١٠٥ - ١٠٩ ، ١١١ ، ١١٣ ، ١١٥

١١٧ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٢٤

١٢٦ - ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٣٣

١٣٦ - ١٣٨ ، ١٤١ ، ١٤٤ ، ١٤٥

١٥٤ - ١٥٦ ، ١٥٩ ، ١٦١ ، ١٦٥

١٦٦ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٢ -

١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٧٨ - ١٩٤ ، ١٩٥

١٩٧ ، ٢٠٠ ، ٢٠٧ ، ٢١٣ ، ٢٢١

٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٣ ، ٢٣٥ -

٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤١ ، ٢٤٣ - ٢٤٧

٢٥١ ، ٢٥٣ ، ٢٥٧ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠

٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٧ ، ٢٧٧

٢٧٩ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٧ ،

٢٩٤ ، ٢٩٨ - ٣٠٠ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧

٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٧ ، ٣٢٢ ، ٣٣٠

٣٣٢

٣٣٥ ، ٣٣٢ ، ٣٣٢ ، ٣٣١ ، ٣١٨

٣٣٦ - ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٤٠ ، ٣٤١

٣٤٣ - ٣٤٥

فسك : ٤٤ ، ٦٧ ، ٨٧ ، ٩٣

الفرات : ١٢٧ ، ١٥٧ ، ١٦١ ، ١٦٥

١٧١ ، ١٨٠ ، ١٨٣ - ١٨٦ ، ١٩٦

١٩٧ - ٢٠٠ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨ ، ٢١١

٢١٢ ، ٢١٤ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٧

٢٣٢ ، ٢٨١ ، ٣٣٥ ، ٣٤٥

الغراض : ٢٢٧ - ٢٣٠

فرنسا : ٢٥ ، ٣١

الفلاليج : ٢١٩

فلسطين : ١٠ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٩٢

٩٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٨ ، ٢٥٦ ، ٢٦٦

٢٦٧

(ق)

قراقر : ٢٥٥ ، ٢٥٧ ، ٢٦٨

قرية الباج : ١٣٠

قس المقاطف : ٢١٨

القسطل : ٢٤٣

للقسطنطينية : ١٢ ، ٤٥ ، ١٨٩ ، ٢٣١

قصر الحورنق = الحورنق

قصر النجف = النجف

قصم : ٢٥٦ ، ٢٦٩

القطين : ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٩٦

قناطر الفرات : ٢١٥

قناة بصرى : ٢٥٦ ، ٢٦٩ ، ٢٧٣

قنسرين : ٢٧٤

(ك)

كاظمة : ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢١٠

الكبة : ٢٧ ، ٢٨ ، ٦٨ ، ٨٨ ، ٢٠٧

كهف خبان : ٧٧

مؤنة : ١٨ ، ٨٢ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٩٢ ،
١٠٨ ، ١٠٩ ، ٢١٨
الموصل : ١٨٥

(ن)

نجد : ٩٧
نجران : ١٤ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ١٦٨ ،
١٧٢ ، ٣١٥
التحف : ٢١٥
النحير : ١٧٦ ، ١٧٥
النعمانية : ١٩١
نهر الأردن : ٢٤٨ ، ٢٥٠
نهر الدم : ٢١٢
نهرشير : ٢١٩
نهر اليرموك : ٢٥٠
نهر بادقلى : ٢١٢
النيل : ٣٤٠
نيثوى : ١٩٧

(هـ)

هجر : ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٩٦
هرمزجيرد : ٢١٩
الهند : ٩ ، ١٦١ ، ٢٠٤ ، ٣٠٣ ، ٣١٥
٢٣٥ ، ٣٣٧

(و)

وادي سرحان : ٢٢٥ ، ٢٤٠ ، ٢٥٥ ،
٢٥٧ ، ٢٧٣
وادي القرى : ١٢٤ ، ٢٦٧
واردات : ١١٥
واقوصه : ٢٤٥ ، ٢٥٠ ، ٢٦٣ ، ٢٧٣
الوير : ١٥٧
الولجة : ٢٠٩ ، ٢١٠

المزار : ٢٠٨ - ٢١٠ ، ٢١٤
مراكش : ١٠٤ ، ٩
مرج راهط : ٢٥٦ ، ٢٦٩
مرج الصقر : ٢٤٥ ، ٢٧١ ، ٢٧٢
المسجد الأقصى : ٣٣

المسجد الحرام : ٣٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٣٤٤ ،
٣٤٨

المسجد (مسجد الرسول) : ٤٦ - ٤٩ ،
٥٤ ، ٦١ ، ٨٨ ، ٩٣ ، ٩٧ ، ١٠١ ،
١٢٧ ، ١٣٧ ، ١٩٤ ، ٢٣٧ ، ٢٨٢ ،
٢٩١ ، ٣٢٥ ، ٣٣٠

مشارف الشام : ١٠٦

مصر : ١٠ ، ٢٥ ، ٤٥ ، ١٨٠ ، ١٨١ ،
١٩٠ ، ١٩٣ ، ٣٠٩ ، ٣٠٣ ، ٣٣٦ ،
٣٣٧ ، ٣٣٩ ، ٣٤٣ ، ٣٤٥

مصل البقيع : ١٢٣

المصيغ : ٢٢٦ ، ٢٢٧

مطبعة مصر : ٣٥٣ ، ٣٥٤

مكة : ٩ ، ١٦ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ،
٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ٤٢ -
٤٥ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٦ ، ٧١ -

٧٣ ، ٧٥ ، ٨١ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ،
٨٨ ، ٩٥ ، ١٠٢ ، ١٠٨ ، ١١٩ ،
١٢٦ ، ١٤٧ ، ١٥٦ ، ١٥٩ ،
١٦٧ ، ١٦٩ ، ١٧٢ ، ١٨٢ ،

١٩٥ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣٥ ، ٢٤١

٢٤٤ ، ٢٤٧ ، ٢٦٦ ، ٢٨٤ ،

٢٨٥ ، ٢٨٧ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ،

٣٠٨ ، ٣٢٢

منازل بني تميم : ١٢٧

منازل هذيل : ٢٢٦

منيشيا : ٢١٢

مهرة : ١٠٦ ، ١٤٧ ، ١٥٧ ، ١٥٩ ،

١٦١ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٧٢

٢٥٣ ، ٢٥٢ ، ٢٤٧ ، ٢٣٨

٢٨٢ ، ٢٨١ ، ٢٦٨ ، ٢٦٠

٢٩٤ ، ٢٩٣ ، ٢٨٣

العين : ١٤ ، ٢٩ ، ١٨ ، ٤٥ ، ٧٤ -

١٠٥ ، ١٠٣ ، ١٠٢ ، ٩٥ ، ٨٦

١٠٩ ، ١٠٧ ، ١٤٧ ، ١٢٨ ، ١١٥ -

١٨٢ ، ١٧٧ - ١٦٧ ، ١٦١

١٩٤ ، ١٩٣ ، ١٨٥ ، ١٨٤

٢٤٠ ، ٢٣٩ ، ٢٣٣ ، ١٩٧

٣٠٦ ، ٢٦٦ ، ٢٤٤ ، ٢٤١

٣٢٢ ، ٣١٢

اليونان : ٢٤٣

(٥)

يُرب = المدينة

اليرموك : ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٥

٢٥٦ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٤

٢٦٥ ، ٢٧٢ - ٢٧٥

اليمامة : ١٣ ، ٧٢ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣

٨٥ ، ١٠٥ ، ١١٥ ، ١٢٦ ، ١٣٠ -

١٣٢ ، ١٣٨ - ١٤٧ ، ١٥٢

١٥٣ ، ١٥٥ - ١٥٧ ، ١٥٩

١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٦ ، ١٩٤

١٩٩ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥ ، ٢٢٨

فهرس الأيام والغزوات والوقائع

غزوة عقرباء : ١٠٥ ، ١٦١ ، ١٩٩

غزوة القادسية : ١٧١

غزوة كاطمة = غزوة ذات السلاسل

غزوة مؤتة : ١٨ ، ٧٨ ، ٨٢ ، ٨٧ ، ٨٨

٢١٨

غزوة اليمامة : ١٤٣ ، ١٤٧ ، ١٥٦

١٥٧ ، ٢٥٣ ، ٢٨١ ، ٢٨٣ ، ٢٩٣

(ف)

فتح الأنبار : ٢٢٢

فتح الخيرة : ٢٣٠

فتح الشام : ٢٢١ ، ٢٤٣

فتح العراق : ٢٣٠

فتح عين التمر : ٢٢٢

فتح مكة : ٤٤ ، ٤٥ ، ٥١ ، ٧٣

(و)

وقعة أليس : ٢١٤ ، ٢٣٩

وقعة أمغيشيا : ٢١٥

وقعة بعث : ٥٣

وقعة الفراض : ٢٢٨ ، ٢٢٩

وقعة المذار : ٢١٤

(ي)

يوم حليمة : ١٩٠

يوم ذي قار : ١٩١

يوم سقيفة بني ساعدة : ٦١ ، ٦٥ ، ٣١١

٣٢٧

يوم اليرموك : ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٧٣-٢٧٥

(ب)

بيعة العقبة الصغرى : ٣٦

بيعة العقبة الكبرى : ٣٦ ، ٥٣ ، ٥٦

(ع)

عام تبوك : ٢٢٣

عام الحجاة : ١٣١

عام الوفود : ١٦٠ ، ١٧٤

عمرة القضاء : ١٠٨

عهد الحديبية : ٤٤ ، ١٠٨

(غ)

غزوة أحد : ١٦ ، ١٠٨ ، ١٥٢ ، ٢٤٧

٢٦٣

غزوة الأحزاب = غزوة الخندق

غزوة بدر : ٤٠ ، ٤٢ ، ٩٨ ، ١٠٢

١٠٨ ، ١٤٣ ، ٢٤٧

غزوة البزاحة : ١١٣

غزوة بني قريظة : ٤٤

غزوة بني النضير : ٤٤

غزوة تبوك : ٨٢ ، ٨٧ ، ١٧٤ ، ٢٤٨

غزوة الحفير : ٢٠٤ ، ٢١٤

غزوة حنين : ١٦ ، ٥١ ، ٧٢ ، ٧٣

٨٨ ، ١٢٧ ، ٢٤٧

غزوة الخندق : ٤٤ ، ١٠٨ ، ١١٧ ، ١٢٠

غزوة ذات السلاسل : ٢٠٦

غزوة ذي قرد : ١١٧

غزوة الطائف : ٤٥ ، ٥١ ، ٧٣

فهرس الموضوعات

صفحة	
٩	تقديم
	أبو بكر والإمبراطورية الإسلامية - سوقفه من ردة العرب وقيامه بغزو العراق والشام - آثار انتصاره في حروب الردة وتمهيد للفتح - مصدر قوة الصديق - اضطراب المراجع لمعهده - الذين أرخوا له في العهد الحديث .
٢٧	الفصل الأول : « أبو بكر في حياة النبي »
	قبيلته وأبواه وصباه - صفاته وأخلاقه - اشتغاله بالتجارة ونجاحه فيها - صلته بمحمد - قبوله الإسلام ودعوته قريشاً له - حمايته ضعفاء المسلمين - دفعه الأذى عن رسول الله - حديث الإسراء والهجرة وموقفه منهما - مواقفه في غزوات الرسول .
٤٩	الفصل الثاني : «بيعة أبي بكر »
	موقف أبي بكر من وفاة النبي - تنافس المهاجرين والأنصار في حياة النبي - سقيفة بني ساعدة والمداورات الخطابية فيها -بيعة السقيفة ثم بيعة العامة - هل تخلف أحد عن البيعة - القول بتخلف علي بن أبي طالب عنها - إنكار هذا القول وحجة الذين أنكروه .
٧١	الفصل الثالث : « العرب حين وفاة النبي »
	تبلبل عقائد العرب واضطرابهم لوفاة النبي - المدينة ومكة والطائف تبقى على إسلامها - انتفاض سائر العرب - العوامل التي أدت إلى الانتفاض والردة - فتنة العنسي باليمن - نجاحها ثم انقلابها على مثيريها - عوامل الفتنة في أنحاء شبه الجزيرة .
٨٧	الفصل الرابع : « بعث أسامة »
	تجهيز رسول الله جيش أسامة - موقف المسلمين من أسامة - سياسة أبي بكر أن يصنع ما كان رسول الله يصنعه - وصية أبي بكر لأسامة - جيش أسامة يغزو البلقاء ثم يعود ظافراً إلى المدينة .
٩٥	الفصل الخامس : « قتال من منعوا الزكاة »
	أبو بكر يشاور أصحابه لقتال من منعوا الزكاة - إصراره على قتالهم وإن خرج لهم وحده - دفاع المسلمين بإمرة أبي بكر عن المدينة وانتصارهم على من منعوا الزكاة - إقبال القبائل على إيتاء الزكاة - انحياز من أصروا على منعها إلى طليحة بن خويلد في بني أسد .

الفصل السادس : « التمهيد لحروب الردة » . . . ١٠٥

توزيع جند المسلمين ألوية لقتال المرتدين-عقري الحرب خالد بن الوليد - كتاب أبي بكر إلى المرتدين .

الفصل السابع : « طليحة وغزوة البزاحة » . . . ١١٣

تنبؤ طليحة بن خويلد الأسدي قبيل وفاة الرسول - عدى بن حاتم يعيد طيئاً إلى الإسلام لتقاتل في صفوف المسلمين -فرار طليحة أمام خالد بن الوليد -عفو أبي بكر عن زعماء الردة - أم زمل والفلول التي اجتمعت إليها ومقتلها .

الفصل الثامن : « سجاح ومالك بن نويرة » . . . ١٢٧

بنو تميم في حياة النبي - سجاح بنت الحارث تنبأ وتنحدر من جزيه العراق لتحارب أبا بكر - موادعتها مالك بن نويرة - قصتها مع مسيلة متنبئ الإمامة - خالد بن الوليد يسير إلى البطاح لقتال بني تميم - قتل مالك بن نويرة وزواجه ليل أم تميم - ثورة عمر بن الخطاب بخالد ومطالبته أبا بكر بعزله - أبو بكر يستدعي خالداً ثم يرده أميراً على الجيش لغزو الإمامة - الخلاف بين أبي بكر وعمر خلافاً على سياسة المسلمين .

الفصل التاسع : « غزوة اليمامة » . . . ١٤٣

مسيلة وتنبؤه واستغلاظ أمره - عكرمة بن أبي جهل وشرجيل بن حسنة لايشبان لحيوش مسيلة - خالد بن الوليد يسير إلى اليمامة - معركة عقرباء - اضطراب النصر بين الفريقين - عقريه خالد في القيادة - فرار مسيلة وأصحابه - مقتل مسيلة - مجاعة بن مرة يعقد الصلح مع خالد - خالد يتزوج بنت مجاعة فيثير غضب أبي بكر .

الفصل العاشر : « بقية حروب الردة » . . . ١٥٩

ثورة الجنوب في البحرين وعمان ومهرة واليمن وكندة وحضرموت - قتال المرتدين في البحرين - قصص الدهناء وجزيرة دارين - الردة في عمان والقضاء عليها - وكذلك في مهرة - اليمن بعد مقتل العنسي وعوامل الثورة فيها - عكرمة بن أبي جهل والمهاجر بن أبي أمية يقضيان على ردة اليمن - قتال المرتدين في كندة وحضرموت .

الفصل الحادى عشر : « التمهيد للفتح والإمبراطورية » . . . ١٧٩

العرب في بادية الشام - مملكة الحيرة ومملكة بني غسان - اتصالحا بالفرس والروم - الملكتان في ذروة المجد - تمهيدهما للفتح العربي والإمبراطورية الإسلامية - تدهور الإمازيين - موقف أبي بكر من فارس والروم - المشي بن حارثة الشيباني يتقدم في العراق - أبو بكر يقره ويمده بخالد بن الوليد لفتح العراق .

صفحة

٢٠٣ الفصل الثاني عشر : « فتح العراق »

سياسة أبي بكر للفتح - غزاة كاظمة وقتل هرمز - غزوة المذار فالولجة - غزوة أليس ونهر الدم - فتح الحيرة واتخاذها مركز قيادة المسلمين - سنة النساء - فتح الأنبار وعين النمر - فتح دومة الجندل - غزوة القراض - حج خالد .

٢٣١ الفصل الثالث عشر : « بين العراق والشام »

موقف العرب والروم على تخوم الشام - تفكير أبي بكر في غزو الشام واستمداده المسلمين له - كتابه إلى خالد بن سعيد بالتقدم في الشام .

٢٤٣ الفصل الرابع عشر : « فتح الشام »

خالد بن سعيد يتقدم في الشام ثم يهزم ويفر - أبو بكر يزاد حماسة للفتح فيبعث الجيوش للشام بإمرة أبي عبيدة بن الجراح ويزيد بن أبي سفيان وعمرو بن العاص - منازل هذه الجيوش بالشام - التقاؤها على اليرموك قبالة جيوش الروم - جمود الموقف شهرين كاملين - أبو بكر يمد جيوشه بالشام بخالد بن الوليد - مسيرة خالد من العراق إلى الشام - غزوة اليرموك عزل خالد عن إمارة الجيش - رواية البلاذري تخالف رواية الطبري - رأينا في الروايتين .

٢٧٧ الفصل الخامس عشر : « المثنى في العراق »

المثنى بعد مسيرة ابن الوليد إلى الشام - دقة موقفه - انتصاره مع ذلك على الفرس - ذهابه إلى المدينة في مرض أبي بكر يستمده بمن عادوا إلى الإسلام بعد ردهم - وصية أبي بكر لعمر في أمر العراق .

٢٨١ الفصل السادس عشر : « جمع القرآن »

عمر بن الخطاب يشير على أبي بكر بعد غزوة اليمامة بجمع القرآن - أبو بكر يتردد ثم يكلف زيد بن ثابت بأن يجمع القرآن - القول في جمع الآيات سوراً في عهد الرسول - الحديث : « أنزل القرآن على سبعة أحرف » والأقوال فيه - موقف عبد الله ابن مسعود من جمع القرآن - طريقة زيد بن ثابت في جمع القرآن - هل رتب رسول الله تعاقب السور .

٣٠٣ الفصل السابع عشر : « حكومة أبي بكر »

لست خليفة الله - تطور بلاد العرب إلى الوحدة السياسية - حكومة أبي بكر حكومة شورى - أساس الإمبراطورية الإسلامية - حكم أبي بكر عربي متأثر بالحرب والفتح .

٣٨٣

صفحة

٣٢١ الفصل الثامن عشر: «مرض أبي بكر ووفاته» .

بده مرضه - استخلافه عمر بن الخطاب - حسابه نفسه - رده ما أخذ من بيت المال - استرداده ما وهب لعائشة - وصيته لكتفنه - وفاته - تأبين على بن أبي طالب وعائشة وعمر بن الخطاب له - أثره في حياة الإسلام .

٣٣٥ خاتمة

التنقل المحتوم للحضارة - فارس والروم ومجدهما ثم تدهورهما - لماذا اختار القدر بلاد العرب لتحل محلها - طفولة الضمير الإنساني - الإسلام والمثل الأعلى - الإسلام والحرب - أثر الإسلام في الضمير الإنساني - العالم الحديث والمثل الأعلى

٣٥٣ تقدير وشكر

٣٥٥ فهرس الكتب

٣٥٥ فهرس الأعلام

٣٦٥ فهرس الأمم والقبائل

٣٧١ فهرس الأماكن

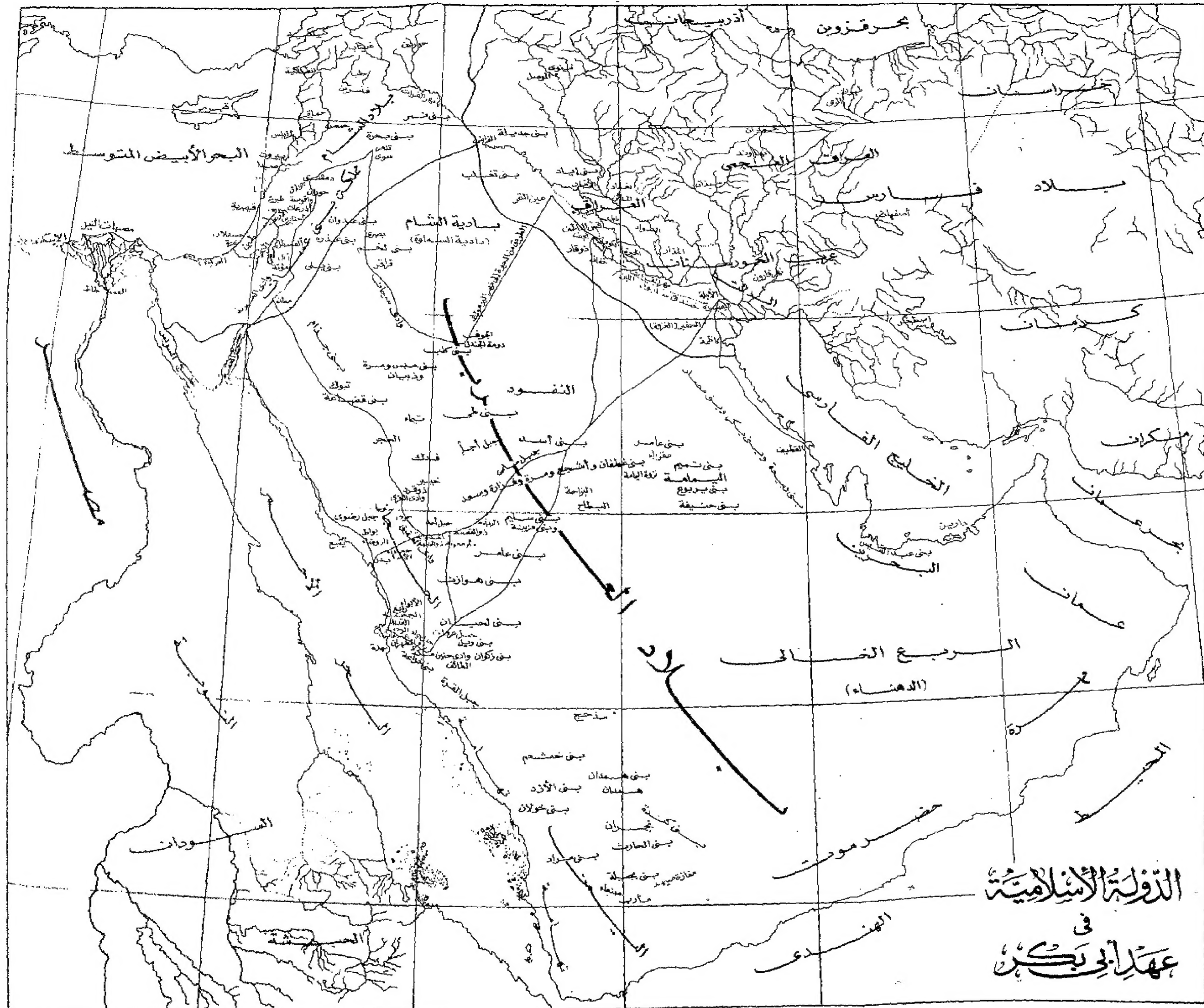
٣٧٩ فهرس الأيام والغزوات والوقائع

٣٨٠ فهرس الموضوعات

١٩٩٠ / ٧٤٢٠	رقم الإبداع
ISBN 977-02-3074-X	الترقيم الدولي

١ / ٩٠ / ١٤٨

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)



As-sidīq
Abū Bakr

Par
Mohammad Hosyn Hikāl



DAR AL-MAAREF